فتحي بوعجيلة

الإباضيّة التّونسيّون وأثرُهم في الثّقافة الوطنيّة

مدخل إلى دراسة الآخر المَحَلّي



مكتبة علاء الدين
صفاقس-تونس 2016

فتحي بوعجيلة

الإباضيّة التونسيّون
وأثَرُهم في الثقافة الوطنيّة

مدخل إلى دراسة الآخَر المحلّيّ

مكتبة علاء الدين

صفاقس - 2016

العنوان: الإباضيّة التّونسيّون وأثرهم في الثّقافة الوطنيّة

المؤلّف: فتحي بوعجيلة

الطّبعة: الأولى 2016

الطّباعة: مطبعة قوبعة، صفاقس

النّاشر: مكتبة علاء الدّين، صفاقس- تونس

الهاتف: 74.400.119 (00216)

البريد الالكتروني: librairiealaeddine@yahoo.fr

الغلاف: الفنّان رؤوف الكرّاي

ر.د.م.ك.: 978-9938-03-042-6

الرّموز

م. : المصدر، وهوالكتاب المعتمد في كل فصل

م.س. : المرجع السابق

ص : صفحة

ص.ن. : الصفحة نفسها

ها : هامش

تر : ترجمة

ت : توفي

س : سنة

ق : قرن

هـ : الهجري

م : الميلادي

ح : حديث

ط. : طبعة

ج : جزء

مج : مجلد

د.ت. : دون تاريخ

(ص) : صلى الله عليه وسلم، ونبقي في الأغلب على العبارة كما هي إذا وردت في النصوص المنقولة

... : اختصار من عندنا، لكنه مِن الأصل المنقول في كثير من نصوص الجادوي

مقدّمة

هل يكفي ما أقرّه منظّرو الهويّة الدينيّة التونسيّة؟

وماهو المركز وماهو الهامش في تراثنا الدينيّ الحضاريّ التونسيّ؟

وهل يجوز ترتيب مُنتَجات الفكر التونسيّ حسب الانتماء المذهبيّ؟

وهل استطاع العامل الوطنيّ تحطيم صنَميّة الفِرَقيّة البائسة؟...

بعض أسئلة تفرض بُحوثًا في زوايا فكرية نُقدّر أنها لا تزال في حاجة إلى مزيد إضاءة، باعتبارها رهانًا في الإحاطة بتمام القاعدة الثقافيّة الوطنيّة الكفيلة بإسناد التنوّع الخلاّق ولفْظ النشاز المستهجن.

ولئن تعدّدت تعريفات "الثقافة"، فإنّ المشترك في مفاهيمها، هي أنها خلاصة المعارف، والمعتقدات، والفنون، والأخلاق، والقدرات، والمهارات، التي يفعل وينفعل بها الفرد في مجتمعه. ولها أنماط، وكيفيّات روحيّة، وفكريّة، ومادّيّة، تُميّز الأجيال بعضها عن بعض، بما يأخذه كلّ جيل من سابقه، ويضيف إليه من حاضره. سلسلةً من الزيادات والتنويعات والتراكمات التي لا تبدعها إلا المجتمعات البشريّة.

إنها عادات الجماعة وأفكارها واتجاهاتها تُستمدّ من التاريخ، وتنتقل تراثا اجتماعيًّا إلى الأجيال المتعاقبة[1].

---

1 انظر:

المعجم الفلسفي، ص58 .

الموسوعة العربية الميسرة، ص1096.

عمران : مداخل إلى الثقافة، صص5–28.

ولكلّ وطن ثقافته التي تكوّنت فيه وتكوّن بها، تمتزج فيها الأحداث على خطّها الممتدّ من غابر الأزمنة إلى ما لا يُدرَك من الآتي الخفيّ، وتحتدم الأفكار والمواقف والآراء اتفاقًا وافتراقًا، تشابهًا وتغايرًا، انسجامًا وصراعًا. وتتشكّل بُنى المجتمع بأثر تلك الثقافة التي تَصْهر المجرّد في المعيش اليوميّ، والدينيّ في المعتاد الدنيويّ.

والثقافة الوطنيّة التونسيّة، كغيرها من الثقافات، لها من المكوّنات والأطوار والروافد ما يفرض على الباحث أن لا يستلّ منها الشتات والمنبتّ، ويسكت عمّا ينظم ذلك المستخرَج في سلك منظوم لا ينفصل بعضه عن بعض، بل الأجدر به أن يؤلّف من المتناثر بين صفحات التاريخ والموروث سنَدًا ثقافيًّا متصلاً، تبرز به المفارق والملاقي والأقارب والأباعد، مندغمة متعاضدة.

والحقّ أنّ الكلام عن الإباضيّة التونسيّة، مكوّنًا من مكوّنات ثقافتنا الوطنيّة شبهُ معدوم، إذا استثنيْنا بعض المحاولات التي اكتفت بتوصيف مجتمعها المحلّيّ، وتأريخ الحوادث، وترصيف التراجم، وتقديم شهادات الإنصاف والإعجاب، والتكفير عن التعصّب القديم بشيء من السماحة، ثمّ تجاوُز ذلك إلى استبعاد الخلاف المذهبيّ وتعويضه بالمعاملة المُواطِنيّة. وهذه هي أقصى ما يُطمَح إليه، لتحقيق السلم الاجتماعيّة، والانصراف إلى العمل البنّاء المشترك.

أمّا البحْث في تراث الإباضيّة البعيد والقريب في الرصيد التونسيّ، وتفكيكُه، وتحليلُه، وربطه بسائر المكوّنات الأخرى، وتناوله على أنّه مُنتَج ثقافيّ تونسيّ، لا تنويعة مذهبيّة تُصنّف ضمن "تراث الأقلّيّات"، فنراها من أهمّ ما يعبّر به التونسيّ عن اعتزازه بوطنه الجامع، وأثمنَ ما يؤكّد به على أنه لا يحمل في داخله رواسب الميْز والحذَر، وأسطعَ برهان على أنه لا يجحد فضل سابقيه أجمعين في الإسهام المعرفيّ والفكريّ والنضاليّ.

بل نرى البحْث في هذه المسألة واجبًا علميًّا متأكّدًا ، قبل أن يكون قيمة عاطفيّة أو روحيّة، يقتضيها "التسامح" أو"ردّ الاعتبار" أوما شابه ذلك من التسميات التي تقتضي المزيّة، وتتبطنها مشاعر التعالي وأوهام الكمال التي رسخت في اللاشعور قرونًا طوالاً.

إنّ الإسهام الإباضيّ، من جربة القديمة والجديدة، ومن غابر عصور الجريد، لهْو من الأهميّة بمنزلة عالية. وليس من المسؤولية العلميّة أن يُفرَد إفراد البعير

المُعبّد، دون أن تسلّط عليه الأقلام والأفهام، لتعيد ترتيبه وتنضيده، وتضبطَ قراءتَه والاستخراجَ منه.

فالمسار الفكريّ والعقديّ والمجتمعيّ التونسيّ كلٌّ لا يتجزّأ، ووَحْدة لا تقبل الانفصام. ولمْ تُفلح محاولات الاستبعاد والتغييب التي سُلّطت على هذا العنصر الثقافيّ، في استئصاله وإطفاء سراجه. وما ذلك إلا بيّنة على أنّ ثقافة الشعوب لا تعيش بالأقوياء الذين يرتبونها كما يشاؤون، وإنما بالأحياء الذين يبنونها وهُم مُبعَدون.

هكذا نرى مشهد الثقافة الممتزجة بآثار الفكر المغاير، وهي التي تأبى الإقصاء.

وسعْيًا إلى إنتاج عمل علميّ نقديّ، يبتغي تحقيق إضافة نوْعيّة في هذا المضمار، كان بحثنا هذا، الذي يستهدف ما يلي :

/ النظر في أثر الحقبة الإباضيّة التونسيّة المتأخّرة في الثقافة الوطنيّة، وهي الفترة المواكبة للاستعمار الفرنسيّ إلى ما بعد دولة الاستقلال، دون فصلها عن الحلقات السابقة لها، والفاعلة فيها.

واخترناها هي بالذات لبعدها، بنسبة فائقة، عن العقليّة المذهبيّة والفِرَقيّة التي كانت صائلة في قرون سابقة، ولامتزاجها ببنية ثقافيّة وسلوكيّة مغايرة.

ولهذا التحوّل في الفكر والمنهج أهميّة قصوى، كما أنّ اختبار مداه مما ينبغي أن يكون هدفًا حينما نتحدّث عن "ثقافة وطنيّة" بالمفهوم الجديد والمتداوَل.

/ قراءة الأحداث والأفكار، وتوثيق الصلات بينها وبين تاريخها وحاضرها، وتنزيلها في سياقها وواقعها، والمرور منها إلى التحيين والتزمين المناسبيْن.

/ الوقوف عند الرصيد الإباضيّ الجربيّ، وتبيُّن تاريخه وقيمته وموادّه وأعلامه ومعالمه، ومحاولة الغوْص فيما يحتويه من القيَم الفكريّة والمنزع المذهبيّ والمشترك الوطنيّ، ومعاينة حدود السلفيّة المحافظة ومدى الفكر المستنير المتحرّر المواكب لعصره.

وقد اخترنا ثلاثة مؤلّفات إباضيّة، ستكون محاور الفصول الثلاثة، وهي على التوالي :

1. تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلميّة لسالم بن يعقوب، باعتباره عنوانًا بارزًا في تصانيف التاريخ المحلّيّ التونسيّ بقراءة ومادة إباضيّتيْن.

فكيْف هو تاريخ جربة من وجهة نظر إباضيّيها؟،

بل ما تاريخ إباضيّة جربة بالرواية الإباضيّة نفسها؟،

وماهي نسبة الموضوعيّة أوالذاتيّة في هذا التأريخ؟ وما هي مصادره؟ وما هو المؤتلف والمختلف بينه وبين تأريخ المخالفين؟

ثمّ ما هو تراث إباضية جربة العلميّ؟ وما وزنه؟ وما موْقعه في فكر الآخر؟

وما صلة جربة بمناطق الجريد، ونفوسة الليبية، ووادي ميزاب الجزائرية؟

2. المسلك المحمود في معرفة الردود لسعيد ابن تعاريت

تبرز أهمّيّة هذا الكتاب من نواح متعدّدة، منها :

/مؤلّفه الذي عاضد تكوّنه الإباضيّ المتين وتشبّثه المستميت بعقيدته، بالتفتّح على الآخر، وبالاطلاع على تراثه، وبالإيمان العميق بضرورة الانعتاق من ربقة المذهبيّة المقيتة، وبالحماسة في مناصرة الكفاح التحرّريّ الوطنيّ، والاندراج في المشروع الإصلاحيّ المشرقيّ والمحلّيّ

/ موضوع الكتاب الذي جعل منه أحد المؤلفات القليلة جدًّا في مكتبة الردود التونسيّة ذات النزعة المذهبيّة العقَديّة.

فهوالأثر المعبّر أكثر والملخّص الأقدر لهويّة الفكر الدينيّ التونسيّ. وهوالأنموذج الأبرز في الدفاع عن هذه الهويّة المتنوّعة

/ رسالته الثقافية البليغة في ضرورة تحْطيم صنميّة المذاهب والفِرق، وتنسيب الآراء الكلاميّة، والقواعد الفقهيّة، وترسيخ رحابة التفكير وسعة الاعتقاد.

فماهو المنهج الذي اعتمده سعيد ابن تعاريت في الردّ على المخالفين؟،

وما هي مواطن القوّة والضعف فيما كتَب؟،

وفيم تجلّت نظرته إلى الذات وإلى الآخر؟

وما هو المنوال الفكريّ والثقافيّ والسلوكيّ الذي يدعوالمجتمعَ التونسيّ وسائر المجتمعات الإسلامية إلى اعتماده؟

وما أثر الروافد الإصلاحيّة في تفكير المؤلّف وتأليفه؟ .

وقد قدمنا كتاب "تاريخ الجزيرة" على "المسلك المحمود" باعتبار موضوع الأوّل الذي عرّفنا إلى معطيات عن الإباضيّة التونسيّين لا بدّ من الانطلاق منها وبها، وإلاّ كان الأوْلى أن يُراعى الترتيب الزمني.

3. الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة لسليمان الجادوي

إنّ الكتاب ومؤلّفه لهُما الصورة المثلى على الإطلاق في تلاشي الفوارق العقَديّة في المسألة الوطنيّة ذات الأبعاد المتعدّدة والأطوار المختلفة والرؤى المتباينة.

ومادة هذا الكتاب هي صميم الثقافة التونسيّة التي انصهرت فيها رواسب قديمة، ووُلِدت من رحِم التراث الإسلاميّ، وامتزجت بهموم الاستعمار، وتشرّبت هواجس التحرّر والحداثة.

إنّه الكتاب الذي يلخّص عهْدًا تونسيًّا مضى وظلّ ذا أثر بليغ في حاضرنا.

وهو الكتاب الذي ألّف ذاكرة لا تزال مكوّناتها فاعلة في النخَب وعامّة الشعب، بل لاتزال مخاضاتها وسجالاتها وصراعاتها وتجاذباتها تضطرم نارُها في العقائد والعوائد.

ولا يمكن لقارئ "الفوائد الجمّة" أن يسأل : هل الشيخ الصحفيّ سليمان الجادوي إباضيّ؟،

لأنّه يؤكّد لك في كل سطْر أنّه تونسيّ، وكفى. عدَا في بعض الصفحات، وهي مُهمّة في التعريف بهويّته، وهي التي تعطي لعملنا معنى.

ولكنّ السؤال الأهمّ : لمَ لا يُذْكَر الجادِوي –كثيرًا– في أعلام الفكر الإصلاحيّ والتحرّريّ التونسيّ؟!

ولعلّ محاولتنا هذه إسهام في تجْلية صفحات من هذه المسيرة.

فماهي الصحافة في نظر الجادوي؟

وما هي مقوّمات الصحافة الجادِويّة التونسيّة؟

وما نصيب العقيدة الوطنيّة فيها؟

ثمّ كيف ينظر إلى واقع التونسيّين؟ وكيف عالج قضاياهم؟

وما فكره الإصلاحيّ؟،

وما منهجُه؟،

وما الأثر المحليّ والمشرقيّ في تفكيره وتأليفه؟..

إننا نسعى بمحاولتنا هذه، إلى أن نقرأ المعطى بطريقة تنأى عن التمجيد والإطراء، بقدْر ما تلتزم موضوعيّة المقاربة، وصرامة الاستنطاق والاستنتاج.

وقد كان عملنا في اعتماد المراجع والإحالة إليها والاقتطاف منها مسنودًا بمقارنة النصوص، وتقريبِ بعضها من بعض، وكشف المغطّى، والاهتمامِ بالمُغْفَل، والاستدراكِ على بعض الآراء والاستنتاجات والروايات، وإحكامِ الصلات بين المتفرّقات، وإعادة تركيب التفاصيل والجزئيّات.

واجتهدنا في أن يكون بيننا وبين ما نأخذ منه وعنه، مسافة نقديّة تليق بالبحث الذي نعتقد أنه لن يكون كاملاً، ولكنّه يفتح على مجال جدير بأن يُكْتَب فيه.

الفصل الأوّل

جربة: تاريخ التديّن..
تاريخ الثروة

تمهيد: في وطنيّة التأريخ

إنّ بحْث الفرْد في تاريخ بلاده بمعيار التمحيص والتفكيك والقراءة المبدعة، يُعَدّ من الصفحات ذات القيمة في سجلّ الدراسات العلميّة.

كما أنّ اهتمامه به معنى حيٌّ من معاني الوطنيّة والمروءة والمسؤولية. فهو علامة على وعْيه جذورَه التاريخيّة والثقافيّة، وإدراكِه دوْرَه في الإحاطة بماضي أصوله، وأهليّتِه في ردّ الأخطاء أوالوهم، أوادعاء غير الحقيقة، وفي التصدّي للمغالطات والتحريفات التي يمكن أن تصدر شفويّة أومكتوبة، مقصودة أو غير مقصودة .

وإذا كان شعراء تونس وأدباؤها قد أفاضوا وأجادوا في التعبير عن هُيامهم ببلادهم بمُدنها وقراها ، فقال الشابي (ت1353هـ/1934) :

أنَا يا تونسُ الجميلةُ في لُجّ الهوى قد سبحْتُ أَيَّ سِباحَهْ
شِرْعَتي حُبُّكِ العميقُ وإنّي قد تـذوّقْـتُ مُـرّهُ وقَـرَاحَهْ[1]،

والحدّاد (ت1354هـ/1935) :

أتونسُ عندي في هـواكِ تولُّـــعٌ وأنـتِ مُنى نفسي عليْكِ تَقَطّـــعُ
نسيتُ بكِ الدنْيا وعيْشي وراحتي أُريدُ لكِ الحُسْنى وخصْمُكِ يمْنعُ[2]،

وأُرْسِلَت الأناشيد والتحيّات الوطنيّة تشدو:

سلامٌ أيّهـا الوطَـنُ المُفَـدّى بأنفسِنـا وأنَفَـسِ ما لديْنَـا
... فأرضُكَ أمْنًا مِنها نشأْنَا وفـي خـيْراتِهـا متنعّمينَـا
بها أجسادُ آباء كـــرامٍ وفيها مُسْتَقَرُّ الآخَرينا..."[3]،

---

1 أغاني الحياة، ص25.
2 ديوان الحدّاد. ص33.
3 ابن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس، ص320.

وأنشد اللغماني:

أقبلْتُ يـازاراتُ ظمآنًـــــــا إلــى عيـنٍ تسحُّ وجدولٍ منســابِ

لي مِن مناهِلِكِ السخيَّة رشفـةٌ هيَ في فمي الصادي أَلَذُّ شرابِ..[1]،

فإنّ المؤرّخين التونسيّين بدوْرهم قد عبّروا، إلى جانب النقل والرواية والترجيح والاستنتاج، عن تعظيمهم تونس وتمجيدهم إياها.

ومن هؤلاء حسن حسني عبد الوهّاب (ت1388هـ/1968)، الذي يؤكّد على أنّ الإنسان مجبول بفطرته الغريزيّة على حبّ بلاده والشغف بأخبارها، لا سيما إذا كان لوطنه مكانة في التاريخ، ومجدٌ مشاهَدٌ بين الأمم [2]. ويُثبت أن التونسيّين من المدائن والجهات الحضريّة، اعتنوْا بجمْع أخبار مدُنهم، ووصْف معالمها المحلّيّة، وتتبّع تاريخ إنشائها، والتعريف بالمشاهير من مواليدها. ومن أسبق العواصم التونسيّة إلى هذا الغرض مدينة القيروان التي يصفها بـ"أمّ القرى الإفريقيّة"، و"قاعدة المغرب الإسلاميّ"، والتي جمع أخبارَها، وأحداثها، وتراجمَ رجالها، مؤلفون كثُر. ومع ذلك كلّه، حسب عبد الوهاب، بقيَت مدائن كثيرة من القطر التونسيّ مجهولة الأخبار، مغمورة بالنسيان، وما نجده عنها، إنما هوفقرات مبعثرة في غضون المؤلفات المحليّة وغير المحلّيّة. وقد دعا الباحثين إلى جمع المخطوطات التونسيّة وتنسيقها، تنشيطًا لـ"الغيرة الوطنيّة" وإثباتًا لمجد البلاد[3].

وهذا ما قام به زمرة من الباحثين كما سنعرض في بيبليوغرافيا مُثبتة في آخر هذا الفصل.

وقد دبّج عبد الوهّاب كتابه "شهيرات التونسيّات" بـ: " تبارك الذي كرّم تونس بين البلاد، وغمّرها بالمحاسن الواضحة الأشهاد، وفضّلها على الأمصار بموْقع مختار رقّ بها هواؤُها، وعذُب ماؤها، وصفا أديمُها، وزكا شميمُها. فنجومُها زاهيّة زاهرة، وأشعّة شمسها نيّرة باهرة، فجْرُها شفيق، وأصيلها

---

1 اللغماني: ديوان قلب على شفة، صص210-211.

2 ح.ح. عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص10.

3 تقديم كتاب "مؤنس الأحبّة في أخبار جربة "، صص9-11.

عقيق، رزقُها موْفور، وعيْشُها ميسور، ونزيلها بأنواع الخيرات مغمور. فسبحان من خَصّ هذا القُطْر المحبوب على صغره بكرم التربة، ومحاسن الإربة، وميّزه بالخيْر العميم، والنيْل الجسيم. وجلّ مَن أتْمَرَ أفنانَه، وهدل دوْحه وأغصانه بأبناء نُبغاء، رجالاً ونساء، زيّنوا موطنهم بخصال حميدة، وفعال سديدة، وحكَمٍ رشيدة، خلّدتْ ذكراهم، وعطّرت شذاهم على مدى العصور، وتوالي الدهور.."[1].

ويصفها بكثير من الإعجاب، في "خلاصة تاريخ تونس" بقوْله : "إذا سرّح الإنسان بصره في الخريطة يرى بين الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسّط بلادًا صغيرة، تقْسم ذلك البحر إلى نصفيْن، وتشقّ حافاته ما بين الشرق والغرب على السويّة فتبارك الله أحسن الخالقين. وتلك البلاد الصغيرة هي إفريقيّة قديمًا أوالقطر التونسيّ اليوم. فهذه المنزلة الطبيعية جعلت تونس من أوّل الدنيا مسالك الذاهبين، وموْرد الوافدين، ونصبتْها مطمحًا لآمال الفاتحين. لهذا السبب كان لتاريخ تونس أهمّيّة عظمى، يتجلّى في أبهى منظر للبحْث عن أخبارها والتنقيب عن ثارها"[2].

أما محمد النيفر (ت1330هـ/1912) مؤلف : "عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب"، فيثبت أنّ "إفريقية كان لها في العلم والأدب حظّ موفورٍ في مختلف العصور، مما لوأُريد تفصيله والكلام فيه لاقتضى تأليفًا مطوّلاً، كما يتجلى أن غمط ذي الحق حقه أن يطوي ذكْرَ إفريقية مَن يؤلف في تاريخ الأدب العربي، مع أنها منبع غزير له، ومادة واسعة". كما يرى أن أهل البلاد المشرقية ليست لهم عناية بأبناء أهل المغرب"، وهوما استنكره محمد الطاهر النيفر (ت1402هـ/1982) الذي اعتبر الحديث عن تاريخ عظماء تونس من أهم الأغراض التي ينبغي أن تحظى بالعناية، ويرى من أوْلى الواجبات الوطنية والثقافية، مهمة التعريف بحياة الأعلام التونسيّين في العصور السالفة والجديرة بكل إشادة وتمجيد، مع نشر الطريف من آثارهم والصحيح من أخبارهم. ويبيّن أن الشرقيّين لا ينظرون

---

1 عبدالوهاب، شهيرات التونسيّات صص7–8.

2 عبدالوهاب، خلاصة تاريخ تونس ص9.

إلى تونس بعيْن الإجلال والإكبار، فهي في نظرهم "موسومة بالفقر في رجالها، وموسوم أهلها بالفقر في معارفهم وإنتاجهم"، واستخفوا بتونس حتى تجاهلوا موقعها الجغرافيّ، فحسبها بعضهم قرية من قرى مراكش. ثم سرت هذه العدْوى إلى التونسيّين أنفسهم، "فظنّوا أن ليس لهم من عظماء الرجال مَن يطاولون به البلاد العربية، أويستحق التمجيد والإكبار، وقطعوا الصلة مع ماضيهم، وتناسوْا من أنجبتْه تربة بلادهم فحوّلوا وجوههم نحوتمجيد عظماء الشرق بإقامة الذكريات الشيقة الطريفة مع أن البلاد التونسية كانت تنجب في جل عصورها الماضية أفذاذًا مجيدين فيما تخصصوا فيه من علم وأدب". ولذلك دعَا التونسيّين إلى التعريف بعظماء بلادهم، خدمةً للسلف، وتتعريفًا للناشئة بالرجال الذين أنجبتهم تربتها، حتى يشعروا أنهم ينتمون إلى أرض معطاء في العلم والأدب، وينسجوا على منوالهم، ويسري في نفوسهم الاعتزاز بالوطن وبساكنيه، ويكفّوا عن تمجيد عظماء الشرق، ويحوّلوا وجهتهم نحوعظماء البلاد التونسيّة[1].

ولئن سخِط بعضُهم على تونس وسكانها، إن صحّ ما رُوي عن أبي الحسن الشاذلي (ت656هـ/1258م) وابن خلدون (ت808هـ/1406م)، لما لاقياه من التضييق والشنآن من قبَل منافسيهما، فإنّ البعض الآخر قد بالغ، كصنيع كثير من الرواة، بنشْر أحاديث واهية موْضوعة في فضل تونس. ومن هؤلاء أبوالعرَب (ت333هـ/945م) في"طبقات علماء إفريقية". وقد تصدّى لنقدها الشيخ محمد الشاذلي النيفر (ت1417هـ/1997)[2].

---

1 علي العريبي: الفكر الإسلامي في نصف قرن من خلال المجلات الدينية التونسية (1904–1955) صص352–354

2 محمد الشاذلي النيفر : أحاديث فضل إفريقيا. المجلة الزيتونيّة مج6 صص467–469 /صص569–571 /صص614–616.

وقد أوْرد ابن سلاّم الإباضيّ (ت. بعد273هـ/887م) في كتابه : "بدْء الإسلام وشرائع الدّين" أحاديث في فضائل البربر . راجعْه :صص121–125.

وكذلك الوارجلاني(ت570هـ/1174م): كتاب السيرة وأخبار الأيمة صص44–56، حيث عرض فضائل البربر والفرس.

وعلى كلٍّ، ساهمت جمهرة من التونسيين في تجْلية صفحات من سيَر رموزهم الحضاريّة، وأدوارهم الفكريّة، وكنوزهم التراثيّة، وبحثوا، في الشمال والجنوب، في الوسط والساحل، في المدن والأرياف،عن تاريخ مواطنهم، وجهاتهم، وقبائلهم، وعائلاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وعلمائهم، ومعالمهم، متطلّبين الحقيقة لا الأسطورة، ومندفعين بالموضوعيّة لا الذّاتيّة.

كلّ ذلك لتتألّف ذاكرة تاريخيّة ثريّة تليق بعراقة تونس وشعبها، وتعبّر حقّ التعبير عن رصيدها المعارفيّ الوسيع[1].

ويتنزّل كتاب "تاريخ جزيرة جربة" للإباضيّ الجربيّ سالم بن يعقوب في خانة هذا العمل الثقافيّ الوطنيّ.

فإلى المؤلّف[2] وتأليفه.

هو ذاكرة إباضيّة جربة، الشيخ سالم بن يعقوب (1321–1408هـ/ 1903–1988)[1]، بدأ حياته في جربة وبنزرت بالتجارة،وبقي أُمّيًّا إلى

---

1 سنعرض في آخر الفصل الأوّل من الكتاب، إثراءً لهذا التمهيد، بيبليوغرافيا تونسيّة مختصرة، في تاريخ تونس القديم والحديث والمعاصر. طافت في أرجاء التراث الدينيّ المالكيّ والإباضيّ، ورصدت المخزون العلميّ المتداوَل والمعزول، وجلّتْ الخصوصيات التاريخيّة، الفنيّة، الإبداعيّة، الجماليّة، وراجعت الأحداث البعيدة والقريبة، ودخلت عالم السياسة، وباحت بالأسرار، ومرّجت الحقائق والأكاذيب.
ومع ذلك لمْ تكُن هذه المصنّفات سالمة من الأخطاء التي أرادت هي أن تصوّبها، والثغرات التي ابتغت سدّها، والتقصير الذي رامت تداركَه.

2 تابع قراءة في المشترك بين سيَر الأعلام الثلاثة المدروسين في هذا الكتاب: بن يعقوب — ابن تعاريت — الجادوي في تمهيد الفصل الثالث
وراجع في ترجمة بن يعقوب :
رواية بن يعقوب نفسه: تاريخ جزيرة جربة صص205–209.
الجعبيري: البعد الحضاري للعقيدة الإباضية صص85–86.
التعريف بالمؤلف، ضمن كتاب : تاريخ جزيرة جربة صص9–12
البوجديدي: الشيخ سالم بن يعقوب، حياة رجل وتجربة جيل .
مجلة الحياة عدد16 س1433هـ/2012 صص170–182 / عدد17 س1434هـ/2013 صص249–273

التاسعة عشرة من عُمُره، واستطاع أن يتدارك ذلك بسرعة، فأقبل بتلهّف على دروس شيخه عمر بن مرزوق (ت1381هـ/1961) الذي وصفه بقوّة الذكاء والحفظ والفصاحة، وعليه تلقى مبادئ العلوم.

يقول بن يعقوب: "كُنّا نقيم بمدرسة جامع الباسي خمسة أيام، نأتي إليها يوم السبت صباحا إلى يوم الإربعاء بعد العصر، ثم يعود كل واحد منا إلى منزله. أما المدرّس الشيخ عمر ابن مرزوق، فإنه يأتينا كل صباح ويرجع بعد العصر كل يوم، إلا ليلة الأربعاء، فإننا نحيي جميعًا تلك الليلة، والشيخ معنا، في تلاخيص الدروس التي قُدّمت إلينا خلال الأيام الخمسة الماضية، فيأمرنا الشيخ أن يعرض كل واحد منا ما تيسر له من أناشيد وأبيات شعريّة مما يحفظ، أوبعض جمل تدلّ على حكمة أومسائل تاريخية، كل ذلك تدريبًا للتلامذة وتنشيطا لهم. فكانت تلك الليلة من أنشط الليالي عندنا وكنا ننتظرها بفارغ الصبر"[2].

ثمّ تحوّل إلى العاصمة ليدخل جامع الزيتونة، وابتدأ دراسته فيه س1347هـ/1929 في المرحلة الثالثة بصفة طالب حرّ حيث لمْ يكن مسجّلاً في دفاتر الجامع، ومكث فيه خمس سنوات حيث أتمّ المرحلة السابعة .

وإلى جانب ذلك كان يتلقى دروسًا خاصة على شيخ الإباضيّة بتونس العلامة محمد بن صالح الثميني (ت1391هـ/1970)

ثمّ انتقل إلى الأزهر وبقي فيه خمس سنوات 1351–1355هـ/1934–1938، يتنقّل بين حلقه، وبين حلَق الإباضيّ الجزائريّ أبي إسحاق إبراهيم أطفيّش (ت1385هـ/1965) الذي نفاه الاستعمار الفرنسيّ إلى تونس، ثم منها إلى مصر. وفي القاهرة أصدر مجلة المنهاج س1344هـ/1925 لمناهضة الاستعمار الفرنسي[3].

---

1 الجعبيري: تاريخ جزيرة جربة ص9، أما محمد قوجة الإباضيّ الجربيّ فيضبط تاريخ وفاته بـ27 جانفي 1991. رسائل الحيلاتي (تحقيق) ص3 هـ1.

2 تاريخ جزيرة جربة ص208

3 دبّوز: نهضة الجزائر الحديثة ج2 ص38/ جهْلان: الفكر السياسي عند الإباضية ص109.

وقد نسخ سالم بن يعقوب من وكالة البحّار والتي تسمّى أيضا وكالة الجاموس بسوق طولون القاهريّ[1]، والمكتبة الوطنية بالقاهرة، كمًّا وافرًا من المخطوطات التي أثرتْ مكتبته أيّما إثراء.

ثمّ عاد إلى جربة ليشتغل بالفلاحة، وليقدّم الدروس والمواعظ بعدد من جوامع الجزيرة.

يقول عنه الجعبيري، وهو أحد تلاميذه: "..كان مُحقّقًا في التاريخ، وبخاصة في سير الإباضيّة، فاتخذه الباحثون قبلة يستشيرونه ويستفيدون من معلوماته،..فهوبلا منازع مرجع الإباضيّة في المغرب والمشرق في هذه المادة التاريخية متشابكة الأطراف، ولا غرابة إذا قلنا إنه أستاذ الجيل بحق في هذا الخضمّ...يعتبَر آخر عضومن أعضاء حلقة العزابة بجربة..."[2]

من أعماله المطبوعة:

– ردّ على مقال نشر بمجلة الحياة الثقافية التونسية عدد38 س1985 (بالاشتراك مع قاسم قوجة)

– تحقيق مشترك بينه وبين **المستشرق الألمانيّ قيرنرشقارتس** لكتاب"بدْء الإسلام وشرائع الدين" لابن سلاّم الإباضيّ النفوسيّ (ت. بعد273هـ/887م)[3].

---

1 ستكون لنا وقفتان مع هذه الوكالة، حينما نتحدث عن التجارة الجربية، ثم نظام العزّابة.

2 تاريخ الجزيرة ص10.

3 راجع هذا الكتاب ط.بيروت1406هـ/1986.

ويُظَنّ أنه كتِب بعد260هـ/874م بقليل. وعُدّ أقدم مؤلّف إباضيّ لتأريخ المغرب، وتتمثل قيمته في أنه يُعتبَر من المحاولات الأولى لغير العرب، أوبالأحرى لسكان البلد الأصليّين، لوصف أسس الحياة الدينية وللتعريف بتاريخ الإسلام في إطار هذا الدين الجديد وعبر اللغة العربية. كما أنه من الشواهد على استيعاب البربر للحضارة العربية الإسلامية.

ومؤلّفه ابن سلام بن عمر هوأوّل مؤرخ معروف في المغرب، وأقدم مؤرخي الإباضيّة، والمؤرخين الإفريقيّين على الإطلاق. سكن فترة من الزمن (نحو240هـ/855م) في توزر التونسية.

راجع: مقدمة التحقيق صص5–41.

ليفيتسكي (تاديوس): المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية صص149–151.

ويذكر الجعبيري أن هذا التحقيق طُبع طبعة غير قانونية بعنوان مُحرّف: "الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضيّة"[1]، ومع ذلك اعتمد هذه الطبعة الإباضيّان: الجزائريّ إبراهيم بولرواح، والجربيّ محمد قوجة[2].

- تاريخ جزيرة جربة، وهو الكتاب الذي سيكون مركز بحثنا هاهنا، وسنطلق عليه حينما نحيل إليه في هذا الفصل الأوّل: "المصدر" م.

وأعدّه للنشر في جزئيه د. فرحات الجعبيري، وأضاف إلى العنوان "ومدارسها العلميّة"[3].

ولمْ يصدر الجزء الثالث من الكتاب في موضوع: الحياة السياسية وما انتاب جربة من الأعداء الصليبيّين. وقد وعد به المؤلف سالم بن يعقوب في مقدمة الطبعة الأولى المؤرخة في 1405هـ/1985، وأشار أستاذنا فرحات الجعبيري، في مقدمة الطبعة الثانية، إلى عدم توفّر مادة الموضوع فيما وصل إليه من مذكرات المؤلف بعد وفاته رحمه الله

ومن الأعمال المخطوطة:

- دروس عن تاريخ جربة، ألقيت س1384هـ/1964.
- تقييدات عن نشأة الإباضية.
- تقييدات عن تراجم بعض علماء الإباضية.
- تقييدات عن المدارس العلمية بجربة[4]

ومن اللافت والغريب أنّ الشمّاخي (ت928هـ/1522م) لمْ يذكر لابن سلام مؤلّفات مع أنه أثنى على علمه وحكمته.
راجع: كتاب السيّر ج2 صص391-392.

1 الجعبيري: تاريخ الجزيرة ص10.

2 راجع: بولرواح: موسوعة آثار الإمام جابر بن زيد الفقهيّة ج1، ص21.
محمد قوجة: مجلة الحياة الثقافيّة، عدد240، أفريل2013 صص11-25.

3 ط2 سراس للنشر تونس1427هـ/2006 (407صفحات).

4 هذه العناوين من عمل الجعبيري. وقد اعتمد قوجة في تحقيق رسائل الْحيلاتي مصدرًا مخطوطًا لبن يعقوب، سمّاه: كرّاسات في أخبار الإباضيّة وعقيدتهم. الرسائل ص153.

وكما هو بيّن، فإنّ الشيخ سالم بن يعقوب، أفنى حياته في جمع المادة التاريخية حول جربة والإباضيّة، وهومجهود يدلّ على تعلّق الرجل بموْطنه وعقيدته، وعلى قيمة إسهامه في كتابة تاريخ منطقة كان لها من الثراء الأخباريّ والفكريّ ما يُعادل وزنها الاقتصاديّ وشهرتها السياحيّة.

1) مصادر تاريخ جزيرة جربة

اعتبر الشيخ سالم بن يعقوب كتابه بحثًا درَس فيه بعض جوانب تاريخ الجزيرة، وجمعه في مكابدة ومشقة من أوراق متفرقة ورسائل مبعثرة، في خزائن الكتب القديمة بجربة، وتونس والقاهرة، أثناء بحثه الموسّع عن التراث الإباضيّ، لمّا درس بجامع الزيتونة والجامع الأزهر.

كما ذكر أن مصادره كانت قليلة جدًّا، وتمثلت في:

أ- آثار مكتوبة لثلاثة علماء جربيّين

/ رسائل سليمان بن أحمد الحيلاتي (ت1099هـ/1688) الذي وصفه بسعة الاطلاع وغزارة المادة وقوة العزيمة، اعتنى اعتناء جديًّا بأخبار الجزيرة وعلمائها وأمرائها وما وقع فيها من حروب، فدوّنها في عدة رسائل، وهي مادة تاريخية دسمة لتاريخ الجزيرة لا يمكن لدارسي هذا التاريخ أن يستغنوا عنها[1].

ويصفها محمد قوجة الإباضيّ الجربيّ الذي حققها، بأنها مجموعة من الفصول يمسح كل واحد منها حقبة من تاريخ جزيرة جربة، بداية من ق6هـ/12م إلى نهاية ق11هـ/17، وبالتحديد بداية من س529هـ/1134-1135م تاريخ أول احتلال نورماني لجزيرة جربة إلى س1099هـ/1688-1689 تاريخ وفاة المؤلف نفسه. وتُعرَض أهم الأحداث التي جرتْ خلال هذه الفترة في أسلوب يبدوبسيطًا، لأن المؤلف يكتفي في أغلب الأحيان بذكر الحدث وتاريخ وقوعه، وقلما يتوسّع في التعريف بالمعلومة التاريخيّة أويرتبها في نسق تسلسليّ واضح. إلا أن هذه الخاصيّة، حسب قوجة، لا تقلل من قيمة هذه الرسائل باعتبارها تمثل وثيقة تاريخيّة ذات أهميّة بالغة في تاريخ جزيرة جربة لما تتضمّنه من إشارات ومعلومات تفيد الباحث على مستويات عديدة تخص التاريخ الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ والاقتصاديّ للجزيرة وتسدّ العديد من الثغرات في تاريخ جربة.

---

1 المصدر، ص342.

ويرى المحقّق أن هذه الرسائل وإن كانت تفتقر إلى ما يتوفّر في الكتب عادة من تماسك وتواصل ومن متانة لغة ودقة معان ووحدة تأليف، فإنها تكتسي أهمية على مستوى المعلومات التاريخيّة التي تتضمنها والمرحلة التاريخية التي تغطيها، فهي تساهم في سدّ ثغرة من تاريخ جزيرة جربة لا تتوفر حولها الوثائق بما يشفي الغليل تخص أساسًا بداية الفترة العثمانية الطرابلسية ثم التونسية وما صاحبها من صراعات داخلية كان لها الأثر البعيد في تحديد التركيبة الاجتماعية في الجزيرة بداية من ق10هـ/16[1].

ولكننا نقولُ: إذا كان سالم بن يعقوب واضحًا في تصنيف رسائل الحيلاتي إلى:

– رسالة في تاريخ جربة، أرّخ فيها للأحداث سواء كانت تلك الأحداث سياسيّة أوطبيعيّة أو اجتماعيّة.

– رسالة قيّد فيها مشاهد المشايخ، وأماكن أضرحتهم، ومناقبهم، وابتدأ بأبي مسور.

– رسالة في نسبة الدين، من زمنه إلى النبي (ص)، تبيّن تسلسل العلماء عالم عن عالم إلى النبي (ص).

– رسالة في شيوخ العزابة في الجزيرة.

– رسالة ترجم فيها للعلماء تراجم مختصرة.

– رسالة ذكر فيها مساجد جربة ومؤسسيها وزمن كل واحد منهم[2].

فإنّ قوجة، رغم عمله القيّم والثمين في تصويب التواريخ الواردة في الرسائل، وإثرائها بالترجمات والتوضيحات، وإرفاقها بالجداول الملخصة، فإنه قد شوّش، نسبيًّا، حسب رأينا، إخراج هذه الرسائل، إلى حدّ خلطها بمادة إخبارية ليست منها، وإيراد تاريخ وفاة المؤلف وما بعد وفاته على أنها من رسائله؟؟[3].

---

1 رسائل الحيلاتي، التقديم.
2 المصدر، ص342.
3 راجع مثلا : صص61–62 /113.

وقد عُنون الكتاب المطبوع بـ"علماء جربة" بخط بارز وأكْبر، وهوغير مناسب، ثم كُتب تحته "المسمّى رسائل..."، ثم تحته: "في ذكر علماء جربة وأماكن أضرحتهم والحوادث التي وقعت في أيامهم ومجالسهم العلمية رحمهم الله تعالى"، ثمّ عرض في التقديم أبرز القضايا التي تثيرها الرسائل فذكر خاصة:

- الصراع الجربي ضد الاحتلال النصراني الصقليّ والإسبانيّ
- الصراع التقليديّ بين الوهبية والنّكّار
- موقع الجزيرة في الصراع العثماني الأوروبي
- التركيبة الاجتماعية للجزيرة
- الحركة الثقافية في الجزيرة
- الحياة الاقتصادية
- الحياة السياسية
- الحياة الدينية والنظام الاجتماعي
- العادات والتقاليد
- التراجم

فأن تكون الأحداث بتلك المرتبة والأهميّة، والتراجم بهذه ، فإن الأهمّ في الرسائل،إذنْ، ليس العلماء، وإنما هوتاريخ الجزيرة.

ثمّ لا نجد تبويبًا مقنِعًا من المُحقّق للرسائل، يُرتبها حسب موضوعها أوحسب تواريخها أويوضّح الفصل بينها، أويحدد بدايات النصوص بتوحيد خطوط العناوين أوبزيادة البسملة كلما اقتضى الأمر، أوشيء من هذا. فقارئ الرسائل لا يلحظ تنضيدًا مُحكمًا للورقات، ولا تنظيمًا متماسكًا للمادة، ولا منهجية متقنة في العرْض.

ولعلنا نزعم أنها بقيت مبعثرة متناثرة وإن تمّ تجْميعها وطبْعها.

هذا إلى جانب فهرسة محتويات الكتاب التي لا تُعين على تبيّن مفاصل الرسائل وحيّز الأقوال، والعناوين التي هي من المؤلّف، والأخرى التي هي من المحقّق، إلخ...[1]

/ رسالة عليّ بن بيان (ت1105هـ/1697م) تلميذ سليمان الحيلاتي، في تاريخ جربة[2].

/ رسالة سعيد بن عليّ ابن تعاريت(ت1289هـ/1872) في تراجم علماء الجزيرة وأمرائها، ويرجع تاريخها إلى س1273هـ/1856[3]

ب- معلومات من مشائخ جربة

وهذه طريقة قديمة في نقْل الأخبار والحوادث، حيث يكون السماع والمشافهة مصدرًا للمعلومة والترجيح، ويقدَّمْ أحيانًا حتى على المدوَّن.

ومن ذلك نجد الحيلاتي مثلا يقول :

- "ومما سمعناه في عصرنا"[4]،

- "سألتُ رجلاً من المهبوليّين الهالكين..فقال لهم مشافهة.."[5]

ج- معلومات نظرية عن متخصصين في الجيولوجيا

د- معلومات من غوّاصي الإسفنج بحومة آجيم، فيما يخصّ بعض العجائب والآثار[6]

---

1 رسائل الحيلاتي صص159-160

2 يورد بن يعقوب تاريخيْن لوفاة ابن بيان: 1120هـ (المصدر ص20) /1105هـ (المصدر ص246). ويكتفي قوجة بأن ابن بيان توفيَ في بداية ق12هـ/18. وينقل ذلك عن تاريخ ابن تعاريت. الرسائل ص90/96.

3 الجعبيري: المسلك المحمود (تحقيق) : ص338.

4 الرسائل ص51.

5 الرسائل ص69.

6 المصدر صص20-21.

وقد كان بن يعقوب واعيًا بأن المعلومات الشفويّة يُفسدها التساهل وقلّةُ الضبط، ويختلط فيها، أكثرَ، الصدق والكذب، والحقّ والوهم، فأشار إلى عدم جزمه بما ينقُله عن الغوّاصين على النشّاف، وأوْكل التحقيق إلى من يهمّهم الأمر، بما أوتوا من الوسائل العلمية الحديثة [1].

ولمْ ينبّه على ذلك فيما يخصّ النقل عن المشائخ.

ولئن اكتفى المؤلف، بذكر هذه المصادر فقط، في المقدمة، مع ما يضاف إليها من كتب المؤرخين الذين آخذهم، وسنذكرهم قريبًا، فإنّه اعتمد مراجع أخرى ظهرت مع متن الكتاب، ومنها:

/ سيَر الوسياني (ق6هـ/12م)[2]، الذي اشتهر مؤرّخًا وراويًا، ويُذكر أنه كان يحفظ عن ظهر قلب السير والآثار الإباضية التي نُقِلت عنه فيما بعد في مجموعات الأخبار التاريخية اللاحقة. ويُعتبَر كتابه هذا أحد المصادر الرئيسية لجميع المؤلفات الإباضية التاريخية والسيريّة التي تمّ تأليفها في القرون التالية.

ويُرجّح ليفيتسكي أن مصنَّف "السيَر" لمْ يُكْتَب من قِبَل الوسياني، بل قام بتدوينها أحد تلاميذه الذين كانوا يتابعون دروسه عن السيَر[3]

/ السيرة وأخبار الأيمّة للوارجلاني(ت600هـ/1203م) [4]،وهوأحد أقدم المصادر في تاريخ إباضيّي المغرب، ويزوّدنا بمعطيات ذات قيمة عن دخول العقيدة الإباضيّة إلى شمال إفريقيا، وتطوّرها فيه، وعن تاريخ الرستميّين وسقوطهم، وعن مقاومة الإباضيّين للفاطميّين، كما يزوّدنا بسيَر عدد من أعلام

---

1 م. ص31.

2 م. ص84.

وراجع: محمد قوجة: لمحة عن جغرافيّة المجتمع الإباضيّ المغاربيّ الوسيط من خلال مخطوط: كتاب السيَر لأبي الربيع سليمان الوسياني. مجلة الحياة الثقافية التونسيّة عدد240 أفريل 1434/2013هـ صص11-25.

3 ليفيتسكي: المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية صص104-106.

4 المصدر ص73

الإباضية المشهورين من مواليد الجنوب الجزائريّ والتونسيّ في القرنيْن 4هـ/10م و5هـ/11م [1]

/ طبقات الدرجيني (ت670هـ/1272م)[2]،الذي يحظى بمكانة محترمة في الأدب الإباضيّ، ويتألف من قسميْن بارزيْن : الأوّل إعادة نقل لـ"سيرة" الوارجلاني، والثاني برز فيه جهد الدرجيني، حيث جمع سيَر اثنتيْ عشرة طبقة لحكماء وعلماء إباضيّين مشهورين، الأربع الأخيرة منها لإباضيّي وارجلان، وريغ، وسوف، والجريد، وجربة [3].

/ سيَر الشماخي (ت928هـ/1522)[4]، وهوعمل ضخْم في سيَر أعلام الإباضية البارزين، منذ تأسيس الفرقة حتى نهاية ق9هـ/15م. وعُرف في أوروبا منذ ق19، وهويتضمّن،إلى جانب المعلومات السيريّة، آثارا وحكَايات وروايات تاريخية طويلة تتعلق بأصول الإباضيّة وحركاتها في شمال إفريقيا. وتوجد فيه، كما في مصنفات الوارجلاني والدرجيني، تفاصيل كثيرة عن حياة البربر الاجتماعية وعاداتهم..[5]

/ الإباضية في شمال إفريقيا للإباضيّ الجزائريّ أبي اليقظان إبراهيم (ت1305هـ/1973)[6]،الذي يحدّد سبب تأليفه الكتاب بقوله :"لمّا كثر تساؤل الكُتّاب والأدباء عن نشأة الإباضيّة وتاريخهم، حفزني ذلك كله لتحرير الكتاب، إنارة للسبيل لأولئك النشء الذين يجهلون أويتجاهلون مَن هُم الإباضيّة في شمال إفريقيا "[7].

---

1 ليفيتسكي: م.س. صص134–138.

2 م. ص53.

3 ليفيتسكي: م.س.صص52–57

صالح باجيّة : الإباضيّة بالجريد في العصور الإسلامية الأولى صص206–212.

عوض خليفات : أهمية طبقات الدرجيني في دراسة التاريخ الإسلامي.

على الموقع : www.majma.org.jo

4 م.ص77.

5 ليفيتسكي: م.س. صص43–49.

6 م. ص94.

7 أحمد محمد فرصوص :الشيخ أبواليقظان إبراهيم كما عرفته ص41.

/ تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لعبدالله السالمي (ت1333هـ/1914)[1]

/ الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتّاب المقالات في القديم والحديث

/ وتاريخ الإباضية بتونس،ضمن :الإباضية في موكب التاريخ

والكتابان للإباضيّ الليبيّ على معمّر (ت1400هـ/1980) [2].

وقد تميّز الكتاب الأوّل بهدفه الطريف، وهوما أعلن عنه معمّر في المقدمة عند قوْله: "..أرى أن جميع الفرق والمذاهب الإسلاميّة تقف متساوية على صعيد واحد. فليس فيها، بصفتها الجماعيّة، فرقة أفضل من فرْقة، ولا مذهب خير من مذهب، وأنّ في المنتمين إلى كلّ فرقة أومذهب أتقياءَ برَرة، وأشقياءَ فجَرة، وسوادًا أعظم وهووسط بين ذلك... والنقاش الذي جرى على قلمي في شدّته ولينه، وفي قسوته ورفقِه، لا أريد به الدعوة إلى المذهبيّة، ولا الدفاع عن مذهبيّة، وإنما أريد به تحطيم المذهبيّة.."[3]

/ طبقات ابن سعْد(ت230هـ/843م)[4]

/ "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" لمحمود مقديش (ت1228هـ/1813)[5]

/ دائرة المعارف الإسلاميّة [6]

/ المغرب العربيّ لسعد زغلول عبد الحميد[7]

/ تونس العربيّة لإحسان حقي[8]

---

1 م. ص116.
2 م. ص78/ص87/ص91.
3 معمّر: الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة، ص1.
4 م. ص63.
5 م. ص48/ صص50-51/ ص201، سنرجع إليه عند كلامنا عن موقف بن يعقوب من المؤرخين.
6 م. ص51.
7 م. ص54.
8 م. ص54.

/ قادة فتح المغرب العربيّ لمحمود شيت الخطّاب (ت1419هـ/1998)[1]

/ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم(ت257هـ/871م)[2]

/ ماضي شمال إفريقيا لغوتييه(ت1359هـ/1940)[3]

/ دائرة المعارف للبستاني(ت1301هـ/1883)[4]

/ مُقال عباس محمود العقاد(ت1383هـ/1964) بجريدة الأخبار[5]

/ البربر لعثمان الكعّاك(ت1396هـ/1976)[6]

/ تاريخ المغرب الكبير للجزائريّ محمد علي دبّوز(ت1402هـ/1981)[7]

/ المغرب الإسلاميّ. للجزائريّ موسى لقبال (ت1430هـ/2009)[8].

/ المصلحة الوطنية للجيولوجيا تونس [9]

---

1 م. ص61.
2 م. ص62.
3 م. ص41 /ص345.
4 م. ص42.
5 م. ص52.
6 م. ص52.
7 م. ص53.
8 م. ص53.
9 م. ص25.

2) أطوار الجزيرة

لقد بدأ سالم بن يعقوب بالحديث عن جيولوجية جربة، ليبيّن أنها كانت أرضًا متصلة بالمرتفع الأرضيّ اليابس الممتدّ من إيطاليا إلى شمال إفريقيا، ولمْ تصبح جزيرة إلا في الطور الجيولوجي الرابع حيث تكوّنت السواحل التونسيّة الليبية .

ثم تحدث عن:

/ جغرافيتها واتساع رقعتها، وأشباه الجزر المتصلة بها والجزر المنفصلة عنها،

/ آثارها، ومنها الأبراج، وهي الحصون العسكرية التي جعلت للدفاع عن الجزيرة،

/ حظها من الحضارات القديمة، ليستدلّ على أنه عظيم، وأن موقع الجزيرة كان له الأثر الكبير في لفت أنظار الدول البحرية إليها، فهي صالحة لتكون مركزًا تجاريًّا يموّن القبائل الأمازيغيّة واللوبيّين. كما كان لأهل جربة نصيب موفور في التعرف على مدنيات الأمم المتعاقبة عليها / حضاراتها منذ قرون ما قبل الميلاد،

/ مناخها المعتدل الذي بعث النشاط والحيوية في أهلها،

/ سكّانها المعروفين بانسجامهم، وتضامنهم، والذين "استطاعوا أن يحتفظوا بوحدتهم وأن يعززوها كلما داهمتهم الأحداث والغارات الخارجيّة.فقد كان تاريخ هذه المجموعة البشريّة نموذجًا فريد المثال بحفاظها على خصائصها ومميزاتها وتقاليدها وأصالتها مع مرور الزمن وتعاقب الحوادث عليها".

وقد انتهى إلى أن السكان الأصليّين كانوا أمازيغ، وقد عرض بعض قبائلهم في الجزيرة، وهُم والعرب، حسب رأيه، من أصل واحد، وأنهم جميعًا ساميّون، وقد اختلطوا بعناصر أخرى ساميّة وغيرها بسبب الجوار وحسن المعاملة، وهذا ما يفسّر اختلاف سكانهم وصفاتهم، وأنّ كلمة "بربر" اختلقها أعداؤهم لمّا لمْ يفهموا لغتهم فرموْهم بالوحشية والهمجيّة، وأن اللغة الأمازيغية فيها بعض من خصوصيات العربية.

وهو رأي لا يزال محلّ دراسات ونقاشات[1].

ولقد أحسن الشيخ محمّد الشاذلي ابن القاضي (ت1398هـ/1978)، حينما اهتمّ بحاضر سكان تونس والمغرب العربيّ، وتجاوز الجذور التاريخيّة التي يمكن أن تكون وقود فتنة مستعرة، فقال : "هذا الجمع الإنسانيّ تجمّع مرة واحدة تحت اسم :شعب واحد، ينتسب إلى الأمة العربيّة بإفريقيّة، فالبربريّ والفينيقيّ، والرومانيّ، كل هؤلاء العناصر المتعددة التي حافظت على عنصريتها أحقابًا متتابعة وأجيالاً متوالية استحالت إلى شعب واحد، بمفعول عملية موفقة حصلت من الامتزاج بالعرب الأُوَل، الذين دخلوا هذه الأصقاع واستوطنوها، واختلطوا بأهلها اختلاطا لمْ يسبق له نظير في تاريخ هذا القطْر، ولا حدَثَ ما يماثله بعدما أصبح الجميع يمثل شعبًا واحدا يتصل برابطة القرابة النسَبيّة إلى تلك الأمّة النبيلة العظمى هي الأمة العربيّة. وزاد في متانة تلك الرابطة الدينُ واللغةُ والعوائدُ والثقافة، حتى أصبحت وَحْدة غير قابلة للتجزئة أو التفريق..."[2].

وقد أشار الكاتب الأديب التونسيّ محمد المرزوقي (ت1402هـ/1981) إلى أن اللغة البربرية، أواخر الخمسينيات من ق20، توجد في بني ديس، وصدغيان، ووالغ، وقلالة، وآجيم، وسدويكش، ويضيف متحدّثًا عن الوضع

---

1 راجع:

ألفرد بل: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم صص38-68

العرباوي: البربر عرب قدامى (ط مصلّحة وبها إضافات).

محمد الكوخي: الأمازيغيّة المعيارية بين اختلاق لغة جديدة وصناعة الوهم الإيديولوجي. مجلة تبيّن عدد7 مج2 شتاء2014 صص27-46

عزمي زكريا أبو العزّ: الأمازيغية وإشكالية الهويّة. مجلة هرمس القاهريّة مج2 2013 صص249-269 مقال: الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية. على الموقع: www.ahewar.org بتاريخ 2009/5/18 .

محمد جميل بن منصور: الأمازيغ في الشمال الإفريقي محاولة للفهم. على الموقع: www.aljazeera.net

سالم لبيض: كتاب: الأقلّيّة البربرية في تونس.

2 راجع افتتاحية المجلّة الزيتونيّة مج6 صص551-552.

وقتَها: "وقد تناقصت هذه النسَب اليوم، وبقي استعمال الشلحة كلغة عائليّة في تخاطبهم، أما اللسان الرسميّ فباللغة العربيّة، على أن المتمذهبين بالمذهب المالكيّ وهُم نصف سكّان أويزيدون فليس فيهم من يحسن البربرية إلا نحو 2 بالمائة فقط. وعلمتُ من الأوساط المثقّفة بجربة، أن اللغة البربرية الأصيلة في الجزيرة تتلاشى وتضمحلّ يوما بعد يوم، تبَعًا لتلاشي المذاهب الدينية وازدهار العمران، وكثرة انتقال السكان خارج الجزيرة للتجارة والتعليم، حتى أن الجيل الجديد قد تناسى تمامًا هذه اللغة كما تناسى النعرات المذهبية، ولا يبْعُد أن تختفيَ هذه اللغة تمامًا من جربة مع ظهور الجيل القادم"[1].

وتفيد بعض المعطيات أن الجزيرة لم تعرّب بصورة تامّة إلاّ خلال القرن العشرين بعد أن شهدت موجات متتالية من هجرة الأعراب الوافدين من المجال القارّي القريب خلال القرون الأخيرة. فقد وجدت الدّولة الحسينيّة في هؤلاء الأعراب خير سند لبسط سلطتها على الجزيرة ومواجهة أطماع أتراك طرابلس ولذلك شجّعتهم على الاستقرار بها. ويضاف إلى ذلك أنّه ومنذ أواخر القرن التّاسع عشر وخلال القرن العشرين تنامت موجة هجرة من داخل الجزيرة إلى وسط البلاد التّونسيّة وشمالها حيث احتكر الجربيّون تجارة التّفصيل، سرعان ما أعقبتها هجرة معاكسة من الأعراب الوافدين من الجنوب الشّرقيّ الّذين كانوا في بداية الأمر يقضون أشهرا من السّنة بالجزيرة للقيام ببعض الأعمال الفلاحيّة الموسميّة ثمّ ما لبثوا أن استقرّوا بها بصورة نهائيّة.

أمّا اليهود فقد أفرد لهم المؤلف عنصرًا أخيرًا في حديثه عن سكان جربة، في إيجاز لافت، ومرور سريع [2]، على عادة الإخباريّين المحلّيّين بجربة في العصر الحديث، الذين اكتفوْا بإشارات وأخبار قليلة تخصّ اليهود، مما يدل على أن هذه الأقليّة لمْ يكن لها الوزن السياسيّ الكافي، مما جعل الإباضية لا تأخذ أخبارها بعين الاعتبار، ولا تدرجها كطرف لأخبار "المركز"[3].

---

1 المرزوقي: التمهيد لـ "مؤنس الأحبّة في أخبار جربة"، صص38-39.

2 م.ص60 / وراجع للإثراء: سامي برنر: اليهود العرب عالم تمّ محوه –المغرب العربي– الموقع الإلكتروني: www.samberner.com

3 المريمي: إباضيّة جزيرة جربة في العصر الحديث، ص292.

وبيّن أنهم دخلوا الجزيرة على ثلاث دفعات:

/ الأولى، في العهد الرومانيّ لمّا اضطُهدوا، فلجأت طائفة منهم إلى الجزيرة بعد غارة بختنصّر البابليّ على بيت المقدس س587ق.م.، فبنوْا الحارة الصغيرة وبيعة الغريبة[1]

/ الثانية في عهد الاضطهاد المسيحيّ الكاتوليكيّ الإسبانيّ في ق7هـ/13م، فبنوْا الحارة الكبيرة

/ الثالثة، في العهد التركيّ العثمانيّ.

ومن المعلوم أنّ حارتيْ اليهود توجدان داخل المنطقة الوهبيّة التي بقي أصحابها يمثلون أغلبية سكانية بجربة ويمسكون بهياكل النفوذ المحليّ على امتداد العهد العثمانيّ وحتى قبْله بكثير [2]

ويُستخلَص وضْع يهود جربة بما يلي:

/ تعتبر الإباضيّة الوهبيّة اليهود أهل ذمّة، وذلك موافق للرؤية الشرعيّة والنظام السياسيّ آنذاك، ولذلك فُرضت على يهود جربة الجزية[3].

/ يُمنع على الإباضيّ أن يتزوّج يهوديّة.

ومن المعلوم أن الرّأي الإباضيّ المشهور هوجواز نكاح الكتابيات اللاّتي اندمجن مع المسلمين وعاهدْنهم على التّعايش، وكان أهلُهن تحت الذمّة، ودفعوا الجزية، ولمْ يحاربوا المسلمين، وهوما يخالف الرأي المجمَع عليه بين المذاهب السنّيّة، الذين يُجوّزون ذلك ولولمْ يُعْط أهلُ الكتاب الجزية، ولو حارَبُوا، لإطلاق القرآن عن اشتراط الجزية، ونزل القرآن وهُم محاربون ولمْ يشترطْها. وقد قال بالجواز المطلَق بعْضُ فقهاء الإباضيّة[4].

---

1 راجع الأسطورة المتعلقة بها: المريمي: م.س. صص216–220 / مقال: جزيرة جربة التونسية أسطورة الغريبة اليهودي. مقال منشور على موقع :www.alrai.com بتاريخ2014/08/11.

2 المريمي: م.س. ص216.

3 المريمي: م.س.صص168–170.

4 راجع مثلا:

وقد مال المعاصرون من الإباضيّة ومن السنّة أيضًا إلى ضرورة التشدّد في الزواج بالغربيّات، نصرانيّات ويهوديّات، حتى قال معمّر: "على أنّ الموضوع اليوم في عصرنا الحاضر، وقد تكالب أهل الكتاب كلهُم على محاربة المسلمين بجميع وسائل الحرْب، يجب أن يرجع فيه المسلمون إلى رأي المانعين، وقد رجّح هذا الرأي بالفعل كثيرٌ من العلماء المعاصرين من مختلف المذاهب ومن المستقلّين.."، وقال الزحيْلي: "والواقع أنّ في الزّواج بالكتابيات وبالأوْلى الحرْبيات مضارّ اجتماعيّة ووطنيّة ودينيّة..."[1]

/ اعتماد مراعاة السلّم التفاضليّ: الإباضية ثمّ اليهود، دينيًّا، واجتماعيًّا، وإداريًّا، وسياسيًّا، وأمنيًّا، وجبائيًّا[2].

واليهود الجرَابة لا يزالون يزورون يوميًّا كنائسهم بالجزيرة، للصلاة ولمناقشة المشاغل الداخلية والخاصة بجماعتهم، وكذلك لممارسة طقوسهم في مختلف أعيادهم الدينية المتعددة.

وما من شكّ أنّ عبارة "اليهود التوانسة" اليوم، أبلغ ترجمان عن الوضعية الحسنة التي آلت إليها هذه الأقليّة، في الجزيرة، وكذلك في العاصمة، وفي مناطق أخرى من الجمهورية التونسيّة. فهُم من الشعب التونسيّ، ولا يختلفون عن أغلبيّة مواطنيهم إلا بالدّين وشعائره. بل لا يحقّ اليوم أن نواصل استعمال: "تعايش"، أو"تسامح" بين التونسيّين مسلمين ويهود، أو "جالية"، لأن مثل هذه العبارات تحمل في طيّاتها مفهوم التصنيف الدينيّ والعرقيّ المنتهي بمفهوم "المواطنة"[3].

أطفيّش (إباضيّ جزائريّ): تيسير التفسير ج 2 صص 38 ـ 39 /ج 3 صص194/ 474 ـ 476.
ابن العربي، أحكام القرآن، ج 2 صص45–46.
ابن عاشور، التحرير والتنوير ج6، صص123–125.

1 معمّر: م. س. صص 422 ـ 426 / الزحيلي: الفقه الإسلاميّ وأدلته ج9 صص 6653 ـ 6654. / بوعجيلة: المذهبيّ والتاريخيّ والنقديّ صص467–469.

2 المريمي: م.س. صص292–294.

3 راجع مقال: جربة التونسيّة مسلمون يعملون في معبد يهودي حيث التعايش الغريب. نشره موقع: www.alarabiya.net، بقلم المصوّر أحمد عبدالله بتاريخ 2004/10/26.

وقد أشاد أحمد عبد السلام(ت1428هـ/2007)، في استغراب، بأن أقرب المؤرخين التونسيّين إلى المواقف العصريّة المتفتّحة هو ابن أبي الضياف (ت1291هـ/1874)، مع أنه أكثرُهم تأثرًا بالتكوين الدينيّ. إذ أنه ذكر في مواضع مختلفة من "الإتحاف" أنّ اليهود من "أبناء البلاد"، واقترح في إحدى جلسات "المجلس الأكبر" الذي أُنشِئ بمقتضى عهد الأمان أن يكونوا ممثّلين في ذلك المجلس[1].

وتأكيدًا على الإسهام الثقافي لليهود في تونس في القرنيْن 19 و20، نقرأ في كتاب: "الجريدة أوالصحافة عند المسلمين"، ما يلي:

/ "وتونس فريدة في بابها بين البلدان الإسلامية، إذ تصدر فيها صحيفتان يهوديّتان عربيّتان، تُطبعان بالأحرف العبرية، إحداهما: البستان، والأخرى: المحيّر، وكلتاهما بلغة هي خليط من الفصحى والعامّيّة"

/ "73 صحيفة يهوديّة عربية باللغة العبرية، ولكنها كانت تُكتب بحروف عبريّة، وكان أقدمها: المباشر التي ظهرت سنة 1884–1885. وقد ازدهرت هذه الصحافة اليهودية حتى الحرب العالمية الأولى"[2].

ولئن أومأ المريمي إلى أن يهود جربة يتشابهون تمامًا مع إباضيّتها، في أنهم بقُوا منذ عدة قرون وإلى اليوم منغلقين على أنفسهم، تحت سيطرة الأحبار وفقهاء الدين[3]، فإنه لمْ يبْحث في المشترك بينهم، عدَا الدينَ الفارق، مما كان دافعًا إلى هذا السلوك.

ولعلّنا نشير، هاهنا، إلى أن نظرة الآخر، وهوالمُخالف في الدين مع الفريق الأوّل، والمخالف في المذهب مع الفريق الثاني، هي التي دفعت الاثنيْن إلى الانطواء والتحفّظ وتجنب الجدل الدافع إلى الوصْم والتنابز[4].

كما رصد سالم بن يعقوب في تاريخه:

---

1 عبد السلام: المؤرخون التونسيّون في القرون17و18و19م صص544–545.
2 كتاب من سلسلة كتب دائرة المعارف الإسلامية، بالعربية صص28–29 / ص107
3 المريمي: م.س. صص215–216.
4 راجع: باجيّة: انغلاق الإباضيّة، ضمن كتاب: الإباضيّة بالجريد صص 48–49

/ اعتناءَ الجربيّين الفريد في جهات الجمهورية بالفلاحة، وأشجارها المثمرة[1]

/ أهميةَ الصيد البحريّ في اقتصاد جربة،

/ عراقةَ صناعة الفخّار في الجزيرة، مبيّنًا أن إنتاجها كان عنصرا تجاريًّا هامًّا.

واللافت أنّ كتب الرحلات لمْ تذكرْها، والأغرب أن بن يعقوب، لمْ يشِرْ إلى سكوت الرحّالين والمؤرّخين عن صناعة الفخّار الجربيّة، وهي قديمة، عرفها أهل الجزيرة في عهد الحضارة الإيجيّة (3000–1600 ق م).

/ إنتاجَ الصوف الذي تصدّر منتوجات الجربيّين المتنوعة إلى مختلف الجهات كطرابلس ومصر والجزائر وإسطنبول

وإذا كان بن يعقوب قد لفت الانتباه بتقسيم جربة إلى "حومْ" [2]، ناقلاً بذلك المألوف من الاصطلاح والتصنيف، حيث كانت "الحُومة" بالجزيرة هي الوحدة الترابية القاعديّة للتنظيم المجالي خلال الفترة الوسيطة[3]، وجعَل المسجد المكوّن المركزيّ والقاعديّ في الحومة الجربيّة، وهوالحقّ، فإنّ

---

1 Jerba, une ile mediterraneene dans l'histoire pp40-46.

2 جمع حُومة، دارجة ذات أصل عربيّ، ويُقصد بها الحيّ السكنيّ، وقد استعملها الحيلاتي في رسائله، فذكر: حُومتيْ والغ وصدغيان ص58 / حومة السوق ص60 / حومة أفصيل ص64 / حومة تَفِجان ص78 / حومة جعبيرة ص79 / حومة مدراجن، حومة صدغيان، حُومة البوليمانيّين، حومة الزنكريّيين، حُومة الأرْباح صص84–85 /حومة بني باوس ص87.
ويؤكد المنصف بربوعلى أن أقدم مصدر إباضي متوفّر وردت فيه تسمية "حومة" بالجزيرة هو رسائل الحيلاتي.
وهوما جعله يرجّح فرضية ظهور الحومْ بالجزيرة خلال الفترة الوسيطة.
راجع: الحومة بجزيرة جربة خلال العهد الوسيط: مفهومها، تاريخ ظهورها ومكوّناتها. مجلة الحياة الثقافية التونسية عدد240 أفريل1434/2013هـ ص92.

3 بربو: م.س، ص95.

الدارسين من غير المجال الدينيّ ذكروا المكوّنات الأخرى للحومة خارج المنزل[1]. حيث توجد إلى جانب الغابات والأجنّة[2]، المنشآتُ الاقتصاديّة[3].

ومن هذه المنشآت:

- معاصر الزيت التي عرف وجودها تواصلاً، وهي لا تزال بقاياها ماثلة إلى الآن، وهي متناثرة في أغلب الحومْ، ويعود ذلك إلى أهمية إنتاج الزيتون[4].

- مشاغل النسيج والفخّار ذات الأهميّة الفائقة في حياة الجربيّين القدامى، وفي العلاقات التجارية للجزيرة مع الخارج. وهي تعتمد منتوج الصوف المحليّ[5].

/ التجارة التي أصبح بها سكان الجزيرة "أمّة تجارية فاقت بتقدم تجارتها أمم القارة الإفريقيّة"[6].

وننوّه إلى أن المؤلف امتهن التجارة في مراهقته، كما أشرنا سابقًا، وذكر ذلك هونفسه في الكتاب[7]، وكذلك سعيد الجادوي الذي مارسها إلى وفاته، وسنرجع إليه في الفصل الثالث.

وتثبت الدراسات أنّ جزيرة جربة كان لها، عبر الحركة التجارية منذ أقدم العصور، انفتاح عميق على البحر المتوسّط بضفّتيْه الشرقيّة والغربيّة. وقد

---

1 عند أهل الجزيرة, يقصد بـ"المنزل" ضيعة فلاحيّة مرويّة شاسعة، مغروسة نخيلاً وزيتونا وأشجارا مثمرة ومزروعة بقولاً وخضرًا. يتوسّطها مسكن أوأكثر وتتوفّر فيها مقوّمات العيش الضّروريّة. وتحيط بهذه الضّيعة "طابيه" هي عبارة عن حاجز ترابيّ مدكوك يعلوه التّين الشّوكيّ أو الصّبار أوالاثنان معا.
الاقتصاد الجربي، صفحة على الموقع www.djerbamuseum.tn

2 ذكر الحيلاتي "غلّة الأجنّة" ص25/ غابة القشعيّين ص58 / غابة أبرْدا ص61 / غابة تمرْجان ص76

3 بربو: م.س. صص95-97 / وراجع: حسين الطبجي: تقسيم المجال ونظام المنازل في جربة قديمًا، نمط في التهيئة العمرانية فريد.. مجلة الحياة الثقافية م.س. صص113-120.

4 ذكر الحيلاتي مثلا: معصرة بقرب منزل الغنجاايين المجاور لمسجد لاكين ص58.

5 بربو: م.س. 96.

6 م.صص50-51. وراجع: stablo: les djerbiens pp65-121.

7 م.ص208.

مثّلت الجزيرة مركزًا تجاريًّا هامًّا استقطب الأدفاق الماديّة والبشريّة برًّا وبحرًا، ليرتبط بمنظومة اقتصاديّة تصل شبكة القوافل الصحراويّة بالدورات الاقتصاديّة الكبرى للبحر المتوسّط، على أن الجزيرة مثّلتْ ميناءً متقدّمًا للبوّابات الصحراويّة. ولئن تأسس الدور التجاريّ منذ بداياته على تجارة العبور داخل إفريقيّة باتجاه حوْضي المتوسط القائمة على الذهب والعبيد، فإنّه سيتدعّم بالمنتوجات المحلّيّة الفلاحيّة والحِرَفيّة، وخاصة منذ ق5هـ/11م، على إثر تراجع التجارة الصحراويّة. ثم إن هذا الدور التجاريّ سيصبح أكثر ارتباطًا بالضفة الشمالية للمتوسط نتيجة الهيمنة البحريّة الأوروبية وخاصة منذ ق7هـ/13م إلى ق9هـ/15م[1].

يقول بن يعقوب في ترجمة المُحشّي السدويكشي: "كانت لأهل جربة بمصر أسواق تجاريّة رائجة، وقد عمروا عدة نواحٍ من مدينة القاهرة وما يتصل بها من ضواحيها مثل بولاق والفحّامين وسوق السلاح بقرب القلعة والحيّ الطولوني، وأكثر تجّارهم بهذا الحيّ الأخير، فقد ملكوا الأسواق المحيطة بالجامع الطولوني، وملؤوا جميع الدكاكين بالبضائع من الأكسية الصوفيّة التي تصنع بجزيرة جربة...رحل الشيخ محمد بن أبي ستة إلى مصر في سفينة شراعيّة جربيّة وكانت السفن لا تنفك رائحة غادية بين جربة والإسكندرية محمّلة بالركاب والبضائع الصوفيّة من سائر أنواعها من منتوج جربة. نزل الشيخ ومحمد ورفاقه الإسكندرية فوجدوا بها كثيرًا من تجار جربة.."[2]، وعن أسرة ابن ويران: "ولعائلة ابن ويران بآجيم عدة علماء فطاحل بجربة ومصر في أوائل القرن الحادي عشر، اشتغلوا بالعلم والتعليم

---

1 راجع في مجلة الحياة الثقافية: م.س.: مقال سامي بن طاهر: جربة والتجارة المتوسطيّة في العهد البوني، موقع غيزن مثالاً صص29-37 / مقال بشير بن غازي: تطوّر الدور التجاريّ لجزيرة جربة خلال العصر الوسيط صص82-90.
وراجع عن التجارة الإباضية الصحراويّة: Al-Alaoui: Le Maghrib et le commerce transsaharien. أحال إليه قوجة: تاريخ الإباضيّة الدينيّ والسياسيّ.

2 م. صص365-366.

بطولون، ومنهم مَن جمَع بين التعليم والتجارة، فكان لبعضهم أملاك وأوْقاف بمصر.."[1].

ولا يمكن أن نمرّ على هذا الموضوع دون أن نقف عند وكالة الجاموس القاهريّة التي أقام فيها بن يعقوب خمس سنوات وجمع منها كمًّا وافرًا من المخطوطات.

فقد سبق تأسيسَ هذه الوكالة وصولُ عدد من التجار الجربيّين إلى مصر مصطحبين أُسَرَهم، بغرض الإقامة وتعاطي مهنة التجارة. وكان أوّل هؤلاء الوافدين عبدالعزيز بن منصور البحّار الذي جاء من أجيم جربة في النصف الأول من ق11هـ/17، واستثمر رأس ماله في تجارة الغلال، ثم فكر مع أفراد الجالية الجربية في اتخاذ مقر يجتمعون فيه، وتطوّع بأن يُوقف مَحلا لذلك الغرض، وأسس الوكالة بمحيط سوق طولون، ولذلك سُمّيَت في الأوّل باسمه، وكذلك سماها بن يعقوب، ووصفها بأنها كانت مختصة بسكن الطلبة الإباضيّين وكانت حافلة بالعلماء الأجلاء وعشرات الطلبة من بني ميزاب وجزيرة جربة وجبل نفوسة[2]، ثمّ سمّيت ب"وكالة الجاموس" لأنها أضحت بقية ق11هـ/17 مكانًا لتخزين جلود الجواميس وبيعها، كما ينقل ذلك بن يعقوب.والوكالة متكوّنة من مدرسة، ومكتبة، ومأوى،ومحلات تجاريّة تساهم في التوسعة الماديّة على العائلات الجربية المهاجرة.

ثمّ من الجهة نفسها جاء في ق12هـ/18 الواقف الثاني أحمد بن سعيد الجملي الذي استقرّ بسوق طولون وتاجَر في مادة البُنّ، وفي عهده تغيّر اسم الوكالة فأصبح "وكالة السادة الغوابيّة" وشهدت أحسن فتراتها حيث ارتفع ريع أوقافها وانتظمت الدراسة بحلقاتها[3].

---

1 م. ص317.

2 م. ص142/ص397.

3 مصلح: الوقف الجربي في مصر، صص50-55.

ويُرجع بعضهم سبب تجمّع المغاربة في حي طولون وسوقه في قاهرة المعزّ، إلى أن جامع ابن طولون (ت270ه/884م) كان نقطة جذب للحجيج المغاربة منذ عهد طويل، وأصبح للسوق والحيّ طابع مغربيّ واضح[1].

وتجدر الإشارة في ختام موضوع التجارة الجربيّة، إلى أن جهات أخرى إباضيّة عرفتْ التجارة الصحراويّة. فقد ذكر المؤرخون أن مدينة وارجلان الجزائرية كان أهلها مترفين ومن كبار التجّار.كما وُجِدت مدنٌ تجارية أخرى في صحراء شمال إفريقيا كان أغلب سكانها إباضيّة، ومنها :غدامس، زويلة، ودّان، سجلماسة،...ولمْ يكن التجّار الإباضية يكتفون بالكسْب، وإنما كانوا في الوقْت نفسه يوظّفون عملهم في سبيل الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه في ربوع القارة السوداء التي دخل الإسلام مدنها بفضل مرور المسالك التجارية منها[2].

وتنوّعت، كما ذكرنا، التجارة الجربية في القاهرة، فإلى جانب تجارة الغلال التي اشتهرت بها عائلة البحّار، ثم عائلة المزراني المستقرّ بوكالة العزلوني بالفحّامين، وتجارة الجلود، وتجارة البنّ التي اشتهرت بها عائلة الجملي، وعائلة بن أيوب، وعائلة القنوشي، اشتهرت

كذلك تجارة الأقمشة، وممّن امتهنها من الجرابة: أُسَر اللّيني، وبن شعبان، والمغربي. كما اشتهرت تجارة الأراضي الزراعيّة، وتجارة العقارات، وحتى تجارة نسخ المخطوطات[3].

ولقد انتهي المريمي إلى أن متون الإخباريّين يُستفاد منها أن عبارة "ظاهرة الجربي" كادت تدلّ على الجربي في علاقته بالتجارة. ورجع إلى مجموعة من وثائق الأرشيف الوطنيّ ليجيب عن إشكاليّة مهمّة طرحها، وهي: هل توجد علاقة متميّزة بين التفكير الديني المذهبيّ لأهل جربة وأنشطتهم التجارية خلال العهد العثمانيّ؟[4]. وكان أشار قبل ذلك إلى أن أهل جربة قد استندوا خلال العصر الحديث تحت السلطنة العثمانية على النشاطات الاقتصادية

---

1 مصلح: م.س. ص116.
2 قوجة: مجلة الحياة الثقافية م.س. ص21.
3 مصلح: م.س. صص110–126.
4 المريمي: م.س. صص235–248.

التي كانوا يتعاطوْنها للحفاظ على نفوذهم وتدعيمه. كما رسّخوا تفكيرهم المذهبيّ الإباضيّ لبناء حياة جماعويّة ترْفد أنشطتهم الاقتصادية وتحافظ على مكانتهم في الجزيرة [1]

أمّا القيمة السياحيّة لجربة فلمْ نجد لها ذكْرًا في الكتاب، فابن "جزيرة الأحلام"، لا يشير إلى أهمّية جهته سياحيًّا، ولا يشير إلى التغيّر الذي طرأ عليها بتمركز هذا القطاع الحيويّ بها وانتعاشه.

فنظرًا لموقعها بالحوض الشّرقي للمتوسّط وخاصة لكونها تبعد فقط ثلاث ساعات بالطائرة عن جل البلدان الأوروبية، أصبحت جزيرة جربة قِبْلة عدد كبير من السياح الباحثين عن التفرد والهدوء وجمال الطبيعة. حيث نجد على مجموع 125 كلم من السواحل أكثرَ من 20 كلم من الشواطئ الرملية وذلك بالمنطقة الشمال شرقية أي بالجهة المقابلة لأقدم مداخلها عبر آجيم. وحتى بدايات السنوات الخمسين كانت هذه الشواطئ تقصد في فترات قصيرة من السنة، وخلال بعض الطقوس كزيارة الأولياء الصالحين المتواجدين على السواحل، ولمْ يكن لسكان الجزيرة نشاط بحريّ ترفيهيّ.

ولكن منذ التجربة الرائدة التي خاضتها السلسلة الفندقية "كلوب ماد" بدا النشاط السياحي يبرز بجربة شيئا فشيئا. فقد ركز مؤسس النادي بجربة س1374هـ/ 1954 قرية سياحية صغيرة من الاكواخ الصيفية على ضفاف البحر معتبرًا جربة "تاييتي الصغرى".

وبعد هذه التجربة تتالت البناءات السياحية وتراصت على سواحل الجزيرة. وكان أوّلها نزل "الجزيرة" المؤسس س1381هـ/1961 على بعد عشر كلم شرق حومة السوق وبجانبه نجد نزل "قصر أوليس" المؤسس س1384هـ/1964 من قبل القطاع العام.

ومن باب التشجيع والدفع للاستثمار في ميدان السياحة فتحت الدولة التونسية المجال للقطاع الخاص لتصبح ليوم المنطقة السياحية بجربة تمتد على أكثر من 20 كلم بين آغير بالجنوب وحومة السوق بالشمال. الطاقة

---

1 المريمي : م.س، ص203 وما بعدها.

الاستيعابية الفندقية للجزيرة تطورت من 8300 سرير س1395هـ/1975 إلى 39000 سرير س1423هـ/ 2002. وتمثل حومة السوق بمطارها ونزلها في الوقت نفسه المركزَ القديم والحديث للجزيرة، وهي تحوي أغلب الخدمات وخاصة الإدارية على مستوى الولاية.

وفي المقابل تتميز ميدون بوظائف قطاعية متصلة بالتنمية السياحية.

وبقيت آجيم محافظة على دورها كمكان عبور تقليديّ من داخل البلاد إلى الجزيرة وهي ما تزال إلى اليوم تعتمد على الأنشطة التقليدية المرتبطة بالصيد البحري.

ولكن، منذ س1427هـ/ 2006 ومع فتح مركز الترفيه والتنشيط الخاص "الملقى"، بدأت تعيش فترة اقتصادية جديدة تتوجه إلى سياحة مختلفة تجد ركائزها في مشروع بعث المنطقة السياحية بأجيم.

وبهذا يتبيّن كيف تغيرت ملامح الجزيرة كثيرا منذ 1380هـ/ 1960 مع تمركز المنطقة السياحية وتوسيع المطار والتجمعات السكنية وتعريض الطرقات[1].

---

1 راجع : جربة والسياحة، على الموقع : www.djerbamuseum.tn
نشرية جزيرة جربة–جرجيس. على الموقع : www.tourisme.gov.tn

3. تراث الإباضيّة ونصيب المالكيّة : هل الحلّ في تبادل الإقصاء ؟

لقد كان المحور المركز في الكتاب، هو الحديث عن الحضارة الروحيّة والفكريّة في جزيرة جربة.

فكان الابتداء بالفتح الإسلاميّ س47هـ/668م، وأكّد المؤلّف على الأفكار التالية :

/ الفتح الإسلاميّ هو فتح مبادئ ومثل عليا.

/ الحرْب كانت في الإسلام آخر الحلول[1].

/ تعاليم الإسلام تنصّ على ثلاثة مبادئ: الإسلام — الجزية–الحرْب

/ جنود الفتح الإسلاميّ كانوا دعاة بالدرجة الأولى محاربين بالدرجة الثانية

/ سكّان جربة أبدوْا موافقة تلقائية على الإسلام = مسالمة / لاعنف

/ أهل جربة كانوا يتطلعون إلى الفتح الإسلاميّ، والتخلص من استعباد الرومان وظلم البيزنطيّين المتمثل في خنق الحريات والتعسّف الضريبيّ وتمييز العائلة الحاكمة

/ دعوة الإسلام قام بها الفاتحون في جربة على وجه الإقناع والبيان، ولمْ يكن همّهم الغنائم والسبْي.

ويذكر الثعالبي(ت1363هـ/1944) أن معاوية بن حديج(ت52هـ/672م) لما استولى على مدينة بنزرت، وهي من أهم الثغور الإفريقية، أراد أن يتقبّض على جزيرة جربة لصيانة سواحل البلاد من مراكب الروم ودفع غاراتهم عليها. فكتب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري عامله على طرابلس أن يخرج بالأسطول لغزوجربة وإجلاء من بها من الروم فهاجمها وافتكها عنوة من

---

1 راجع : أبو زهرة: نظرية الحرب في الإسلام/ غمق: نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام. / عبدالفتاح : المصحف والسيف.

أيديهم وسهل على المسلمين أن يراقبوا حركات أعدائهم في البحر مراقبة صارمة[1].

/ الإسلام دخل الجزيرة ولمْ يخرج منها، فلمْ يحدث من أهلها ارتداد كما حصل في جهات كثيرة من إفريقيّة، قبل إنشاء مدينة القيروان أول حصن في الإسلام س50هـ/670م

/ جربة كانت، إثر اعتناق أهلها للإسلام، مستقلة استقلالاً داخليًّا لاستقرار الدين الجديد فيها من أوّل فتحها.

/ بقيت الجزيرة منعزلة عن ولاة الحكم الأمويّ ولمْ تخضع لها، ولمْ تشارك في الثورات عليها، وحافظت على الحياد والسلام إلى أواخر ق3هـ/9م.

وقد اغتنم بن يعقوب إشارته إلى مطاعن ابن خلدون(ت808هـ/1406م) في سكان جربة، ووصفه إياهم ب"الوحْشية والهمجيّة والمروق عن الدين"، ليجلّيَ العقيدة الإباضيّة، ويدافع عنها وعن تاريخها.

ونلخّص ما عرَضَه فيما يلي:

/ تعريف الإباضية وفرزهم من فرق الخوارج المتطرفة يتوقف على النتائج الصحيحة التي نتجت عن الحروب والخلافات الواقعة من عهد عثمان (ت35هـ/656م) إلى خاتمة حرب صفّين (37هـ/658م).

/ طغيان الدولة الأمويّة وجبروتها وتيار الشيعة ودسائسها قد فعلا أفعالاً شنيعة مروّعة لا يقرّها دين ولا يعترف بها قانون إنسانيّ منصف.

/ هؤلاء حملوا رذائلهم ونقائصهم على قوم سموْهم بعد ذلك عن جهل أوتعصّب "خوارج" رغم أن ظاهرة "الخروج" قد وقعت من قبْلهم زمن إمامة عليّ بن أبي طالب(ت40هـ/661م)

/ الإباضية يبْرؤون من هذه التسمية "خوارج"، إذ لا جامع يجمعهم بفرَق الأزارقة والنجْديّة والصفريّة والعجاردة إلا مسألة إتكار التحكيم الذي تمّ بين عليّ ومعاوية بن أبي سفيان(ت60هـ/680م) س38هـ/659م.

---

1 الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا ص42.

/ المخالفون[1] خلطوا بين الإباضية والخوارج، وزيّفوا الحقيقة، ونسبوا إلى الإباضية كثيرًا من المساوئ.

/ الإباضية لا يستبيحون مالاً ولا قطرة من دم موحّد.

/ المذهب الإباضيّ له امتيازات عن غيره من المذاهب الإسلامية:

- أوّل من أنكر الحكم بغير ما أنزل الله ووقف في وجه الظلم والظالمين.

- أوّل من دوّن الحديث، فكان ديوان جابر بن زيْد (ت93هـ/711م)، ولمْ يعد الآن موجودًا، إذ يبدوأنه أُتْلف مع بقي المخطوطات من قِبَل المغول عند هجومهم على بغداد.

وكانت رواية الحديث بهذا خالية من الوضع والإسرائليات. ولا يعتمد الإباضية الأحاديث الموضوعة التي اعتمدها غيرُهُم، وبنوْا عليها كثيرًا من الأحكام الخاطئة في الأصول والفروع فكثرت اختلافاتهم وتفرّقوا وتعادوْا.

- رفع الإسلام في الآفاق شرقا وغربًا، وانتشر المذهب في جزيرة العرب وما جاورها كالعراق واليمن ومصر وشمال إفريقيا قبل أن تتكون المذاهب الأخرى، وقبل ظهور المعتزلة.

/ أقام الإباضية دولا مستقلة في اليمن وحضرموت وعُمان، وتعاقبت على الحكم زمنًا طويلا إلى العصر الحاضر.

/ انتشرت مبادئ الإباضية العادلة منذ ق1هـ/7م، وهي مستمدة من القرآن والسنّة الصحيحة، ولا تزال راسخة في سكّان جربة، وجبل نفوسة، ووادي ميزاب، ووارجلان، وغيرها.

---

1 أطلق الإباضية في جربة لفظتيْ "مخالف" و"موحّد" على المالكيّة وعلى الأتراك الحنفيّة لخلافهم معهم في المذهب، ولأنهم لمْ يكونوا في نظرهم مشركين. وقد وصف بن يعقوب تميّز أحد علمائهم قائلا: "انتهى إلى الدرجة القصوى وساد فيها على الموافقين والمخالفين" (المصدر ص360)، وأوْرد قصيدة للباروني ينعت فيها المالكيّة بأنهم من "غير الجنس" (المصدر ص112) /المريمي: م.س.ص298.

/ لمْ يتبع أيمة الإباضية أهل البدع والإرجاء، بل طهّروا عقيدتهم من الزيغ، وعملهم من أدران المعصية، واحتفظوا بصفاء المنبع.

/ من قواعد المذهب الإباضيّ: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب الولاية والبراءة ن وعدم تمام الإيمان إلا بالعمل الصالح، وأنه لا أمل للعاصي الذي يموت دون توبة في رحمة الله

/ التاريخ الإباضيّ لمْ يحْض بالعناية الكاملة رغم أهميته

/ ضرورة دراسة سيَر أيمة الإباضيّة وتاريخهم لتتوضح الصورة عن التاريخ الإباضيّ[1].

ولعلّ بعْضًا من هذه الأحكام في حاجة إلى مراجعة[2].

وقد بيّن بن يعقوب[3] أن علماء الجزيرة قاموا بعْد الفتح بتعليم الناس دينهم الجديد، واجتهدوا في نشر العلم، فأنشؤوا المدارس في المدن والقرى وجلبوا لها المدرّسين، وأقبل سكان جربة على الإسلام يتعلمون مبادئه وتشريعاته، فانتشر في ربوعها، ونشط العلماء، وكتبوا في تفسير القرآن، وشرح الحديث بلغتهم الأمازيغيّة، وظلت هذه لغة التأليف إلى أن انتشرت اللغة العربية فيما بعد، حينما أنشأ مشائخ جربة مدارس تعليم العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، ومن بين مؤلفاتهم في الفترات الأولى:

/ ترجمة مدوّنة أبي غانم بشر بن غانم الخراسانيّ(ق2هـ/8م) في الفقه / مقدمة التوحيد التي ألفت في أواخر ق2هـ/8م باللغة الأمازيغيّة، ثمّ عرّبها الجربي عمروبن جميع(ت720هـ/1320م) [4] في أواخر ق7هـ/13م[1]

---

1 م.صص18-20.

2 لعلّنا قمنا بشيء منها في كتابنا: المذهبيّ والتاريخيّ والنقديّ. راجع خاصة صص479-496.

3 م. صص67-68.

4 راجع ترجمته: الجعبيري: شخصيات إباضية صص198-211.
وقد ذكر أن عقيدة التوحيد ترجمت س 1905 إلى الفرنسية / أطفيّش: شرح عقيدة التوحيد.
وراجع: كوبرلي: مدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها صص64-69: الوسط الاجتماعي والثقافي لـ"عقيدة التوحيد".

/ عقيدة أهل جبل نفوسة، وكاتبها هوأبوزكرياء الجنّاوني(ق5هـ/11م)[2]

/ مؤلفات أبي سهل الفارسيّ(ق3هـ/9م) مترجم الإمام الرستميّ عبد الوهاب(ت211هـ/827م)

إنّ غزارة فقهاء الإباضيّة الجربيّين وعلمائهم، كانت مخّ كتاب "تاريخ جزيرة جربة"، فبرزت، بحقّ، الثروة العلميّة الجديرة بالدراسة والتناول.

فالذين ذكرهم، وترجم لهُم بن يعقوب، من المصنّفين والمدرّسين، يفوقون الثلاثمائة (300) بكثير. أمّا الآثار فلا تقلّ عن مائة وعشرين، بين التآليف والحواشي، في النثر والشعر، وعلوم الشريعة، واللغة والمنطق، وغيرها [3].

وتجدر الإشارة، هاهنا، إلى المكتبة البارونيّة بمنطقة الحشّان من جزيرة جربة، التي تُعَدّ شاهدًا على الحركة العلميّة الإباضية الجربيّة [4].

ويتناول بن يعقوب تاريخ الدول الإباضية في المنطقة[5]، فيثبت أنّ جربة تمتّعت، حينما أصبحت تحت حكم طرابلس ونفوسة وتيهرت، بما كانت تتمتع به في عهود الاستقلال، لأنها لمْ تُحرم المزايا التي يكفلها النظام الإسلاميّ حين يُقام لأمة مسلمة، إذ تُصان الدماء والأموال والأعراض، وتُتاح فرص الحياة الكريمة الحرّة السعيدة.

ويذكر أنّ سقوط الدولة الرستميّة الإباضيّة بتيهرت س296هـ/908م كان بدايةَ الفتن والثورات، واضمحلال الأمن على النفس والمال والعرض. فالتجأ كثير من المغلوبين إلى جزيرة جربة لمناعتها بالبحْر، يقول :"فمن دخلها كان آمنًا. فقد

---

1 راجع عن لغة الجربيّين: stablo: les djerbiens pp123-141

2 راجع :كوبرلي: م.س. صص69–99

3 انظر، للإثراء والاطلاع على الحركة العلمية لإباضية الجريد:
باجية: الإباضية بالجريد صص53–74 / صص152–184

4 سنورد في آخر هذا الفصل بيبليوغرافيا (2) نستعرض فيها عددًا من آثار علميّة دوّنها إباضيّون تونسيون.
وراجع للإثراء: الجعبيري: ملامح عن الحركة العلمية عند الإباضية بجربة من الفتح الإسلاميّ سنة47هـ إلى أواخر القرن 12هـ

5 م. صص69–75.

كانت جربة مأوى للمستضعفين في خارجها، من قِبَل القبائل القويّة،والهيئات الطاغية التي ألفت استغلال الضعفاء، تدفعها العصبيّة القَبَليّة، والمذهبيّة الحقودة، ويقودها الطمع وهوَس السياسة عند الانقلاب السياسيّ، بتغلّب العبيْديّين على شمال إفريقيا وتمكنهم من الحكم بمعاونة قبيلتيْ صنهاجة وبعض من كتامة بسبب بغضهم للأغالبة لكثرة ظلمهم وجورهم على الناس"[1].

ويورد أن تاريخ وجود الفرق الإباضية بجزيرة جربة يرجع إلى أوّل ق2هـ/8م، وقد حقق اعتناق "أكثر سكّان شمال إفريقيا "مبادئ الإباضية التي جاء بها سلمة بن سعْد بعد س95هـ/713م لخلوّها من التكلّف المصطنع، والاستبداد بالحكم، بل تجعل الأمر شورى بين الناس، فاستقامت أحوالهم، واعتزوا بالإسلام.

ولعلّ هذا التحقيق من بن يعقوب لا دليل له عليْه، ولمْ نرَه قدّمه إن كان، إذ لمْ يُثبت المؤرخون أن غالبيّة سكّان المنطقة كانت إباضيّة ثمّ تحوّلت. وما نجده هوفقط أن أغلب أهل جربة اعتنقوا المذهب الإباضيّ[2].

ومن الجدير بالتذكير أن المصادر التاريخيّة سكتت عما وقع في جربة طيلة ق1هـ/7م، والثلث الأوّل من ق2هـ/8م، فيصعب أن نقرّر تبعيتها لطرابلس أوالقيروان. وإذا اعتمدنا تغلب الإباضية على طرابلس في ق2هـ/8م (127-149هـ/745-767م)، واستيلاءَهم على القيروان س141هـ/759م يمكن أن نتصوّر كيف تسربت الإباضية إلى جربة. ويبدوأن سلمة بن سعد دعا إلى مذهب الإباضية طيلة الطريق،إذ كان لدعوته أثر في طرابلس خاصة قبل مجيء حملة العلم الخمسة الذين أقاموا دولة بطرابلس س140هـ/758م، ثمّ أسس أحدهم، وهو عبد الرحمان بن رستم (ت171هـ/787م) دولة تيهرت، واستمرّت ما بين 160-296هـ/776-908م[3].

---

1 م. ص76.

2 وهو ما ينقله زهير تغلات: الفكر السياسي الإباضي ص166 هـ2.

3 الجعبيري: نظام العزابة، صص18-20.

ويذهب سعْد غراب (ت1415هـ/1995) إلى أن تأسيس دولة تيهرت جعل الخريطة الجغرافية للغرب الإسلامي يطغى عليها في أواسط ق2هـ المذهب الخارجيّ. وهوما دفع

إنّ الإباضيّة فرقة إسلامية، يصنّفها فئة كثيرة من المؤرخين والباحثين، في القديم وإلى الآن، ضمن الخوارج، ولكن ليسوا من غُلاتِها[1].

بيْد أنّ الإباضيّين يعتبرون هذا التصنيف خاطئًا، ولو وقع تمييزهم بالاعتدال، لمَا بين الإباضيّة والخوارج من الاختلاف في الأفكار والمبادئ والمقاصد، كما بيّن بن يعقوب[2].

وتُنسَب هذه الفرقة إلى إمامها السياسيّ عبد الله بن إباض (ت. قبل 86هـ/705م)[3]، وإن كان المؤسس هو الإمام الروحيّ جابر بن زيد (ت93هـ/712م)[4]، وقد كانت التسميات المفضّلة لدى أصحاب هذا المذهب:

/ أهل الاستقامة،

/ أهل الدعوة،

/ جماعة المسلمين

/ أهل الاستقامة والحقّ.

ولمْ يقْبلوا تسميتهم بـ"الإباضيّة" أو "الأَباضيّة" إلا لمّا أصرّ مخالفوهُم على إطلاق هذه النسبة عليهم، ولمْ يجدوا هُم فيها ضيْرًا[5]

الكثير من الدارسين إلى البحث في أسباب شغف البربر بالمذهب الخارجيّ ورأوا في ذذلك إشباعا لنزعة الخروج المتأصلة في البربر، وأبرزوا خاصية التمرد، وهي من أهم خصائص الشخصية البربرية، واعتبروا أن التمذهب بالمذهب الخارجيّ من مقومات الإسلام المغربيّ، وأن المغرب الإسلاميّ سيتحد في إطار المذهب الخارجيّ. العامل الدينيّ والهويّة التونسيّة ص112.

1 راجع على سبيل المثال:
الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة مج1صص58–63
المجدوب :الصراع المذهبيّ بإفريقيّة إلى قيام الدولة الزيريّة صص110–117
قوجة :تاريخ الأباضية الديني والسياسي صص9–13 ...

2 كوبرلي: م.س. صص12–33 / معمّر: الإباضيّة بين الفرق الإسلامية صص610–622.

3 الزركلي: معجم الأعلام ج4صص61–62 / الجعبيري: شخصيات إباضية صص9–18.

4 الزركلي: م.س. ج2ص104 /بولرواح : موسوعة آثار جابر بن زيد الفقهية –الترجمة–

5 خليفات: التنظيمات السياسية والإدارية عند الإباضية في مرحلة الكتمان ص5.

وكغيرهِم من الفرق الإسلامية، يعتمد الإباضية مبادئ اعتقاديّة وأصوليّة وفقهيّة يلتقون فيها ويختلفون مع غيرهم من سائر المتمذهبين.

وأهمّ أصولهم ومعتقداتِهم:

/ صفات الله هي عين ذاته، وليست زائدة عليها

/ تأويل ما يُفهم منه تشبيه الذات الإلاهيّة، وكذلك تأويل متعلقات اليوم الآخر، من قبيل: الميزان، الصراط،...

/ القرآن مخلوق

/ خلود مرتكب الكبيرة في النار، إذا لمْ يتُب قبل موته، وأصرّ على المعصية

/ البراءة من الكافر والمشرك والمصرّ على المعصية

/ بين الإيمان والشرك منزلةُ النفاق، وهي "كفر النعمة"

/ لا شفاعة لأهل الكبائر

/ رؤية الله مستحيلة

/ وجوب انعقاد الإمامة الكبرى بالبيعة

/ جواز الخروج على السلطان الجائر مالمْ تحدث فتنة أعظم...

وكتابهم في الحديث النبويّ هو: الجامع الصحيح مُسند الربيع بن حبيب (ت170هـ/786م)[1].

وتورد الدراسات التاريخيّة[2] أن السلطة المركزية بتونس، وكذلك الإخباريّون الموالون لها، كانوا يتعاملون مع أهل جربة إلى حدّ ق12هـ/18على أنهم إباضيّة خوارج، فيرجعون من الناحية الإدارية إلى شيخهم الأصليّ ومقدّم جماعتهم. ومنذ ق13هـ/19 أصبح التعامل معهم على

---

1 الزركلي : م.س. ج3 ص14 / الجعبيري: م.س. صص58-73.

2 المريمي : م.س. صص248-251.

أساس انتمائهم إلى جربة، فأصبح لسكان الجزيرة، على اختلاف مبادئهم المذهبية، وضع الرعيّة، خاصة مع صدور منشور أحمد باي (ت1272هـ/1855) س 1258هـ/1843، فتبدّلت النظرة إليهم من دينية إلى سياسية. وكان آل بن عيّاد توخوْا سياسة تقوم على تجاوز الاختلافات المذهبيّة بين سكّان جربة، وأعطوْا لعامل الانتماء إلى الجزيرة الأوْلويّة السياسية في إدارة شؤون القيادة التي كانوا على رأسها بجربة، خصوصًا منذ عهد حمودة باشا (ت1229هـ/1814)، حينما وفد أهل جربة عليه بعد استرجاعه للجزيرة س1209هـ/1794، وطلبوا منه اعتبارَهُم "جرَابة" لا إباضية خوارج.

وتعاملت سلطة الباب العالي من ناحيتها مع أهل جربة بطريقتيْن، فأما المقيمون بجربة فقد عاملتهم، إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسيّة في تونس على أنهم خوارج، واستمرت على امتداد تلك الفترة توظّف عليهم ما يُوَظّف على غير المسلمين حتى وإن دخلوا الإسلام فيما بعد. وأمّا غير المقيمين فعاملتهم بمقتضى "القانون السلطاني" وهوأن كل من يسكن بلادًا يكون تحت حُكم نظامها، ويطلَب منه الامتثال لما تطلبه الحكومة المحلية منه. وبذلك اعتُبر الجربيّون رعايا عثمانيّين لا فرق بينهم وبين غيرهم من الرعايا المقيمين خارج بلدانهم.

ومن جهتهم، لمْ يُخْفِ الجربيّون انتماءهم إلى المذهب الإباضيّ أثناء تعاملهم مع السلطة المركزية في تونس أوالسلطة الإدارية خارج البلاد التونسيّة إلى حدّ ق12هـ/18م.

وبداية من عهد حمودة باشا وعلى امتداد ق13هـ/19م، لمْ يعُد الجربيون يتعاملون مع السلطة المركزية بتونس على أساس الانتماء إلى المذهب الإباضيّ بلْ توخّوْا خطاب "التقيّة" أو"الكتمان"[1]، فأصبحوا يخاطبون البايات

---

1 التقيّة هي إخفاء الإيمان في مسلك الكتمان، وتخالف فيها الإباضية مذهب الصفريّة والأزارقة والنجدات، فهم يدعون إلى الخروج على الحُكّام الجوَرة.
والكتمان، هوالمحافظة على الدين بحيث لوأظهر لعُطّل، وهو عند الإباضية رابع مسالك الدين الأربعة: الظهور — الدفاع — الشراء–الكتمان. وهووضع المسلم مغلوبًا،

الحسينيّين ك"جرابة" لا إباضيّة، في حين لمْ يتخلّوْا عن تعاملهم فيما بينهم على قاعدة الانتماء إلى المذهب الإباضيّ، وواصل أعيان جربة اشتراط الانتماء إلى المذهب على مستوى سوق العمالة التي كانت بأيديهم، كما واصل الإخباريّون من الجربيّين خلال ق13هـ/19م اتخاذ الخبر المتعلق بالإباضية مركزًا لأخبارهم، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من أمثالهم في القرون الماضية. ثمّ إنهم لمْ يتخلوْا عن مميّزاتهم في إقامة شعائرهم الدينيّة، ولمْ تكن روابط القرابة الدمويّة وروابط القرابة الأخرى مثل الجوار في ق13هـ/19 بالنسبة إليهم سوى روافد هامّة مدعّمة للانتماء المذهبيّ مثلما كان الأمر في القرون السابقة.

ومع دولة الاستقلال، ترسّخ مفهوم "المواطنة" في التعامل مع إباضيّة جربة، وفي تعامل هؤلاء مع أبناء بلدِهِم تونس، ممن يخالفونهم في مسائل عقديّة وفقهيّة يكاد لا يُلتفَت إليها في غمرة الحياة اليوميّة، والمشاغل الوطنيّة، والقضايا المصيريّة، وفي خضمّ تبادل المصالح الاجتماعيّة والاقتصادية والمنافع العلميّة والثقافيّة.

فالجربيّون الإباضيّون مواطنون، تونسيّون، أصيلون، لا وافدون، وتاريخُهم مكوّنٌ من مكوّنات البلاد التونسيّة، مثله كمثل تاريخ الحنفيّة، والمالكيّة، والأشعريّة، عبر القرون في البلاد، مَنَح التراثَ التونسيّ العريق غناءً وتنوّعًا بارزيْن.

وقد انبنت الدولة التونسيّة الحديثة بسواعد التونسيّين ومواهبهم وعطاءاتهم الفكريّة، إباضيّة، ومالكيّة أشعريّة، وأحناف ماتريديّة، بل لا يُسْأل عن نسبة الكفاءات التونسيّة المذهبيّة، ولا تُدْرَى تلك عند رصْد الامتياز

ويجيز فيه الإباضية طاعة الحُكّام الموحّدين، وحتي المشركين، مع الاحتفاظ بالإيمان في القلب تقيّةً حتى يمكنهم الظهور وإقامة دولة مستقلة. ويهتمّ الإباضية في مرحلة الكتمان بالإصلاح الداخلي للمجتمع والمحافظة على الدّين، ويبتعدون عن المجال السياسي. ويعوّض فيه "نظامُ العزّابة" الإمامةَ الكبرى، فيكون هذا النظام فيه بمثابة مجلس الشورى في فترة الظهور والعزّة، غير أن السلطة التنفيذيّة تختلف بين الفترتيْن.
أطفيّش: شرح عقيدة التوحيد ص113 / كوبرلي: م.س.صص458-461 / الجعبيري: نظام العزابة ص23 / جهلان: التفكير السياسي عند الإباضيّة ص247.

أو الإخفاق. وحتى في المجال الدينيّ أضحى لتجاور جوامع الإباضيّة مع جوامع المالكيّة في العاصمة أوالجزيرة، وإمامةِ أحد أتباع المذهبيْن للآخر في غير حرج ولا ازدراء، بُعْدٌ رمزيّ في أنّ تصنيف مواطنين تونسيّين إباضيّةً ليس إلا حفاظًا على مميّز حضاريّ، وعلى ناحية مغايرة في التراث الدينيّ التونسيّ، واعتبارًا لمقوّم ثقافيٍّ إيجابيّ، يكتنز روافد وتراكمات وأطروحات مغايرة. وليس هذا التصنيف أبدًا، تمجيدًا، أووصْمًا، أوميْزًا، يُغذّي النزعة المذهبيّة المتعصّبة، أويتناول مسألة "الأقليّات" بخلفيات وأهداف غير سويّة.

ونرجع إلى كتاب "تاريخ الجزيرة"، فلكأنّ سالم بن يعقوب يعتبر "النكّار" فرقةً إباضيّة لمّا أرّخ لوجودهم إلى جنب أصحابه "الوهبيّة" بجربة، تحت عنوان "فرق الإباضية بجربة"[1] في حين يذهب يحيى معمّر الإباضيّ الليبيّ إلى أن "النكّار" فرقة مستقلّة لها مقالاتها الخاصة بها، وليست من فرَق الإباضية ولا جزءًا منها[2].

فقد ذكر سالم بن يعقوب أنهم جاؤوا إلى الجزيرة لما وقع ما سمّاه بـ"تبلبل في الآراء" أيام حكم عبد الوهاب الرستميّ، ويورد أنهم فرقتان:

/ الخلْفيّة، وهم أتباع خلف بن السمح المعافري (ت. بعد221هـ/826م)[3]

---

1 م.ص76. وكذلك فعل الجعبيري، وزاد على بن يعقوب أنّ فرق الإباضية بجربة ثلاث:
/ الخلفيّة
/ النكّار
/ الوهبيّة،
فلمْ يُدمج الخلفيّة تحت النكّار كما صنّف بن يعقوب . نظام العزّابة صص157–158، والعمل نفسه قام به ليفيتسكي. راجع:
ليفيتسكس: المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية. ص 201
تغلات: الفكر السياسي الإباضيّ صص215–291، تناول فيها تاريخ الافتراقات الستة، وفترات التعايش والتناحر في تاريخ الإباضية

2 معمّر: الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة ص352. وقد فصل هوالآخر بين النكار والخلفية صص352–353

3 ويظهر أن بن يعقوب وافق المؤرخين الذين تعجبت منهم معمّر وقال: "والعجب من المؤرخين وكتّاب المقالات أن يتأثروا بالجانب السياسيّ هذا التأثر الكبير، فيعتبروا هؤلاء المقاتلين (يعني الخلَفيّة) فرقةً، ويعتبروا خلَفًا إمامًا لفرقة ولوأن كل إنسان سخط على حكم ما فثار

/ مستاوة، وهي قبيلة بربرية بالجنوب الشرقيّ[1]، أتباع عبدالله بن يزيد الفزاريّ (ق2هـ/8م)[2].

وقد نقل أن نشأتهم تعود إلى عهد ابن أبي كريمة (ت150هـ/767م)[3] ، حينما أخذوا بقوْل أهل القدر، "لكنهم أظهروا التوبة فردَّهُم المسلمون إلى المجالس، ثم أظهروا الخلاف في أيام الربيع، وتمادوْا عليه، فنفاهُم المسلمون من أماكنهم وطردوهُم من مجالسهم، ولمْ يخالفوا في العقيدة ولا في شيء من أمور الدين، وإنما خالفوا في مسائل مخصوصة "[4]. أما نكّار المغرب فهُم الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب، حيث استندوا بقيادة يزيد بن فندين اليفرنيّ على مبدأيْن:

/ لا تصحّ إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

/ تصحّ الإمامة بشروط إذا شرطها الناس عند البيعة، وتسقط لمخالفة تلك الشروط[5].

ولمْ يغُصْ بن يعقوب في التشنيع على النكّار، كما فعل معمّر، وإنما اكتفى بالإشارة إلى أن بعضهم أراد أن يشتهر بما ينافي هذا الاسم فسمّوْا أنفسهم "محبوبين"، واشتهروا بذلك إلى الآن، وسمّيتْ الجهة التي يسكنونها :حومة المحبوبين[6]. ولكن رغم ذلك بقي لفظ "نكّار" أو "نكّارة" يلاحقهم منذ العهد الحفصيّ إلى الآن[7].

عليه وقاد مجموعة من الناس للقتال يُعتبر رئيسا لفرقة وتعتبر مجموعته فرقة، لضاقت كتب التاريخ عن تسمية الفرق...".معمّر: م.س. صص346-347

1 عزيزة بن تنفوس: أضواء على إدارة جربة، ضمن: دراسات حول جزيرة جربة، ص154.

2 راجع حول هذه الشخصية مقال ويلفريد مادلونغ (أستاذ سابق الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد) على موقع www.thehistoryofarabia.blogspot.com

3 راجع الجعبيري: شخصيات إباضية صص19-30

4 م. ص78.

5 راجع: معمّر: م.س.صص326-336.

6 م. ص77. ومن هذه القرية بميدون تنحدر عائلة المناصل والديبلوماسيّ محمد بدرة (ت1393هـ/1973).

7 المريمي : م.س. ص291.

وتُطلق "الوهبيّة" في جربة على الذين يقطنون جهتها الغربية والشمالية. وينقل الجعبيري عن سالم بن يعقوب نصًّا يوضح الخطّ الذي يُغْلق على منطقة الوهْبيّة ويفصلها عن النكار، فيقول: "يمرّ الحدّ الفاصل بينهما من الشمال الشرقيّ إلى الجنوب الغربيّ من الجزيرة. فهويبتدئ شمالاً بين مسجدْ الهوارى ومدراجن بحومة مزراية، وينتهي بالنسبة لحومة صدغيان إلى جنوب جامع بوليمان. ثم يأخذ الحدّ إلى الغرب من مدرسة صدغيان مغربًا يمرّ على حدود مساكن حومة والغ اليوم، ثم يأخذ طريقه على مسجد قوجيل بحومة بني ديس (بني ديغت)، ثم يغرب إلى جنوب الحارة الصغيرة. ثمّ يأخذ إلى القبْلة غربي حومة الماي، ثم ينعطف شرقًا إلى غربي جامع الشهود، ويشقّ حومة سدويكش إلى أن ينتهي إلى شمال ورسيغن إلى أن يصل إلى شمال جامع سيدي ياتي، وحومة ربانة داخلة في قسم الوهبية لأن الشيخ عيسى الرباني تلميذ أبي مسور..وأما أراضي مليتة فإنها كانت غير مسكونة.."[1].

ولئن لمْ يُتفَق على تحديد أصل هذه التسمية "وهْبيّة" التي تعتبَر إحدى انقسامات الإباضية ذاتها وأهمّ مدارسها [2]، فإنّ البعض يفصل بأنهم أتباع عبد الوهاب الرستميّ الذين ناصروه في تولي الحكْم، ويرى أن كلّ من بقيَ من الإباضية في شمال إفريقيا هم وهْبيّة رغم أنهم كانوا إلى منتصف ق4هـ/10م أقلية يسخر منهم "النّكار"، ولكنّ حكمة أبي مسور(ت. منتصف ق4ه/10م) عزّزت جانب "الوهبيّة" وكثّرتْ أتباعهم، وقضت على بقايا "الخلْفيّة" [3].

يقول بن يعقوب: "لما دخل أبو مسور جزيرة جربة في أواخر القرن الثالث وجد أهلها، وهبيّتهم ونكّارهم، يجتمعون في مجلس واحد تحت رئاسة خاله خلف بن أحمد الزواغي السلاوي. وكانت الخلفيّة هي الفرقة القويّة، كثيرة العدد والعدّة، بينما كانت الوهبيّة آنذاك ضعيفة مغلوبة على أمرها، فترأسها أبومسور، وأخذ يدافع عنها، ويصلح مجتمعها، ويبثّ فيها علمه، ويجمع شتاتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى كثر عددها وصارت لها الكلمة

---

1 نظام العزّابة ص162.

2 ليفيتسكي: م.س. 201 / المريمي: م.س. صص290–291.

3 الجعبيري: م.س. صص153–161.

النافذة، ففتح فيها المدارس، ونبغ الكثير من العلماء، ونشروا العلم في الجهات الغربيّة... استطاع أبومسوَر بورعه وعظمة شخصيّته أن يُوحّد أهل جربة، فلمْ يبْق على مذهب خلف بن السمْح إلا النزر القليل"[1].

ومن الواضح أنّ بن يعقوب، كسلفِه من إباضيّة جربة، يعتبر الوهْبيّة مذهب الحقّ، والنكّار مذهب الضلال والتطرّف، وهوينقل عن الشمّاخي أن "أكثر وهبيّة جربة اهتدت على يد أبي مسور، وكانت قبْلُ على مذهب الخلفيّة من الإباضيّة"[2]

أما الحيلاتي فقد عرَض وقائع التنازع بين الوهْبيّة ومستاوة، ونوردها فيما يلي:

- 609هـ/1213م: حادثة المسجد الجديد، فكانت الدائرة على مستاوة[3] ولا نجد توضيحًا حولها.

- 616هـ/1220م: واقعة الماي[4]، وهي منطقة فاصلة بين المجموعتيْن، ولا نعرف السبب ولا النتيجة.

- 620هـ/1224م: وقْعة كراء وهو أغرم مسعود، والدائرة أيضًا على مستاوة[5]، وهي واقعة جرَتْ قرب قصر مسعود قرب القنطرة[6].

- 642هـ/1245م: واقعة بطال، وفيه القيمة أو القسيمة الأولى[7]، وهي عملية تبادل الرهائن للحدّ من النزاعات[8].

- 668هـ/1270م: واقعة شير خنْفوس، وقتَل أولادُ أبي عيسى أحمدَ بنَ نوح.

---

1 م. صص80-85.
2 م. صص80-81.
3 الرسائل ص45.
4 الرسائل ص44.
5 الرسائل ص45.
6 الرسائل ص44.
7 الرسائل ص45.
8 الرسائل ص45 هامش120.

ولمْ نعْرف قضيّة الواقعة، حيث يكتفي قوجة بالتعقيب: "لعلّه يقصد شط الخَنْفوس الواقع على الساحل الشماليّ للجزيرة غربيّ حومة السوق، وهوالذي يوجد أمامه جامع سيدي سالم آذروم. أمّا شير فأصلها هِنْشِير، موقع أثريّ، وأحمد بن نوح لمْ نعْثُر على ترجمته، وهوالمقتول من طرف أولاد أبي عيسى الذين ينتمون إلى مستاوة"[1].

- 906هـ/1501: واقعة عام السبْخة، لوقوعها في السبخة الكائنة بين سوق مستاوة المعروف بالسوق القبْلي وحصن القشتيل[2]،ولا نجد تفاصيل عنها.

- 966هـ/1559: الفتنة بين سدويكش (قبيلة بربرية قديمة استقرت في جربة) ومستاوة والأتراك وعرب الحزم في مرسى سدويكش، فكانت الدائرة على سدويكش وتمادت الفتن والقتل بين الفريقيْن سبعة أشهر[3].

ويفيدنا المريمي أن الوثائق التاريخيّة التي رجع إليها لا تميّز بين الإباضية الوهبيّة والإباضية المستاوة. وقد اعتمد الجهاز الإداريّ من خلال دفاتر العشر على تقسيم جربة إلى "قسْم شرقي" و"قسم غربي"، وهوما يذكّرنا بتقسيم الدفاتر الجبائيّة الراجعة إلى ق12/18هـ بتقسيم الجزيرة إلى "أخماس وهبيّة" و"أخماس مستاوة"، دون أن تكون مطابقة له تمامًا.

ولمْ يقُم المريمي بتصنيف العائلات الإباضيّة من الفريقيْن، لأنها كانت في العديد من الحالات تحمل الاسم نفسَه وتسكن الجهتيْن، إذ كان يربط بينها في الأصل روابط دمويّة، ولمْ يفرّق بينها إلا الانتماء المذهبيّ، ولا ننسى أثر حادثة تبادل الرهائن التي ذكرها الحيلاتي آنفًا[4].

وتدلّ الفروق القليلة، الطفيفة، والتي لا تعدو بعض الفروع والهوامش البعيدة عن الأصول والأسس بين الإباضية الوهبيّة والإباضيّة المستاوة، كما

---

1 الرسائل ص48.

2 الرسائل ص51.

3 الرسائل ص5.

وراجع للإثراء: باجيّة: علاقات النكّار بالموهبيّة بمنطقة الجريد، ضمن كتاب: الإباضيّة بالجريد صص86-89

4 المريمي : م.س. صص225-226

يثبت الجربيّون[1]، أن الصراع بينهما كان سياسيًّا[2] في الأساس. فلقد سعت الوهبيّة أن تظهر بمظهر الأجدر لتولي القيادة السياسية والاجتماعية خلال العصر الحديث على حساب مستاوة الضعيفة. وقد كان ذلك، من خلال تفاوت القدرات الاقتصاديّة والدفوعات الجبائيّة لكلّ من الجماعتيْن، وأخذت مستاوة المنطقة الشرقيّة والجنوبيّة الشرقيّة الأقل ملاءمة طبيعيًّا وبشريًّا، وسكنت الوهبيّة المنطقة الغربية والشماليّة الغربية من الجزيرة، وبرّرت تفوّقها الماديّ والسياسيّ بالانتساب الفكريّ للمذهب الإباضيّ الوهبيّ، فخصّوا أنفسهم بقمّة الهرم على مستوى سلم القيَم الاجتماعيّ، وخصّوا أهل مستاوة بمكانة دنيا بالنسبة إليهم، لكنها تفوق مكانة جميع الفئات الأخرى المكوّنة للمجتمع في جربة خلال العهد التركيّ[3].

لقد كان القسم الأكبر من "تاريخ جزيرة جربة"[4] عرض المدارس العلميّة الإباضيّة، من خلال سرْد تراجم الشيوخ الإباضيّين الذين لمْ يُبارحوا مساجد الجزيرة، هذه المساجد التي وإن وصفها بن يعقوب ماديًّا، وذكر تواريخ تأسيسها، فإنّه لمْ يقفْ عند عددِها اللافت، حتى وُصِفت جربة بـ"جزيرة المساجد"، كما لمْ يقفْ عند أهمّيتها التاريخيّة سياسيًّا، واجتماعيًّا، وقيمتها الفنّيّة والمعماريّة التي لاحظها المرابط، ومنها:

/ طرافة التخطيط، حيث يتميّز بالانفتاح

---

1 راجع ردّ بن يعقوب وقاسم قوجة على مقال محمد حسن : إباضية جربة وعلاقتهم بالفاطميّين والزيريّين مجلة الحياة الثقافية عدد38 س1405ه/1985 ص249.

2 معمّر: م.س. ص347.

3 راجع: بن تنفوس: م.س. صص148–164 / المريمي : م.س. صص291–292.

4 نعتبر هذا القسم يبدأ في ص80 حيث العنوان: الإباضية ومدرستها العلمية الأولى. وهو الأنسب حسب رأينا، لوحدة الموضوع.
أما الجعبيري فقد جعل هذا العنوان تابعا للقسم الأول الذي عنونه ب"جغرافية الجزيرة وتاريخها الإباضية ومدرستها العلمية"، ويبدأ القسم الثاني عنده في ص157 تحت عنوان "حومْ الجزيرة ومدارسها"، معتمدا في ذلك حدّ نهاية الجزء الأول وبداية الثاني من كتاب بن يعقوب.

/ تنوّع الأساليب الإنشائيّة، ففيها المساجد المنقورة المعبرة عن التواصل بين التقاليد البربريّة القديمة، والعمارة في الحقبات الإسلاميّة. وفيها المساجد الناتئة المتنوّعة المواقع والوظائف، كمساجد الشواطئ الصغيرة، والتي هي بمثابة أبراج المراقبة ونقاط الإنذار المبكّر، وكالمدارس العلميّة المتميزة بتعدد حلقاتها من غرف طلبة وغرف تدريس ومنافع اجتماعيّة

/ التفرّد الزخرفيّ وأصالة القيَم الجمالية[1]

كما لاحظ كثرة العناصر المعمارية المرتبطة بالمسجد الإباضيّ، من العناصر المرتبطة بالشعائر، إلى المرتبطة بالأمن، إلى تخزين الماء، إلى العناصر الإنتاجيّة والربحيّة كمعاصر الزيت ودكاكين النسيج...

إلى جانب ظاهرة تجاور المساجد والمدافن التي تُصنّف إلى ثلاثة:

- أضرحة فرْديّة لشخصيات دينية أوجهاديّة يحمل المعلم في الغالب اسمها.

- رياض محدودة كتلك التي نجدها عند الجامع الكبير بالحشّان والتي تضمّ رفات أبرز شيوخ الوهبيّة من البيت اليهراسني وغيرهم.

- مقابر عامّة قريبة من المساجد بمعدّل مقبرة عند كلّ مسجد مركزيّ في الحومة[2].

وقد أشار الجعبيري بإيجاز إلى أنّ مساجد الوهْبيّة تختلف عن مساجد النّكار، بأنّ الأُولى تكون صومعتها في الزاوية الشمالية الشرقيّة داخل المسجد، ومدارج الأذان في الزاوية الشماليّة الشرقية خارج المسجد. أما الثانية فتكون صومعتها في الزاوية الشمالية الغربية داخل المسجد، ومدارج الأذان في الزاوية الجنوبية الشرقية خارج المسجد[3]. وهي معلومة لا تخلومن طرافة.

---

1 المرابط: القيمة الفنية والتاريخية لمساجد جربة. ضمن: دراسات حول جزيرة جربة. م.س. صص74– 77/ وراجع كتابه: جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصريْن الحفصي والمرادي

2 المرابط: م.س. صص36–104/ 189 / بربو: م.س. 95–96 / وراجع الحيلاتي: في مشاهد أضرحة العلماء وأمكنتها بجربة. الرسائل صص73–85.

3 نظام العزّابة ص11

لقد قدّم بن يعقوب في مستهلّ القسم الثاني بسطة عن التعليم الدينيّ الإباضيّ الذي تواصل إلى عصره هو[1]، ولا يختلف عن نظيره المعاصر في جامع الزيتونة وجامع الأزهر، مثلا، إلا بأنه:

- أهليّ غير نظاميّ، إذ لا يُسنَد إلى المتعلّم شهادة مكتوبة تخوّل له الوظيف.
- الخصوصيّة العقديّة لعدد من كتب التدريس، وأهمّها:

/ عقيدة التوحيد لعمروبن جميع[2].

/ ديوان العزّابة في الفقه، ويُسمّى بتسميات أخرى منها: "ديوان الأشياخ"، "ديوان الغار"..، ألّفه، كما يذكر بن يعقوب، سبعةُ علماء من جربة ونفوسة، ولكنّه لمْ يُترجم إلا لستةٍ منهم[3].

/ العدل والإنصاف للوارجلاني(ت600هـ/1203م) في أصول الفقه

/ حائيّة ونونيّة أبي نصر الملوشائيّ النفوسيّ(ت. في النصف الأول من ق7هـ/13م) في أصول الدين والفقه

/ التحف في أصول الدين لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي الدمّري (ت471هـ/1078)، وهو أوّل كتاب في أصول الدين أُلّف في مدرسة أبي مسور الجربيّة[4]

/ المنظومة الجادويّة وشرحها

---

1 م. صص111-120

2 راجع، إلى جانب ما ذكرْنا سابقًا : الصادق بن مرزوق : عمروبن جميع عصره وحياته وكتابه.ضمن : أعلام من الجزيرة صص40-50

3 م. صص107-110، ولإباضيّة الجزائر ديوان أيضًا،والاثنان أُلّفا في الفترة نفسها ق5هـ/11م، ومادتهما هي الفقه، ويذكرون أن مؤلفي ديوان وادي أريغ الجزائريّ ثمانية.ولذلك يقع الخلط بينهما. راجع: سعيد بن يوسف الباروني: ديوان غار أمجماج بجربة والعلماء السبعة الذين ألّفوه. مجلة الحياة الثقافية تونس العدد240 السنة 38 أفريل2013/1434هـ صص102-112 /الجعبيري: جماعة غار مجماج. نظام العزابة صص167-171.

4 راجع: الجعبيري: تقديم كتاب التحف.ضمن: دراسات حول تاريخ الجزيرة م.س. صص89-119

/ الوضع للجناوني النفوسيّ(ق5هـ/11م)، وهو ملخّص في أصول الدين والشرعيّات كما ينعته مصنّفه [1].

لقد بدأ بن يعقوب بمدرسة الجامع الكبير أوجامع أبي مسور، وقد وصفها بأنها "مدرسة علميّة عظيمة دام نشاطها قرابة 11 قرنًا، وتخرّج منها العديد من علماء الإباضيّة بجربة ونفوسة وميزاب"[2]، متحسرًا على ضمور دورها العلميّ في عصره، "فهي اليوْم تشكولربها كما تشكوكثير من المعاهد الإسلاميّة في أطراف العالم الإسلاميّ"[3].

ويعتبر الإباضيّة الجربيّون جامع أبي مسور منارة أشعّت على مستويات مختلفة ومتفاوتة، داخليّة وخارجيّة، منها ما يتصل بمصير الجزيرة، ومنها ما يرتبط ببقيّة ربوع المغرب الإسلاميّ. وهوما بوّأ جربة مكانة لا تقلّ قيمة في العصر الوسيط عن عدد من عواصم إفريقيّة والمغرب الإسلاميّ. وكانت تمثّل بالنسبة للجنوب التونسيّ ولجبل نفوسة وللجريد ما كانت تمثّله مدينة القيروان بالنسبة لإفريقيّة من حيث الإشعاع الثقافيّ والفكريّ[4].

وتُعتبر المدارس العلميّة ثمرة "نظام العزّابة" الذي استمرّ قائما بالجزيرة إلى أواخر ق12هـ/18.

فما هو تاريخ هذا النظام؟، وما أهمّيته؟

يورد الإباضيّة[5] أنّ أبا زكرياء فصيل بن أبي مسور (ت.النصف الأول ق5هـ/11م) نظر في وضع إباضية بلاد المغرب، ورأى أن عهد "الظهور"[6]، قد ولّى، وقد تكررتْ الهجمات على الإباضية،ففكّر آنذاك في تكوين نظام يتماشى

---

1 راجعه: نشر وتعليق: إبراهيم أطفيّش ص17.
2 م. ص121.
3 م. ص156.
4 محمد قوجة: الأبعاد الحضارية لجامع أبي مسور في جزيرة جربة ضمن: دراسات حول جربة ص 78.
5 م. صص92-110 / الجعبيري: نظام العزابة صص29-57.
6 نذكّر أنّ "الظهور" عند الإباضية، ليس كما عند الشيعة، وإنما هو أحد مسالك الدين، حيث تكون فيه حكومة الإباضيّين مستقلّة ونافذة.

و"الكتمان" لحفظ كيان الجماعة، ولمّ شملهم، وتسيير شؤونهم بأنفسهم، دون أن يتعرضوا لشر السلطان الذي أصبح يخشى ثوراتهم، ويحاول تشريدهم.

وبعد انقراض الدولة الرستميّة س296هـ/908م، جسّد فكرةَ أبي زكرياء تلميذُه أبوعبد الله محمد بن بكر النفوسيّ الفرسطائيّ(ت440هـ/1049م)، وأسس نظامًا يحفظ الدين، ويجمع حوْله الهيئات الإباضيّة بجبل نفوسة وجزيرة جربة ووادي أريغ ووارجلان، ويُسمّى هذا النظام ب"نظام العزّابة"، نسبةً إلى العزُوب عن الدنيا، والانقطاع إلى أمور الدين والآخرة [1].

ويكون أعضاؤه، جماعة من أهل الورع والتقوى والصلاح، ينتخبون لتكوين المجلس الدينيّ الذي يتولى:

/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان واليد.

/ الإعلان ببراءة من أخلّ بواجب أوارتكب منكرًا[2].

/ السهر على تنظيم الحياة المدرسيّة والعلميّة، وتنشيط الثقافة الدينيّ.

/ تطبيق معالم الدين الإسلاميّ في المجتمع.

/ التفاني في خدمة أتباع المذهب، اجتماعيًّا واقتصاديًّا.

/ تقوية الرابطة الدينيّة والمذهبيّة.

/ تسوية النزاعات والنوازل.

/ توفير الأمن في المدينة.

ويورد بن يعقوب خلال ترجمته للعلامة يعيش الزواغي (ت751هـ/1350م) أنه أُسنِدتْ إليه رئاسة مجلس العزابة للفصل في القضايا العدليّة واختيار المدرّسين، وحلّ المشاكل. كما بلغت شهرته العلمية مبلغًا جعل حاكم قابس وجربة الحفصيّ، يبعث له رسائل يستفتيه فيها في بعض

---

1 راجع: البرّادي: الجواهر المنتقاة صص226-235.

2 راجع عن أقسام الولاية والبراءة: الجنّاوني: كتاب الوضْع صص32-34.

المسائل. وإلى جانب اشتغاله بالتعليم وترؤسه لمجلس العزابة، تصدّى لأهم النوازل الحادثة في عصره، ومنها:

/ استيلاء النصارى على جربة س689هـ/1289م.

/ حملة اللحياني على جربة س706هـ/1307م.

/تولية أحمد بن مكي على جربة س738هـ/1337م[1].

وسُلْطة العزّابة روحيّة بالأساس، ولذلك كان حيّز هذا النظام هوالمسجد، ثمّ يسَع التأثير الدينيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ سائر نواحي الحياة اليوميّة المحليّة.

وفي هذا السياق، كانت لنظام العزّابة داخل الجزيرة صلةُ تعاون مع نظام العشائر، من أجل صلاح المجتمع واستقراره. كما كان له، خارجَها، دوْرٌ بارز في رعاية الجربيّين العاملين والمتعلّمين، من خلال "دار الجماعة" التي تُؤويهم وتعلّمهم وتراقب سلوكهم، وقد استمرّ وجودها في تونس، والكاف، وماطر، وجربة، إلى منتصف القرن العشرين تقريبًا.

كما يُذكَر من أبرز مدارس الإباضيّين خارج الجزيرة، جامع الهنتاتي بتونس العاصمة،الذي تأسس منذ ما يقارب القرنيْن، بعد انتهاء نظام العزابة بجربة، وسمّاه بن يعقوب "جامع الهنتاتي المعمور"[2]، وكان من الشيوخ المدرّسين فيه، عمر العوّام الآجيمي (ت1335هـ/1916)[3]

أما خارج تونس فقد برزت وكالة الجاموس المصريّة، ومن المهمّ تكميل كلامنا عنها بإبراز دورها الثقافيّ.

---

1 م. صص232–233.

2 وهو ما يحيلنا إلى: "جامع الزيتونة المعمور".

3 م. ص210.

فقد كانت هذه المؤسسة حلقة الوصل بين الإباضية والأزهر، ووفد عليها، للدراسة أوالتدريس بها عدد كبير من أعلام إباضية جربة، نذكر منهم إلى جانب سالم بن يعقوب[1]:

/ أحمد بن محمد بن أبي ستة (ت1061هـ/1651)، درّس بها قبل أن يعود إلى الجزيرة.

/ المُحشّي السدويكشي (ت1088هـ/1677م) صاحب المؤلفات الوفيرة، وكان من شيوخ الوكالة البارزين، ومن مدرّسي الأزهر.

/ أبوزيد بن أحمد بن أبي ستة(ت1100هـ/1688).

/ مسعود بن سليمان بن حديد عالم دين وشاعر.

/ عمر بن يوسف الشماخي.

/ عمرو بن رمضان التلاتي (ت1187هـ/1779)، وتوفيَ بها، وكان تطوّع لإلقاء دروس بالأزهر، اشتهر بنبوغه في التأليف.

/ يوسف بن محمد المصعبي(ت1188هـ/1774) الملقب بالمحشي الثاني.

/ عبدالرحمان بن أحمد الحيلاتي(ت. ق10هـ/16).

/ علي بن سالم بن بيان (ت1120هـ/1708)

كما كانت الوكالة مركزا إباضيًّا هامًّا في توفير التآليف وإنتاجها[2].

وقد اهتمّ الجعبيري بصِلة العزّابة بالدول التي حكمت جربة أوحاربتها، فقدّم قراءة علميّة اعتمادًا على عدد من المصادر التاريخيّة، ونُورد فيما يلي أهمّ النتائج التي انتهى إليها:

/ دافع علماء جربة عن جزيرتهم ضدّ حملة المعزّ بن باديس س431هـ/1039م، وكان منهم شهداء. أمّا أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور فقد اتهِم بالتواطؤ وخذلان أصحابه.

---

1 راجع: مصلح: الوقف الجربي في مصر م.س. صص127–155.

2 مصلح :م.س. صص156–161.

وانتصروا في العهد الحفصيّ على حملة النصارى الخامسة س835هـ/1432م، والسادسة س916هـ/1511.

/ لمْ يتمكن العزابة من صدّ حملة النرمان بقيادة روجار الثاني س529هـ/1135م لقلة إمكانياتهم الحربيّة، لكن ثاروا على عامله بجربة وطردوه س548هـ/1154م.

/ استشهاد الشيخ محمد السمومني س699هـ/1301م في حملة النصارى الرابعة س688هـ/1290م.

/ استشهاد شيخ العزّابة داود التلاتي على يد درغوث باشا س967هـ/1560.

لقد برهنت حلقة العزابة على شدة إيمان الإباضية بضرورة وجود السلطة الحاكمة التى تسوس الناس، وترعاهُم روحيًّا وماديًّا،وتنظّم حياتهم، وبدونها تكون الفوضى، بلْ إن غيابها أكبر تهديد لوجود الجماعة.

ولكن من اللافت فى تنظيم العزّابة، أنه وإن كانت له أدوار حيويّة مختلفة تمس جوانب الحياة كلها، كما بيّنّا، فإنّ البارز من ذلك هو المنزعُ الدينىّ الدعَويّ، وكتُبُ الإباضية نفسها تعْرض المهامّ الروحيّة المسجدية بتفصيل وإسهاب فى المركز، وتجمع، باقتضاب وتعميم، المهام الأخرى فى الهامش[1].

وهو ما دفع بعض الدارسين إلى اعتبار هذا النظام المصغّر لـ"الإمامة"، ذا طابع "تيوقراطي"[2].

---

1 راجع مثلا: ابن تعاريت: المسلك المحمود فى معرفة الردود صص438-452 / الجعبيري: نظام العزّابة صص61-150 / المريمي: إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث صص23-72.

2 المنصف قوجة: تاريخ الإباضية الديني والسياسي صص152-153/ و"تيوقراطيّة" أو "ثيوقراطية" هي مذهب يقوم على تعليل السلطة السياسية لدى الجماعة على أساس الاعتقاد الديني فالنظام التيوقراطي هو النظام الذي يستند إلى فكرة دينية. موسوعة السياسة ج1 صص928-929.

ولا يعطينا سالم بن يعقوب في كتابه شيئًا ذا بال عن التنظيم الهيكليّ والتنفيذيّ لنظام العزّابة في جربة، كما أن الجعبيري اكتفى منه في دراسته بالمجلس الأعلى وبرئيسه وبأهم أعضائه، دون النظر في الهيئات الفرعيّة، وسائر التفاصيل، لتعذّر وجود النصوص المهتمة بالجزئيات. وهوما استدركه زهير تغلات مثريًا دراسته ببحوث استشراقية[1].

أمّا المريمي فقد زاد على ذلك معلومات أرشيفيّة ومخزنيّة متفرّقة، وخلُص، خلافًا للجعبيري[2]، إلى أن المؤسسات الدينيّة السياسيّة العليا لنظام العزّابة المتمثلة في هيئة "المشيخة" والمؤسسات التابعة لها في مستوى الأقاليم وحوم جربة، قد انتهى أمرها كمؤسسة نفوذ إداريّ وسياسيّ داخل المجموعات السكانيّة الإباضيّة المحليّة بداية من س1161هـ/1748[3].

ومن الأسباب وراء ذلك سعي السلطة المركزية في تونس منذ س1159هـ/1746 إلى القضاء على الهياكل السياسية الدينية العليا في جربة باستعمال عقوبات رادعة ضدّ الذين يشغلونها، فأمكن سجن بعضهم، واختفى بعضهم، وفرّ البعض الآخر إلى زوارة بليبيا. كما فرضت السلطة على عزابة الوهبيّة ونفوسة خطيّة كبيرة، وحملت الهياكل الدينية العليا لنظام العزّابة المسؤوليّة، وسعَت إلى إحداث قطيعة بينها وبين قواعدها الإباضية في الجزيرة، واستُغِل الفراغ السياسي الذي أحدثته السياسة الردعية ضد هيئات نظام العزّابة الدينية العليا للدفع بالهياكل المخزنيّة لكسب القوة والسلطة، فحصلت الزاوية الجمنيّة المالكيّة ومؤسساتها الإداريّة والسياسيّة على مكانة كانت على حساب الهياكل الدينية والسياسية الإباضية المحليّة، وضربًا لهياكل الأعيان المحليّين الذين كانوا يمثلون جانبًا من نظام العزّابة.

ويُذكر، هاهُنا، تخلّي بعض المسجديّين الإباضية في بادية جربة عن عقيدتهم، وتقلّد بعضهم للمذهب المالكيّ، وانحيازهم إلى نمط النفوذ المجتمعي

---

1 تغلات: الفكر السياسي الإباضي صص215-193.

2 يرى الجعبيري أن نشاط العزابة بدأ في الاضمحلال أوفي فقدان وظيفته العلمية منذ وفاة الشيخ امحمّد المصعبيّ س1207هـ/1793. نظام العزّابة صص230-231.

3 المريمي: م.س. صص24-134.

المخزني القائم على هذا المذهب، عوَض النمط المحليّ القائم على المذهب الإباضيّ[1]. كما تحوّل جامع "غربة" من الإباضية إلى حوْزة المالكيّة، وهوالمسمّى اليوم بجامع الغرباء شرقيّ حومة السوق[2].

ولا يمكن لمن يقرأ "تاريخ جزيرة جربة"، إلا أن يلْحظ خطّة بن يعقوب في تغييب تاريخ المالكية، وهو، بلا شكّ، جزء من تاريخ الجزيرة. وكان من المقبول أن يتعمّد نسيان "المخالفين" لوكان عنوان الكتاب: "تاريخ الإباضية في جربة"، أمّا والعنوان أشمل، فإنّ هذا الطمس لا يعني إلا تعصّبًا أفرز تحْريفًا.

ولعلّ مسلك بن يعقوب في هذا التأريخ، نسْجٌ على منوال الشمّاخي والحيلاتي وغيرهما في السكوت عن حضور المالكيّة بالجهة، حتى تُسحَب منهم صفة التجذّر والشرعية السياسية والإدارية في الجزيرة. فلمْ تحافظ كتب تراجم الإباضية والمؤلفات التاريخيّة لأصحاب المذهب على أيّ أثر لعلماء المالكية بجربة[3]. وما من ريب في أن هذا التجاهل كان معاملة بالمِثل، إذ سكتت تراجم المالكيّة هي الأخرى عن علماء الإباضية في القطر التونسيّ.

يقول المريمي: "يصرّح إباضية جربة اليوم بانتسابهم إلى جربة على أساس انتمائهم إلى المذهب الإباضيّ المتجذّر في الجزيرة أكثر من غيره من المذاهب الموجودة معه على الساحة هناك، وليس على أساس انتمائهم إلى عنصر البربر، لأن الإباضيّة تدعووتطالب بالمساواة بين مختلف العناصر الحضرية التي اعتنقت الإسلام، فيما ينكرون انتساب المالكية والحنفيّة إلى جربة لعدم تجذّر هذيْن المذهبيْن في الجزيرة على قدْر تجذّر الإباضيّة فيها. ويثبت الواقع التاريخيّ للعصر الحديث أن الجزيرة كانت تمثل قطبًا جاذبًابالنسبة إلى العائلات الإباضيّة والمالكيّة والحنفيّة على السواء، ووفدت تلك العائلات من مناطق مختلفة من الشمال الإفريقيّ وغيره، ويرجع أصل بعضها إلى مناطق إباضية مثل قرى جبل نفوسة أووادي ميزاب، وبعضها الآخر إلى مناطق سنّيّة، وكان انتسابها إلى مناطقها الأصليّة حقيقيًّا أحيانًا ومزعومًا أحيانًا

---

1 المريمي: م.س. صص35–38.

2 م. ص112 / نظام العزابة ص333.

3 المريمي: م.س. صص321–322 /349.

أخرى. كما كانت جربة أيضًا قطب طرْد بالنسبة إلى العائلات الإباضية والمالكيّة والحنفيّة، فخرجت منها بعض العائلات بعد أن أقامت فيها واندمجت في مجموعاتها المحليّة فاستقرّت في مراكز عديدة من الإيالة التونسية والامبراطورية العثمانيّة"[1].

ولقد كان أبوراس الجربي (ت بعد 1222هـ/1808)[2] استثناءً، حينما ترجم للشيخ إبراهيم بن عبدالله الجمّني (1038–1134هـ/1628/–1721) ضمن أخبار مشائخ جربة، ووصفه بأنه "الشيخ الوليّ الصالح الورِع الزاهد الجامع بين العلم والولاية.. نال من جميع العلوم معقول ومنقول.."[3]. كما ذكر المدرسة الجمنيّة ضمن "خِطط" الجزيرة أي معالمها[4].

وقد اقتفى الباروني الإباضيّ أثر أبو راس، فذكَر أن مدرسة الجمّنيّ المالكيّ تُعَدّ إحدى المدارس العلميّة الشهيرة بالجزيرة، وأثنى على دور شيخها في نشر الفكر السنّيّ، وإسهام عائلته في الحركة العلميّة والوطنيّة بالجهة[5].

أما أصحاب المذهب الإباضيّ فقد اعتبروا إبراهيم الجمني منافسًا لهم، بل عدوًّا، فحاولوا في حياته أن ينالوا من ابن أخيه الشيخ عمر الجمّني فسجنه إبراهيم الشريف باي تونس بإيعاز منهم، وفرض آل بن جلود على خلَفِه غرامات باهضة، وضايقوا البعض منهم، ولا يزال إباضية جربة إلى اليوم يعتبرون قبته الخضراء رمزًا للسلطة، ولا يعتبرونه منهم[6]، ولعلّ ذلك بسبب تأكدهم من أنه جاء ليقضي على المذهب الإباضيّ ويمحو أثره، ويوحّد الجزيرة

---

1 المريمي: م.س. ص302.

2 هذا إذا اعتبرنا محمد أبوراس جربيًا إباضيًا، وسنرجع إلى الجدل حول هذه الشخصية في عنصر: موقف بن يعقوب من المؤرخين.

3 أبو راس: مؤنس الأحبّة صص95–96.
وراجع: محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ج2صص56–58.

4 م.س. صص98–99.

5 الباروني: جربة في موكب التاريخ. نسخة إلكترونية صص173–175.
وراجع: الهادي الجمني: مدرسة سيدي إبراهيم الجمني.

6 المريمي: م.س. ص338.

تحت مذهب مالك (ت179ه/795م)، وهوما تؤكّده كتابات المؤرّخين المخالفين، إذ يقول ح.ح. عبد الوهاب، مثلاً: "وقد باشر فعْلاً مدّة إقامته بتلك الجزيرة مقاومة مذهب الإباضيّة النكّار، إذ كان سائر سكّان جربة على النحْلة الخارجيّة، وقلّد على يديْه نحوالنصف من أهالي الجزيرة المذهب المالكيّ"[1].

ويمكن أن نلخّص فيما يلي أثر المالكيّة في الجزيرة، علميًّا واجتماعيًّا، منذ مجيء الجمني[2]:

/ الارتقاء بجربة إلى مستوى المراكز العلمية المالكية التونسيّة.

/ تأسيس المدرسة المراديّة مركز الفقه المالكيّ بالجنوب التونسيّ.

/ تطوير النظام التعليميّ المعتمد من مجرّد الأذكار والأوراد إلى تدريس الكتب المالكيّة.

/ تحوّل جامع الغرباء المالكيّ بعد أن كان إباضيًّا، إلى مؤسسة متعددة الأدوار الروحيّة والتعبّدية والتعليميّة والتشريعيّة.

/ تقديم شهائد علمية للمتفوقين من الطلبة تمكنهم من اقتحام الوظائف الإدارية والسياسيّة التي توفرها سلطة المراديّين ثم الحسيْنيّين ويسمح بها النظام المخزنيّ

/ وفرة علماء الدين المحليّين والوافدين المتخرّجين في المدرسة المالكيّة.

/ إدخال عنصر التصوّف في التفكير والسلوك، وتعاضد المدرسة بالزاوية

/ اتساع العمارة المالكية داخل الجزء الشرقيّ من الجزيرة

/ تجذّر المجموعة السنّية المالكية في الجهة

/ تعزّز النفوذ والوزن الاقتصاديّ

/ تأثير المالكية في الفكر الإباضيّ وفي نمط نفوذ معتنقيه في المعالم الدينية

---

1 عبدالوهاب: كتاب العمُر في المصنّفات والمؤلفين التونسيّين ج1 ص835.
وراجع :المريمي: م.س. علاقة المخزن بعلماء المالكية صص324–327.

2 المريمي: م.س. صص326–360.

إن وجود المالكيّة إلى اليوم بجربة، وتعدد مساجدهم وصمودها، وإسهامهم في الحركة الدينيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، ولوبحجم أقلّ[1]، شاهدٌ على عراقة العنصر المالكيّ في الجزيرة، نسبيًّا، إذ تتفق الرواية الإباضية والرواية المالكيّة على أن دخول التفكير المذهبيّ المالكيّ إلى جربة كان مع منتصف ق10هـ/16 من خلال اعتماد الأتراك على حلفاء من المالكيّة لتولي وظائف مخزنية دينية، ولتخفيف تدخلهم في الجزيرة[2].

ويُذكّر المرزوقي أن قضاة المالكيّة دخلوا الجزيرة قبْل انتشار المذهب المالكيّ بها، ومن هؤلاء في أوائل ق9هـ/15م ابن ناجي القيرواني (ت839هـ/1435م)[3].

كما يُورد أن المذهب المالكيّ دخل جزيرة جربة في بداية ق12هـ/18، وانتشر بها انتشارًا عظيمًا حتى أن نصف السكّان أوأكثر (في أواخر خمسينيات ق20) من أتباعه، وعلى الأخصّ في جهات : ميدون، آركو، حومة السوق، بني معقل، المايْ. مع أن جربة كانت قبل دخول المالكية معقلاً للمذهب الإباضيّ، ودخلها المذهب الحنفيّ مع الأتراك واختفى أوكاد مع اختفائهم[4].

وقد أطلق الإباضيّة الوهْبيّة على التونسيّين المالكيّة والأتراك الأحناف القليلين عبارة "الغرباء"، ولذلك سُمّي جامع السوق الكبير الذي انتقل إلى المالكيّة بـ"جامع الغرباء"، وبقيت بعض العائلات إلى اليوم تحمل لقب "غريب".

هذا إلى جانب تسمية هؤلاء كما ذكرنا سابقًا بـ"المخالفين" و"الموحّدين".

---

1 راجع الجداول البيانيّة والنسَب الموزّعة بين الوهبيّة والمالكيّة على امتداد كتاب ستابلو: les djerbiens

2 المريمي: م.س. صص319-320.

3 مؤنس الأحبّة ص126.

4 م.س. ص153

ويظهر أنّ هذا الرأي هوالأرجح، والواقع يؤيّده. ولا وجاهة لما ورَد في بعض المراجع أن غالبيّة سكّان جربة إباضيّون. الموسوعة العربية الميسرة ص1180.

وقد انبنى على هذا التفكير السلوكُ الاجتماعيّ الإباضيّ مع "الآخر"، فلمْ تكن هناك، إلى أواخر العهد التركيّ، علاقات زواج ومصاهرة بين المجموعتيْن، كما لمْ يكن هناك اختلاط في مدارس واحدة.

ويرى المريمي أن الإباضية الوهبيّة كانت تعتبر الأصناف التي تضمنها المركز : من "أهل جربة"، فاشتمل هذا المركزعلى بناء هرميّ تحتل الإباضيّة الوهبيّة فيه القمّة، وفقًا لما كان لها من وزن اقتصاديّ وسياسيّ يُبرّره الانتماء لنفس المنظومة الفكرية المذهبيّة. ثم يأتي بعدها الإباضية المستاوة، وخصصت مكانة تناسب وزنها بالنسبة إلى بقيّة الفئات الأخرى ل"أهل جربة"، وأخيرًا اليهود لأنهم من أهل الذمّة فيما يحتل العبيد قاعدة الهرم. أمّا محيط هذا الهرم وعلى هامشه فتوجد الفئات التي مُنعت من الانتساب إلى "أهل جربة"، والتي بقيَت مهمّشة عدديًّا ومذهبيًّا لأنها حليفة للجهاز المخزنيّ وتكوّنتْ من المالكيّة والأتراك الحنفيّة [1]

كما اصطلح الإباضيّون على تسمية المالكيّة بـ"العرَب"، مقابل تسمية أنفسهم بـ"أهل الجزيرة".

ومن رسائل الحيلاتي :

/ "وقعت الفتنة بين سدويكش ومستاوة والأتراك وعرب الحزم.."[2]

/ "حرَث أهلُ جربة في الدخْلة القِبْليّة. وقد قلّ مَن لمْ يخرج إليها وصار زرعًا خصيبًا لمْ يُعْهد مثله. فأتتْه محلّة من تونس نزلت عليه وحمتْهُ من العرَب حتى حصدوه..."[3]

/ "وتمادى الشيخ سعيد بن موسى على غصب كل ما يوجد بالسوق، ويعطيه لعرَب ورغمّة ويمنع أهل جربة منه،وسبب فعله هذا سعيد المذكور، جمع عرب ورغمّة ووريْمة وأدخلهم الجزيرة فأسكنهم بها وجعل يكرمهم ليستعين بهم على أخيه الشيخ عبدالرحمان... ثم أراد أن يستزيد من الجموع

---

1 المريمي: م.س. صص296–301.
2 الرسائل ص5.
3 الرسائل ص23.

فذهب إلى عرب الأعراض، وأرفات الجريد، وجبل مطماطة من بلد الزارات، وقابس، والمطويّة وما يقربهم من الكفرة والآفات.." [1]

"ومما أدركناه في تولية الشيخ سعيد بن موسى البجلودي أنه يؤْثِر محبّة للعرب على أهل الجزيرة، وأطلق يديْهم على أرزاقهم سرًّا وجهرًا أو قهْرًا. فمن شكى له من أهل الجزيرة مِن تعدّي العرب فلا يُقيم له وزنًا، ومَن شكى من العرب من أهل الجزيرة فإنه يؤذيه ويحسَبه جريمة بعد تأديبه...وبعد ذلك بأيام تحركت الأرياح بإذن الله عند الشيخ عبدالرحمان وقدم إلى الجزيرة وتولاها، وشدّد على أولئك العرب، وأطردهم من الجزيرة بحيث لمْ يبْق منهم إلا مَن لا يُعْبَأُ به..."[2].

كما نجد المصعبيّ يتحدّث عن بلاء أهل جربة: "فخلتْ من بعضهم المنازل والديار، فصارتْ مسكنًا للعرَب وأهل البوادي والجبال. فاعتبروا يا أولي الأبصار"[3].

وليس هذا، في رأينا، إلا تاريخًا، أمّا حاضر الجزيرة فقد انتظم، قسْرًا أواختيارًا، وفق عقليّة جديدة، تجاوزت بنسبة عالية، الخلفيّات المذهبيّة، وقد ساعدت على التخلص منها بِنْيةُ الدولة المستقلة الحديثة، ذات القيَم المواطنيّة المتفتّحة، ومنظومةُ القوانين والإجراءات الإداريّة والترتيبيّة التي قضت تدريجيًّا على رواسب التفرقة والميْز والطبقيّة. ولمْ يبْق من هذا التصنيف المذهبيّ والعقديّ في الجزيرة، إلا الاهتمام بالأعلام، والأفكار، والتقاليد، والوثائق والمخطوطات، إذ هي جزء من الذاكرة التونسيّة. إلى جانب التشبّث بالانتماء ومظاهره الشعائريّة، باعتباره حفاظًا على الهويّة، واعتدادًا بالشخصيّة، وصوْنًا لتراث متنوّع، وصَرًّا على رمزيّة ترْفد مقوّمات الوحدة الوطنيّة.

ومن المهمّ أن نشير هاهنا إلى "تراجم المؤلفين التونسيّين" لمحمد محفوظ (ت1408هـ/1988) الصفاقسي المالكيّ، الذي عرّف فيه بثلّة من أعلام إباضيّة جربة والجريد إلى جانب مواطنيهم المخالفين، وهوتأكيد على أنّ راية

---

1 الرسائل صص66-67.

2 الرسائل صص71-72.

3 الرسائل ص102.

البلاد تجمع الكلّ، وتخفق عاليًا بعطاءات أبناء الوطن وإبداعاتهم جميعًا، قديمًا وحديثًا. ومن هؤلاء المترجم لهم[1]، نذكُر:

- محمد بن زكريا الباروني الجربي (ق10هـ/16)، وأوْرد له ثلاث مؤلفات[2].
- أبوالقاسم البرّادي(ت810هـ/1408م)، وذكر له ثمانية مؤلّفات[3].
- سعيد ابن تعاريت الجدّ (ت1289هـ/1872) صاحب تاريخ الجزيرة[4].
- سعيد ابن تعاريت الثالث، موضوع الفصل الثانى من بحثنا هذا [5]
- أبو النجاة يونس بن سعيد ابن تعاريت (ق10هـ/16)[6]

---

1 نقل محفوظ تراجم الإباضيّة عن:
/ السيَر للشمّاخي
/ طبقات المشايخ للدرجيني، وتصدير بكّلي له .
/ الجواهر المنتقاة للبرّادي
/ مؤنس الأحبّة لمحمد بوراس
/ دائرة المعارف الإسلامية
/ الإباضية في موكب التاريخ، والإباضية في تونس ليحيى معمّر
/ الإباضية في الجريد لصالح باجيّة
/ بروكلمان
/ معجم الأعلام للزركلي
/ بلاد البربر الشرقية في عصر الحفصيّين
/ معجم المؤلفين كحّالة
/ نظام العزّابة للجعبيري
/ حديث الصادق بن مرزوق الإباضيّ إليه شفويا ومكتوبا
/ خمسة مقالات للصادق بن مرزوق في جريدة الصباح التونسيّة
/ مقال الحبيب الجنحاني في حوليات الجامعة التونسية
/ مقال محمد بورقعة في مجلة الثريا
/ القصة التونسية نشأتها وروّادها لمحمد صالح الجابري

2 ج1ص74.

3 ج1صص80-82.

4 ج1 صص175-176.

5 ج1ص176.

6 ج1صص176-177.

- داود بن إبراهيم التلاتي (ت967هـ/1559)، وذكر له ثلاثة مؤلفات، اثنان منها متعلّقان بسنَيْن، هُما: شرح إيساغوجي للشافعيّ أثير الدين الأبهريّ (ت630هـ/1264م) ومتن الأجرميّة للمغربيّ المعروف بابن آجروم (ت723هـ/1323م)[1].

- عمر التلاتلي الجربي(ق12هـ/18)، وذكر له مؤلّفيْن[2].

- سليمان بن علي التمجاري النفطي(471هـ/1078م) وذكر له كتابًا في علم الكلام[3].

- سليمان الجادوي، الشخصيّة الثالثة التي سندرسها[4].

- عمر بن جميع (ق8هـ/14م) صاحب"عقيدة التوحيد"[5].

- إسماعيل بن موسى الجيطالي(ت750هـ/1350م)، سرد له أحد عشر كتابًا في العقيدة والفقه والفرائض والحساب والشعْر[6].

- أحمد بن سعيد الدرجيني (ت.حواليْ670هـ/1272م)، وذكر له ثلاثة مصنفات[7].

- ابن أبي ستة المحشّي (ت1088هـ/1678)، وأوْرد له خمسة عشر أثرًا[8].

- عبد الله بن سعيد السدويكشي(حيّ س1068هـ/1659)، وذكَر له خمسة مؤلّفات[9].

- زكرياء بن أفلح الصدغياني (ق9هـ/15م)، وذكَر له مؤلّفيْن[10].

---

1 ج1صص177-180.
2 ج1 ص182.
3 ج1صص183-184.
4 ج2صص7-9.
5 ج2 صص62-64.
6 ج2صص72-74.
7 ج2صص296-299.
8 ج3صص8-11.
9 ج3 صص25-26.
10 ج3ص231.

– عبد الله بن سعيد الصدغياني (ق7هـ/13م)، وذكر له رسالة في الردّ على المخالفين[1].

– أبو الربيع سليمان بن يخلف المزّاتي القابسي (ت471هـ/1078)، وذكَر له تأليفيْن[2].

– مَحمّد بن يوسف المصعبي (ت1207هـ/1783)، وذكَر له تأليفًا واحدًا[3].

– يوسف بن محمد المصعبي (ت1188هـ/1775)، وأثبت أنّ له ما لا يقلّ عن عشرين مؤلّفًا، وذكر منها خمسة، أحدها حاشية على تفسير الجلاليْن السنّيّيْن[4].

– سليمان بن عبدالسلام الوسياني (ق6هـ/12م)، وذكر أنّ له ثلاثة مؤلّفات[5].

ولئن اكتفى ح.ح. عبدالوهاب بسرْد أسماء فقهاء الإباضية في "كتاب العُمر في المصنفات والمؤلفين التونسيّين"، فإنّ مُراجعيْ الكتاب ومُكمليْه قد استدركَا ذلك، وأضافَا تراجم نَقَلاها عن عدد من الكتب الإباضيّة وغيرها.

والأعلام المترجَم لهُم على التوالي:

/ هود بن محكم الهوّاري(ق2–3هـ/8–9م)[6]

/ سليمان المزّاتي

/ موسى بن زكرياء المزّاتي الدمّري(ت. ق5هـ/11م)

/ عبدالله الصدغياني

/ إسماعيل الجيطالي

---

1 ج3ص232.

2 ج4ص317.

3 ج4 ص335.

4 ج4صص336–337.

5 ج5ص141.

وراجع مقدمة الكتاب التي أكّد فيها محمد محفوظ على قيمة التراث الإباضيّ في جربة.. صص6–7.

6 اُعتُبِر تونسيًّا، والجزائريّون يعتبرونه من علمائهم. راجع: شريفي محقّق تفسير هود بن محكم ج1صص13–24.

/ عمرو بن جميع
/ أبو سليمان داود التلاتي
/ السدويكشي
/ ابن أبي ستّة المحشّي
/ البدر التلاتي
/ يوسف المصعبي
/ امحمّد بن يوسف المصعبي[1].

1 عبد الوهاب: كتاب العمر مراجعة وإكمال: م.ع. المطوي / بشير البكوش ج1صص955–981.

4. الموقف من المؤرخين : ما وجاهة التأريخ والتأريخ المضاد ؟

ذكر بن يعقوب أنّ كتابه يهدف إلى:

/ إثراء المعلومات القليلة عن تاريخ جزيرة جربة من عهد نشأتها إلى زمانه.

/ رصد اختلاط الحقائق التاريخيّة بدسائس المؤرخين.

/ إبطال أكاذيب بعض المؤرّخين الذين كتبوا تاريخ الأمم بأقلام مأجورة، ونسبوا إلى أهل جربة البهتان[1].

ولمْ يُورد بالتفصيل مقالات هؤلاء المؤرخين، بل اكتفى، غالبًا، بالطعن فيهم والردّ الموجز بل المقتضب والمُبْهم عنهم.

أ- الإدريسي

هو الشريف الإدريسيّ(493-559هـ/1100-1166م) المؤرخ والجغرافيّ والنباتيّ والشاعر والأديب، وُلِد في سبتة، ونشأ وتعلم بقرطبة، كان جده إدريس من ملوك الحمّوديّين في الأندلس، وخرج سائحًا في شمال إفريقيا وآسيا الصغرى، واستدعاه روجار الثاني (ت1154م) ملك صقليّة، فأقام عنده، وألف له كتابه الجغرافيّ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" [2].

ونورد بدءًا مقاله عن جربة، لنعاين أثر الولاء والعداء في الوصْف والانتقاء، ونرصد نسبة الموْضوعيّة والذّاتيّة.

"هي جزيرة عامرة بقبائل من البربر، والسمرة تغلب على ألوان أهلها، والشرّ والنفاق موجود في جبلّتهم، وكلامهم بالبربرية خاصهم وعامّهم، وهُم أهل فتنة وخروج عن الطاعة، وافتتحها الملك المعظم رجار بأسطول بعثه إليها وذلك في آخر تسع وعشرين وخمس مائة، ثم استقرّ من بقي فيها إلى ثمان وأربعين وخمس مائة، ثم نافقوا وخرجوا عن طاعة الملك المعظم رجار فغزاهُم في هذه السنة بالأسطول فاستفتحها ثانية، ورفع جميع سبيها إلى المدينة...، ويتصل بهذه الجزيرة إلى جهة الشرق جزيرة زيزوا...، وهذه الجزيرة عامرة

---

1 م. ص17.

2 كحالة: معجم المؤلفين ج3 صص653-654.

بأهلها وهم قوم نكّار خواج في الإسلام، مذهبهم الوهبيّة وكذلك جميع القصور والحصون التي تلي هاتيْن الجزيرتين يتمذهبون بمثل ذلك، وذلك أنهم لا يماسح ثوب أحدهم ثوب رجل غريب، ولا يمسه بيده، ولا يؤاكله، ولا يأكل له في آنية إلا أن تكون آنية محفوظة لا يقربها أحد سواه، ورجالهم ونساؤهم يتطهرون في كل يوم عند الصباح، ويتوضؤون ثم يتيممون لكل صلاة، وإن استقى عابر سبيل شيئًا من مياه آبارهم وعاينوه طردوه، واستخرجوا ذلك الماء عن البئر، وثياب الجنُب لا يقربها الطاهر، وثياب الطاهر لا يقربها الجنُب، وهم مع ذلك كلّه ضيافون يطعمون الطعام ويندبون إلى طعامهم، ويسالمون الناس في أموالهم، وفيهم عدالة بيّنة لمن نزل بهم"[1].

وبناءً على مكانة الإدريسيّ عند ملك صقلّيّة وأنّه كتب له "نزهة المشتاق "بطلبٍ منه، فإن بن يعقوب رأى المعلومات التي وردتْ عن أهل جربة: تزلّفًا وتقرّبًا، لا واقعًا.

ولكنّ بن يعقوب لمْ يفصّل المآخذ، لأنّ توصيف الإدريسيّ كان فيه مدْح وثناء أيضًا، كما هوبيّن من النصّ.

ثمّ إننا لمْ نعثر في "تاريخ جربة" على ما ذكره الإدريسي من فتح الملك روجار جربة مرتيْن، غير إشارات عابرة غامضة، وردت في سياقات مختلفة.

ويمكن أن نتبيّن القراءة الإباضية لاتصال الجزيرة بالنصارى، من خلال رسائل الحيلاتي.

فقد أرّخ للتدخلات الأجنبيّة، وذكر أن بين جربة والنصارى "عداوات قديمة"، ولذلك كان أهل جربة أكثر المسلمين خوْفًا من ورود المسيحيّين. وقد دعا عليهم مرارًا بـ"دمّرهم الله"، وبـ"لا جمع الله لهُم شمْلاً ولا نصر لهُم جندًا"، ناعتًا إياهم بـ"الكفرة" و"أعداء الله"، معتبرًا أنّ "كثيرَهم" "قليل"،

---

1 الإدريسي: نزهة المشتاق صص305–306.
وانظر:
virginie PREVOST: ANTIGAN, un TOPONYME IBADITE CHEZ AL-IDRISI (نسخة إلكترونية).

ومؤكدًا على أن انهزامهم وانهزام الأعداء من غيرهم أمام أهل جربة كان دائمًا بـ"بركة مذهب الإباضية الذي ظهرت بركته في كل موضع "، وبـ"بركة العلماء الراقدين في الجزيرة"، وبـ"الريح التي سلطها الله عليهم في غير أوَانها"، وبأنّ الله "قذف في قلوبهم الرعب"، ودليلاً على "إجابة الدعوة". مع أنه سيعتبر دخولهم، مرّة، مددًا من الله.

ونورد فيما يلي الأحداث وتواريخها كما يعرضها الحيلاتي ، وبعباراته، وبالتعقيبات التي استدرك بها المحقق عليه، مما يعني وجود نصيب من الوهَم في الرسائل:

- 521هـ/1128م: أُخِذت جزيرة جربة بالنصارى، يعني حملة النورمان الأولى.

ويصوّب قوجة هذه المعلومة فيبيّن أن أوّل احتلال نصرانيّ للجزيرة كان س529هـ/1135م على يد روجار النرماني الصقليّ، واستمر هذا إلى 549هـ/1153م، ثم تواصلت إلى967هـ/1560[1].

- 551هـ/1157م: اتُّخِذ عام السواني، ويَقصد حملة النورمان الثانية، ويُخطّئ قوجة هذا التأريخ، ويذكر بأن المعروف هوعودة النرمان إلى جزيرة جربة لاحتلالها من جديد س548هـ/1153م، وقد ثار الجربيون ضد هذا الاحتلال وتمكنوا من تخليص الجزيرة في السنة نفسها[2].

- 583هـ/1188م: أُخِذت جربة كلها، وهي واقعة تاربلاّ جنوب شرقي الجزيرة حيث بُنِي حصن القشتيل[3]، ويعطي قوجة تاريخا آخر هو 663هـ/1266م[4].

- س628هـ/1232م مقتل أبي زيد بن أبي نوح السمومني أسيرًا مبعوثا إلى النصارى [1] ويستدرك المحقق :أوس638هـ/1241م[2].

---

1 الرسائل ص29 / ص43.
2 الرسائل ص43.
3 م.س. ص44.
4 م.س. ص105.

- 633هـ/1236م: حُوصر النصارى في القشتيل، وأُخرِجوا من جربة س639هـ/1242م، ويعقب قوجة بأن التاريخ الذي يقصده الحيلاتي هو 699هـ/1301م، ففيه وقعت المواجهة الأولى بين الجربيّين والإسبان، لأن القشتيل بنِيَ س688هـ/1289م[3].

- هجوم ملك فرنسا لويس التاسع (ت1269م) على تونس أيام المستنصر الحفصيّ، ولا يحدّد المؤلف التاريخ[4]، بل يضبط ذلك المحقق: س668هـ/1269م[5].

- 691هـ/1293م: أخذت النصارى حصن القشتيل[6]، ولا نجد هذا الحدث مدرجًا في الجدول الذي رسمه المحقق للأحداث[7]، ويكتفي بالتعليق في الهامش أن الحيلاتي يتحدث هنا عن الحملة التي قادها الأميرال الصقليّ روجاردي لوريا ضد جزيرة جربة س688هـ/1289م، والتي احتل خلالها الجزيرة، ودامت مدة الاحتلال إلى س738هـ/1337م، حيث تمكن الجربيّون من طرد المحتلين، وعاضدهم في ذلك الحفصيّون[8].

- 691هـ/1293م: خروج النصارى، بسبب نزولهم على المهدية.

- 699هـ/1300م :موت الشيخ سليمان بن صالح السمومني بتربلاّ، ويشير إليه قوجة بأنه كان شيخَ الحكم في الجزيرة أيام الاحتلال، ويذكر أن المكان الذي مات فيه سليمان يدلّ على أنه كان يشارك في المعارك التي كانت تندلع بين الجربيّين والنصارى، والتي كانت تدور رحاها في منطقة تاربلاّ حول القشتيل مكان إقامة القيادة الصقليّة[9].

---

1 م.س. ص45.
2 م.س. ص105.
3 م.س. ص45.
4 م.س. ص49.
5 م.س. ص106.
6 م.س. ص49.
7 م.س. ص106.
8 م.س. ص49.
9 الرسائل صص49-50.

- 916هـ/1510م: ورود سفن النصارى للجزيرة، ويقصد حلول حملة بيدرودي نافار، وغرق سفنهم الإسبانيّة[1].

- 966هـ/1559: نزول عمارة النصارى على جربة، ويحددها المحقّق بتاريخ 967هـ/1560، وهي الحملة الإسبانية التي قادها دوق مدينة سليم[2].

ويصف الحيلاتي هذه الحملة بأن "الله جعلها رحمة وفكاكًا للمسلمين مما هم فيه". فقد عاث درغوث باشا (ت972هـ/1565) فسادًا، وقُتِل على يديْه "الشيخ الأجلّ الفاضل العالم العامل داود بن إبراهيم التُّلاتي مكْرًا وغدْرًا حيث أُمِر بالطلوع إلى الباشا المذكور لينظر في مصالح الرعيّة، ويتكلّم عما وقع فيها من الفواحش ليرتدع عن ذلك. فأخذه طورغود دون جميع الفقهاء الذين طلعوا معه. قيل والذي مكر به موسى بن عمر البجْلودي"[3].

ويُثبت الحيلاتي أن الشيخ مسعود السمومني(ت967هـ/1560) والجربيّين قاتلوا النصارى عند دخولهم قتالاً عظيمًا يُسمّى آذروم بشاطئ بحر بوملاّل، وقتلوا منهم ما لا يُحْصى عددًا، ثم صالحهم السمومني، وأدخلهم القشتيل. ثم نزل الأسطول العثماني على جربة، فحاصروا النصارى نحْوشهريْن، ثمّ أخذوهم[4].

ويورد قوجة أن ما ذكره الحيلاتي هاهنا هو عيْنُ ما رُوِي في المصادر المسيحيّة، التي تثبت أن عرْض السمومني الصلح والتفاوض مع الإسبان لمْ تكن إلا حيلة. أما الرواية الأخرى فتقول إن الإفرنج صالحوا السمومني على

---

1 م.س.ص32 –39.

2 م.س. ص7 / ص107

3 م.س. صص6–7. وداود بن إبراهيم التلاتي هورئيس نظام العزّابة حينما قُتِل س967هـ/1560.
راجع سيرته وجرأته: المصدر صص163–169.
أما موسى بن عمر البجلودي(ت1000هـ/1592) أول حكام عائلة بن جلود في جربة، نصّبه درغوث باشا وفرضه على الجربيّين. رسائل الحيلاتي ص7 ها12.

4 الرسائل صص7–9: ويذكر قوجة أن مسعود السمومني لم يستمد شرعيته إلا من سلطة درغوث باشا وهوما يفسر سكوته عن مقتل الشيخ داود التلاتلي، إذ فرضه درغوث ورفضه الجربيون. الرسائل ص3 / ص107.

أن يسلّم لهم برج القشتيل ولا يلتفتوا إلى غيره. فقد عرَض الشيخ على الدوق عدم التقدم نحوالبرج مقابل السلم، لكنّ النصرانيّ تمسّك بمخططه، وتسلّم البرج من السمومني الذي سعى إلى الاحتماء بالنصارى، وتخلى عن راية درغوث الخضراء، وأعلن ولاءه للراية الإسبانيّة، وتعهد لها بالطاعة والخضوع، وبدفع ضريبة سنويّة. ولمْ يسكت درغوث باشا عن الاحتلال الإسبانيّ للبرج. فبعد ثمانية أيام ينهزم النصارى أعظم هزيمة عرفوها في المنطقة ضدّ قوات درغوث التي ضمّت ستين سفينة بحرية في كل واحدة منها مائة انكشاريّ. ثمّ تمّ قتل السمومني في طرابلس التي فرّ إليها في السنة نفسها[1].

وقد أشار قوجة قبل هذا إلى أن نص الحيلاتي يعطينا صورة مختلفة عن وضع مسعود السمومني، إذ يجعله متحالفًا مع الجربيّين ضد درغوث، ويستنتج من هذا التناقض حدّة الصراعات التي كانت الجزيرة عرضة لها خاصة مع دخول الأتراك إليها، وتقلّب مواقف هذا الشيخ ن هذا التقلب الذي تؤكده الوثائق الأجنبية من تواطؤ هذا الشيخ مع الإسبان[2].

– 978هـ/1571 :دخول النصارى القشتيل، مكثوا فيه تسعة أشهر، وأخرجهم منه درغوث باشا بعمارة من السلطان العثمانيّ ومعاونة أهل جربة بعد محاصرة القشتيل ثلاثة أشهر، واحتلوه عنوة، وقتلوا من وجدوا فيه من النصارى، وبنوْا بجثثهم ورؤوسهم برجًا قرب البرج الشماليّ، المعروف ببرج الروس قرب القشتيل. وشيخ جربة إذّاك مسعود بن صالح السمومني وهوآخر أمراء السمومنيّين على جربة. كما يذكر الحيلاتي أن السمومني لمْ يُحسن فيما بعْد السيرة في أهل جربة فجار عليهم وظلمهم فسجنوه في سجن القشتيل بعد عزلهم إياه وكتبوا إلى أمير تونس أحمد الحفصيّ أن يمدهم بقوّة فلم يلتفتْ إليهم لعجزه[3].

---

1 الرسائل ص8.

2 م.س. ص5.

3 الرسائل صص51–52.

والحفصيّ هذا هوآخر ملوك الحفصيّين، خلع أباه وسمل عيْنيْه لتواطؤه مع الإسبان.

ولا يخفى الخلْط هاهنا، إذا ما عُدْنا إلى المعطيات السابقة.

ولذلك اعتبر قوجة هذا التاريخ غير صحيح، لأن الحملة الإسبانية التي يتحدث عنها الحيلاتي هنا وقعت س967هـ/1560، سنة بناء القشتيل المقصود، وهوالبرج الكبير المعروف اليوم ببرج الغازي مصطفى، والكائن بحومة السوق. أما برج الروس الذي بُنِيَ بعظام وجماجم الجنود الإسبان الذين هُزموا وقُتِلوا خلال المعركة الحاسمة التي اندلعت في جربة بين الامبراطورية العثمانية والمملكة الإسبانية وحليفاتها للسيطرة والهيمنة على جنوب المتوسط ، وهوالبرج الذي كان قائمًا شمال برج الغازي مصطفى، فقد شُيِّد س967هـ/1560 وهُدِم س1264هـ/1848 بأمر من الباي[1].

ولمْ يُفوّت المبشّر الألماني إيفالد(ت1875) المناسبة ليُبْديَ موقفه من بناء "برج الجماجم" أو"برج الرُّوس" ومن بُناتِه الجربيّين حينما حلّ بجزيرتهم، ويقدّم، في حنَق ومرارة شديديْن، قراءته المسيحيّة للحدث التاريخيّ الحافّ، فيقول :"ولا يفوت المرء عند احتكاكه بالجرابة أنهم يمتازون بسلوك مهذّب إلى أقصى حدّ وبآداب لائقة ولطيفة. كما أنهم لا يعاملون المسيحيّين معاملة الكراهية والازدراء، حتى أننا نكاد ننسى أننا وسط أعداء الإنجيل الألداء، لوْلا وجود نصب تذكاريّ مروّع تقشعرّ له الأبدان، يشهد بما يكمن هنا من كره للنصارى. وهو يحتلّ موقعا على شاطئ البحر ويتمثل في هرم من جماجم النصارى ومن عظامهم. فقد حدث أن التجأ أثناء آخر المعارك التي دارت رحاها في هذه الجزيرة بين الإسبان والمسلمين ثمانمائة من المحاربين الصناديد إلى حصن أُقيم قرب البحر وقاوموا العدوببسالة. وقام المسلمون بمحاولات عديدة لاحتلال الحصن فباءت كلها بالفشل وتكبّدوا خسائر جسيمة وسقط ثلاثة من قادتهم دون أن يُصاب إسبانيّ واحد بجراح. وتمادى الحال إلى أن حصل ما يخشاه المحاصرون عامة أعني نفاد المؤونة. وترقبت جماعة النصارى يوما بعد يوم وصول نجدة وإمدادات ولكن بدون جدوى إلى أن أرغم

---

1 الرسائل ص51.

الجوع الحامية على الاستسلام، بعد أن حصلوا على وعد بإخلاء سبيلهم. لكن ما إن استولى المسلمون على الحصن حتى انقضوا على الثمانمائة إسبانيّ المجرّدين من السلاح وفتكوا بهم عن آخرهم وأقاموا بجماجمهم وبعظامهم على شاطئ البحر نصبًا تذكاريًّا جديرًا بهؤلاء البرابرة الهمج. وهاهولا يزال منتصبًا منذ ذلك العهد ومن حين إلى آخر يُطلى بالجير. وتقع بجوارَ هذا الهرم قبور المسلمين الذين سقطوا على أيدي هؤلاء الصناديد. وباعتبار كثافة القبور فإن عدد الضحايا المسلمين لمْ يكن بالقليل. وتتميّز قبور القادة الثلاثة بقباب تعلوها. وقد انتابني وأنا أقف على هذا المعلم اللاإنساني نصب الخيانة والغدْر شعور غريب وبدا لي وكأنّ العظام الرمادية تتحرّك وكأن الأذرع تمتدّ نحوي، وكأن الجماجم الخاوية تشير إليّ وكل فم يسعى أن يقول لي : رُحْ أيها المسافر، اعبُر البحر ورُحْ إلى بلاد المسيح وبلِّغ أننا لا نلبث منذ قرون طوال نحمل ثقل هذا العار ومازالت عظامنا بدون ضريح يُؤْويها لعل صدى ندائك يبْبلغ أذن أمير تقيّ فيعمل على ترحيل بقايانا إلى أرض الوطن" [1]

وبعد هذه الرحلة في س1251هـ/1835 بثلاث عشرة سنة، يأمر المشير أحمد باي الأوّل س1264هـ/1848 بدفن عظام القتلى بطلب من بعض السفراء الأجانب وبنى مكانه نصب تذكاريّ عليه رخامة نقش عليها تاريخ الواقعة وتاريخ دفن الجماجم[2]

ونقول لئن كان عمل الجربيّين هذا لا يوافق أدب الحرْب في الإسلام، وإنما كان انعكاسًا لشدّة بأسهم تجاه الغاصبين، فإنّ توصيف هذا المبشّر امتلاءً تحْريفًا وانتقاءً وتزويرًا لملابسات الهزيمة الإسبانيّة المخزية. كما أنّ كُره الجربيّين لمْ يكُن للنصارى كما افترى،لأنّ دينهم يدعوهم إلى احترام أهل الكتاب، وإنما هو كرْه للهمجيّين والمعتدين منهم.

---

1 رحلة المبشّر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة1835. تعريب وتقديم تعليق: منير الفندري صص93-94.

2 المرزوقي: مؤنس الأحبّة ص105 هـ1.

- 1034هـ/1625: يحيى بن علي الآجيمي يأخذ سفينة من النصارى في بحر جرجيس مكثت هناك ترصد المسلمين، فيها اثنان وعشرون نصرانيًّا[1].

وقد اكتفى محمد أبوراس عند عرضه للحوادث الإفرنجيّة الواقعة في الجزيرة بأربعة تواريخ:

- 529هـ/1135م: هجوم روجار ملك صقلّيّة[2].

- 835هـ/1431م: هجوم الإفرنج[3]، والمقصود الأسطول الإسبانيّ بقيادة ألفونس الخامس(ت1458)، حيث منّيَ بهزيمة نكراء وبنى الجربيون بعظام جيشه البرج.

- 916هـ/1510: هجوم الإفرنج على الجزيرة على الساحل القبْلي وهزيمتهم[4].

- 997هـ/1588: نزولهم على الساحل الجوفي ومصالحة السمومني لهم على تسليمه برج القشتيل لهم[5].

أما يوسف بن امحمّد الباروني(ت1418هـ/1997) الإباضيّ الجربيّ، فقد زاد، اعتمادًا على الكتب التاريخيّة الإباضية وغير الإباضية، ما يلي:

- 529-555هـ/1135-1160م: بقاء جربة تحت حكم النورمان.

- 529-960هـ/1135-1552: استمرار القرصنة المسيحية والتصدي لها.

- 548هـ/1135م: إعلان سكان جربة مقاومة ملك صقلّيّة.

- 549هـ/1154م: احتلال النصارى للجزيرة من جديد.

---

1 الرسائل ص25.
وراجع: العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب.
2 أبو راس: مؤنس الأحبّة ص101.
3 م.س. صص104-105.
4 م.س. صص105-108.
5 م.س. ص114.

- 555-688هـ/1160-1289م: مصارعة جربة للأساطيل المسيحية بمفردها.

- 688هـ/1289م: احتلال ملك صقلية لجربة من جديد.

- 688-710هـ/1289-1310م: جربة تحت حوْزة البابا.

- 688-738هـ/1289-1337م: مقاومة الاستعمار الصليبي.

- 711-714هـ/1311-1314م: جربة تحت حكم ملك صقلية فردريك الثالث (حكم بين1295-1327م).

- 898-1207هـ/1492-1792م: استمرار العدو الإسبانيّ.

- 942هـ/1535: تحصّن الإسبان بجربة والمهدية والمنستير وطرابلس ويختم البسطة التاريخيّة بالقول: "ولا نشك أن جربة قد نالها ما نال عاصمة تونس من ظلم الأسبان وجورهم وطغيانهم، وبقيت جربة وتونس تحت سيطرة الأسبان يتجرع السكان مرارة الظلم ويستغيثون بإخوانهم المسلمين حتى جاء نصر الله وهبّ الأسطول التركيّ وخلص البلاد من الاستعمار الأسباني وقضى على الحكومة الحفصية س981هـ/1573"[1].

وكما يؤرّخ التيجاني لعلاقة جربة بالنصارى، وسنورد ذلك فيما يأتي، يوصّف ابن خلدون السنّيّ التدخّلات المسيحيّة في الجزيرة إلى عهده، فيقول: "كان من أعظم الحوادث تكالب العدوفي أيام هذا السلطان (يقصد الدعيّ بن عمارة) على الجزر البحريّة، فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ورئاستها يومئذ من محمد بن سمومن شيخ الوهبيّة، ويخلف بن أمغار شيخ النكّارة، وهما فرقتا الخوارج وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائبًا عن الفدريك بن الريداكون ملك بشلونة في أساطيله البحريّة وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً..وضايقهم مرارًا ثم تغلّبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسْرًا وسبْيًا فقيل إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد

---

1 راجع :الباروني: جربة في موكب التاريخ م.س. صص34-48، ونقلنا المادة بتلخيص واحتفاظ بعبارات المؤلف وتبويبه.

أن رموْا بالرضّع في الجبوب فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوْا بساحلها حصنًا واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحًا وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار كل سنة وأقاموا على ذلك وهلك المراكيا إلى رأس المائة وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن عادوا إلى مالقة في أواخر الأربعين والسبعمائة كما نذكر"[1]، ثم يضيف في موضع آخر: "...ثمّ تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل إفريقيّة. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلح.ثم عادت للمسلمين، ولمْ تزلْ مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحّدون أيام عبدالمؤمن واستقام أمرها إلى أن استبدّ بنوأبي حفص بإفريقية ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبوزكرياء ابن سلطان أبي إسحاق بالناحية الغربية وشغل صاحب الحضرة كما قدمناه فتغلب على أهل هذه الجزيرة أهل صقلّيّة سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوبها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنيْن برج، ويدور به حفير وسوران وأهمّ المسلمين شأنها"[2].

ولعلّ سالم بن يعقوب قد أرجأ الحديث عن الغزوات الأوروبية لجربة، كما أشرنا آنفًا، واكتفى هاهنا، عند حديثه عن قنطرة النصر، أحد الآثار الرومانية في الجزيرة، بالقول :"وقد قطع وسطها عند الوادي العميق الذي يتوسطها، عدة مرات، وكان آخر قطع أثناء الحروب الصليبية التي وقعت على جربة مخافة دخول الأعداء منها..." [3].

كما ألمع إلى "حملة الصليبيّين س916هـ/1511، تلك الحملة التي صالتْ في كامل سواحل شمال إفريقيا من وهران إلى طرابلس، وانكسرت شوكتُها أمام هذه الفئة القليلة من المؤمنين الذين اعتصموا بالله رغم قلة العدد والعدّة".

ويزيد ذلك شيئًا من التفصيل في معرض ترجمته الشيخَ يونس ابن تعاريت (ت917هـ/1512)، فيقول: "فبعد أن احتلّ القراصنة الأسبان بجاية ثم

---

1 تاريخ ابن خلدون، ج6 ص447.
2 م.س. ج6 ص544.
3 م.ص43.

المرسى الكبير ثم وهران ثم طرابلس، توقع أهل جربة أن يتجه هؤلاء الغزاة إلى جزيرتهم، فاجتمعوا عند الشيخ يونس ابن تعاريت، رئيس العزابة، بحضور الشيخ أبي زكرياء السمومني حاكم جربة، وأخذ الشيخ يونس يدعو الناس إلى الاعتصام بالله وتهوين أمر المشركين والاستخفاف بقوّتهم وعمل الشيخ أبو زكرياء على تسليح الناس وإعدادهم لمحاربة العدوّ. وتحقق ما توقعوه، فقد جاء الأسطول الإسباني متكوّنًا من عشرين ألف جنديّ ومائة وعشرين سفينة وهاجم الجزيرة بكامل ما لديه من قوة وكبرياء ونشوة بالانتصارات السابقة. فقابله أهلها الأبطال بعددهم القليل وإيمانهم القويّ فكتب الله لهم النصر وخذل المعتدين وردّ كيدهم في نحورهم. لمْ تكن معركة عاديّة بين قراصنة إسبانيا وسكان جربة بل كانت معركة بين الكفر والإيمان"[1].

وذكر فرار أمير جربة موسى بن جلود إلى مدنين س1113هـ/1702" هاربًا من الظّلمة"[2].

وأُورد أن الجهة الشمالية من حومة فاتو[3] غير مسكونة في القرون الوسطى، لأن السواحل كانت غير مأمونة الإقامة، خشية هجوم الصليبيّين. لكن عندما دخل العثمانيون تونس في أواخر ق10هـ/16م، س981هـ/1573، وطردوا جميع الصليبيّين من السواحل، رجعت الطمأنينة إلى نفوس السكان وسكنوا هذه الجهة الشمالية...[4].

وتحدّث عن شبه جزيرة تاربلّه التي كانت طريقًا لجيوش السلطان أبي فارس عزوز الحفصيّ عند قدومهم إلى جربة في واقعة صليبيّة[5]، وعن سيدي مرسول، وهو مسلم مجاهد أرسله مقدمو أهل الجزيرة في واقعة صليبية إلى تونس طرابلس ليطلب الإعانة على محاربة الأعداء[6].

---

1 م. ص220.

2 م.ص272.

3 ومن حومة فاتو تنحدر عائلة الأديب والباحث اللامع محمد فريد غازي (ت1382هـ/1962).

4 م. صص213-214.

5 م. ص34.

6 م. ص35.

ونقل قطعًا من أخبار الحيلاتي عن سيرة درغوث باشا التركي حين هجم على جربة[1].

ونقل خبر التيجاني عن قلع الجربيّين لأكثر أشجار التفاح، بسبب أن النصارى يأخذون منه الكميات الكبيرة غصبًا ليتحفوا بها ملوكهم وكبراءهم[2].

وأشار إلى عهد الاضطهاد المسيحيّ الكاتوليكيّ الإسبانيّ في ق7هـ/13م الذي وفد خلاله اليهود في دفعة ثانية إلى الجزيرة وبنوْا الحارة الكبيرة[3].

وأشاد بدوْر الشيخ عبد الرحمان الحيلاتي(ق10هـ/16) في التصدّي لما يحدث من مشكلات في الجزيرة بعد مقتل داود التلاتي، واصفًا هذه الفترة بأنها "قاسية لتوالي هجومات الإسبان والأتراك على جربة"[4].

ووصف برج قشتيل الوادي بجربة فقال: "وقد ابتناه الإسبانيّ روجي دي لوريا سنة 1210 حين تغلّب على الجزيرة. وهو حصن عظيم مربع الشكل متين البناء به بيوت صغيرة كان يقيم فيها الحرّاس"[5]، وقد وصفه التيجاني ودعا عليه بـ"دمّره الله" مرّتيْن[6]، إذ هوالذي تحصّن به الإفرنج لمّا حلّ جيش "الركاب العليّ المخدوميّ الليموميّ" س706هـ/1307م ومعهم صاحب الرحلة.

---

1 م. ص106/ ص135 / صص166–168.

2 م. ص48 / رحلة التيجاني ص127.

3 م. ص60

4 م. ص170

5 م. ص38 / ويوضح قوجة أن حصن القشتيل الموجود جنوب شرقي الجزيرة بناه لوريا بعد أن أصدرت الكنيسة والبابا بونيفاس السابع أمرًا يقضي بإلحاق جزيرتيْ جربة وقرقنة بممتلكات مملكة صقليّة، وتسمى شبه الجزيرة التي بُنِي فيها القشتيل "بين الوديان". وكان يُسمَّى "قشتيل الوادي" للتمييز بينه وبين برج حومة السوق الذي كان يحمل اسم "القشتيل".
لكن قوجة يُثبت أن القانون صدر في 11 أوت 1295م، وكان بناء القشتيل سنة 1289م/668هـ؟؟ وهذا لا يستقيم رسائل الحيلاتي ص15 هـ37.

6 رحلة التيجاني ص131

ب- التيجاني

بمثل ما فسّر به شهادة الإدريسيّ في أهل جربة، أوْماً بن يعقوب إلى رحلة التونسيّ أبي محمد عبد الله بن محمد التيجاني (كان حيًّا س718هـ/1308م)[1] في أوائل ق8هـ/14م، فقد كتب رحلته لمّا صاحَبَ مخدومه أبا يحيى زكرياء بن اللحياني الحفصيّ (ت749هـ/1339م)، ومن المعلوم أنّ إباضية جربة ذاقوا من الدولة الحفصيّة الأمرّيْن.

ولا يكون بن يعقوب مجانبًا الصواب كلّه حينما يربط بين موقف الساسة وقلم الكُتّاب الموالين، فمن المستبعد جدًّا أن ينطق الأديب الرحّالة المقرّب بما يرى فيه الحاكم غضاضة من سياسته.

ومن الغريب حقًّا أن يقول ح.ح.عبدالوهاب،في التقديم :"يزور التيجانيْ الساحل التونسيّ الزاخر بالعمران قديمًا وحديثًا ويمرّ بصفاقس، ثم ينزل إلى الجنوب ناحية قابس، وجزيرة جربة، فيعرّفها أحسن تعريف، متعرّضًا للعقائد والعادات المحلّيّة الشاذّة.."، ثمّ يضيف :"ويحقّ لنا أن نشيد هنا بتوجهات فخامة رئيس جمهوريتنا الساعي لإعلاء كلمتنا وتحقيق نهضتنا المجاهد الأكبر السيد الحبيب بورقيبة إذ إليه يرجع الفضل في الإشاة بإعادة طبْع رحلة التيجاني وغيرها من الذخائر التونسيّة، وقد أذن كاتب دولته للتربية القوميّة بالمبادرة لإعادة طبعها وبعثها من مرقدها وإزالة غبار النسيان عن سفرها لينتفع بها أهل الأبحاث وهواة الرحلات "[2].

كلّ هذا دون الإيماء أو التنصيص، هنا أو في الهوامش،على ضرورة استيعاب خلفيّات الأخبار والشهادات والأوصاف، المذهبيّة والسياسية

---

1 محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيّين ج1صص155– 158.
عبدالوهاب: تقديم رحلة التيجاني صص18–26.

2 ح. ح. عبدالوهاب: م.س.صص34–37.
وقد استحسنّا التنبيه الذي ورد في أوّل كتاب "رحلة المبشّر إيفالد" م.س.: "ولئن كانت الأمانة العلميّة تقتضي إثبات الوثيقة على علاتها، فقد رأينا أن لا ننشر ما لا فائدة توثيقيّة في نشره..." ص7.

والعرقيّة، وتنزيلها في سياقها التاريخيّ والثقافيّ وظروفها الحافّة، حتى يُحيط التونسيّ وغير التونسيّ بالمكان وسكّانه وتاريخه وحاضره أكملَ إحاطة.

ولئن أقرّ مؤلف نزهة الأنظار، ضمنيًّا، ما قيل في سكّان جربة القدامى، فإنّه قد أحسن حينما حذف من نقوله ما فيه قدْح لأهْل الجزيرة[1]، وقال: وحُكِي في نزهة المشتاق، ورحلة التيجاني عن أوائل هذه الجزيرة أمورًا لا تليق يتنزهون اليوم عن أكثرها، فقد استصلحوا والحمد لله عن تلك الرذائل وربنا يوفقنا وإياهم وعامّة المسلمين لما فيه سعادة الدنيا والدين.."[2]

ونرى من المفيد أن نورد نصّ التيجاني على طوله رغم ما سنقوم به من الاختصار. وفيه مزيج من التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والعقيدة، والحديث، والشعر، والسرد، والوصْف: "...نزلنا بساحة المجاز المعروف بمجاز الجرف، وبقيت منه جزيرة جربة ظاهرة بين أيدينا، وعرْض هذا المجاز من الجرْف إلى ساحل الجزيرة أربعة أميال،فباتت المحلّة على الجرف تلك الليلة. ولمّا أصبحنا من الغد.. شرع الناس في الجواز إلى جزيرة جربة، وقد أُعدّت لهم السفن لذلك فاجتزنا نحن أوّلاً، وأقمنا بساحلها من داخلها بموضع منها يسمّى بساحل آجيم بمدّ الألف وتشديد الجيم ننتظر أن يستوْفِيَ الناس أشغالهم، وأن يجيزوا خيلهم وأثقالهم إلى أن استوفى ذلك، وتوافى جميعهم هنالك، وزرتُ بهذا الموضع الذي أقمنا به مسجدًا هناك مباركا يذكرون أن الإمام المهديّ رحمه الله سكن به أول جوازه إلى المشرق، فإنه كان دخل في رحلته إلى هذه الجزيرة. وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطرًا، وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرًا. وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، كذا ذكر الشريف في كتابه المؤلّف للجار.وأمّا عرْضها فمختلف، فعرض الرأس الغربيّ منها عشرون ميلاً، وهوالطرف الواسع، ومن هذا الموْضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً، وعرض الرأس الشرقيّ منها خمسة عشر ميلاً وهوأضيق مكان بها. وهي أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين، وبها أصناف كثيرة من سائر

---

1 مقديش: نزهة الأنظار وعجائب الأخبار. ج1 ص148 ها283.

2 م.س. ج1 ص142.

الفواكه، إلا أن هذه هي أكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أويساويها، وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها منه صفاءً وجفافًا وطيب مذاق وعطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة والأميال العديدة، وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ثمّ قلّ الآن بسبب أن النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه فرأى أهل الجزيرة أن غيره من الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره.

واختصت هذه الجزيرة أيضًا دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بإفريقية لما يُنسَج من أثوابها نظير، وذلك معلوم من أمرها شهير. وأكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل، يجعل كل واحد منهم في أرضه واحدًا أو اثنيْن أو أكثر من ذلك، ثم يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة. وهُم ينقسمون إلى فرقتيْن: فرقة تُعرف بالوهبيّة، ورئاستهم في بني سمومن، وأرض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية فما والاها من جهة الشمال، وفرقة تُعرف بالنكّارة، ورئاستهم في بني عزّون، وأرضهم الجهة الشرقيّة فما والاها من جهة الجنوب. وكانت مدينة جربة فاصلة بين أرضيهم، وكلا الطائفتيْن خوارج غلاة في مذهبهم، مكفّرون العصاة على ماهومعروف من مذهب الخوارج لا كمذهب المعتزلة في امتناعهم من إطلاق اسم الكفر على من واقع كبيرة ولمْ يتُبْ منها، فإن المعتزلة لا تسمّيه كافرًا ولا مؤمنًا وتسمّيه فاسقًا على حكمهم بتخليده في جهنم، وكأن المعتزلة بزعمهم توسطوا في هذا بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السنّة. والمتصلّحون منهم لا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم، ولا يؤاكلونه في آنية، وإن استسقى عابر سبيل ماء من بعض أبييارهم استخرجوا ماء البئر كلّه فماحوه، وثياب الجنُب عندهم لا يقربها طاهر، وثياب طاهر لا يقربها جنُب، وقد شاهدت منهم مَن كان على طُهر إذا أجنب غسل ثوبه الذي أجنب فيه يرفعه بعصا أوبمحجن، ثم يلقيه في البحر، فيخضخضه بعصاه ساعة، ثم بعد ذلك يتناوله بيده، ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم رجالاً أونساء أجنبوا أو لمْ يُجنبوا، ويتوضؤون ثم يتيمّمون، وقد شاهدتُ هذا منهم كثيرًا، ويشترطون في وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية، والأفعال التي حكينا

عنهم منها ما شاهدناه وهوما قصصنا ومنها ما حكاه عنهم الشريف في كتابه المؤلّف للجار. وأوّل من افتتح هذه الجزيرة في أوّل الإسلام رويْفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاريّ من بني مالك بن النجار، وهومن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وممن سكن مصر منهم، وكان معاوية أمّره على طرابلس، وذلك سنة ست وأربعين فغزا منها إفريقية سنة سبع وأربعين، ووصل إلى جربة فافتتحها، ثم رجع من عامه فمات في برقة وقبره بها، ويُقال بل مات بالشام، ولما افتتحها جمع السبي والمغنم وقام في الناس... وكان الثائر النكّاريّ قام على المعزّ بن باديس سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ووصل إلى جربة وافتتحها وقتل من أراد من أهلها وسبى ذراريهم وأسر ابن كلدين مقدمهم ثم قتله وصلبه، فجهّز إليه المعزّ أسطوله وقتل أصحابه قتلة شنيعة، واستقرت جربة تحت طاعته، وتوفّي المعزّ فثار أهلها وأظهروا العناد والفساد وأنشأوا مراكب يقطعون بها السبل في البحْر على سائر السواحل. قال أبوالصلت في كتابه الذي ذيّل به على كتاب الرقيق: "لما ولي أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم بن المعزّ وذلك في آخر سنة تسع وخمسمائة واستتبّ له أمره واستوثق ملكه أمر بإعداد الأساطيل لغزو جزيرة جربة، وحرّكه في ذلك ما ترادف عليه مِن قطع أهلها في البحر وإخافتهم المسافرين فيه فتمّ ذلك، وقدم على الأسطول قائد الجيش إبراهيم بن عبدالله وأصحابه من أهل الدولة للمشورة فلانًا وفلانًا، فساروا إليها وذلك في سنة عشر وخمسمائة فحاصروها وأخذوا بمخنقها إلى أن أقرّ أهلها بالطاعة للسلطان وانقادوا لأمره ونزلوا على حكمه وضمن أشياخهم ومقدموهم قطع جميع الفساد الواصل إلى ساحل إفريقيّة من قُطّاعهم وأشرارهم وأن لا يتعدّوْا بمتاجرهم المهدية وأعلم السلطان بذلك، فكفّ عنهم ورجع الأسطول وصلح البحر وارتفع الفساد وأمن المسافرون. قال: وكان أمر جربة واستصلاح أهلها قد استعصى على من تقدّم من آبائه وأجداده على اتساع ملكهم وكثرة جيوشهم ووفور أموالهم، ثم تغلب النصارى عليها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة فقتلوا مَن قتلوا وبقي الباقون تحت طاعتهم، فلمّا كان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثار أهلها على النصارى وقتلوا منهم جماعة كثيرة فغزاهم النصارى من عامهم وتغلّبوا على الجزيرة ثانية فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولمْ يُبقوا منها إلا مَن لابال له، ثمّ تملّكها المسلمون بعْد ذلك، ولمْ تزل من أوّل الفتح الإسلاميّ على هذه الصفة بين تملّك المسلمين وتغلّب النصارى إلى زماننا هذا وكان تغلبهم عليها

في هذه المدّة الأخيرة سنة ثمان وثمانين وستمائة بسبب اشتغال ملك الحضرة إذ ذاك رحمه الله ببعض الثائرين عليه. فأقمنا كما تقدّم بذلك الموضع من الجزيرة إلى أن عبر جميع الناس إلينا وحصل سائرهم لدينا. ثم انتقلنا عنه يوم الجمعة الثالث والعشرين لجمادى الأخرى عصرًا مقرّبين لمرحلتنا من الغد إلى حصنها المسمّى بالقشتيل دمّره الله، فبتنا تلك الليلة إلى جانب مدينة جربة القديمة حيث كانت قصبة الجزيرة، وهي الآن خلاء لا أنيس فيه، ومشيتُ مع لمّة من أصحابنا فجست خلالها وجلت حلالها فرأيتُ بقايا مدينة صغيرة الصنع مربّعة الوضع، ويحدق بها سور مرتفع هوباق إلى الآن، وبداخلها جامع حسن البناء، وقد تخرّب الآن، فليس الباقي إلا آثاره، ورأيت على جهة منه نقشًا لمْ تصل يد الفناء إليه فوجدته في غاية الاحتفال وحسن الصنعة، ولمْ يصل أحد منهم بهذا الجامع كراهية لإقامة رسم الإسلام بتلك الجزيرة، لا خوفًا من النصارى كما يزعمون. وأما الجمعة فترْكها أصل في أصولهم لأنهم يشترطون في إقامتها وجود الإمام العدْل. وفي آخر المدينة بقايا أطلال القصبة حيث كانت سكنى حافظ البلد، وقد استولى الخراب على جميعها وفي موضعها الآن شجرة عظيمة من السدر المعروف في هذه البلاد بالسدر المصريّ قد ملأت ذلك المكان، وهذا السدر مخالف لسدْر بلادنا هذه، وهوأكبر ثمرًا وأعطر رائحة، وأما الطعم ففيه غثاثة، ورأيت منه بتوزر وما والاها من البلاد شجرًا كثيرًا، وإنما نُسِب لمصر لكثرته بها. وكان إلى جانب هذه القصبة حمام صغير هوالآن باق لمْ يتسلط الخراب على شيئ منه فبتنا إلى جانب هذه المدينة تلك الليلة ثم أصبحنا من الغد مرتحلين فلمْ نزل نمشي بين نخيل باسقة وثمار متناسقة إلى أن وصلنا موضع القشتيل دمّره الله، فرأينا حصنًا يهول الناظر إتقانًا وحصنًا، وهومربع الشكل، وفي كل ركن منه برج فاثنان منها مستديران واثنان مثمنان، وبين كل برجيْن من هذه في وسط الحائط برج صغير مربّع ويدور به فصيل قصير ويدور بجميع ذلك حفر متسع فنزلنا على مقدار ميل منه. ووصل إلينا إذذاك شيخ النكارة وقد كان هوونظيره من الوهبيّة فرّا من الجزيرة أول إقبالنا عليها خوْفًا على أنفسِهما، فلمّا حللْنا بها كتب إلينا كتابًا يطلبان الأمان فأسعفا به، فوصل النكّاريّ وتأخّر وصول الوهبيّ، فوصل بعده بأيام، ولمّا اجتمعا تكفّلا باستخلاص ما وُضِع من الأداء على قوْمهما، وانفصلا ليشتغلا بقبض ذلك من يومهما.واستمرّت المحاولة في قتال الحصن المذكور شهريْن كامليْن، فوجدْنا قومًا قد أطالوا للحصار

استعدادهم، واستفرغوا في التحرّز جهدهم واجتهادهم، وكانت كثرة الجيش الذي معنا من أعظم الأسباب في الإقلاع عنه لانقطاع الأقوات بتلك الجزيرة وتعذّر الميرة إلا في الشيء اليسير الذي لا تحصل به كفاية، فعلمنا أنّ أخذه يصعب بتلك المحاولة، وإنما يُؤخذ بالحصار والمطاولة، ورأينا أن ننفصل عنه لما كنا بنينا عليه من تهدين البلاد الجريديّة وقبض مجابيها، فإذا تمّ ذلك وعاد الجيش إلى الحضرة عينت له جريدة خيل يبني في أمرها على الاختصار فتوطّن على السكنى هنالك للحصار فكان ذلك. وكان الانتقال من جربة يوم الخميس السادس والعشرين لشعبان فكانت مدّة اللإقامة بها من يوم الدخول إليها إلى يوم الخروج منها خمسة وستين يومًا...ولما انتقلنا من جربة لمْ نخرج من المجاز الذي دخلنا منه، بل خرجنا من مجازها المعروف بساحل البرّ المتصل مقدار ثمانية أميال في البحر أكثرها قصير تقطعه الخيل مشيًا وفيه مواضع عميقة لا يمكن السابحات قطعها إلا سبْحًا، فهو مجاز خبيث لا يجوزه إلا عارف به متكرر عليه، فاجتزنا نحن أولا في السفن وشرع الناس في الجواز، فأجازت السفن قومًا وأجازت الخيل آخرين مشيًا وعوْمًا إلى أن استوفى الجواز جميع الناس وأقمنا بظاهر المجاز خمسة أيام.."[1]

ونجد في رحلة التيجاني شذرات متناثرة تدْعم ما ذكره هاهنا عن سكّان جربة، ومن ذلك:

/ **الزارات:** "..وهي قرية ذات نخل كثير... ومن هذه القرية كان الابتداء بسلوك منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين ودمائهم، وهذا المذهب هوالغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصا أهل الساحل منهم، فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يمر بهم من المسلمين للروم فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويتجنبون إيواءهم وقراهم، وهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام أبويزيد مخلد بن كيْداد في إفريقية، فإنه لمّا أظفر الله به أرواح البلاد والعباد منه تفرقت أتباعه في الأقطار فسكنت هذه الشرذمة هذه البقاع، وسكنت

---

1 رحلة التيجاني، صص126–134.

طائفة أخرى بجبال بجاية وقسنطينة وما والاها إلى بونة، ومالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة ونفزاوة وماوالاها من البلاد"[1].

/ **أهل غمراسن:** "وليس لأهل غمراسن ولا لأكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الإسلام إلا الاسم فقط، ولا تجد منهم من يعرف للصلاة اسمًا فضلاً عن أن يقيموا لها رسمًا، وكذلك جميع الشرائع.وإن كنت قد رأيت في أعلى قلعتهم موضعًا سمّوْه مسجدًا وليس يصلي فيه إلا رجل غريب من أهل زوارة سكن عندهم. وهم ينتحلون مذهب النكارة من الخوارج البربر ولا يغسلون موتاهم ولا يصلّون عليهم ولا يورّثون البنت شيئًا من مال أبيها "[2].

/ **زوارة الصغرى:** "..وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم، موْصوفون بتصميم في دينهم وأمانة فيما يُودع عندهم، مكفّرين بمواقعة الذنوب، ورأيت منهم أقوامًا قد نحلت من العبادة أبدانُهم، واصفرّت ألوانهم، بانين في ذلك على هذا الأمل الفاسد من تكفير العصاة على ما تقدّم بيانه عند ذكر جربة. وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يُعرف بعبدالرحيم الزواري وجميعهم يعظّمه ويقدّمه رئاسة وسنًّا وصلاحًا بزعمهم، اجتمعتُ به فرأيت شيخًا مجتهدًا في العبادة حسن السمت، إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيّع أعماله وخسر حاله وماله، وتوسّمتُ في أحد من وصل معه الطلب فتكلمتُ معه فوجدته قد شارك في طرف من العلم، وانجر الكلام معه من التحدّث في أصل المعتقد إلى التحدّث في مسألة المسح على الخفين في الطهارة فشنّع بها على مثبتيها كثيرًا وفاقًا لمذهب الخوارج، فذكرتُ له بعض الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله (ص) فردّها بالجملة، وقال: هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها، قال: وقد نصّ لنا سيدنا أبوزيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من الأحاديث يناقض أصلاً من أصولنا، فلعنتُ النصّ ومن نصّه، وأبعدت عني لفلتات لم يصن لسانه عنها شخصه،

---

1 رحلة التيجاني، صص125–126.

2 م.س. صص172–173.

وقد وافقت الخوارج على إنكار المسح على الخفيْن أضدادهم من الشيعة مستندين في إنكاره..."[1].

ومن المعلوم حسب المقدّمة أنّ جربة كانت الهدف الأوّل في إعلان خطّة السفر، حيث يقول صاحب الرحلة: "لمّا علم في تدبير الرعيّة من حسن غنائه، وما اجتمعت عليه قلوب الجمهور واستتم من محبته وثنائه، لوبيّن لهم انطلاقه لأبْدى كل منهم به اعتلاقه فصدّوه عن حجّه، وردّوه عمّا يمّم من نهجه، فرأى أن كتم الحجّ أصلح، وأنه الآكد في طريق السياسة والأرجح، فجعل أمر جربة سببًا إلى نيْل ذلك المرام، ورجا مع ذلك أن يكون على يده استرجاعها إلى الإسلام، فأعلن بذكر التوجّه إليها، وأشاع أنها المقصودة بالحركة، وأنه إذا انفصل عنها بعد أن يقضي وطره منها، يتوجّه بالمحلة إلى البلاد الجريديّة... هذا بيان ما بطن من هذه القضية وما ظهر، وشرح مااستتر منها ومااشتهر، ولم يعلم بأمر الحج فيها إلا ناس قليلون غير أن العامّة ربما كان حصل لهم به شعور فكانوا يشيعونه ولا يتحققونه. وتعيّنت للتوجّه إلى جربة حصتان برّيّة وبحريّة، وتقدّم إقلاع البحرية وارتحالنا بناء على يكون اجتماعنا بجزيرة جربة..."[2]

وقد ردّ سالم بن يعقوب على ما ذهب إليه التيجاني، من أن أكثر مساكن جربة الأخصاص، بإشارة عابرة إلى أنّ ذلك من المزاعم، وهي ليست من الحقيقة في شيْء، إذ أن التيجاني تابع لجيش يتحرك معه حيث تحرّك، ولا يدري من رسومها إلا ما رأى من أخصاصٍ في طريقه من آجيم إلى حصن القشتيل ومكث هناك لمحاصرة النصارى، ولمّا لمْ يفعلوا شيئًا رجع مع جيشه من حيْث أتوْا فلمْ يتجوّل فيها حتى يرى معالمها[3].

ونجد في الدراسات التاريخيّة أن صنفًا ممّن يطلق عليهم الإباضيون "برانيّة" وهُم "الأعشاش" يسكنون الخيام، فأصلهم من البدوالرحّل الذين قدموا الجزيرة من ضواحي زوارة الليبية وما جاورها من الجنوب التونسيّ،

---

1 م.س. صص186–187.

2 م.س.ص44.

3 المصدر ص18.

ولا يملكون الأرض التي تمكنهم من الاستقرار، ويتعاطوْن رعي الأغنام وبعض الأعمال الفلاحية.

كما نجد أن "الأعشاش" يمثلون صنفًا من أصناف "الغرباء" أو "البرّانيّة" وهم من التونسيّين المعتنقين للمذهب المالكيّ، ويعرّفون أنفسهم بأنهم ضعاف حال وفقراء، وجاؤوا من مناطق داخلية، ودخلوا جربة كغيرها من مدن الساحل، بحثًا عن العمل الفلاحيّ. وقد توزّعوا من الناحية الجغرافية بين أخماس مستاوة في الجهة الشرقية، وأخماس الوهبية في الجهة الغربية من الجزيرة. وقد فُرِضت عليهم أداءات جبائيّة[1].

وينبغي أن لا نغفل عن أنّ بن يعقوب يستدل في موضعيْن على شهرة تفاح جربة، وجودة أصوافها، بما ورد في رحلة التيجاني[2]، مما يدلّ على النزعة الانتقائيّة.

ولمْ نجد إشارة من سالم بن يعقوب، مثلاً، إلى أبي عبيْد البكري (ت487هـ/1094م) المؤرّخ والجغرافيّ الأندلسيّ، الذي وصف جربة، في موضعيْن من كتابه، فقال في الأوّل: "..فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير وأهلها مفسدون في البر والبحر وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز.."[3]، وقال في الثاني: "وهي جزيرة معمورة يسكنها قوم من البربر خوارج، وهي كثيرة الذهب، وبينها وبين البر الكبير مجاز، وهي آخر القصير إلى الشرق، وأهلها غدّارون شرار لا تومن ناحيتهم.."[4].

وأقرّ ذلك ياقوت الحمويّ(ت626هـ/1229م) الموصوف بأنّه "مؤرّخ ثقة ومن أيمّة الجغرافيّين"[5].

---

1 بن تنفوس: م.س. صص155-156 / المريمي: م.س. صص151-154.

2 المصدر ص48 / ص50.

3 البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب: المسالك والممالك ص19.

4 البكري: م.س. ص85.

5 راجع: معجم البلدان. مج2ص118 / الزركلي: الأعلام ج8ص131.

كما لمْ يرِد ذكْر العبدري المغربي(ت.نحو725هـ/1325م) صاحب الرحلة التي ورد فيها عن الجزيرة: "هي جزيرة صغيرة منقطعة في البحر فيها زيتون ورمّان، وتفاحها مشهور يجلب منها إلى البلاد، وأهلها أصحاب مذاهب رديئة وأهواء مضلة مثل زوارة وزواغة دمرهم الله جميعا. وقد صارت جربة اليوم في حكم النصارى أعطاهم إياها أهلها لشنئان وقع بينهم والعصمة لله ولا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

إنّ المستخلص من المادة الإخبارية في هذه النماذج من كتب الرحلات، أنّ أصحابها يطلقون من الأوصاف ما ينقلونه عن سابقيهم، وما يصل إليه سمعهم، وما يتلاءم ونظرتهم المسبقة. ولا نتصوّر أنّ ما ورد عن سكان جربة، مثلاً، كان بعْد مخالطتهم والتعرّف إلى طباعهم وأمزجتهم وسلوكهم، إذ المدة التي يقضيها الرحّالة بينهم لا تفي بذلك، بل إن البعض مرّ على الجزيرة دون إقامة.

ولا نناصر صالح باجيّة في أن التيجاني لم يتجاوز الواقع، و"وصَف ما شاهد في رحلته"، ونوافقه في : "أو سمِع"[2].

ثمّ لا نغفل عن أنّ الخلاف المذهبيّ والعقديّ، إلى جانب العلاقة بالسّاسة، والمصالح، والحسابات، كلّ ذلك ممّا يفعل فعْله بالشيْطنة والتشويه.

ويحْسن بنا، إضافة إلى ما قلناه، أن نورد نمطًا آخر في النصوص التي كُتِبت عن جربة، وهي من أدب رحلات غير المسلمين، وهي جديرة بأن تكون محلّ دراسة مستقلّة، لأنّ لها من الخصوصيات ما يمكن أن يكون مغايرًا تمام المغايرة لما ورد عند الرحّالين المسلمين.

ونأخذ مقطعًا مما كتبه المبشّر الألماني إيفالد،آنف الذكْر، إذ يقول: "وأهل هذه الجزيرة اللطيفة من المسلمين كما هوالشأن بالنسبة إلى كامل ساحل شمالي إفريقيا. وينقسم هؤلاء عادة إلى: حنفيّة، ومالكيّة. إلا أنه اعترضنتني

---

1 العبدري البلنسي (محمد) : الرحلة المغربية ص152.
2 باجيّة: الإباضيّة بالجريد م.س. صص75–77.

في هذا المكان طائفة ثالثة غريبة الأطوار يقال لها: الوهّابيّة[1]، ينتمي إليها ما يزيد عن أربعة أخماس أهل الجزيرة ويعملون بتعاليمها. ولهم لغة خاصة بهم تختلف عن العربية كل الاختلاف، لكن لها صلة باللهجات الدارجة في داخل إفرقيا وفي جبال الأطلس. ولهم مساجد خاصة بهم ومعلمون وهم يتزوّجون فيما بينهم فقط... وينتمي هذا المذهب أيضا عرب كثيرون من سكان الجبال الداخليّة، مما يجعلنا نرجّح أن وهّابيّي جربة أصيلوهذه المنطقة. ونراهم يواجهون من قبل بقية المسلمين بشديد الكراهية ويلاقون منهم الاضطهاد هناك حيث يقلّ عددهم. وفي حين أن سائر المسلمين يكتفون عند أداء الصلاة بخلع النعال. فقد نجد الوهبيّبيّين يخلعون السراويل أيضا ويصلون بدونها. وكل المسلمين يرفعون عند الصلاة الأيدي إلى فوق ويهتفون مرتين: الله أكبر، أمّا الوهّابيّون فإنهم يرخون الأيادي ويعيدون عبارة :الله أكبر أربع مرات. وهم يرفضون كل مفسري القرآن ويتقيّدون بحرفه فقط ويعتبرون أنفسهم سنّيّين أي أصحاب العقيدة الصحيحة...[2] إن أهالي جربة ليسوا بميسوري الحال فحسب بل هم أثرياء"[3]

ج- ابن خلدون

رجع بن يعقوب إلى ابن خلدون، واعتبره عالة على الإدريسي والتيجاني، إذ جعل، في رأيه، ما كتباه من طعْن في سكّان جربة أصلاً وقاعدة [4].

وهذا الحكم غير مستساغ، من وجهة نظرنا، إذ أن مكانة ابن خلدون في علم التاريخ تسوّغ له أن لا يكون بهذه المرتبة في التعامل مع مصنفات سابقيه. وقد ناقش صاحبُ "تاريخ الجزيرة" ابنَ خلدون في ثلاث مسائل:

/ الأولى: اعتبارُه جربة اسمًا لفرع من قبيلة لماية، فأشار بن يعقوب إلى أن ابن خلدون لا دليل له على ذلك، وهو بعيد، لأن اسم جربة معروف قبل

---

1 هكذا يثبتها معرّب النص منير الفندري، مع أنّه يكتب في الهامش: الوهْبيّة هي فرقة من فرق الإباضيّة... ص87.

2 هذا الحذف في الموضعيْن من عمل المعرّب الفندري، فلعله رآه غير مناسب ولا يليق.

3 رحلة المبشر إيفالد م.س. صص86-87.

4 م. ص17.

الإسلام، ووجود مدينة أثرية بها تدعى "كربة" بغيزن دليل على ذلك، إذ بها تسمّت[1].

/ **الثانية**: أن ابن خلدون لمْ تكن له نظرة واضحة عن الأمازيغ،وكان مترددًا في الحديث عنهم، ويورد من تاريخه مقطعيْن رآهما شاهدًا على ذلك[2].

/ **الثالثة**: مطاعن ابن خلدون في سكان جربة، ووصفهم بالوحشية والهمجيّة والمروق عن الدين. وقد رأى أنها تحتاج إلى تعاليق موسّعة، واغتنم حيّزًا في المقدمة دافع فيه عن عقيدته وتاريخها، وقد أوردناه سابقًا. ومما قاله ابن خلدون عن جربة وعن البربر وديانتهم[3]:

/ "هذه الجزيرة من جزر هذا البحر الذي هوقريب من قابس إلى الشرق عنها قليلاً طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلاً ، ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً. وبين فرضتيْها في ناحية الغرب ستون ميلاً. وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصت بالنسيج وعمل الصوف للباسهم فيتخذون الأكسية المعلمة للاشتمال، وغير المعلمة للباس، ويجلب منها إلى الأقطار فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم. وفيهم أيضًا من نغزة وهوّارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديمًا على رأي الخوارج، وبقي بها إلى الآن فريقان منهم الوهبيّة وهم بالناحية الغربية، ورياستهم لبني سمومن، والنكّار وهم بالناحية الشرقيّة. وجربة فاصلة بينهما.والظهور والرياسة على الكلّ لبني النجار من الأنصار من جند مصر، ولاّه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية وفتح جَرْبة سنة سبع وأربعين بعدها، وشهد الفتح حسين بن عبدالله الصنعاني ورجع إلى بَرْقة فمات بها. ولمْ تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي زيد سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فأخذوا

---

1 م. ص21 / صص58–59.

وراجع : jerba, une ile mediterraneene dans l'histoire pp27-28.

2 المصدر صص55–56.

3 يضاف إلى ما أوْردْناه آنفًا، وإلى ما سيرد في الفصل الثاني.

بدعوته بعد أن دخلها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلوس وصلبه. ثم استردها المنصور بن إسماعيل وقتل أصحاب أبي زيد، ولّما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزوْا الساحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخمسمائة بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلح الحال.."[1]

/ "ولّما سرى دين الخارجيّة في البربر أخذوا (أي بطون لماية) برأي الإباضيّة، ودانوا به، وانتحلوه، وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة.. فكانوا جميعًا على دين الخارجية وعلى رأي الإباضيّة منهم... وأما قبائل لماية فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم الذي اختطّوه وحازوه وملكوه سنّة الله في عباده وبقيَت فرَق منهم أوْزاعًا في القبائل ومنهم جربة الذين سُمّيَتْ بهم الجزيرة البحريّة تجاه ساحل قابس وهُم بها لهذا العهد. وقد كان النصرانيّة من أهل صقلّيّة ملكوها على من بها من المسلمين وهي قبائل لماية وكتامة مثل جربة وسدويكش ووضعوا عليهم الجزية وشيّدوا على سواحل البحر بها معقلا لإمارتهم سمّوْه القشتيل وطال تمرّس العساكر به من حضرة الدولة الحفصية بتونس حتى كان افتتاحها أعوام ثمان وثلاثين ومائة من المائة الثامنة في دولة مولانا السلطان أبي بكر وعلى يد مخلوف بن الكماد من صنائعه واستقرّت بها الدعوة الإسلامية إلى هذا العهد إلا أن القبائل الذين بها من البربر لمْ يزالوا يدينون بدين الخارجيّة، ويتدارسون مذاهبهم وبينهم مجلّدات تشتمل على تآليف لأيمتهم في قواعد ديانتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون على دراستها وقراءتها والله خلقكم وما تعملون"[2].

/ "...ما كان من خوارج البربر بإفريقيّة، فإنّ دعوة الخارجيّة فشتْ فيهم من لدن مسيرة الظفري سنة ثلاث وعشرين ومائة، ثم فشتْ دعوة الإباضيّة والصفريّة منهم في هوارة، ولماية، ونفزاوة، ومغيلة، وبني يفرن من زناتة حسبما يُذكَر في أخبار البربر... ثمّ ثار بإفريقية منهم على دولة

---

1 تاريخ ابن خلدون صص1769–1770.
ويذكر الاستبداد وسوء الامتثال والامتناع عن المجبى صص1776–1777.

2 التاريخ صص1614–1615.

العبيْديّين خلفاء القيروان أبو يزيد بن مُخْلد وكانت له معهم حروب وأخبار... ثم لمْ يزل أمرهم في تناقص إلى أن اضمحلّت ديانتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها في أوّل الأمر. ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد في قصور ربع ووادية، وفي مغراوة من شعوب زناتة يُسمّوْن "الوهبيّة" نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي أول من بُويع منهم أيام علي بن أبي طالب، وهُم في قصور هنالك مظهرين لبدعتهم لبُعْدهم عن مقال أهل السنّة والجماعة. وكذلك في جبال طرابلس وزناتة أثر باق من تلك النحلة يدين بها أولئك البربر.."[1].

/ "وذكر أبو محمد بن أبي زيد أن البربر ارتدّوا اثنتيْ عشرة مرّة من طرابلس إلى طنجة، ولمْ يستقرّ إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس فحينئذ استقرّ الإسلام بالمغرب، وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام، وتناسوا الردّة، ثمّ نبضت فيهم عروق الخارجيّة، فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقليها من منبعها بالعراق، وتعددت طوائفهم، وتشعبت طرُقها من الإباضيّة والصفريّة، كما ذكرْنا في أخبار الخوارج، وفشتْ هذه البدعة، وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة في الانتزاء عن الأمر..."[2].

د- أبو راس:

نجد أنفسنا مع أبي راس صاحب كتاب"مؤنس الأحبّة في أخبار جربة" إزاء أربعة نصوص:

/ نصّ بن يعقوب[3]

- اسم مؤلّف "مؤنس الأحبّة" هو: أحمد أبو راس.

ويُثبتُ ح. ح. عبدالوهاب أنه محمّد[4].

---

1 التاريخ صص692-693.
2 التاريخ ص1608.
3 المصدر ص17.
4 مؤنس الأحبّة (تقديم) ص11.

ومن الغريب أن بن يعقوب لمّا ترجم للحيلاتي قال: "..قال فيه محمد أبو راس في كتابه مؤنس الأحبّة....."[1]، فيثبت حينئذ أنه محمّد لا أحمد.

- هو قيروانيّ، وليس بجربيّ[2].

ويقرّر عبد الوهاب، بلا بحْث ولا إشارة إلى خلافٍ، إلى أنه أحد أبناء الجزيرة[3].

- كان موظّفًا بجربة زمن حمودة باشا.

- ألّف الكتاب س1223هـ/1809، والدليل ذكْرُ حميدة بن عيّاد (ت1232هـ/1817) المتولّي على جربة س1223هـ/1809،

ولمْ تلفت انتباهَ سالم بن يعقوب التواريخُ التي ذكرها أبو راس في نصّه مثل: 1244هـ / 1276هـ[4]، ولمْ يُعلق عليها ليقنعنا بثبوت سنة التأليف.

أما المرزوقي فيُثبت أن تأليف الكتاب كان س1211هـ/1797، وأعاد المؤلّف فيه النظر، وأضاف إليه زيادات، وانتهى منه س1222هـ/1808، وبعد سنة ونصف ألْحق المؤلفُ اسمَ الوالي بن عيّاد[5].

كما يُفيد المرزوقي أن التواريخ بعد1223هـ وقعت فيها أخطاء من الناسخ، ولا يُمكن أن تتجاوز على أقصى التقدير تاريخَ وفاة حمودة باشا (1229هـ/1814)، لأن المؤلّف نفْسَه ينبّه في كثير من الأماكن إلى أن التأليف والانتهاء منه كان في عهد هذا الباي الحسيْني[6].

وقد ذكر المريمي مَرّةً، أن المؤلف انتهى من كتابة "مؤنس الأحبّة" س1223هـ/1809، ومَرّةً س1222هـ/1808[7].

---

1 المصدر ص341.

2 راجع: ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج7صص17-18، ترجم لثلاثة من عائلة بوراس، منهم محمّد بن محمد.

3 مؤنس الأحبة ص11.

4 مؤنس الأحبة ص127.

5 مؤنس الأحبّة ص15 / ص126.

6 م.س. صص27-28.

7 -المريمي: م.س. ص286 / ص305.

ونستغرب، كلّ الاستغراب، الإيجازَ المخلّ من قبَل بن يعقوب في تحقيق نسبة الكتاب، والبتّ في اسم مصنّفه، وجهته التي ينحدر منها.

ويوافق الإباضيُّ الجربيّ الصادق مرزوق رأيَ الشيخ بن يعقوب، فيؤكّد أن مؤلف كتاب "مؤنس الأحبة" لمْ يكن من الإباضيّين أو الجربيّين[1].

أما محمد قوجة فلعلّه لا يذهب إلى ما رآه بن يعقوب، حينما يقول: "أغلب النصوص التي اعتُمِدت إلى حدّ الآن في تناول تاريخ جزيرة جربة هي من تأليف أجنبيّ عن الجزيرة باستثناء كتاب مؤنس الأحبّة.."[2].

/ نصّ المرزوقي (ت1402هـ/1981):

- صاحب "مؤنس الأحبّة في أخبار جربة" هو محمّد أبو راس.

- هو من مواليد جربة وسكّانها بدليل المعلومات الدقيقة في الكتاب، والمعرفة بالمصطلحات الخاصّة، والاسماء البربرية...

- كان موجودًا في أوّل ق13هـ/19، وولِد على الأغلب في الربع الأخير من ق12هـ/18

- عاش إلى ما بعد 1222هـ/1808، وكان حيًّا س1223هـ/1809

- هو مؤلّف مجهول لمْ يتعرّض إليه أصحاب التراجم

- المعلومات عنه شفويّة

- عائلة أبوراس جربية منبتها بجهة غيزن على الساحل الشرقي من الجزيرة، ولها فروع منتشرة في حومة السوق، وميدون، وأجيم، والهنشير، وتونس وأحوازها إلخ..

- تمّ الاتصال بالعائلة فلمْ يكن عندهم أيّ علْم عن صاحب الكتاب

- نسخة الكتاب في الخلدونيّة مليئة بالأخطاء التاريخيّة، وهي مازادت في الجدَل حول اسم المؤلّف ونسبة الكتاب إليه، يقول المرزوقي: "داخلَنا شك كبير

---

1 راجع: تاريخ جربة (مجموعة محاضرات في أحد ملتقيات جمعية صيانة جربة) ص49.
2 تقديم رسائل الحيلاتي.

في أن هذه النسخة قد بقيت كما كتبها المؤلف بل هناك ما يدعوإلى الاعتقاد بأن تغييرات كبيرة دخلت عليها استهتارًا بأمانة النقل وجراءة على إضافة ما لمْ يُثبته المؤلف إلى الكتاب ويلوح هذا في خطبة النسخة حيث ذكر فيها اسم الكتاب مخالفًا للاسم الموجود على الصفحة الأولى بل إن الاسم المذكور في الخطبة لا يمُتّ بصلة للموضوع، فقد جاء في هذه النسخة: أمّا بعد فيقول مَن كثرت ذنوبه وفضحت عيوبه المُقِلّ القاصر محمد أبوراس أحمد الناصر كلاه الله ورعاه، أنّ أحقّ ما تطمح إليه النفوس ويكون لها الخلاص في يوم العبوس، علم الأخبار التي تصلح لمسامرة الجليس ويكون بها نعم الأنيس، سمّيْتُه كتاب الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة...وهذا الافتتاح مخالف تمام المخالفة لافتتاح النسخة الثانية وإن تلِف شيء من الورقة الأولى من النسخة الثانية كما سيأتي، إلا أننا ندرك هذا الخلاف من قول المؤلف في الثانية: فاستخرْتُ الله تعالى في جمع ما ذكروه وما نقلناه عن الثقات وشهدناه عيانًا والله الموفق للصواب وسمّيْتُهُ: مؤنس الأحبّة في أخبار جربة..إلخ والذي يظهر لنا أن هذه الخطبة لم تكن موجودة في النسخة التي وقعت في يد المترجم المذكور فأضافها من عنده اعتمادا على غلط في اسم المؤلف نفسه حيث ظنّ أن المؤلف هوأحمد الناصر المغربي صاحب الرحلة الناصرية المعروفة الملقب: أبو راس[1]، فاشتبه عليه هذا اللقب ودفعه هذا الاشتباه إلى نسبة الكتاب لغير صاحبه، وربما اطلع على اسم: كتاب الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة، منسوبًا للمؤلف المغربي. وإن كنا لا نعرف هذا الكتاب ولم يَجِد اسم الكتاب في نسخته فظنّ أن اسمه: كتاب الإصابة، بدون أن يعتبر صلة الموضوع باسم الكتاب"، ثمّ يؤكّد في موْضع آخر: "وقد بيّنّا في المقدّمة عدم اطمئناننا إلى صحّة ما أوْردتْه نسخة الخلدونية من أنه محمد أبو راس أحمد الناصر وبيّنّا أن اسم: أحمد الناصر، ربّما ألحقه المترجم ظنًّا منه أن المؤلف هو أحمد الناصر الدرعي المغربي صاحب الرحلة"[2].

وقد أحبط بن يعقوب مجهود المرزوقي في التحقيق والتأويل فقال: "وقد حاول محقّقه المرزوقي أن ينسب مؤلّفه –محمد أبو راس– إلى جربة، إلا أن

---

1 راجع هاهنا : كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ج2صص768–770.
2 مؤنس الأحبّة صص20–25.

أدلته على ذلك غير محقّقة . فليس هوأحمد الناصر صاحب الرحلة، ولا هومن العائلات الجربية الملقبة ببوراس، إذ أنّ محمد أبو راس هو صاحب: الإصابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.."[1].

/ نصّ الزركلي (ت1396هـ/1976)[2]

- محمد بن أحمد بن ناصر الجربي (1165-1239هـ/1752-1824) من حفدة قاسم بوراس الهذلي الجربي الناصري

- هو مؤرخ نسبته إلى جزيرة جربة من بلاد تونس، تفقه ورحل إلى تونس والحجاز ومصر، ونظم قصيدة في فتح وهران س1207هـ/1793 على يد الباي محمد بن عثمان وشرحها في كتاب سمّاه: "عجائب الأسفار".

- من مؤلفات محمد أبو راس:
  - مؤنس الأحبة في أخبار جربة،
  - الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة
  - زهرة في علم النسب والتاريخ
  - رحلتي ونحلتي

وينبّه الزركلي على أن محمد بن أحمد أبوراس الجربي هوغير محمد بن أحمد بن الناصر المعسكري الملقب بأبي راس (1150-1238هـ/1737-1824) المؤرخ والمحدث الجزائريّ، والذي ثبت أنه أخذ العلم عن علماء الزيتونة، ومنهم إبراهيم الرياحي(ت1266هـ/1850)، ثم ارتحل إلى المشرق مرورًا بجزيرة جربة[3].

ويُبعثر خليل مردم بك (ت1379هـ/1959) صاحب كتاب "أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع"، هذه المعطيات. فيبيّن أن المعسكري عاش بين (1165-1239هـ/1751-1823)، وهو فقيه، رحل إلى

---

1 المصدر ص17.

2 معجم الأعلام ج6ص18.

3 راجع كذلك: مصلح: الوقف الجربي، م.س. صص17-18

تونس والحجاز ومصر، وله كتاب: "وصف لجزيرة جربة" مطبوع في تونس، وله قصيدة في فتح وهران، وشرَحها في كتاب"عجائب الأسفار"[1].

ونجد شيئًا من هذا في "تراجم المؤلفين التونسيّين" حيث يُثبت محفوظ أن المؤلف الحقيقيّ ل"مؤنس الأحبة" هومحمد أبوراس بن أحمد الراشدي الغريسي المعسكري، صاحب "مؤلفات عديدة"، وقرأ بجامع الزيتونة، وأقام بتونس مدة طويلة، وزار كثيرًا من مدنها[2].

ولكن لمْ يُحدد فترة حياة هذا الرجل، ولا بعضًا من عناوين كتبه، ليكون ذلك عوْنًا للباحث على الاهتداء إلى الصواب.

/ **نصّ أحمد عبدالسلام** (ت1428هـ/2007)

- المؤلّف هو محمّد أبو راس.
- من أضاف إلى اسمه: الناصر – ابن أحمد الناصر- هو مخطئ.
- وُلِد وقضّى حياته في جربة.
- شاهد عن كثب أحداث أواخر ق11هـ/18 وبداية ق12هـ/19. هكذا
- لا يُعْلَم تاريخ وفاته
- الدارسون المحدثون يعتمدون كتابه مصدرًا من مصادر تآليفهم عن جربة[3].

/ **نصّ المريمي**[4]

- كاتب "مؤنس الأحبّة" هو محمد أبو راس،

ولمْ يَضبط المريمي سنة ولادته، ولا سنة وفاته، ولا نسبته العائليّة.

- أبو راس هومن مواليد جربة،

---

1 نقلاً عن مصلح: م.س. ص21

2 محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيّين، ج4ص314

3 أحمد عبد السلام: المؤرّخون التونسيّون صص321–323.

4 المريمي: م.س. ص286 / صص305–306.

- عاش في جربة،

- هو من مؤرخي ق13/19هـ، وكان شاهد عيان لأحداث أواخر ق18م/12هـ ومطلع ق13/19هـ، ولكنه بقيَ من المؤلفين المجهولين.

- عائلته من العائلات الإباضية التي تقطن في الجزء الغربيّ من جربة وهي المنطقة الوهبيّة، وهي عائلة منْبتُها بجهة غيزن على الساحل الشماليّ الشرقيّ، ولها اليوم فروع منتشرة في حومة السوق وميدون وأجيم والهنشير من جزيرة جربة، وكذلك في تونس وأحوازها، وكذلك في الخارج. وقد نزحت هذه العائلة في الأصل من طرابلس إلى جربة.

ويضيف قائلا: "ونسيَت عائلة أبوراس صاحب مؤنس الأحبة في أخبار جربة، أحد أفرادها، وهونفس النسيان الذي ذهبت إليه مؤلفات الإباضية الخاصة بسير علماء الدين وتراجمهم والتي أُلِّفت بعد وفاة محمد أبو راس الجربي مثل رسالة سعيد بن تعاريت وغيرها. ويلاحظ نفس النسيان أيضا في مستوى آخر يتمثل في إنكار فقهاء الإباضية وعلمائهم اليوم نسبة محمد أبوراس الجربي إلى الإباضية وانتمائه إلى أهل جربة "[1].

ويرجع المريمي "نسْيان" الإباضية لمحمد أبوراس الجربي على مختلف المستويات،العائلية والاجتماعية والسياسية، إلى ما رأوْه منه "ارتدادًا"[2]، وتخليًا عن الولاء للنفوذ المحليّ الإباضيّ الوهبيّ، بإطلاقه صفة "المعظّم" على حمودة باشا[3]، وذكْرِه المشايخَ والمعالم الدينية المالكيّة على قدم المساواة مع الإباضية،

---

1 المريمي: م.س. ص305.

2 يستعمل المريمي هذه اللفظة كثيرا تعبيرا عن الخروج من المذهب الإباضيّ، أو عن عدم الالتزام به، أو عن ترك الولاء المطلق له. ولا نوافقه على اختيارها، لأن "الردّة" و"الارتداد" يعنيان الخروج من الدين، والإباضية أنفسهم لا يُطلقونها على أصحابهم الذين خرجوا عنهم.
ونحبّذ عبارة "الهجران" التي أطلقها إباضية الجريد على من يميل منهم إلى المخالفين ويكثر من مطالعة تآليفهم. راجع: باجيّة: الإباضيّة بالجريد ص49.
كما نحبّذ عبارة "الانسلاخ" وهي التي استعملها محمد محفوظ، حينما تكلم عن عائلة التلاتلي المستقرّين في الوطن القبلي، أو "التبديل"..

3 مؤنس الأحبّة ص99/ص122/ص124، ويصفه ب"المؤيّد المنصور" ص80

وتنويهه ببعض المعالم العسكرية التي كانت لا تمثل في نظر الإباضية الوهبية سوى سياسة الهيمنة التي كان يتوخاها الأتراك ومن سبقهم من النظم السياسية والإدارية الأخرى في عهد الحفصيّين وغيرهم. إلى جانب أنه ذكر معالم جربة القديمة المهملة، التي سعت الذاكرة الإباضية الوهبية إلى نسيانها لأنها تذكر بحالة الهيمنة التي كانوا يخضعون لها أيام السلطة المركزية الرومانيّة.

وباعتبار محمد أبوراس الجربي رمزًا من رموز السلطة المخزنيّة التي تسعى إلى احتواء هياكل النفوذ المحليّ بجربة، طبّقت عليه الإباضيّة الوهبيّة مبدأ "براءة الأشخاص" لأنه: "أخلّ بالروابط المذهبيّة التي تجمع بين أفراد المجموعة الإباضية الوهبية، وكانت تعتبر أرقى الروابط فيما بينهم، فانعكس تصرّفه على مختلف مستويات العلاقات التي تربطه بمجموعته فتنكّر له الجميع عن طريق "النسيان" ولم تعد المجموعة الوهبية في أواخر القرن18 ومطلع القرن19 قادرة على توخي غير تلك الطريقة لمكافأته"[1].

مع أننا لا نوافق تهْويل المريمي في أن "مؤنس الأحبّة " ذكر معالمَ وأعلامًا (هكذا بالجمْع) غير إباضيّة، إذ الحقّ أن أبو راس لمْ يذكر سوى الجمني، ومدرسته، وبرج القنطرة، وبرج جليج، بإيجاز خاطف[2]، والكتاب كلّه مُقتضَب.

وهكذا يظلّ الخلاف قائمًا حول هويّة "مؤنس الأحبّة في أخبار جربة" ومؤلّفه.

ومهما يكن من أمْر فإنه عنوان بارز في مكتبة تاريخ جربة. فقد اعتبره عبدالوهاب على صغر حجمه من أهمّ المصادر للاضطلاع بأحوال جربة في شتى النواحي: الجغرافية، والتاريخيّة، والسياسيّة، والحربيّة، مع ذكْر تراجم مختصرة لبعض النابغين من أبنائها في العلم والإدارة [3].

---

1 المريمي : م.س. صص305-308.
2 راجع مؤنس الأحبة صص95-96 / صص98-99.
3 مؤنس الأحبة ص11.

وأثبت له المرزوقي أهمية لأنه يكشف الغطاء عن بعض ما نجهله عن جزيرة جربة التي كانت معقلاً من معاقل السلالة البربرية القديمة، ومركزًا من مراكز المذهب الإباضيّ الهامة، وقلعة من القلاع التي قاومت أطماع غزاة الإفرنج زمنًا ليس بالقصير، ولأنه يساعد على كشف كثير من المعميّات[1].

ووصفه عبدالسلام بقوله: "لئن كان هذا الكتاب متواضع الحجم فهو مليء بالمفيد من المعلومات إذ يحتوي على إرشادات حول أسماء المواقع وتدقيقات تتعلق ببعض الأماكن وإشارات لبعض الأحداث، مما حدا بالدارسين المحدثين إلى اعتماده كمصدر من المصادر عند تأليفهم عن جزيرة جربة"[2].

لكنّ بن يعقوب قد عدّه كتاب "الأكاذيب التاريخيّة"[3]، ولمْ يذْكر ولو أكذوبة واحدة. وهوما يُعتبر في رأينا تقصيرًا لا يُغتفَر، وتخليًا عن الواجب العلميّ والمسؤليّة التاريخيّة، وزهدًا في صيانة الأمانة المعلوماتية، إذْ لن يصل القارئ الباحث إلى تبيّن الحقيقة بالاتهام المُبهَم، والتوصيف غير المسنود، وإنما بالتفكيك، والتحليل، والاستنتاج، والمقارعة، والتصحيح .

ولعلنا لا نجِد في مادة الكتاب المتواضعة خلافَ ما قرأناه في رسائل الحيلاتي مثلاً،حيث أتت أقسام "مؤنس الأحبّة " الخفيفة على :

/التعريف بالجزيرة

/أخبار مشائخها

/معالمها الدينية والأثرية

/الأحداث السياسية التي مرت عليها

---

1 مؤنس الأحبة صص14–15.

2 عبد السلام: المؤرخون التونسيّون ص323.

3 المصدر ص17.

/الأوبئة الواقعة بها،والتي وقف المؤلف على تواريخها [1]، وقد وصف أحمد عبدالسلام هذا الموضوع بـ"الغريب"[2]

ويمكن أن تكون "الأكاذيب" هي تلك اللخبطة في بعض التواريخ، وهذا أمر لمْ يسْلم منه حتى الحيلاتي كما أشرنا، ثمّ إنّه من المحتمل أن يكون لناسخ الكتاب نصيب في ذلك.

وأمّا أن يكون المقصود من "الأكاذيب" ولاء الكاتب لحمودة باشا، وللهياكل المخزنيّة، وإنصافه للحضور المالكيّ، فحينئذ يكون موقف بن يعقوب مضغوطًا بالحماسة المذهبيّة.

ويحْسُن أن نورد فيما يلي فقرات من الكتاب، نظنّ أنها أسباب في سخط بن يعقوب على بوراس:

/"أما الأبراج فسبعة منها على ساحلها الجوْفيّ بُرجان : البرج الكبير المسمّى بالحصار وهوشرقيّ المرسى، وبُرج جليج الجديد الذي أحدثه المؤيّد المنصور حمودة باشا.."[3]

/"هوالشيخ الوليّ الصالح الورع الزاهد الجامع بين العلم والولاية إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم بن أبي بكر بن عمر نزيل قرية جمنة..نال من جميع العلوم معقول ومنقول..ونزل جربة وقصد جامع الغرباء واجتمعت عليه الطلبة واجتهد في تعليم العلم..ومن كراماته أن كل من قرأ عليه نال منه.."[4]

---

1 –لمْ نطّلع على المقدّمة التي ذكر المرزوقي أنها تمثّل نصف الكتاب، وسرَد فيها المؤلف جدولا لتواريخ تولية ووفاة أوعزل جميع حكام الدول الإسلامية التي لها اتصال بإفريقية من الخلافة الراشدة إلى عهد الباي حمودة باشا.
وقد حذفها المحقق إذ رأى أن هذه المقدمة لا قيمة لها من الناحية التاريخيّة باعتبار أن محتواها موجود في كتب عديدة متداولة ولا صلة لها بالكتاب الذي هوخاص بجربة، إلى جانب الأغلاط في ضبط التواريخ، وكان الهدف منها تضخيم حجم الكتاب . مؤنس الأحبّة ص16

2 – عبدالسلام : المؤرخون التونسيون ص323

3 – مؤنس الأحبّة ص80

4 –مؤنس الأحبّة صص95–96

/"واستولى الشيخ أحمد (ابن موسى بن جلود) على الجزيرة وركب الشيخ موسى(ابن صالح) البحر ونزل صفاقس وكانت المحلة بالقيروان ومعها يونس بن علي باشا فقصده الشيخ موسى وأخبره بالواقع فجهز له عساكر زواوة وأمرهم بقتال الشيخ أحمد فقصدوا صفاقس وركبوا البحر فتلقاهم الشيخ أحمد بمن معه من العربان فلما نظرت العربان إلى كثرة العساكر رجعوا هاربين إلى الساحل القبلي طالبين الخروج من الجزيرة على طريق تاربلة فلحقوا بهم على الساحل وقتلوا كل من وجدوه على الساحل لمْ يسلم منهم إلا الذي خرج من الجزيرة وقطعوا رؤوسهم، بنواب ها برجا قرب برج رؤوس الإفرنج الذي على الساحل الجوْفي قرب الحصار ولما استولى السيخ أحمد بن موسى بن جلود على الجزيرة الولاية الأخيرة سنة سبعين ومائة وألف خرب البرج ودفن الرؤوس"[1]

/"وأما ما كان من عساكر الحاج علي الجزيري لما استولى على الجزيرة وفرّ قارة محمد إلى طرابلس وبقي غالب عسكره في الجزيرة ودخلوا تحت طاعة الحاج علي أباح إلى عسكره السوق الكبير وحاليه ونهبوها ولم يرتقبوا زاوية الجمني ولا غيرها..فلما بلغ إلى المعظم حمودة باشا خبر ما فعل الحاج علي الجزيري من النهب عاتبه أشد العتاب وأماته الله شر موتة.."[2]

هـ – عبدالوهاب /المرزوقي

يظهر وهَم بن يعقوب حينما نسَب فقرة وردتْ في تمهيد محمد المرزوقي ل"مُؤنس الأحبّة"، إلى المؤرّخ عبدالوهاب[3] الذي كتَب التقديم لا التمهيد.

---

1 – مؤنس الأحبّة صص118–119

2 –مؤنس الأحبة ص124

3 –يصفه الفاضل ابن عاشور بأنه ناشئٌ، في خدمة التاريخ التونسي، على تتبع دراسات المستشرقين والأثريّين الأوروبيّين التي تطبع كتبًا جامعة، أوتنشر مقالات في المجلات العلميّة، فنما فيه ذوق البحث التفصيليّ، والتنقيب الأثريّ، والعناية بتحقيق المصادر وإحيائها، وكبرت نفسه اعتزازًا بأمجاد التاريخ التونسي، وعظمت همّته حرصًا على التعريف بها... الحركة الأدبية والفكريّة صص127–128

وهذه الفقرة هي :"والمعروف عن البربر الأوّلين أنهم ينحتون من الجبال بيوتًا، وأنهم يميلون إلى بناء المدن والعمارات، ولذلك لمْ نجد أثرًا يُذكَر في جربة لمدن بربرية ذات أهمّيّة، وإنما الموجود قرى ومنازل صغيرة بُنِيَت في العصور الحديثة حسب الظاهر، أمّا في العصور القديمة فقد كان أغلبهم يسكن أخصاصًا مصنوعة من جريد النخل وأغصان الأشجار، ولمْ تتغيّر هذه المساكن إلى منازل من الحجَر والمدَر إلا في العصور القريبة حيث انتشر العُمران"[1] وقد عدَّ بن يعقوب هذا الرأي زعمًا باطلاً يكذّبه الواقع المشاهد من آثار مدن قديمة ذات عظمة وفخامة، كمدينة القنطرة، ومدينة هنشير الغولة، ومدينة بورقوالأثريّة وغيرها [2]

إنّ هذه الوقفة الوحيدة عند التمهيد الذي التبس بالتقديم، يمكن أن يُفهَم منها أن بن يعقوب يتفق مع عبد الوهاب والمرزوقي فيما تبقى، وهذا مستبْعَد، ولكن ليس هناك ما يدلّ على خلافه.

ويحْسُن بنا أن نلخّص أهمّ ما ورَد في نصّيْ المقدّم والمحقّق، مما نراه حقيقًا بالمراجعة من قِبَل بن يعقوب، ولكنّه سكت عنه.

/التقديم

- أهل جربة متمسّكون بـ"النحْلة الخارجيّة"
- جربة كانت من أشهر معاقل الخارجيّة
- نزحت فرق من القبائل البربرية في ق4هـ/10م، واستقرت بها
- صاحب "مؤنس الأحبة" هومحمد أبوراس، وهوأحد أبناء جربة[3]

/التمهيد

- اسم الجزيرة "جربة" هواسم أوّل قبيلة من قبائل لماية البربرية نزلت بها

---

1 – مؤنس الأحبّة صص33–34

2 –المصدر ص18

3 –مؤنس الأحبّة صص3–12

- انتشار المذهب المالكيّ أثّر تأثيرًا كبيرًا في تراجع اللسان البربريّ
- المتمذهبون بالمذهب المالكيّ يمثلون نصف السكان أويزيدون
- فاتحوجربة وجدوا مقاومة من قبَل الجربيّين
- معتنقوالإسلام في أوّل الفتح الإسلاميّ للجزيرة هُم بعض السكّان
- سرايا إسماعيل بن زياد النفوسي هي التي أدخلت معها المذهب الإباضيّ إلى جربة
- المذهب الإباضيّ انتشر بفضل الحرية التي كان يتمتع بها المسلمون في القرون الأولى حين كانت السياسة لا تتعرّض غالبًا إلى المعتقدات إلا بقدْر ما فيها من خطر على الأمن العام
- جربة معقل من معاقل الخوارج وملجأ لدعوتهم عهودا طويلة نظرا لسكنى القبائل البربرية القويّة العصبيّة بها من قبْل الفتح الإسلاميّ
- الصفريّة والأزارقة والإباضية وغيرهم من فرق الخوارج ألبسوا مذاهبهم صبغة دينية تأييدًا لمساعيهم السياسية
- جميع هذه الفرق تكفّر عليًّا وعثمان ومعاوية وأصحاب الجمل عائشة ومن معها، وتوجب الخروج على الإمام الجائر [1] .

وبعْدُ، إنّ كتاب "تاريخ الجزيرة ومدارسها العلميّة" لسالم بن يعقوب، يكتسب من الأهميّة، ما يجعله عنوانًا بارزًا في المصنّفات التي اعتنت بتاريخ تونس، وأثرًا ذا طرافة في الذاكرة المحلّيّة والوطنيّة.

ويصْلُح الإقرار بأنّ كتب التراجم التونسيّة القديمة قد قصُرت عن المأمول حينما أغفلت السيَر الإباضيّة التي ملأت الجزيرة، ثمّ الجريد، علومًا دينيَّة، وتآليف ذات بال، ومدارس متعاقبة عبر العصور، تخرّج فيها فقهاء، ومتكلمون، ودعاة، ورواة، ومؤرخون، وأدباء، وشعراء، لفتوا انتباه المسلمين وغير المسلمين، وكتب عنهم العربُ والمستشرقون، ولا يزالون، وظلّت

---

1 – مؤنس الأحبّة صص31–70

إنتاجاتهم مادة خصبة يرجع إليها أصحابهم والمخالفون، وبقيَت آثارهم ومعالمهم، بفرادتها وخصوصيّتها، دالّةً عليهم.

ولا يكون مبالغةً القولُ إنّ جربة التونسيّة تُعرَف بالإباضيّة، والإباضيين التونسيّين بجربة يُعْرَفون، فهذه الجزيرة الجميلة هي موطنهم الأصيل، وهي ماضيهم وحاضرُهم، وهي مصدرهم ومورِدُهم، وهي رمز انتمائهم، طبّقت، بهمْ، شهرتُها الآفاق، وتجاوزت الحدود، لتصِل البحْر بالجبل والصحراء، وتشرّق، وتغرّب، عبر الرحلات العلميّة، والحملات الدعويّة، والحركات السياسيّة، والأنشطة التجاريّة، في تفاعل دؤوب لا يعرف الركود، وفي تواصل مع الآخر ممتلئٍ مرونةً وسماحة.

إنّ تاريخ جربة من تاريخ تونس، وإرث الجزيرة الإباضيّ صنْوالإرث المالكيّ في رصيد بلادنا الدينيّ، أغنى مخزونَها الحضاريَّ بمبادئ عقَديّة، واجتهادات فقهيّة، ومقولات سياسيّة، وعادات ونظُم اجتماعيّة، لمْ ينقطع أثرها الإيجابيّ في الأفكار، والسلوك، ونمط المجتمع.

وليس حراك الجربيّين الإباضيّين العلميّ الثقافيّ، المتعاضد مع الاقتصاديّ المعيشيّ، داخل الجزيرة وخارجها، إلا دلالة على ميزة هذه الجماعة في علوالهمّة، والثقة بالنفس، والاعتزاز بالذات، والتفوّق، والعمل والإنتاج، والقدرة العجيبة على التكيّف، والصمود، وتحدّي المعوّقات، وتجاوز الأزمات التي لمْ تنته منذ سالف العصور.

فكتاب"تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلميّة" كان الذاكرة الإباضيّة لتاريخ تديّن إباضية جربة وثروتهم العلميّة، وهوما قصدناه في عنوان الفصل. فالجزئيات، والتفصيلات، والروايات، والإحالات، والنصوص الشواهد، والترجيحات، والتصويبات، كلها تضافرت لتشكّل عيّنة في توثيق الإباضيّة للمسار الإباضيّ الجربيّ، وحينئذ يكون التوثيق للتاريخ المحلّيّ.ولكن دون أن يسْلم من ردّة الفعْل تجاه كلّ من همّش إباضيّة جربة، أووصَمهم، أوضيّق عليهم.

بيبليوغرافيا (1) تونسية مختصرة
في تاريخ تونس وثقافتها ورجالها

المؤلّف[1]	الكتاب[2]
أبوالعرب محمد بن تميم (ت333هـ/945م)	طبقات علماء إفريقيّة (ط.دار الكتاب اللبناني)
	طبقات علماء تونس (مطبوع مع الكتاب السابق)
محمد بن الحارث الخشني (ت371هـ/981م)	طبقات علماء إفريقية (مطبوع مع السابقيْن)
الرقيق القيرواني (ق5هـ/11م)	تاريخ إفريقية والمغرب. قطعة منه تبدأ من أواسط ق1ه/7م إلى أواخر ق2هـ/8م. تحقيق وتقديم : المنجي الكعبي (ط2الدار العربية للكتاب 1426هـ-2005)
أبومحمد عبدالله التيجاني (حيّ س718هـ/1308م)	رحلة التيجاني تقديم: ح.ح. عبدالوهاب (ط.تونس 1426هـ/2005)

---

1 – رتبنا المؤلفين حسب أسبقيّة الوفاة، أما الذين لا يزالون على قيْد الحياة والآخرون الذين نظنّ أنهم كذلك، فقد رتبناهم ألفبائيًّا حسب ألقابهم

2 – نذكر ما وصلنا إليه. ولمْ ندرج عناوين "الأعمال الكاملة" لأننا رأينا أنها ذات بُعْد أدبي، لا تاريخي يركز على ترجمة الشخصيّة التونسيّة. ثمّ ليست هذه البيبليوغرافيا إلا عيّنة. وقد رتبْنا المؤلفات الجماعيّة حسب تاريخ الصدور

ابن أبي دينار(ق11هـ/17)	المونس في أخبار إفريقية وتونس تحقيق: محمد شمام (ط.تونس 1392هـ/1972)
سليمان الحيلاتي (ت1099هـ/1688)	رسائل في ذكْر علماء جربة وأماكن أضرحتهم والحوادث التي وقعت في أيامهم ومجالسهم العلميّة تحقيق: محمد قوجة (ط1بيروت 1408هـ/1988)
الوزير السرّاج (ت1149هـ/1736)	الحلل السندسية في الأخبار التونسية تحقيق: محمد الحبيب الهيلة ط. تونس1390 هـ/1970
محمد أبوراس (ت. بعد1222هـ/1808)	مؤنس الأحبّة في أخبار جربة تحقيق وتمهيد وتعليق : محمد المرزوقي تقديم :ح.ح. عبدالوهاب (ط.تونس 1380هـ/1960)
محمود مقديش(ت1228هـ/1813)	نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار تحقيق: علي الزواري /محمد محفوظ (ط1بيروت1408هـ/1988)
إبراهيم الرياحي(ت1266هـ/1850)	تعطير النواحي بترجمة العلاّمة إبراهيم الرياحي (ط.الشركة التونسيّة لفنون الرسم د.ت.)

محمد بيرم الرابع (ت1278هـ/1861)	التراجم المهمّة للخطباء والأيمّة تحقيق: محمد المختار النيفر (ط1تونس 1424هـ/2003)
	الجواهر السنيّة في شعراء الديار التونسية تحقيق وتعليق: الهادي حمودة الغزي (ط.تونس1393هـ/1973)
أحمد بن أبي الضياف (ت1291هـ/1874)	إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تحقيق: رياض المرزوقي (ط2تونس 1409هـ/1989)
الباجي المسعودي (ت1297هـ/1892)	الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقيّة، وبذيْله: فرائد الرائد (ط1323هـ/1905)
محمد السنوسي (ت1318هـ/1900)	مسامرات الظريف بحسن التعريف تحقيق وتعليق: محمد الشاذلي النيفر (ط1بيروت1414هـ/1994)
محمد النيفر(ت1330هـ/1912)	عنوان الأريب عمّا نشأ في البلاد التونسيّة من عالم أديب (ط.بيروت 1416هـ/1996)
محمد الحشايشي (ت1330هـ/1912)	العادات والتقاليد التونسيّة تحقيق: الجيلاني ابن الحاج يحيى (ط.تونس1417هـ/1996)

الطاهر الحداد(ت1354هـ/1935)	العمّال التونسيون وظهوالحركة النقابيّة (ط1دار صامد 1417هـ/1997)
محمد الصادق الرزقي (ت1358هـ/1939)	الأغاني التونسيّة (ط.سحر للنشر تونس د.ت.)
	الأمثال التونسية وما جرى مجراها ط2 سحر للنشر تونس1431هـ/2010)
محمد بن مخلوف (ت1360هـ/1941)	شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة (ط.القاهرة1349هـ/1930)
عبدالعزيز الثعالبي (ت1363هـ/1944)	تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية . جمع وتحقيق: أحمد بن ميلاد /محمد إدريس تقديم ومراجعة : حمادي الساحلي (ط1بيروت1407هـ/1987)
	تونس الشهيدة (ط 2بيروت 1408هـ/1988)
محمد الخضر حسين (ت1377هـ/1958)	تونس وجامع الزيتونة إعداد وضبط :علي الرضا الحسيني (ط.الدار الحسينية للكتاب1421هـ/2000)

أحمد الدرعي (ت1385هـ/1965)	حياة الطاهر الحدّاد تحقيق وتقديم: محمد أنور بوسنينة (ط.تونس1395هـ/1975)
زين العابدين السنوسي (ت1386هـ/1966)	محمد بيرم الخامس (مطبعة العرب تونس1372هـ/1952)
ح.ح. عبدالوهّاب (ت1388هـ/1968)	الإمام المازري (ط. تونس1375هـ/1955)
	بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق (ط. تونس1390هـ/1970)
	خلاصة تاريخ تونس تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي (ط. تونس1422هـ/2001)
	شهيرات التونسيّات (ط3 المنار تونس د.ت.)
	كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيّين مراجعة وإكمال: م. ع. المطوي/البشير البكّوش (ط.بيت الحكمة تونس1410هـ/1990)
	مجمل تاريخ الأدب التونسي (ط.تونس1388هـ/1968)

	ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقيّة التونسية (ط. تونس1392هـ/1972)
محمد الفاضل ابن عاشور (ت1390هـ/1970)	الحركة الأدبية والفكرية في تونس (ط.تونس1392ه/1972)
	أركان النهضة الأدبيّة (ط.تونس 1380هـ/1960)
	أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي (مطبعة النجاح تونس د.ت.)
أحمد بن ميلاد (ت1390هـ/1970)	الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والحركة الوطنيّة (بالاشتراك مع مسعود إدريس) (ط.بيت الحكمة تونس1411هـ/1991)
	تاريخ الطبّ العربي التونسي (ط.تونس1401هـ/1980)
عثمان الكعّاك (ت1396هـ/1976)	المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ودراسات أخرى تقديم :أبوزيان السعدي (ط1تونس 1430هـ/2009)
محمد الصادق بسيس (ت1399هـ/1978)	محمد بن عثمان السنوسي حياته وآثاره (ط. الدار التونسية للنشر د.ت.)
	البدوفي حلّهم وترحالهم

محمّد المرزوقي (ت1402هـ/1981)	(ط2ليبيا تونس1404هـ/1984)
	الدغباجي (ط3تونس1405هـ/1985)
	المهديّة وشاعرها تميم (ط.تونس1401 هـ/1980)
	ثورة المرازيق (بالاشتراك مع علي المرزوقي) (ط1تونس1400هـ/1979)
	دماء على الحدود (ط.الدار العربية للكتاب د.ت.)
	صراع مع الحماية (ط.تونس 1393هـ/1973)
	قابس جنة الدنيا (ط.القاهرة1382هـ/ 1962)
الصادق الزمرلي (ت1403هـ/1983)	أعلام تونسيّون . تعريب وتقديم: حمادي الساحلي (ط.بيروت1406 هـ/1986)
سالم بن يعقوب(ت 1408هـ/ 1988)	تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلميّة إعداد :فرحات الجعبيري (ط.تونس 1427هـ/2006)
محمد محفوظ (ت1408هـ/1988)	تراجم المؤلّفين التونسيّين (ط2بيروت1414هـ/1994)
	أبوالحسن الشاذلي (ط.تونس 1409هـ/1989)

محمّد بوذينة(ت1423هـ/2002)	صليحة (ط.تونس1417هـ/1997)
	مشاهير التونسيّين (ط.تونس1412 هـ/1992)
حمّادي الساحلي (ت1425هـ/2004)	فصول في التاريخ والحضارة (ط.بيروت1412هـ/1992)
محمد أنور بوسنينة (ت1426هـ/2005)	تاريخ جبل المنار (ط.تونس 1405هـ/1985)
	عبدالرزاق كرباكة حياته وآثاره (ط.تونس1420هـ/1999)
	محمد العربي الكبادي أضواء على حياته وتراثه (ط.1تونس1427هـ/2006)
أحمد عبد السلام (ت1428هـ/2007)	المؤرّخون التونسيّون في القرون 17و18و19م تعريب: أحمد عبدالسلام/عبد الرزاق الحليوي (ط.بيت الحكمة تونس 1413هـ/1993)
	المدرسة الصادقية والصادقيون (ط.بيت الحكمة تونس1414هـ/1994)
	الصحافيّ المناضل سليمان الجادوي (ط.تونس1427هـ/2006)

الجيلاني ابن الحاج يحيى (ت1431هـ/2010)	أبوالحسن علي الحصري. (ط.تونس 1394هـ/1974)
	صفحات من تاريخ تونس (ط.بيروت 1405هـ/1985)
	معركة الزلاّج (بالاشتراك مع محمدالمرزوقي)(ط.تونس 1381هـ/1961)
محمد الحبيب ابن الخوجة (ت1432هـ/2012)	شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور (ط.قطر1425هـ/2004)
ابن عاشور (محمد العزيز)	جامع الزيتونة :المعلم ورجاله (ط.تونس1411هـ/1991)
أحمد (الطيب الفقيه)	المهدية عبر التاريخ (ط.تونس 1400هـ/1979)
	باجة بين الأمس واليوم (ط.تونس 1385هـ/1965)
	مجاز الباب أوممبرسة الرومانية (ط.تونس1397هـ/1977)
أيّوب(عبدالرحمان)	مدنين من قصور الجنوب (ط. صفاقس تونس1398هـ/1978)
باجيّة (صالح)	الإباضيّة بالجريد في العصور الإسلامية الأولى (ط.تونس 1396هـ/1976)
بن جراد (بلقاسم)	قابس عبر التاريخ (ط.قابس 1422هـ/2001)

بن سالم (عمر)	قبادو: حياته وآثاره وتفكيره الإصلاحي (ط.تونس1395هـ/1975)
بن وزدو(الهادي)	شط الجريد والواحات (ط.تونس 1420هـ/1999)
بيبي (الهاشمي)	المحرس (ط.تونس1423هـ/2002)
بورونية(الشاذلي) – بالاشتراك مع محمد الطاهر–	قرطاج البونية تاريخ حضارة (ط.تونس1420هـ/1999)
التونسي (علي)	قرنبالية قرون بالية وهي باقية (ط.تونس 1425هـ/2004)
الجعبيري(فرحات)	ملامح عن الحركة العلميّة عند الإباضيّة بجربة من الفتح الإسلاميّ سنة47هـ إلى أواخر ق12هـ (ط.تونس د.ت.)
	نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة فى جربة (ط.تونس1395هـ/1975)
جلاب(الهادي)	علي باش حامبه (ط.تونس 1426هـ/2005)
الحمروني (أحمد)	الشمال الغربي التونسي فصول ومراجع (ط.تونس1425هـ/2006)
	إقليم القيروان (ط.تونس1430هـ/2009)
	تستور وثائق ودراسات (ط1تونس

	1420هـ/1999)
	جهة جندوبة (ط.سحرللنشر 1430هـ/2009)
	وطن الكاف(ط1428هـ/ 2007)
حمريت(علي)	أريانة مع الزمان (ط.تونس 1425هـ/2004)
خالد(أحمد)	الهادي نويرة(ط1تونس1427هـ/2006)
الخليفي(عمار)	المنصف باي :الملك الشهيد تعريب: محمد الطاهر الزواوي (ط. تونس1427ه/2006)
دبّ(علي) (بالاشتراك مع عبد الجبار الشريف)	إبراهيم الحصري (ط. تونس1402 هـ/1981)
الذوادي(رشيد)	أعلام من بنزرت (ط.تونس 1417هـ/1996)
	جماعة تحت السور (ط. تونس 1395هـ/1975)
ريدان(جلول)	ح.ح.عبدالوهاب (ط.تونس1431هـ/2010)
الزريبي(الهادي)	الطاهر لسود :القيادة العامة لجيش تحرير شمال إفريقيا (ط1تونس1429هـ/2008)
زغندة(فتحي)	الطريقة السلاميّة في تونس أشعارها وألحانها(ط.بيت الحكمة تونس 1411هـ/1991)

الزقلي(حسن)	قربة :الهوية الثقافية (ط.تونس1423هـ/2002)
الزيادي(أحمد)	الوديان عبر التاريخ أحمد الزيادى (ط.تونس1433هـ/2012)
السعدي(أبوزيان)	محمد الفاضل ابن عاشور رجل الفكر والعمل والإصلاح (ط1تونس 1430هـ/2009)
سعيد(صافي)	بورقيبة سيرة شبه محرّمة (ط.بيروت 1423هـ/2002)
السوفي(عمار)	بني خداش وجيرانها عبر الحركات النضالية (ط1تونس 1422هـ/2001)
الشابي(علي)	عرْفة الشابي: رائد النضال القومي في العهد الحفصي (ط.الدار العربية للكتاب1403هـ/1982)
الشابي(محمد المنصف)	صالح بن يوسف حياة كفاح (ط2تونس1428هـ/2007)
شاكر(عبدالمجيد)	الهادي شاكر جهاد واستشهاد (ط. تونس1424هـ/2003)
شيخة(جمعة)	قرقنة وجربة من خلال كتب الرحلات (ط1تونس1414هـ/1994)
	البشير خريّف حياته ورواياته (ط.تونس1408هـ/1988)

الطويلي(أحمد)	الجنرال حسين حياته وآثاره (ط. تونس1414هـ/1994)
	شهيرات القيروان (ط.دارسحنون1434 هـ/ 2013)
	ضواحي تونس الشمالية والجنوبية(ط.تونس1428هـ/2008)
ضيف الله (محمد)	نوافذ على تاريخ نفزاوة (ط.تونس 1429هـ/ 2008)
عزونة(جلول)	منزل التميم عاصمة الدخلة (ط. تونس1404هـ/1984)
العشي(رضا)	أضواء على انتفاضة علي بن غذاهم (ط1تونس1426هـ/2005)
الفهري(عبدالحميد)	لمحات من تاريخ هرقلة (ط1 سوسة1423هـ/2002)
	قرقنة من سرسينيا إلى حشاد(ط.تونس1424هـ/2003)
القزاح(محمود)	المدخل إلى تاريخ مدينة مساكن (ط1تونس1430هـ/2009)
كِرّو(أبوالقاسم)	أبوالقاسم الشابي حياته وشعره (ط1 تونس1430هـ/2009)
	شعراء قفصة في 11قرنًا (ط. تونس1425هـ/2004)
الكعبي(المنجي)	القزّاز القيرواني (ط.تونس 1388هـ/1968)

لبيض(سالم)	تاريخ شبه جزيرة جرجيس من العصور القديمة إلى نهاية الاحتلال الفرنسي (ط.تونس1422هـ/ 2001)
اللواتي(حمادي)	أبناء جربة في الحركة الوطنيّة 1881–1961 (ط.الشركة التونسية لفنون الرسم د.ت.)
مراصي(محمد)	سعيد بوبكر (ط.تونس1417هـ/1996)
المريمي(محمد)	إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث (ط1تونس1426هـ/2005)
المستيري(سعيد)	المنصف باي الحكم والمنفى (ط1تونس1411هـ/1991)
المصباحي(حسونة)	ثلاث منارات تونسيّة : خيرالدين التونسي – محمد بيرم الخامس– سالم بوحاجب (ط1تونس1429هـ/2008)
المطوي(محمد الهادي)	الصادق مازيغ (ط.تونس 1418هـ/1998)
	علي الغراب حياته وأدبه (ط.تونس1407هـ/1987)
	محمد الحليوي (ط. الدار العربية للكتاب 1404هـ/1984)
	محمد العروسي المطوى عاشق

	الأرض والوطن والإنسان (ط.تونس 1416هـ/1995)
المكني(عبدالواحد)	فرحات حشاد المؤسس الشاهد القائد الشهيد تقديم :حسين العباسي (ط. تونس1433هـ/2012)
الهاني(التهامي)	قمودة تاريخها وأعلامها (ط1 تونس1417هـ/1997)
الهاني(عبدالقادر)	صفحات في تاريخ سليانة الحديث (ط.تونس1411هـ/1991)
Ahmed Jdey	AHMED IBN ABI DHIAF Son oeuvre et sa pensée. Zaghouan Janvier1996 .
Amor Chadli	Bourguiba tel que je l'ai connu Ed.2011
Sophi Bessis et Souhayr Belhassen	Bourguiba. ed.Paris1988
تأليف جماعي	جربة من جزر البحر الأبيض المتوسط التاريخيّة (المعهد القومي للآثار والفنون 1403هـ/1982)
	Pour la sauveguarde de l'architecture et de l'environnement de djerba.

	ed. imp. Alasria Tunis
	تاريخ الأدب التونسيّ في العهديْن المرادي والحسيْني (ط.بيت الحكمة تونس1413هـ/1993)
	ابن أبي زيد القيرواني (مركزالدراسات الإسلامية بالقيروان 1414هـ/1994)
	الإمام محرز بن خلف رائد التسامح ومقاومة التطرّف (وزارة الشؤون الدينية1414هـ/1994)
	أعلام من جزيرة جربة جمعية صيانة جربة 1416هـ/1996)
	دراسات حول جزيرة جربة (جمعية صيانة جربة 1416هـ/1996)
	الشيخ محمد النخلي وإسهامه في حركة الإصلاح والتجديد (وزارة الشؤون الدينية1417هـ/1997)
	تونس عبر التاريخ (تونس1428هـ/2007)
	موسوعة القيروان (وزارة الثقافة

	1430هـ/2009)
	دور القيروان في تأصيل المذهب المالكي ونشره (وزارة الشؤون الدينية 1431هـ/2010)
	الشيخ محمد الشاذلي النيفر (ط.بيت الحكمة تونس1432هـ/2011)

بيبليوغرافيا (2) إباضية تونسيّة مختصرة

مخطوطات من المكتبة البارونيّة بجربة[1]

المؤلّف الإباضيّ التونسيّ	التأليف
ابن بيان(عمر)	فوائد في العقيدة
ابن يخلف(أبوالربيع سليمان)	التحف المخزونة في إجماع الأصول الشرعية ومعانيها في الأصول
	شرح على متن إيساغوجي في المنطق
أبوستة(أبوعبدالله)	الجوابات لبعض الإخوان المصعبيين
	حاشية عل مختصر العدل لأحمد الشماخي
	حاشية على كتاب الوضع للجناوني

---

1 – تمّ جمع المكتبة البارونيّة من مكتبة الشيخ سعيد بن عيسى الباروني (ت1282هـ/1868) وأبنائه وأحفاده.

وقام بفهرستها سعيد بن يوسف الباروني بالتعاون مع دار الكتب الوطنيّة، وبيت الحكمة، وجمعية صيانة جربة بين سنتيْ 1409–1413هـ/1989–1992

وتحتوي 1087 مخطوطا في مختلف العلوم الشرعية واللغويّة :

(39)قرآن(4)تفسير(78)حديث(12)سيرة(105)فقه سنّي

(268) فقه إباضي (60) توحيد (42) فرائض (97) لغة(44) تاريخ (20) منطق (11) حساب (20) فلك (24) طبّ (8) أصول

(48) تصوّف (77) أدب (8) فلسفة (12) حِكَم (5) علوم

(105) أغراض مختلفة

موقع المكتبة الإلكتروني http://elbarounia.com

	حواش على كتاب النكاح للجناونى
أبوستة(عمرو)	رسالة فى حكم الأحباس
أبوستة (عمر بن يحيى)	المجموع والمعمول على ما عليه السلف الأوّل
أبوستة(محمد بن عمرو)	حواشي أبي ستة على كتاب الوضع
	حاشية على كتاب البيوع من الإيضاح لعامر الشماخى
	حاشية على كتاب الشفعة والهبة والوصية من الإيضاح
	حاشية على كتاب الفرائض للجيطالى
	حواش على كتاب قواعد الإسلام للجيطالى
البرّادي(أبوالقاسم)	البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق أسرار معاني كتاب العدل والإنصاف
	الجواهر المنتقاة
	فى ذكر شىء من الحقائق
	مجموعة مسائل عن المشائخ
التلاتي(البدر)	الأزهار الرياضية على المنظومة الرائية لأبى نصر الملشائى
التلاتى(داود)	شرح العقيدة

التلاتي(عمروبن رمضان)	اللآلئ الميمونية على المنظومة النونيّة
	نزهة اللبيب في شرح الترتيب للوارجلاني
	نظم التحقيق في عقود التعليق شرح على شرح الشماخي على متن عقيدة التوحيد
الجادوى(أبوالربيع سليمان)	حاشية على كتاب السؤالات
الجادوي(أبوعفيف صالح)	الجادوية في نظم مهمات القواعد الخمسة الإسلامية
الجادوى(على بن عبدالله)	الفوائد والمسائل لبعض الأفاضل
الجيطالي(إسماعيل)	الجواب على رسالة سالم بن مسعود الحامي
	شرح الأصول الدينية
	عقيدة التوحيد
	قواعد الإسلام
الحيلاتي(عبدالرحمان)	نسبة الدين
السدويكشي(عبدالله بن سعيد)	حاشية على إيضاح الصلاة
	رسالة فى صلاة الجمعة
الشماخي(أبوالربيع سليمان)	قصيدة فى الوعظ
المصعبي(محمد بن أبي القاسم)	كتاب الفوائد
المصعبي(أبويعقوب يوسف)	حاشية على تفسير الجلاليْن
	حاشية على المنظومة النونية وشرحها الصغير للويراني

	حاشية على رسالة تبغورين في أصول الدين
	رسالة إلى حاكم تونس علي باشا
	رسالة فى الفقه
	قصيدة الخافية الأفلاطونية وشرحها
	كتاب السؤالات مجلس جامع وادى الزبيب جربة
الويرانى (عمر)	مناسك الحجّ
مجموعة علماء	ديوان العزابة
	مجموعة أجوبة فقهية
	رسائل فقهية
	شرح كتاب الجهالات

الفصل الثاني

في الدفاع عن الهويّة

تمهيد : في أدب الردود[1]

يُعتَبَر "أدب الردود" في الثقافة الإسلاميّة، ونعني المصنفات ذات المنزع الدينيّ، من أجْلى مظاهر الحَراك الفكريّ المتعدّد المعاني والألوان، والذي كان يهْدف، في جهة منه، إلى امتلاك زعامة الرأي الواحد وبسْط نفوذه وسلطته، واحتكار الحقيقة المطلقة.

وفي الجهة الأخرى، كان يسعى إلى تقويض تلك السلطة العاتية، وتدْويلها بدَل ذلك بين "الزعماء" وبين "المُهمّشين" "المظلومين" "المضطهَدين"، بقسْمة سويّة .

ويمكن أن تُصنَّف هذه الردود إلى ثلاثة :

- **صنف أوّل : الردود العقديّة المذهبيّة**

وأصحابها، ممّن يُصنّفون بـ"أهل السنّة والجماعة"، بحُكْم شعورهِم أنّ مسؤوليّة أُلقيَت عليهم في "حراسة الدّين"، ثُمّ العقيدة، ثُمّ المذهب، ثُمّ العلْم،إلخ...، يروْن من المتحتّم أن لا يسكتوا عمّا يخالف ما يروْنه "الحقّ"، ولا يسمحوا لأهل "البدَع والضلالات" بنشْر أفكارهم "الباطلة" وترويجها، والتلبيس على العامّة.

كما لا يسمح هؤلاء الرادّون المركزيّون أن تُنتقد مبادئهم العقديّة والمذهبيّة، فضْلاً عن أن تُزْدَرى وتُهاجَم. فذلك مسّ، في رأيهم، بماهو"مُقدّس"، ولا يجوز أن يقفوا إزاء ذلك صامتين.

أمّا أصحاب الردود من العقائد والمذاهب المُهمّشة، فينطلقون من أنّ السكوت عن المطاعن فيهم سبيلٌ إلى ابتلاعهم نهائيًّا، وهوحجّة عليهم، وسنَد متين للتمادي في شيطنتهم وتفسيقهم وتضليلهم وتكفيرهم. كما أنه الطريق إلى عزلهم، والحوْل بينهم وبين عموم الناس.

---

1 – انظر بيبليوغرافيا (3) في أدب الردود في آخر هذا الفصل الثاني، وقد ضمّت عناوين في مختلف المسائل الثقافية ، قديما وحديثا

ولذلك يروْن من الواجب أن يردّوا، للدفاع عن الوجود، ولمقاومة محاولات الاستئصال والتصفية، ولكشف شبهات متهميهم وتضليلاتهم، كما يعتقدون، ثمّ للنفاذ إلى صميم فكْر خصمهم المردود عليه، لوَسْمه في النهاية بما وسَم به هوغيْرَه من الابتداع ومخالفة الأصل.

وهكذا تكون الردود دائريّة إلى غير نهاية. وحينئذ تُتَبادل المواقع بين "حراسة الدين الحقّ" وبين "الابتداع الضالّ عن الصراط المستقيم".

وإذا كان، مثلاً، الإباضيّ أحمد الخليلي، مفتي عُمان حاليًّا، قد كتب "الحقّ الدامغ" مدافعًا عن عقيدته ورادًّا عن الهجومات والطعون، فإنّ علي الفقيهي السلفيّ الوهّابيّ لمْ يسكت عن الردّ، وكتب "الردّ القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمّى :الحقّ الدامغ "، قائلاً:"...بحمْد الله بقيَت الطائفة الناجية المنصورة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عقيدة وعبادة ومنهجًا، فردّت على تلك الطوائف المنحرفة انحرافها، وبيّنت للأمّة السبيل الصحيح والصراط المستقيم بما جاء في كتاب الله العزيز وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم وأقوال الصحابة والتابعين...واليوم نجد هذه الأفكار التي فرّقت كلمة الأمّة تُبْعَث من جديد ويحمل لواءها الخليلي ومن كان على شاكلته"[1].

- **صنف ثان :الردود على الفكر الدينيّ المغاير**

ونقصد هاهنا ما يكون في عصرنا بين "مشائخ الدين" وبين الكُتّاب والمفكّرين والباحثين الحداثيّين المسلمين، الذين يتناولون مسائل ذات علاقة بالشأن الدينيّ ويرجعون إلى التراث الإسلاميّ ولكنْ بمقاربة تخالف المنهج النقليّ التقليديّ، وتنتهي إلى نتائج غير مألوفة، بل فيها من الجرأة والعقلانية والطرافة ما يرى فيه "علماء الدين" سوءَ فهْم وزيغًا وتطاولاً وكيْدًا يبتغي إفساد الدين والتشويش على العامّة، بنقْل أفكار الفرَق الضالّة المبتدعة، والأعداء والمتربصين.

---

1 –الفقيهي :الردّ البالغ ص11

ومن الأمثلة على ذلك قول مؤلّف "نقض كتاب: في الشعر الجاهلي" : " فسقت طائفة عن أدب الإسلام...تلهج هذه الطائفة باسم حرّيّة الفكر، وهي لا تقصد إلا هذا الفنّ الذي أكبّت عليه صباحها ومساءها، وهوالنيْل من هداية الإسلام، والغضّ من رجال جاهدوا في سبيله بحجّة وعزم وإقدام... ومؤلّف كتاب:في الشعر الجاهلي، هوعيْنهم الناظرة، وسهْمهم الذي يرمون به في مقاتل أمّتهم الغافلة.."[1] وهو نفسه مؤلّف "نقض كتاب:الإسلام وأصول الحكم"، ويقول فيه: "..حاول (أي علي عبدالرازق) أن يقطع الصلة بين الدّين والسياسة، ويحارب آداب الإسلام القاعدة للإباحيّة الفاسقة في كل مرصد... وأدْركَ أن الأمّة مسلمة، وأن الإسلام دين وشريعة وسياسة، وأن هاتيْن الحقيقتيْن تقضيان على الدولة أن تضع سياستها في صبغة إسلامية، فبدا له أن يعالج المسألة بيد الكيْد والمخاتلة، ويأتيها باسم العلم والدين... وأخرجها كتابًا يحمل سمومًا لوتجرّعها المسلمون لتبدّلوا الكفر بالإيمان والشقاء بالسعادة والذلة بالعزة.."[2]

وينعت الشيوخُ أصحابَ هذه الآراء بأنهم :

/"أفراخ المعتزلة"،

/"أذناب المستشرقين"،

/"كفّار علمانيّون" إلخ...،

ويدْعون إلى الحذر منهم ومقاومتهم.

وهذه الردود من الصنفيْن، هي ما ننعته بـ"الردود الداخليّة"، يعني : إسلاميّة – إسلاميّة (هذا إذا لمْ يخرج أحد الطرفين الآخرَ من الملّة، طبعًا)، وفيها يتكلّم كلّ طرف باسم "الإسلام"، و"الحقّ"، و"الهدى".

- **صنف ثالث : الردود الموجّهة إلى غير المسلمين**

---

1 –محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي. التمهيد

2 – حسين: نقض كتاب: الإسلام وأصول الحكم صص244–245

الذين يُعْنوْن بدراسة الإسلام أوغيره من الأديان، أويعيدون قراءة المعطى الدينيّ، أوينشرون مواقف صادمة، أويذيعون مقاطع غير متداوَلة من التاريخ الدينيّ، إلخ..

ويراهم شيوخُ الدين قد اعتدوْا وضلّوا وأضلوا، فيتصدوْن لتكذيبهم وردّ افتراءاتهم.

ويعتبرون ردودَهم عليهم نوْعًا من أنواع الجهاد في سبيل الله، يُستبدل فيها السيف بالقلم، والسنان باللسان.

وانطلاقًا من هذه "الحميّة" الدينيّة السجاليّة ينشغل الرادّ، أحيانًا، بتتبّع كبائر الفِرَق والمذاهب والطوائف وصغائرها الاعتقاديّة والفقهيّة المدوَّنة أوالمتناقَلة شفويًّا، وأحيانًا أخرى، بتلقّف كلّ كتاب أوفتوى أوحديث شفويّ، لرصْد دقائقه ومنطوقه ومفهومه وخلفيّات صاحبه، ليُماز "الخبيثُ من الطيّب"، و"يُصحَّح"، ويُرَدّ على "العلْم" بـ"العلْم"، أوعلى الهجوم بالهجوم.. ولا يخلو حال المردود عليه في الأصناف الثلاثة من الردود، من أن يكون في نظر الرادّ :

/عدوالإسلام، متآمرًا، حقودًا، متهجمًا...

/معتديًا، طاعنًا في الكتاب والسنّة،...

/جاهلاً

/ضالاً مضلاً

/مبتدعًا

/فاسقًا

/صاحب هوى

/رأس فتنة

/متعصبًا

/مكابرًا

.....

ويكون الرادّ :

/الناطقَ الرسميّ باسم الكتاب، والسنّة، والإسلام الصافي النقيّ

/رمز العقل والحكمة

/مالك الحقيقة

/على الصواب التامّ

/جنديًّا، مجاهدًا، منافحًا،

/المنقذ من الضلال

/الهاديَ إلى الهدى والرشاد

/الآمرَ بالمعروف والناهيَ عن المنكر

/القاضيَ على الفتنة ومشعلِها

/الرادعَ...

وحينئذ ، يندفع المصنّفون في الردود بجُمْلة من الدوافع، وأهمّها :

-الدفاع عن الإسلام، بما هوذات إلاهيّة مقدّسة، ورسول كريم، وقرآن، وسنّة، ومعلومٌ من الدين بالضرورة، وأصول ثابتة،.. وبما هو، وسائر الأديان السماويّة الأخرى، عقيدةٌ ووحْيٌ وشريعةٌ، تكون فوْق كلّ الآراء والأفكار.

وتكون المنافحة في هذا المضمار مهمّة مركزيّة ذات شرف عال، تَستمدّ المدد والنصر من الله، على "الكافرين" "الملحدين" "المشككين" "الطاعنين".

وتُستحضَر هاهنا الآثار التي تشحذ الهمم في هذا العمل الجهاديّ، ومنها:

/"ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم"،

/دعاء الرسول(ص) لشاعره حسان بن ثابت(ت54هـ/674م) : "اللهمّ أيّدْه بروح القدس"،

/قوله يخاطبه :"إنّ روح القدس لا يزال يؤيّدك ما نافحت عن الله ورسوله"، و:"قُلْ وروح القدس تؤيّدك" [1].

– الحجاج العقديّ، والجدل المذهبيّ ، وبهما يكون الانتصار لِـ"الفرقة الناجية"، وما سواها في النار.

– إحقاق الحق، وإبطال الباطل. فالأمّة الإسلاميّة، كما يذهب إلى ذلك ابن تيمية(ت728هـ/1328م)، "لمْ يزل فيها من يتفطّن لما في كلام أهل الباطل من الباطل، ويردّه. وهُم لِما هداهُم الله به، يتوافقون في قبول الحقّ وردّ الباطل رأيًا ورواية من غير تشاعر ولا تواطؤ"[2].

– نُصرة "العلم الصحيح"، وتقديم بيانات "العلماء"، إذْ " للعلم سلطان على جميع الحقائق. فإذا ثارت المناقشات وتولدت المباحثات، فليس للعلماء ملازمة السكوت، وعليهم أن يمدوا طلب الحقائق بتحقيق ينعش ويقوت... وإن الله خصّ هذه الأمّة بصحة الإسناد وأغناها بمرعى السعداء مراعي القتاد، لذلك حق على علمائها إن عُرض من الآثار ما فيه مغمر أن يكشفوا عن حقيقته فإن الكشف عن الحقائق أحمر" [3]، و"هذه الأمّة المرحومة يتوالى فضل الله عليها. فمايزال المنهج السويّ شارعًا في أحيائها تلوح منه سطور التيقظ والتذكير والتنبيه، والتحذير على أيدي علمائها الأمناء...وفي خط الدفاع من العلماء عن حرم العلم الشرعيّ والذود عنه، ترى وتسمع ردودًا فاضت على أسلات ألسنتهم وأسنّة أقلامهم"[4]

– استدراك "الخطإ"، ونشر "الصواب"

– حماية الرأي العام، وتنبيهه إلى المغالطات والتلبيسات والمكائد

وفي ذلك، يقول صاحب كتاب :"الحِدادْ على امرأة الحَدّادْ، أو: ردّ الخطإ والكفْر والبدَعْ، التي حواها كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمعْ" :

---

1 – راجع: ديوان حسان بن ثابت تحقيق: عبد أ. مهنّا

2 – : بكر أبوزيد : الردود ص16

3 –الطاهر ابن عاشور: تحقيقات وأنظار في القرآن والسنّة ص151

4 –زيد: الردود ص306

"..لقد كان يهون الخطْب لوبقي الحدّاد مُخفيًا لاعتقاده في نفسه، أوأنه اقتصر على بعض أصحابه وخاصّته...أمّا وأبَى الحدّاد إلا أن يبرز للمجتمع، مُشهرًا لنقيصته، مُظهرًا ما في حقيبته، فإنه تجب المقاومة والبيان، حتى يرتدع ويعرف قيمة نفسه وينزلها منزلتها. على أنه لوكان الأمر مقصورًا على التونسي الذي مرّن نفسه على تحمّل المكاره، واستقبال الشدائد بصدر رحب، لوجدْنا بعض العذر في الإعراض عمّا قاله الحدّاد...لكن اجتاز كتابُه حدود بلادنا، وتلقفتْه أيْد أُخَر، وسبرتْه عقول لها قيمتها في العلم والفلسفة الاجتماعيّة. فما ذا يقولون عنا إذا لمْ نتصدّ لدحْض ما فيه، ولمْ نبيّن ما جاء فيه من الخطإ للملإ. لقد فضحَنا الحدّاد بين الأمم الإسلامية بما جاء في كتابه من الخلط والخبط، وما أقامه من البراهين على الجهل العظيم الذي كاد أن يتخطّاه إلى عموم الشعب لولا أن التونسي أعلن براءته منه ومن كتابه...ولوعوّض عنوانه ب:فضيحتنا في الشريعة والمجتمع لقُلنا أصاب الحدّاد، وأَمِنّا شر مطرقته الصليبية الشكل، كما أمنّا شر نار جهله المتوقدة وغلطاته المتكررة والمتعدّدة..."[1].

وقد تكون الردود صريحة مستقلّة، أومضمّنة غير مباشرة، مطوّلة أومختصرة..

كما تتفاوت نصوص مدوّنة الردود الإسلاميّة، قوّة أوضعفًا، وعُمقًا أوسطحيّة، وموضوعيّة أوذاتيّة، وأدَبًا أوإسفافًا. وهي مرآة لدرجات علماء الدين في النباهة والمعْرفة والحِجاج والسماحة، أوفيما هوعكس ذلك تمامًا.

لقد كان للإباضيّة نصيب من رسائل الردود العقديّة، ونذكر منها :

/ الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الردّ على أهل الخلاف،لأبي عمار عبدالكافي(ت.قبل570هـ/1174م)

/ ردّ الشمّاخي(ت928هـ/1522) على صولة الغدامسي، الذي خاطبه في المقدمة بقوله:" زخرفتَ الخطّ بالخطا وخفيَ عنك ما تحت الغطا...وما ألجأك إلى التأليف وأنت لا تحسن الترصيف..."

---

1 –محمد صالح بن مراد: الحِدَاد على امرأة الحدّاد صص3–4

/ردّ أبي مهدي(ت971هـ/1564) على البهلولي، الذي يقول له :" والذي يظهر من قولك، أنك لم تطّلع على المذهب وأصول الاختلاف، فكتبنا لك هذا الكتاب ليتبيّن لك الخطأ من الصواب..."

/ردّ محمد الباروني على صحائف من مزّونة الجزائرية (ق13هـ/19) تدفع التهم التي وُجّهت إلى الميزابيّين

/ردّ عيسى بن أبي القاسم الباروني على فقهاء غدامس س1210هـ/1795[1]

ومن آثار في الرّدود أطفيّش :

/إزهاق الباطل بالعلم الهاطل

/البرهان الجليّ في الردّ على الجربيّ عليّ

/الردّ على الصفريّة والأزارقة

/الردّ على العقبي الطاعن في الدين

/الردّ على الإنقليزي [2]

ولْنأخُذْ عيّنةً من مدوّنة الردود التونسيّة، كتابَ "المسلك المحمود في معرفة الردود" للإباضيّ الجربيّ الشيخ سعيد ابن تعاريت. فهوالمثال البارز من الردود المذهبيّة القريبة من عصرنا، المدافعة عن الوجود والهويّة، الكاشفة عن المسكوت عنه، المبرزة للمخفيّ. فمن هو ابن تعاريت؟ وما أهمّية مصنّفه في المكتبة التونسيّة؟.

الكاتب[3]

---

1 – انظر تقديم كتاب : المسلك المحمود في معرفة الردود صص77–91

2 – عدّون جهلان : الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء اطفيش صص114–115
المسلك المحمود صص161–162

3– راجع : بن يعقوب : تاريخ الجزيرة صص390–391
محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج1 صص175–177
أعلام من جزيرة جربة صص66–73
المسلك المحمود صص9–25

هو سعيد بن علي بن سعيد ابن تعاريت الثالث ، استقرّ أجداده بآجيم ثمّ انتقلوا إلى صدغيان من جزيرة جربة، فوُلد هوبحومة صدغيان س1286هـ/1869، حيث تعلّم مبادئ العربية وحفظ نصيبًا من القرآن ، وتوفّيَ س1355هـ/1936.

جدّه هو سعيد بن علي ابن تعاريت(ت1289هـ/1872) ويُقال :التعاريتي، من شيوخ جربة البارزين، وهوالمؤرخ صاحب رسالة في تراجم علماء جربة يرجع تاريخها إلى س1273هـ/1856 [1]

وقد التحق سعيد ابن تعاريت الحفيد بجامع الزيتونة س 1306هـ/1888، وتخرّج منه بشهادة التطويع س 1312هـ/1894. ولئن استقرّ، بعد هذه المرحلة، بمسقط رأسه للتدريس والإشهاد، فإنه ظلّ يتردّد على العاصمة، ليرتاد مكتبة العبدليّة، ومكتبة الخلدونيّة، وليتابع محاضرات الجمعيّة الخلدونيّة، حيث تعرّف على نخبة من أساطين الفكر والثقافة والسياسة،من أمثال ح. ح. عبد الوهاب الذي أهداه نسخة من كتابه "بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق" وكتب عليها : "تذكار الوِداد والمبادلة العلميّة إلى الأستاذ المحترم بقيّة السلف الصالح سيدي سعيد بن تعاريت"[2]، ومحمد الخضر حسين(ت1377هـ/1958) الذي أهداه نسخة من كتابه "الحريّة في الإسلام"، وعبد العزيز الثعالبي (ت1366هـ/1944)، وقد سارع بالانخراط في حزبه الحرّ الدستوريّ عامًا واحدًا بعد تأسيسه، وبهذا الانخراط يُعتبر ابن تعاريت عُضوًا عاملاً بالحزب .

وفي س1314هـ/1896 سافر سعيد ابن تعاريت إلى يفرن إحدى قرى جبل نفوسة بليبيا ' حيث تتلمذ على الشيخ الإباضيّ عبد الله الباروني (ت1332هـ/1914) ليزداد تخصّصًا في كل ما يتعلق بالمذهب الإباضيّ عقيدة وفقهًا وتاريخًا. وقد شرح لشيخه هذا قصيدة بعث بها إلى ابنه سليمان(ت1359هـ/1940) حينما حلّ بتونس سنة1305هـ/1887 لطلب العلم بجامع الزيتونة.

---

1 – المسلك المحمود ص338

2 – المسلك المحمود ص474

ثمّ رحل س1316هـ/1898إلى وادي ميزاب بالجزائر ليحضر دروس المرجع الإباضيّ امحمد بن يوسف أطفيّش(ت1332هـ/1914) الملقّب ب"قطب الأيمّة"، وهوجدير بهذه الصفة.

وقد مكث ابن تعاريت في وادي ميزاب في بني يسجن ثمانية أشهر أمضاها بين حضوره في دروس الإمام وتعليم بعض التلاميذ النحو. وفي س1317هـ/1899 رجع إلى جزيرة جربة ليباشر الدروس في جوامعها.

ومما يُذكَر في هذا السياق، أنه دُعِيَ ليكون مدرّسًا في جامع الكاتب في حومة محبوبين ذات التاريخ النكّاري ، وهوالوهبيّ، فقدم فيه دروسًا دامت ثلاث سنوات في التدريس [1]، مما يدلّ على أن القطيعة بين الجماعتيْن انتهت بعد أن تبدّلت المواقف والمعطيات طوال إقامته هناك، وقد دامت بضعة أشهر.

وقد وصف سالم بن يعقوب ابنَ تعاريت بأنه : فطنٌ، قويّ الحجّة، مجادلٌ، جريءٌ، شجاعٌ، مثالٌ في الجدّ والاجتهاد والحزْم، كثير المحاورة[2].

لمْ يكن سعيد ابن تعاريت غزير التأليف، وليس له إلاّ :

/مخطوطتان لا نعرف شيئًا عن قيمتهما العلميّة،

/الكتاب الذي سمّاه :المسْلك المحمود في معرفة الردود [3].

الكتاب

هو الذي سنشتغل عليه في هذا الفصل من العمل، وسنحيل عليْه لاحقا بعبارة "المصدر".

وقد حكى بن يعقوب ظروف تأليف الكتاب بأن ابن تعاريت كان نشاطه كبيرًا في مناظرات بعض علماء طرابلس وغريان، وكان يذهب إليهم وفي مساجدهم وعقر دارهم، من غير مشاورة شيخه، ولا يرجع عنهم إلا مغلوبين.

---

1 –بن يعقوب : تاريخ الجزيرة ص391

2 –بن يعقوب : تاريخ الجزيرة ص390

3- راجع : المسلك المحمود صص12–15

ومن ذلك ذهابه إلى زاوية السنوسيّة بالقلعة، حيث كان عالم غريانيٌّ مغرور قد طالب شيخَه عبدالله الباروني للجدال في المسائل الخلافيّة، متجاسرًا في دعواه. ولما التقى به في الزاوية تجادلا وبعد ساعة انهزم الغرياني. ورجع ابن تعاريت إلى شيخه فلامَه على ذلك فأجابه :"لواستأذنتُك لَما أذنتَ لي، فذهبتُ وحدي حتى لوانهزمتَ فإنما انهزم تلميذُك لا أنتَ" [1].

لقد اعتمدنا في "المسلك المحمود" الطبعة الأخيرة التي ظهرت منذ أقل من خمس سنوات (أي س1431هـ/2010) بتحقيق د.فرحات الجعبيري وابن المؤلف أ.علي ابن تعاريت، ولمْ تتوفّر لهما سوى النسخة المطبوعة في تونس س1321هـ/1898 طباعة حجريّة [2]، والتي أشرف على إتمامها وتوزيعها المؤلّفُ نفسه.

وكان من عمل المحقّقيْن في الكتاب وضعُ العناوين وأشباه العناوين بالخط الغليظ، من أجل التيسير على القارئ عند تصفّح الكتاب، والنظر في فهرست مواضيعه، وخاصة عند تبيّنه التحوّل من موضوع إلى آخر بجلاء، إذ جاءت القضايا الكلامية المتناوَلة، في الطبعة القديمة، متداخلة فيما بينها، ومختلطة بالقضايا الحضارية المطروحة، ممّا يدلّ على أن الكتاب صُنِّف بطريقة تقليديّة لا تدلّ على تمرّس مكين في التأليف.

كما تركّز العمل على تنظيم الفقرات والتنقيط، والتعريف ببعض المصطلحات الإباضيّة، وترجمة عدد من الأعلام المذكورين، وضبط أربعة فهارس، مع تعريف بالمؤلف، ودراسةٍ، يتصدّران الكتاب [3].

أما الشيخ سعيد ابن تعاريت، فقد ألّف " المسلك المحمود في معرفة الردود" في نفوسة الليبية (المسماة اليوم الجبل الغربي) تصحيحًا وردًّا على إحدى فتاوى محمد بن مصطفى مفتي طرابلس الليبيّة(ت1315هـ/1897) [1]

---

1 –بن يعقوب : تاريخ الجزيرة ص390

2 –بن يعقوب : تاريخ الجزيرة ص390، وبهذا يتبيّن أن الردّ طُبع بعد وفاة المفتي بستّ سنوات كما يأتي

3 –المصدر صص2–8

1 – لمْ يمنع ابنَ تعاريت مقامُ المفتي العلميّ وشهرته وسمعته أن يردّ عليه.

"اشتملت على نسْبة الجبل (أي إباضية نفوسة الليبية) إلى الفرق الضالّة، وإضافة مقالاتٍ لهم ليسوا بقائلين بها ولا كتبُ مذهبهم عليها دالّة" [1].

فيحدّد ابن تعاريت دوافع كتابه، ويقول: "التمس منّي بعض الإخوان أصلح الله لي وله الشان، أن أتأمّل فيما ذكره، واعتمد عليه وحرّره، وأن أُقيّد في ذلك ما ظهر لي من ردّ وجواب، وأن أبيّن فساد ما أسنده إليهم مما برئ منه الأصحاب، ليمتاز الخبيث من الطيب والصحيح من العليل، ولمَن انتصَرَ بعدَ ظُلْمِه فأولئك ما عليهم مِن سبيلٍ (الشورى، 40/42)..فلبّيت دعوته وأجبت مسألته"[2].

ونصُّ الفتوى : "سُئِلْتُ عن أهالي جبل طرابلس الغرب الذين لا يتمذهبون بمذهب من المذاهب الأربعة، ما مذهبهم؟، ومَن هوإمامُهُم؟. الجواب أنهم يتمذهبون بمذهب عبد الله بن إباض، وهُمْ أباضيّة، وهُم من جُمْلة الخوارج .وقد قسّم في المواقف الخوارج إلى سبع فرق، إحداها الأباضية. قال إنهم قالوا مخالفونا من أهل القبلة كفار غير مشركين، تجوز مناكحتهم، وغنيمة أموالهم من سلاحهم وكراعهم حلال عند الحرب دون غيره، ودارهم دار إسلام إلا معسكر سلطانهم. وقالوا تُقبَل شهادة مخالفيهم، ومرتكب الكبيرة موحّد غير مؤمن بناء على أن الأعمال داخلة في الإيمان، والاستطاعة قبل الفعل، وفعل العبد مخلوق لله تعالى، ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا ملّة، وتوقفوا في

والمفتي فهوكامل أومحمد كامل بن مصطفى بن محمود الطرابلسي الحنفي، فقيه من أهل طرابلس الغرب، دخل الأزهر، ودرس الفقه المالكيّ بجانب الفقه الحنفيّ والشافعيّ، وبعد سنوات عاد إلى طرابلس، وزار تونس س1298هـ/1881، وولي الإفتاء س1311هـ/1897 إلى أن تُوُفّي.

كان يُلقّب ب"سيبويْه زمانه"، وكان قويّ الحجّة واسع الاطلاع حادّ الذاكرة. وكان في الإفتاء مثال الأمانة والنزاهة، وعليه من مهابة العلم ووقاره، ما بعث الهيبة في نفوس عارفيه حتى من اليهود والمسيحيّين.

من كتبه : "الفتاوى الكامليّة في الحوادث الطرابلسيّة" على الفقه الحنفيّ .

الزركلي : م.س. ج5ص218

الزاوي : أعلام ليبيا صص383-384

1- المصدر ص114

2-المصدر صص114-115

تكفير أولاد الكفّار وتعذيبهم، وتوقفوا في النفاق أَهُوشركٌ أم لا، وفي جواز بعثة رسول بلا دليل ومعجزة وتكليف أتباعه فيما يُوحى إليه، أيْ تردّدوا في أن ذلك جائز أم لا، وكفّروا عليًّا وأكثر أصحابه، وافترقوا فرَقًا أربعًا أُنظُرْهُم في المواقف. والله تعالى أعلم." [1]

وقد تتبعْنا هذا المؤَلَّف، فوجدناه ينبني على خطّة ثلاثيّة :

- تقديم صورة الإباضية من وجهة نظر إباضيّة، وما يستتبع ذلك من التعريف والتصنيف والتنصيع والتصحيح.
- رصْد الاختلاف غير الإباضيّ
- الدعوة إلى السماحة المذهبيّة وكسب التحدّيات.

وهي المحاور الثلاثة التي تتركّز عليها دراستنا.

---

1 - ابن مصطفى :الفتاوى الكاملية ص3
ونُورد إتمامًا للفائدة، ودفعًا إلى المقارنة، ردّ أطفيّش، شيخ ابن تعاريت، على هذه الفتوى، مُلخّصًا :
-لا نُحِلّ مال الموحّد لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، في حرْب ولا غيرها، لا للغني ولا للفقير
-لا نقول بالخروج على سلاطين الجوْر الموحّدين، ومن نسب إلينا وجوب الخروج فقد جهل مذهبنا
-دار مخالفينا دار إسلام غير دار سلطانهم فلا قائل به. فإن لمْ تكن دارُ سلطانهم دارَ إسلام فكيف تكون دارُ غيرهم دارَ إسلام
-مذهبُنا : مرتكب الكبيرة موحّدًا غير مؤمن، وعليه البخاري والمحدّثون، ذكَرَه الشعراني
-نقبل شهادة مخالفينا إذا كانوا ورعين في ديانتهم
-نقول : مرتكب الكبيرة كافر كفرَ نعمة، وكافر بالجارحة، وفاسق ومنافق، بمعنى مخالفة أفعاله لأقواله، لإقراره بكلمة الشهادة
-نقول : أفعالنا خلْق من الله وكسبٌ منا
-منّا من توقف في أطفال المشركين، ومنّا من يقول إنهم في الجنّة
-نحن لا نتوقف في النفاق بل نجزم أنه غير شرك ونقطع بذلك
-نحن لا نقول بجواز بعثة الرسل بلا حجّة ولا معجزة
-الاستطاعة عندنا هي مع الفعل لا قبْله . راجع : معمّر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص631-632

1- صورة الذات

إذا كان الجدَل حوْل الإباضيّة لا يزال قائمًا إلى أيامنا هذه،وقد طويْنا نصْف العشريّة الثانية من ق21، والعالم العربيّ الإسلاميّ تتقاذفه الأزمات والنوائب والقلاقل، وتتعاظم فيه المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، فإنّه ليس من الغريب أن يكون عصر المؤلف، ملتقى القرنيْن 20/19م، امتدادًا لعهود المعارك العقَديّة والكلاميّة والمذهبيّة التي لمْ تزدْها الأيّام والأقلام إلا اشتعالاً، بالرغم من جهود الراسخين في العلم،المقرّبين بين المذاهب، الذّابّين عن حمى وَحدة المسلمين.

ولعلّ ابن تعاريت رأى من واجب الدفاع عن عقيدته ومسؤوليّة العالِم في الدّين، أن يرفعَ صوْته، وأن يعْرض أطروحته حينما حتّم الدّاعي، وتوفر المثير. دون أن يكون ذلك نابعًا من اندفاع إلى عصبيّة أومساجلة بالغة، مع أنّه واصل في المسار نفسِه الذي سلَكَه مَن سَبَقَه، حيث زكّى مذهبَه بلا حدّ، وضلّل مخالفَه بلا تحفّظ، وجنّدَ لذلك بعض الآثار والنصوص، فهويقول تعقيبًا على أحدها :" وكفى بذلك دليلاً على صحة طريقتنا، وإصابة أيمّتنا، واتباعهم كتابَ الله وسنّةَ الرسول، وآثار الصحابة العُدُول، وسلوكهم النهج القويم والصراط المستقيم، ولمْ يزالوا بحمد الله ذي العظمة والجلال يتوارثون دين الله طبقة بعد أخرى على هذا المنوال.. فالغالون همُ الخوارج كالأزارقة، والصفْريّة..، وأمّا المبطلون فهُمُ المشبّهة والمجسّمة ومَن حَذَا حِذوهم، وأمّا الجاهلون فهُمُ المتأوّلون لكتاب الله المبين وسنّة نبيّه الأمين تأويلاً غير مقبول عند ذوي البصيرة من الناس، ولا سنَد له من قاطع نصّ أوجليّ قياس، وهؤلاء ضالّون بتمامهم ونحن بُرآء منهم[1].

ولمْ يرْضَ ابن تعاريت بأن يُسمّى كلّ مَن خرج على الإمام، ومنهم الإباضيّة، خارجيًّا، ويُورِد في ذلك أمثلة كثيرة من خارجي أهل السنّة والشيعة ومعتقدِي الخروج، ولكنّهم لمْ يُصنّفوا مع ذلك خوارج [1]. على خلاف الإباضيّيْن العمانيّيْن، السّالمي (ت1332هـ/1914) الذي يُقرّ أنّ تسمية

1- م.س. صص146-147

1-م.س. صص199-212

الإباضيّة بـ"الخوارج" ترجع إلى كثرة جهادهم في سبيل الله، وهي تسمية محمودة، ويضيف :"ولما فارقتْنا الأزارقة والصفريّة أخذوا عنّا اسم الخروج، وانقلب المدْح ذمًّا واختصصْنا باسم أهل الاستقامة"[1]، والخليلي، مفتي سلطنة عمان الحاليّ، الذي يرى أن الإباضية خوارج إذا كان معناها الخروج عن الإمام عندما يجتهد المجتهدون، ويرونْ أن قضية ما منه تتنافى بحسب اجتهادهم مع أصول الشريعة التي ينبغي أن يُسار عليها، أوتتنافى مع السياسة الشرعية. أما إن كان المراد بالخروج هوالخروج على الأمة أوعنها أوالقيام على الحاكم الشرعيّ بغير وجه شرعيّ فالإباضية حلَئِذٍ ليسوا خوارج لأنهم لا يوافقون على هذا [2].

وقد بدأ المؤلّف بترجمة إمام الإباضيّة الروحيّ جابر بن زيْد، إذ هو، كما يصفُهُ، "الإمام الأعظم"، و"المدوّن للمذهب"، ويورد أن أيمة كثُرًا وثقوه، ويُوجب الاعترافَ بإمامته، وبصحّة مذهب مَن كان على طريقته[3]

ثمّ عقّب بترجمة الرستميّ عبد الوهاب(ت208هـ/832م) الذي تُنسب إليه "الوهْبيّة" الإباضيّةُ الباقية إلى اليوْم، والتي تمتاز عن بقية فرَق الإباضيّة الكثيرة، بأنها تتبع ابن زيد وعبد الوهاب [4]. وقد أشرنا إلى الخلاف في نسبة هذه التسمية سابقا، ونضيف أنّ أطفيّش، شيخ ابن تعاريت، قد أثبت أن "دين الوهبيّة" نسبة إلى عبدالله بن وهْب الراسبيّ(ت38هـ/658م) لا إلى عبدالوهاب، لأن الأوّل أنسب لتقدّمه، ولأنّ النسب إليه على القياس، وأما الثاني فقياس النسب إليه "وهّابيّ". وبيّن هاهنا أن "الإباضيّة الوهْبيّة" حقيقة عُرْفيّة لمن تسمّوْا بها، ويخرج "النكّار" و"الفرْثيّة" لأنّهم لمْ يدينوا بما دان به أولئك [1]

1–جهلان : الفكر السياسي عند الإباضية ص95

2 –الخليلي : لقاءات في الفكر والدعوة صص200–201

3- المصدر صص121–136 / صص427–428

4–المصدر صص141–147

1 –أطفيّش : شرح كتاب النيل وشفاء العليل ج17 ص452

وكاد ابن تعاريت أن لا يذكر عبدالله بن إباض [1]، ولعلّه إيماءً إلى :

/ أنّ الإباضيّة لا يرتاحون كثيرًا إلى هذه التسمية التي أطلقها عليهم خصومُهُم، ولمْ تظهر في مؤلفاتهم إلا في نهاية ق3هـ/9م [2]، وحينئذ، فترجمة ابن إباض، المعتبر الإمامَ السياسيّ، ليست من الأهميّة بمكان، بل تجاوزُها أفضلُ، عند ابن تعاريت، للدلالة على أنّ الرجل، برغم قيمته، ليس حقيقًا بأن يُنسَبَ المذهب إليه .

/ أنّ الكاتب يبتغي أن يُبْرز نزعة المذهب العلْميّة لا السياسيّة، وإذا لمْ يكُن من هذه مفرٌّ، فلتكُن مقترنة بالأولى، والدليل على ذلك ذكْرُه لأبي عُبيْدة مسلم بن أبي كريمة(ت145هـ/762م) المعتبر عند أصحابه جامعًا بين الإمامة العلميّة والإمامة السياسية [3].

ولا نغفل عن أن ابن إباض تلميذ ابن زيد في العِلم، وله مناظرات مع نافع بن الأزرق(ت65هـ/685م)، ومع القدريّة، والشيعة، ولكن يظهر أن شجاعته الحربيّة غطّتْ على علْمه.

والإباضيّون يرتقون بتسمية مذهبهم إلى جعْله "دينًا"، وذلك طبْعًا بمعناه اللغويّ، ولكنّه لا يخلومن التزكية المتناهية [4]

ثمّ يستدلّ سعيد ابن تعاريت على أنّ الإباضيّة ليسوا خوارج ، بأن ابن حبيب روى عن ابن أبي كريمة عن ابن زيد حديث ذمّ الخوارج، فلوكان

1- تأمّل الإيماءة الخاطفة ص191

2-خليفات :التنظيمات السياسية ص5

3-المسلك المحمود صص136-138 /الزركلي ج7صص222-223 / الجعبيري :شخصيات إباضية صص19-30

4 - يقول أبوبكر النزواني : "وأما المسألة الأباضيّة فهي أنّ كل من مات على الدين الأباضيّ مقطوع بأنه من أهل الجنّة أمْ لا؟ فقوْلنا في هذه المسألة إنّا لا نشكّ في ذلك ولا نرتاب فيه وأنّ هذا لازم القطع به وإن لمْ يقطع به فقد شكّ في الدين الإباضيّ..". الجوهر المقتصر ص116

ويقول أحد النُسّاخ الجربيّين عند إمضائه :"نسخه للشيخ المكرّم العالم الورع المتديّن بدين عبدالله بن إباض، والتابع شريعة عبد الله بن وهب الراسبي....". بن يعقوب : تاريخ جزيرة جربة ص320

الإباضية خوارج لمّا اعترفوا بصحّة هذا الحديث، ونصّه :"يخرُج فيكم قومٌ تحقّرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يمرقون من الدِّين كما يمْرُق السهْمُ من الرميّة" [1].

ويجدر بنا أن نلاحظ هاهنا أمريْن :

• هذا الدليل يؤكّد أن تصحيح الأحاديث وتضعيفها يمكن أن يكونا مرتهنيْن إلى العصبيّة المذهبيّة. فالمذهَب حاكمٌ على الحديث أولهُ لا العكس. ونقْدهَ، سنَدًا ومتْنًا،لا يكتفي بالضوابط الفنّيّة الموضوعة، بل يُراعي، بالأساس، الولاءَ للمذهب أومناهضتَه. ولذلك نجد أصحاب المذاهب يبذلون قصارى الجُهْد لتصحيح الأحاديث "المناصرة"، ولواشتهر وهَنُها، ويبذلون المجهود نفسَه وأكثر لتضعيف الأحاديث "المعوِّقة"، ولواشتهرتْ قوّتُها. وهذه إشكاليّة مُعْضِلة..

• ليس في الحديث ما يفْصِح عن أن المقصود هي جماعات الخوارج الغفيرة ، وإنما الأمر لا يتجاوز التأويل والتوْجيه المشدودیْن إلى الخلفيّات والمواقف.

وفي هذا السياق تتنزّل الأحاديث المبْهمة، التي تُسْتعمل لتمجيد المذاهب العقديّة والفقهيّة وأيمّتها ، أولشيطنتهم وتكفيرهِم وتضليل آرائهم وتبْديعها.

كما يستدل ابن تعاريت على أن الإباضية ليسوا خوارج ، بأنّ "أهل الحقّ والاستقامة" ردّوا على الخوارج وخطّؤوهم، وتبرّأوا من أقوالهم، وأنبأوا عن فساد مذهبهم، وخالفوهم، فلمْ يُشرّكوا أحدًا من أهل القبلة بارتكاب الذنب، ولمْ يستحلّوا دماء المسلمين، ولا غنيمة أموال المخالفين. ودارُ الشرك عندهم ، هي كلُّ دارٍ أحكامُها راجعة إلى أهل الشرك يتصرفون فيها تصرّفًا مطلقًا،

1-المسلك المحمود صص198-199،

وراجع :

مسند الربيع بن حبيب ح36

موسوعة الحديث الشريف، البخاري ح5058 ص438

الصلابي : فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنّة والجماعة صص17-21

وليس فيها أمير مُسْلم ولومخالفًا ، ولا يُوجبون الهجرة من هذه إلى دار الإسلام بعد فتح مكة.

كما أن الإباضيّة يوجبون الإمامة، ولا يوجبون الخروج على سلاطين الجوْر، سواء كانوا من أهل مذهبهم أومن غيرهم، لأنّه قد يترتب على الخروج من المفاسد أضعاف ما يحصل من الجوْر، إذ تتفرق كلمة المسلمين، وتنكسر شوكتهم، ويطمع العدوفيهم [1].

غير أنّ ابن تعاريت، لا يبْحث في النشأة الأولى للإباضيّة، ممّا يمكن أن يساعد على تأييد مَن ذهب إلى أن هؤلاء خوارج خالفوا خيارات فرقتهم، كما خالفها غيرُهُم [2].

ومن جهة أخرى ينفي المصنّف أن يُعَدّ الإباضيّون أقليّةً، وإلاّ عُدَّ الحنابلة كذلك، بل يذهب إلى أن غير الإباضية هُم القِلّة في زنجبار(تنزانيا) [3] وعُمَان.

ولعلّه فهم نعْتَ أصحابه أنهم قليلون، بأنّه اتهامٌ لهُم بالشذوذ والضلال، ولذلك قال :"لوكان مجرّد الكثرة بقطع النظر عن الأدلّة يدلّ على الإصابة لَلَزم أن المشركين أوْلى بها من كلّ المسلمين لأنّ الدين الإسلاميّ هوالآن أقلّ من خُمُس أديان البشر الأربعة الكبرى، مع أن الله مدح القليل...وأيضًا لوكانت القلّة تدلّ على الخطإ للزم أن تحكموا به على أحمد بن حنبل أيضًا، بل الحُكْم به عليه حينئذ أجدر وأحْرى، لأنّ مذهبنا أكثر نفوسًا من مذهبه قطْعًا"[1].

---

1 -المصدر صص187-243

2 - راجع :

بحث أبي إسحاق أطفيش ينقله معمّر : الإباضية بين الفرق الإسلامية صص610-622

3 - اقرأ عن زنجبار، مثلاً، :

الريس : صحافيّ ومدينتان، رحلة إلى سمرقند وزنجبار صص155-359

الخوَند :الموسوعة التاريخية الجغرافيّة ج7صص54-71

1-م. صص267-268

ويؤكد سعيد ابن تعاريت على أن المذهب الإباضيّ تأسس قبل الأربعة، وقبْل الأشعريّة ، وإمامه قبل أيمّتهم، وأنه الأقرب إلى زمان النبوة، وأنّه يستلحق ما قرب منه من هذه المذاهب لا العكس[1].

كما حشد جمْلة من الشهادات التي تُنصِف الإباضيّة، فبدأها وختمها بالتونسيّين، وذكَر ما أثبته ابن خلدون من أن الإباضية أقرب الفرَق إلى الأشعريّة [2] ولمْ نجد هذا الموقف فيما راجعناه من تاريخ ابن خلدون، وإن أصبح في العهود المتأخرة متداوَلاً، ويُعتبَر نتيجةً أوسبباً في تقارب الإباضيّة والسنّة. وتدعّم هذا الموقف في دراسات الباحثين والكُتّاب المعاصرين، ومن هؤلاء محمد المرزوقي الذي يقول :"ومن الاطلاع على تعاليمهم وقواعد مذهبهم نلاحظ أنهم أقرب لأهل السنّة، وفي الإمكان أن يساكنوهم ويسالموهم، بل تكاد أكثر الخلافات بينهم وبين أهل السنّة ترجع إلى مجادلات كلاميّة تتحامى الأصول "[3].

ويرى سعد غراب(ت1415هـ/1995) أن الحركة الخارجيّة في المجتمع المغربيّ سرعان ما أجبرتها الظروف على التلطيف من غلوائها، واقتربت من المذاهب السنّيّة ببقائها ممثلة في فرعها الإباضيّ، وهوأكثر المذاهب الخارجيّة اعتدالاً، ثم في فرع الوهبيّة، وهوأكثر الفروع الإباضية تسامحا وتآلفًا مع المذهب المالكيّ. واضطرّت الإباضية رغم ذلك، للتقلص شيئًا فشيئًا والاستقرار خاصة في الأماكن النائية مثل جبال دمّر ونفوسة وصحراء الجزائر وجزيرة جربة[4].

وفي هذا الرأي ما يناقش، إذ أنّ "اعتدال" الإباضيّة لمْ ينشأ في المغرب، باعتباره خيارًا ظرفيًّا، وإنما هومنزع برز منذ فترة التأسيس. كما أن المناطق الإباضية المذكورة، لاسيما جربة، لا تعتبر "نائية"، بل كانت ولا تزال مناطق تحوّل واستقطاب، وذات أهمّيّة اقتصاديّة.

---

1 –م. ص430

2 –م. ص430

3 – مؤنس الأحبّة ص50

4– غراب : العامل الديني والهوية التونسية م.س. ص37

أما عبدالعزيز المجدوب فقد اعتبر الإباضية من المذاهب "السنّيّة"، ونزعم أنه غير مسبوق في هذا التصنيف، إذ يقول : "تطهّرت أرض إفريقيّة بل كامل أرض المغرب من كلّ دخيل، وزالت المذاهب بأنواعها، وامّحقت البدع، ولمْ يبْق فيها غير المذاهب السنّيّة الصادقة، المالكيّ الصامد العتيد، والمذهب الإباضيّ المثاليّ خلقا وتديّنًا، والمذهب الحنفيّ النظيف المنزّه عن الفلسفات والضلالات، وتعايش أتباع تلك المذاهب في جومن الإخاء والتعاون لمْ يكدّر صفاءه مُكدِّر" [1]، وفي موضع آخر :" ظهر منها أيمّة أفذاذ برزوا في العلم والدين حتى بلغوا درجة الاجتهاد، فسنّوا لحزبهم مبادئ وقواعد خاصة، وشرّعوا له فقهًا وأصولاً في العبادات والمعتقدات تحوّلت به من حزب سياسيّ، ومن مجرّد فرقة دينيّة إلى مذهب سنّيّ. وذلك لأنّ أتباعه حافظوا على صفاء الرسالة المحمّديّة في أصول مذهبهم، ولمْ ينحرفوا عن النهج القويم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وصحابته البررة في سلوكهم وأمور معاشهم،..."[2].

إنّ كلّ ما وجدناه عند ابن خلدون الأشعريّ وأوردْنا سابقًا فنراتٍ منه، هوما يلي :

/تصنيف الإباضية في خانة سائر الفرق الخارجيّة كالصفريّة والأزارقة...

/الكلامُ عن الخوارج والبربر، بحدّة لافتة، فهُم أصحاب بدْعة، " لبُعْدهِم عن مقال أهل السنّة والجماعة "[3]

/إعجابُه بطريقة تصنيفهم الدينيّ، حيث يقول :" وتطير إلينا هذا العهد من تلك البلاد (يقصد جبال طرابلس وماجاورها) دواوين ومجلدات من كلامهم في فقه الدين، وتمهيد عقائده، وفروعه مباينة لمناحي السنّة وطرقها بالكلّيّة، إلا أنها ضاربة بسهم في إجادة التأليف والترتيب وبناء الفروع على أصولهم الفاسدة "1.

---

1 – المجدوب : الصراع المذهبيّ بإفريقيّة ص218

2 –م.س. ص110

3 – تاريخ ابن خلدون ص693

1 – م.س.ص.ن.

وهكذا نرى أنّ إباضيّيْن اثنيْن هما ابن تعاريت وبن يعقوب، يتخذان من مؤرّخ واحد موقفيْن متقابليْن، حيث لا ننسى ما أنكره صاحب "تاريخ جزيرة جربة " على ابن خلدون مِن وصْفه سكانَ جربة الإباضيّة بالوحْشيّة والهمجيّة والمروق عن الدّين [1].

والأمر نفسه بالنسبة إلى مقديش.

فإذا كان بن يعقوب قد استطاب كلام الشيخ المالكيّ الأشعريّ محمود مقديش(1154-1228ه/1742-1813)، واستدلّ به وسكت عمّا سوى ذلك، فإنّ سعيد ابن تعاريت لمْ يكْتم عتَبَه عليْه، لِـ"تسلّطه على الوهْبيّة إذ نسب إليهم في تاريخه أشياء باطلة، وأقوالاً سقيمة عاطلة "[2]، مع أن مقديش قد التزم غاية الأدب والاحترام والتقدير تجاه معاصريه من أهل جربة.

ومن المعلوم من سيرة مقديش الصفاقسي،أنه توجّه في صغره إلى الزاوية الجمنيّة بجربة لطلب العلم لمّا أعوزته الإمكانيات الماديّة عن الإقامة في تونس العاصمة، إذ أنّ الزاوية تتكفّل بالإنفاق على الطلبة المقيمين بها من ريْع أوقافها ومن تبرّعات أهل البرّ والإحسان. وقد ترجم لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله الجمني المؤسس، ولعُمر وإبراهيم ابنيْ أخيه محمد الجمني، مبديًا توقيرًا لهُم، وذاكرًا كرامات وبركات وأفضالاً جمة[3] .

أمّا كتابه المسمّى :"نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" والمعروف أيضا بـ"دائرة مقديش"، فتصنيفٌ يختلط فيه التاريخ بالأسطورة والحكاية الشعبيّة والعقيدة والجدل المذهبيّ...

ولئن اعتبره البعض أثرًا لا يستحق الاهتمام لأن مؤلفه نقَل عن غيره دون اجتهاد من نفسه، فإن البعض الآخر يعتبره كتابا فريدًا غير مسبوق، إذ يضيف عن طريق التاريخ الجهويّ أضواء جديدة على التاريخ التونسيّ. فاحتل مرتبة محترمة في كتب التاريخ، وصار يعُتمَد في كتابة التاريخ الحديث

---

1 -تاريخ جزيرة جربة ص18

2 -م. ص266

3 - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ج2صص436-445

المتعلّق بالمدن والاقتصاد، والاجتماع، وعلاقة المغرب بالمشرق خلال ق12هـ/18.

وأخذ مؤلّفه مكانة بين المؤرخين التونسيّين[1]، فترجم له ابن أبي الضياف في "إتحاف أهل الزمان"[2]، ومحمد مخلوف(ت1360هـ/1941) في "شجرة النور الزكيّة"[3]، وكراتشكوفسكي(ت1371هـ/1951) في "الأدب الجغرافي العربي"[4]، والزركلي في قاموس الأعلام[5]، ومحفوظ في "تراجم المؤلفين التونسيّين"[6]، واهتمّ به آخرون [7].

وممّا يُذكر عن الكتاب أنه صُودِر من قِبَل الحكومة التونسيّة عند ظهوره لأوّل مرّة، ويُرجّح النقّاد أن سبب ذلك هوما أبداه مقديش فيه من تقدير لعلي باشا الأوّل(ت1169هـ/1756)المنازع لسلطة عمّه حسين بن عليّ(ت1153هـ/1740) وعائلته حكّام تونس[8].

ومن اللافت أن المصادر التاريخية الاثنيْن والثلاثين التي ذكرها المؤلّف، واستعملها بطريقة أو بأخرى، وكان منها "نزهة المشتاق"، و"رحلة التيجاني"، و"كتاب العبَر" [1]، لمْ نجدْ فيها واحدًا إباضيًّا، رغم أنه تكلّم عن جربة والإباضيّة. والأمر نفسه بالنسبة إلى الكتب المذكورة في النصّ(يعني المتن

---

1 – عبد السلام : المؤرّخون التونسيّون صص305–319. وهويشير إلى أن مقديش لمْ يحتلّ إلا مكانة محدودة في مجموعة التراجم التونسيّة

2 – ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ج7صص85–86

3 – بن مخلوف : شجرة النور الزكية تر1474 ج1ص526

4 –الأدب الجغرافي العربي ج1 ص450 / ج2ص768/ص959

5 – الزركلي : الأعلام ج7ص172

6 –تراجم المؤلفين التونسيين ج4صص356–361

7 – راجع مقدمة عبد الوهاب ل"مؤنس الأحبّة" ص10 / مقدمة "نزهة الأنظار" ج1صص5–25

8 – م.س. ص6

1 – كما أحصاها مُحققا الكتاب ،الزواري ومحفوظ؛ وسرَدَا عناوينها م.س. ج1صص18–19

وهامش التحقيق) البالغة المائتيْن وخمسة وثلاثين [1]. ولمْ نجد في المصادر والمراجع غيرَ :

/مؤنس الأحبة في أخبار جربة

/نظام العزّابة عند الإباضية الوهبيّة في جربة

/مقال :برج غازي مصطفى بجربة لرشيد غريب [2]

أما عن منهج "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، فقد ورَد في مقدمة التحقيق : "..وباستثناء الفقرات والأجزاء التي حرّرها المؤلّف، فإن الكتاب يغلُب عليه طابع النقل والتجميع..ولابُدّ أن نستثني في القسم التاريخيّ هذا، المعلومات الخاصة به التي أفادنا بها عن المدن الإفريقيّة :تونس، والمهديّة، والقيروان، وسوسة، والجمّ، وجربة، وصفاقس خاصة، وكذلك عن الجزائر والإسكندرية، وطرابلس، وهذه المعلومات هامّة ومفيدة، وإن كانت مختصرة في بعض الأحيان، وتعطينا فكرة واضحة عن بعض الأحوال خلال القرن الثامن عشر، وفيه محاولاته للمقارنة بين مصادره القديمة، ومعلوماته ومشاهداته، أعطى للتأثير الزمنيّ حقّه..وبرّأ أهل جربة من الأقوال المشينة التي وردت في "نزهة المشتاق"...ولا بُدّ أن نشير إلى خطر آخر تنبيهًا للقارئ. فالمؤلف، كما أشرنا، له ميوله الدينية والسياسيّة، والثانية امتداد للأولى، فهوسنّيٌّ راسخ العقيدة، فاختار ما يلائم هذا الاتجاه، وصنّف كتابه على أساسه، فهو يتحيّز للإسلام في معاوركه ضدّ الكفّار، والنرمان، فأسقط من نزهة المشتاق جلّ ما يتعلق باحتلال النرمان لبلاد الإسلام، ومالطة التي يُرْفق ذكرها بدعائه عليها :دمّرها الله، والصليبيّين في الشرق، ويأخذ كذلك موقفًا مماثلاً تجاه الحركات المضادة للحكومات التي يراها شرعيّة، ومنها حركة أبي يزيد الخارجيّ، والحركة الشيعية الفاطميّة، وحركة التتر ن وفي آخر المطاف يتشيّع للدولة العثمانيّة التي يرى فيها منقذ بلاده من أهل الكفر والضلال، فيمجد رجالها وأعمالها، كما يتشيّع لعلي

---

1 – نزهة الأنظار ج2صص579–585

2 –م.س. ج2صص587–599

باشا الأول ويشيد بالجزائر العثمانية في بعض أوقاتها، ويغض الطرْف عن تدخلاتها الحربية في تونس.."[1]

ولعلّ الجامع بين ابن تعاريت ومقديش هوالإخلاص للدولة العليّة، كما سنورد لاحقًا.

ويحْسُن بنا أن نُورد، بتصرّف، أهمّ ما في "نزهة الأنظار وعجائب الأمصار" عن الجزيرة وأهلها، والأحداث الواقعة بها، والمذهب الإباضيّ ، ممّا لمْ يرِد عند ابن تعاريت وبن يعقوب، إلاّ قليلاً :

/"ومن طرف الجرف إلى جزيرة جربة في البحر أربعة أميال، وهي جزيرة عامرة بقبائل من البربر، وكلامهم بالبربرية أكثر، وكان طولها من المشرق إلى المغرب ستين ميلاً، وعرض الرأس الشرقيّ خمسة عشر ميلاً. ومن هذا الطرف إلى البرّ الكبير عشرون ميلاً، وهذا الرأس الضيّق يُسمّى رأس كرين، ويُسمّى الطرف الواسع أنتيجان، ويتصل بهذه الجزيرة في جهة الشرق جزيرة زيزووهي صغيرة نحومن ميل، ويقابلها قصر بني خطّاب، و٠الب أهلها وهْبيّة. وقد فشا فيها مذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه ونزر قليل من مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من حين دخلت العساكر العثمانية، وحُكِي في نزهة المشتاق، ورحلة التيجاني عن أوائل هذه الجزيرة أمورًا لا تليق يتنزهون اليوم عن أكثرها، فقد استصلحوا والحمد لله عن تلك الرذائل وربنا يوفقنا وإياهم وعامّة المسلمين لما فيه سعادة الدنيا والدين، ففيهم حسن عهد وكرم نفس وضيافة، ويسالمون الناس ما سالموهم في أموالهم ولا يخونون.ولهم صبر زائد على الاغتراب في الأوطان فكثرت بذلك أموالهم، فهم أيسر الناس، ولهم رفق زائد في معائشهم فيصبرون على الشدة أكثر من غيرهم ويُعمل بهذه الجزيرة من أصناف ثياب الصوف الساذج والممزوج بالحرير كل مفتخر يعم لآفاق الدنيا وأقطارها، وإليها تجلب قناطير الأموال، فتحمل طيالسهم وأكسيتهم وأحزمتهم وبرانسهم لجميع الأراضي، وبها من جميع أنواع الثمار ما لا يوجد في غيرها وتستمر ثمارها على حول السنة، وتبقى ثمارها في أشجارها إلى انتهاء نضجها لقوة الأمن بها وقلة الخيانة. وخيل

---

1 – نزهة الأنظار ج1صص23–24

أهلها البغال، فهي بها أكثر من غيرها، وبها الحمر الفارهة التي لا توجد في غيرها وتحمل منها إلى غيرها من البلاد، وبها من الزيتون وزيته ما يعمّ الآفاق.وبالجملة فهي من غرر الجزر وربنا يحميها وسائر بلاد الإسلام من عدوالدين. ويعمل بها من أنواع الفخّار ساذجا ومطليًّا كل غريب يعمّ الآفاق، وخصوصًا أوعية الزيت والماء، وسيأتي لنا إن شاء الله تعالى التنبيه على ما وقع لها من عدوالدين وهي الآن والحمد لله في حماية الله ورسوله منذ دخلت العساكر العثمانية ربنا يمدهم بالنصر ويعينهم على أعداء الدين ويجعلهم نكاية عليهم إلى يوم الدين. وأهل هذه الجزيرة يستنبتون جميع الحبوب والبقول حتى أن جميع الناس يحتاجون إليهم في البذر كلها وهم لا يحتاجون إليهم فيها ، وأكثر زروعهم على السقي من الآبار وشربهم من المواجل "[1].

/" وبلغنا أن الباشا رحمه الله تعالى أمر أهل جربة فاستخرجوا له صوفًا بين السواد والحُمْرة واشتغلوا له منه طيالسة "[2]

/"وفي شهر جمادى الأولى من سنة ست وسبعمائة سافر شيخ الموحّدين أبويحيى زكرياء بن أحمد اللحياني بالعساكر إلى جربة برسم خلاصها من أيدي النصارى فقاتل القشتيل شهرين ولما عجز عنه رحل إلى قابس..."[3]

/"وفي عام خمسة وثلاثين وثمانمائة في العشر الأوَل من ذي الحجّة نزل طاغية النصارى ملك أرغون القطلاني على جزيرة جربة في أُمَم لا تُحْصى، وكان أبوفارس نازلاً بعمرة بمحلته، فلما بلغه الخبر ارتحل حالا وجدّ السيْر، فلما وصل وجد النصارى قطعوا القنطرة فنزل السلطان بمحلّته خارج الجزيرة مما يلي القنطرة، وكان قد بعث قبَل العدوعسكرًا صحبة قائد من قوّاده لحفظ الجزيرة من العدوّ، فمنعوا العدومن نزول الجزيرة، فكان أبوفارس بمن معه خارج الجزيرة والعسكر السابق داخلها والعدوفي البحر على طرف القنطرة، وقد جعل بينه وبين المسلمين سُورًا من الخشب، وكان المولى أبوفارس يجلس كل يوم بطرف القنطرة مع أصحابه ويجلس بين يديه القائد نبيل بجيش معه

---

1 – نزهة الأنظار ج1صص141–143

2 –نزهة الأنظار ج2ص189

3 – نزهة الأنظار ج1 ص561

للقتال، فأُخْبر العدوبذلك، وبأن أصحابه ينصرفون عنه لمأربهم في وقت القائلة، فلما صار وقت القائلة ولمْ يبق إلا الخواص بعث النصراني سُفُنا عدّة فأحاطت بالقنطرة وأرادوا القبض على السلطان ومن معه، فركب السلطان وسلّمه الله من كيدهم، واستشهد بعض من كان معه، وأحاط العدوبالميدان وما فيه فأخذوه في رابع محرم من سنة ست وثلاثين ،ثمان مائة. ثم إن بعض أهل جربة قصدوا إلى أبي فارس وأخبروه بأن الجزيرة طريقًا غير القنطرة في البحر فبعث معهم عسكرًا فأدخلوه الجزيرة فلما رأى العدوالعسكر دخل الجزيرة من غير القنطرة أيقن بالخيْبة، وأقلع بأساطيله خائبا وكانت إقامة العدوعليها سبعة وعشرين يوما وأصلح السلطان القنطرة."[1]

/" وفي سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة فتح القائد ابن الكماد قشتيل جربة واستخلصه من أيدي النصارى بعد أن حاصره أعظم محاصرة "[2]

/"ومن أجلّ أعيان المتأخرين الشيخ شيخ شيوخنا أبوإسحاق سيدي إبراهيم الجمّني رحمه الله تعالى...ثمّ انتقل لجزيرة جربة فقصد جامع الغرباء بها يعلّم به الناس.قيل إن إمام الجامع أخذه ما يأخذ الفقهاء من الغيرة فمنعه من الإقراء به فعزم على الانتقال، فرآى في النوم قائلا يقول له : ياإبراهيمُ أَعْرِض عن هذا، وقيل رآى قارئًا يقرأ :فأمّاالزبَد فيذهب جُفاءً، ورأى الشيخ خليلاً فقال له: أنت ولدي ومنّي فاجتهد، فأقام ما شاء الله سكنًا هوومن يقرأ عليه في أخواص من جريد.فقدم وكيل المرحوم السلطان مراد بن حمودة باشا رحمه الله تعالى وكان من أهل قابس، فسأل عن الشيخ وكان يعرفه فدُلّ عليه، فوجده على تلك الحالة، فلمّا رجع لتونس أمره السلطان عنه لشغله بأحوال رعيته، وهوكاف في مذهب أبي حنيفة الذي هومذهب مراد باي، فقال له : ياسيدي إن أردتَ أجرًا خيرًا من الحج فابْنِ مدرسة للشيخ الجمّني وحكى له أمرهوحكى له امره ونشر له ذكْره فأمره بالتوجه لبناء المدرسة المراديّة بجزيرة جربة..فبنى لها دُورًا وبيْت صلاة، وكمُل بناؤها سنة خمس وثمانين وألْف وجعل له النظر في الحبس وفوّض أمره إليه فمكث

---

1 –نزهة الأنظار ج1صص599–600

2 – نزهة الأنظار ج1ص570

الشيخ يعلم بها وقدم عليه الناس من كل فجٍّ عميق فبذل جهده في نشر مذهب إمام دار الهجرة...وكانت له كرامات كثيرة..وكانت مدة إقامته بالمدرسة خمسين سنة.."[1]

/"..وبِن أجلّ مَن أخَذ على الشيخ سيدي إبراهيم بن عبد الله الجمّني سيدي علي بن الشاهد المنيي..واتفق أن الشيخ كان يومًا في درسه فدخل إباضيّ يسأل ويقول :إنكم معشر الأشعرية لا تكفّرون بالذنب وتقولون بالشفاعة للمذنبين مع أن إبليس أبلسه الله من رحمته، وختم عليه الشقاوة والخلود في النار، ولمْ تقع منه إلا معصية واحدة هي عدم السجود لآدم، فكيف بمن وقع في محرّمات لا تحصى وفظائع لا تُستقصى؟..." [2]

/"شيخنا الشيخ أبوإسحاق سيدي إبراهيم بن محمد الجمّني.. وفي أيامه عظم النفع وكثر الوارد على المدرسة..ثمّ إن سيدي إبراهيم بن محمد امتحن بني جلود كبار الوهبيّة، وذلك إنه رحمه الله كان لحظَه الباشا فاستنقذ أكثر الناس من البدعة، وأدخلهم في السنّة، ورجع جملة من الخطب في السنّة. فلما فرغت أيامه رحمه الله طلب بنوجلود أن يكونوا قيّادًا على البلاد فأُسْعِفوا بذلك لخفاء دسائسهم على الأمير،فلمّا تولّوْا سعَوْا في الأَرْض ليُفْسِدوا فيهَا، فسعوْا بسيدي إبراهيم وأظهروا باطلاً في صورة حقّ وحلفوا بأيْمانهم فانخدع الأمير لهم....وإنّ مافعله به بنوجلود إنما هولبغضهم في السنّة وأهلها.."[3]

/"وأمّا الشيخ أبوالعبّاس سيدي أحمد ابن الشيخ الصالح سيدي علي بن عبدالصادق الطرابلسي فإنه رحمه الله كان رجلا فاضلاً...فسعى به الحسَد، ففرَّ لجزيرة جربة بنفسه، فنزل على الشيخ سيدي إبراهيم الجمّني بن محمد فقبله وأكرم نزله،..وامتحنه أبناء جلود كما امتحنوا سيدي إبراهيم إلا أنه لمْ

---

1 – نزهة الأنظار ج2صص436–442

2 –نزهة الأنظار ج2صص446–447

3 –نزهة الأنظار ج2صص442–445

يقدر على الفرار بنفسه فأشخصوه مقيَّدًا فحصل لنا من الغمّ ما لا يعلمه إلا الله"[1]

/ "وهُم وهبيّة إباضية نُكّارة خوارج في دين الإسلام قاله في نزهة المشتاق ....وأهل جبل نفوسة كلهم إسلام ولكنهم خوارج نكّار على مذهب ابن منبه اليماني كأهل وارقلان " [2]

/"وفي آخر أيامه ابتلي بأبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري، كان رجلاً من الإباضية يظهر الزهد والقيام غضبًا لله تعالى، ولا يركب غير حمار ولا يلبس غير الصوف تصنعًا وإظهارًا للتنسك والصلاح مع تمسكه بأقبح البدع، وشاع جميع أمره من بلاد إفريقية. ولما سمع القائم بتوجهه إلى باجة وجّه خادمه بشرى الصقلبي ليبادره بدخول باجة فيضبطها ويعسكر بها، فما وصل أبويزيد إلا وقد وجد بشرى فاقتتلا فانهزم أبويزيد هزيمة فاحشة، فلما رأى أبويزيد ما حل به نزل على فرسه وركب حماره الأشهب، وقال لمن بقي معه: هذه ليست حال من يريد الهروب بل حال من يطلب الموت ثم خالف بشرى إلى أخبيته فجازها، فعلم بشرى بذلك، فأدركه رعب فولى منهزمًا وتبعه أصحاب أبي يزيد يأسرون ويقتلون، .ووصل بشرى إلى تونس منهزمًا...وكان يبيح دم أهل القبلة ويستحل الفروج ويفعل في الإسلام أشد مما يفعل في دار الحرب. قال التيجاني في رحلته : ومن قرية الزارات كان ابتداء سيرنا بسلوك منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين ودمائهم..، قلت وقد طهر الله من هذا المذهب نفزاوة وكثيرًا من البلاد، وربنا يحسن خلاص الباقين من أسر هذه البدعة وأشد الناس به تعلقا في هذه الأعصار جبل نفوسة ويسمونه اليوم فسّاطولتعاصيه عن أحكام سلاطين تونس وطرابلس لبعده عنهما وشدة حصانته، وما ذكر من بيع المسلمين للكفار لمْ يبق وقطع الله آثار الكفر ولله الحمد، وكذلك استحلال الفروج ودماء المسلمين، وربنا يطهر المسلمين من هذه البدعة وشنائعها "[1]

---

1 – نزهة الأنظار ج2 صص445–446

2 – م.س. ج1صص128–130

1 – م.س. ج1صص347–352

/"دخَل عليَّ خارجيّ(يعني إباضيّ) حال قراءتي مختصر الشيخ خليل، وباحثني في مسألة الكلام، وقال : كيف تقولون بقِدَم كلام الله، والله يقول: ذِكْرٌ مُحْدَثٌ، فأجبْتُه بأن الحُدوث في تنزيله ولا يلْزم منه حدوثُه في نفْسه، فإن المعنى القائم بالذات الأقدس باق على ماهوعليه من القِدَم، والحادث هوالتنزيل على أن النازل اللفظ الدالّ عُليه، ونزول اللفظ الدال نزول المعنى من حيث الدلالة. فالحادث والنازل هواللفظ، ثمّ أكثر من تخليطاتهم (أي الإباضيّة)، وأجبته عمّا سأل. فخرج وانصرف وبقيت كالمتفكّر في هذا المذهب وفي حال أهله، وتعجبتُ من قوم يرغبون بأنفسهم عن المنهج القويم ويرضوْن لأنفسهم بشنائع البدَع..وتحققتُ أن مذهب السنّة لا يعلمه إلا خواصّ خلق الله، ورسخَت مسائل السنّة في قلبي رسوخًا أغنى عن الدليل.."[1]

/" ومن أغرب ما وقع أنه قدِم أبناء جلود قيّادًا على جربة، وسعوْا في قطع أعيان أهل السنّة أخرجوا هذا الشيخ (يقصد أبا مغارة — ت1199هـ/1785- صاحب "كرامات") من البلاد فأركبوه في سفينة وامروا بغخراجه لصفاقس كرهًا، فسمع بذلك شيخنا ابوإسحاق سيدي إبراهيم بن محمد الجمّني فأرسل من ردّه من البحر، فنزل، ودخل السوق، وهوينادي: أنا لا أخرج منها، بنوجلود همُ الخارجون منها، فلمْ تمْض أيام قليلة إلا وقد جاء أمر من الأمير بعزْلهم فأُخرجوا كرْهًا عليهم، ولمْ يرجعوا إليها بعْد، وانقطع أثرهم بل وعقبهم، نعوذ بالله من التعرض لمساخط أولياء الله. ولمّا ظهرت بركاته للخاص والعامّ من المالكية والوهْبيّة، اعتقدَه الفريقان، وبنَى له بعض رؤساء الوهْبيّة قبّة.."[2].

وقد اعتبر أحمد عبدالسلام أن الصفحات التي تحدّث فيها مقديش عن جربة تُعتبَر أحسن مقدمة لدراسة انتشار المذهب المالكيّ في هذه

---

1 – م.س. ج2 صص464–465

2 – م.س. ج2صص466–467

الجزيرة،وانتصاره على المذهب الخارجيّ بتأييد من البايات المراديّين والحسيْنيّين [1].

ونعود إلى "المسلك المحمود في معرفة الردود". فإلى جانب ما ذكرْنا من الشهادات التونسيّة التي تنصف الإباضيّة، نقل ابن تعاريت، بالرواية والسماع، تصريحاً شفويًّا لشيخ الزيتونة إبراهيم الرياحي(ت1266ه/1850)، يُثبت فيه أن المذهب الإباضيّ خالٍ من البدع، وأنه متصل الإسناد لا منقطع [2].

كما أوْرد اتفاق علماء تونس س1120هـ/1698 على تجويز شهادة العزّابة في العموم والخصوص، ولا سيما أهل الصلاح [3].

غير أنّنا نقول إنّ مكابدة الإباضيّة من التمييز لمْ تنْته بعد هذا التاريخ، فقد وقع س1169هـ/1756الطعنُ في شهادة جماعة من أهل جزيرة جربة من فقهاء طرابلس عند قاضيها في نازلة، وقالوا :أهل جربة شهادتهم لا تجوز لأنهم غير مالكيّين، فألف الشيخ يوسف بن محمد المصعبيّ(ت1188هـ/1775) رسالة طويلة في الردّ عليهم، وبعث بها إلى أحمد باشا قرمانلي، وتضمّنت حقيقة جواز شهادتهم، وأنها لا يجوز ردّها لعدم التُّهم، ونصوصًا من أقوال علماء سائر المذاهب، وتوضيحًا لعقيدة الإباضية، ولزوم قبول شهادة أهل القبلة، وعدم تحقيرهم،اعتمادًا على أقوال علماء المالكية [4].

كما كتب الشيخ نفسه رسالة إلى علي باشا(حكم بين 1153–1169هـ/1740–1756) لمّا سمع أن أحد التونسيّين يشتم الإباضيّة، فبيّن له عقيدتهم الصحيحة، وذكر أيمتهم الأوّلين، ووصف سيرتهم الحسَنة [1] مع أنّ البايات أبْدوْا إجلالاً كبيرًا لمشايخ الإباضيّة، ومن ذلك ما يروونه من ثناء

---

1 – عبدالسلام :المؤرخون التونسيّون ص317

2–م. ص430

3 –م. صص433–434

4 –بن يعقوب : تاريخ جزيرة جربة ص144

1 – بن يعقوب :م.س. صص137–141

حمودة باشا على الوفد الجربيّ الذي ترأسه الشيخ أبو عبدالله محمد المصعبي(ت1207هـ/1783) ووفد على الباي لمّا بعث إلى علماء جربة طالبا منهم أن يُرسلوا جماعة من أهل العلم ليختبرهم، بعد وشاية نشرها علماء تونس عنده يذمّون بها الإباضية ويعتبرونهم خالين من العلم، وأنهم أهل بدعة، وليسوا من السنّة في شيء [1].

ونقرأ من أوامر الأمير يونس بن علي باشا(حكم بين 1156-1164هـ/1743-1751) :

" جدّدنا هذا الأمرَ للمكرم الفقيه العلامة المدرّس بجامع بني ليمس بجزيرة جربة الشيخ عبدالله بن الشيخ سعيد بن يحيى بن أحمد الجادوي الآجيمي، وأوصيْنا باحترامه، وحفظ جنابه، وعدم الجسارة عليه، بحيث لا تُهتك له حرمة، ولا يُهضَم له جانب، ولا يطرقه أحد بسوء "، وكتب بإذنه س1157هـ/1744 :"إلى حضرة الشيخ العالم المكرّم عبدالله الجادوي أكرمه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد، إلا أني ألتمس منكم أن تلازم لنا بالفاتحة وصالح الدعاء عقب كلّ صلاة وبعد كلّ عمل صالح "، وغير ذلك من نصوص التبجيل والتقدير من البايات لعدد من الأشياخ الجربيّين [2].

ومثلما اهتم ابن تعاريت بموقف علماء تونس الإيجابيّ من الإباضيّة، وهواهتمام ينمّ عن اعتزاز الرجل ب"تونسيّتِه"، وأنه يتوجّه بالكتاب إلى مواطنيه، بعْد الردّ على مفتي طرابلس، فإنه حرص على نقل إقرار علماء مصر والحرَميْن بسلامة العقيدة الإباضية [3].

ومن الحقيق بالملاحظة رجوع ابن تعاريت على امتداد مادة الكتاب، إلى أعلام البلاد التونسيّة، قُدامى ومُحْدثين.

فإلى جانب مَن ذكرْنا، نجِد :

---

1 -بن يعقوب : م.س. صص148-149

2 - بن يعقوب : م.س. صص279-285

3-م. صص430-433

/سحنون (ت240هـ/854م)[1]،

/ابن الحدّاد(ت302هـ/915م)[2]،

/ابن أبي زيد (ت386هـ/996م)[3]،

/ابن ناجي (ت839هـ/1435م)[4]، وكلّهم من القيروان،

/المهْدوي(ت595هـ/1199م)[5]

/ابنَ عرفة الورغمّي(ت803هـ/1400م)[1]،

/تلميذه الأبّي الكافي (ت827هـ/1424م)[2]،

---

1 – راجع م.، مثلاً : ص220/ص370.
وسيَر أهل السنّة والجماعة تذكر أن سحنون فرّق حلق "أهل البدع" من جامع القيروان، وشرّد "أهل الأهواء" منه، وكانوا فيه حِلقًا من الصفريّة والإباضية والمعتزلة، وكانوا فيه حِلَقًا يتناظرون به، ويظهرون زيْغهم، وعزلهم أن يكونوا أيمة للناس أومعد ين لصبيانهم أومؤدبين.
المجدوب : الصراع المذهبي بإفريقية صص67–73
وراجع :
الطالبي : البيئة التي أنشأت سحنون، ضمن : دراسات في تاريخ إفريقية صص91–164
سعدي أبوحبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق

2 – م. ص288
اشتهر سعيد بن الحدّاد بمناظراته الشيعة، وبردّه على الشافعي، وكان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد، ولا يتحلى بتقليد أحد من العلماء. ويقول : "إنما أدخل الناسَ إلى التقليد نقصُ العقول ودناءة الهمم". وكان مبغوضًا من المالكية على عهد الأغالبة، إذ نُقِل عنه أنه كان يسمّي "المدوّنة ب"المدوّدة". محفوظ : تراجم المؤلفين ج2صص105–108

3 –م. ص247 ، وراجع : ابن أبي زيد القيرواني (مجموعة دراسات نشرها مركزالدراسات الإسلامية بالقيروان1414ه/1994)

4 –م. ص376
وراجع، عن ابن ناجي :
الفاضل ابن عاشور : أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي صص100–106
محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج5 صص8–14

5 –م. ص378 / تراجم المؤلفين التونسيين ج4ص407

1 –م. ص413/ص443 وراجع : سعد غراب : ابن عرفة والمنزع العقلي

/الكوّاش(ت1218هـ/1804)[2]، الذي وصفه ابن أبي الضياف بأنه "نادرة الدهر في الحفظ وثقوب الفكر، والفصاحة والأجوبة المسكتة، وثبات الجأش في تغيير المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم"[3]

/الطاهر ابن عاشور الجدّ(ت1284هـ/1868)[4]،

/الباجي المسعودي التبرسقي(ت1297هـ/1880)[5]،

/خير الدين التونسي(ت1308هـ/1890)[6].

كما نجد من إباضيّة جربة :

/سعيد ابن تعاريت(ت1289هـ/1872)[7]جدّ المؤلف،

/عمّي سعيد(ت898هـ/1492)[8]،

/أبا النجاة يونس بن سعيد التعاريتي الخيري(ق10هـ/16م)[9]،

/عمر أبا ستة(ق11هـ/17م)[1]،

/قاسم بن يحيى الويراني(ت1073هـ/1662)[2]،

---

1 –م. ص145 /ص422
والأُبّي من ألمع تلامذة ابن عرفة في العقل والنظر والاستنباط، وكان شيخه يُجلّه من هذه الناحية
تراجم المؤلفين التونسيين ج1صص37–41
2 –م.ص378
3 –ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ج7صص44–46
4 –م. ص355 /415 /418
راجع في ترجمته : ابن أبي الضياف : م.س. ج8ص165 / ومن كتبه : شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح (طبعته وزارة الثقافة س1429هـ/2008)
5 –م. ص218
6 –م. ص459
7 –م. ص227
8 –م. ص228
9 –م. صص228–232
1 –م. ص171

/عمر التلاتي(ت1187هـ/1773)[2]،

/عبدالله بن سعيد السدويكشي(ت1068هـ/1658)[3]،

/المحشّي(ت1088هـ/1677)[4]،

ومن إباضية الجريد :

/ الدرجيني(ت670هـ/1271م)[5]،

/البرّادي الدمّري(ت.بعد810هـ/1407م)[6].

---

1 –م. ص396 /ص421

2 –م. ص151 /ص223 /ص252

3 –م. ص335

4 –م. ص335

5 –م. صص173–175

6 –ص133 / ص257/ ص332

2-رصْد الاختلاف عند الآخر : هل من سبيل الى نقد الذات ؟

ربما يُعتبَر لفتُ انتباه المخالف إلى ما يتضمّنه مذهبُه ممّا أنكره على غيْره، من أقوى مستندات المُحاجّ لتبكيت الخصْم. ونجد هذا عند الإباضيّة حينما تَرُدّ على أتباع المذاهب الأربعة، الذين يصِمونها بمخالفة "الجمهور" أو"الإجماع".

أ-شأن الصحابة

تعقيبًا على ما دعَا إليْه الوارجلاني(ت600هـ/1203م) من وجوب الإعراض عمّا شجَر بيْن الصحابة، والجزْم بدَل ذلك بعدالتهم لأَصْلِها فيهم، يُورد ابن تعاريت أنّ الحسن البصْريّ(ت110هـ/728م)، وأبَاحنيفة(ت150هـ/767م)، ومالكًا (ت179هـ/795م)، والشافعي(ت204هـ/820م)، وأبا الحسن الأشعريّ(ت324هـ/936م)، وابن تيمية(ت728هـ/1328م)، كانوا يشتمون الصحابة، منهم من قاله تصريحًا، ومنهم من أشار إليْه تلويحًا [1].

ولعلّ هذا الرأي لابن تعاريت من الخطورة بمكان، ولمْ يُقدّم عليْه أدلة قويّة صريحة غيرَهذه :

/ كان الحسن البصريّ يُنكر الحكومة على عليّ، وكان إذا جلس متمكّنًا في مجلسه ذكر عثمان فترحّم عليه ثلاثًا، ولعن قتَلتَه ثلاثًا، ثمّ يذكُر عليًّا فيقول :لمْ يزَلْ عليٌّ أمير المؤمنين مظفّرًا مؤيّدًا بالنعم حتى حكم، ثمّ يقول : ولِمَ تُحكم والحقّ معك ألا تمضي قُدمًا لا أب لك.

/ رُوِي عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية(ت60هـ/680م) : قتاله علَيًّا، وأخْذه الخلافة بالسيف من غير مشاورة، وفي الناس بقايا الصحابة وذووالفضيلة، وقتْلُه حجر بن عديّ(ت51هـ/671م)، واستلحاقه زياد بن أُميّة(ت53هـ/673م) ، ومبايعته ابنه يزيد معاوية(ت64هـ/683م) وكان سكّيرًا خمّيرًا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

---

1 -م. ص177

/ كان أبوحنيفة لا يقبل قول ثلاثة من الصحابة : أنس بن مالك(ت93هـ/712م) خادم رسول الله(ص)، وابن جندب(ت60هـ/679م)، وأبي هريرة(ت57هـ/676م).

/كان مالك يذكر عليًّا وعثمان وطلحة(ت36هـ/656م) والزبير(ت36هـ/656م) فيقول :"والله ما اقتتلوا إلاّ على الثريد الأعفر".

/ الشافعي : أربعة من الصحابة لا تُقبَل لهُم شهادة : معاوية، وعمروبن العاص(ت63ه/682م)، والمغيرة(ت50هـ/670م)، وزياد.

/ حكم أبوالحسن الأشعري بتضليل معاوية وعمروبن العاص..

/كان ابن تيمية يُشنّع على الخُلفاء الراشدين. [1]

لقد أجهد ابن تعاريت نفسَه هُنا لاستلال هذه النقول، ليومِئ أن اختلاف الإباضيّة في الموقف من الصهريْن عثمان وعليّ، وتطوّرَه الإيجابيّ من التشدّد والبراءة إلى السماحة والولاء، ليس شذوذًا في العقائد الإسلامية، بل له أشباه ونظائر.

ولذلك قال الخليلي فاتحًا صفحة الصُّلْح المشروط :" مُستعدّون،أي الإباضيّة، أن يطْوُوا صحائف تلك الفتن التي حدثت في عهد صحابة رسول الله (ص) ولا ينبسوا فيها ببنت شفة، ولا يخطّوا فيها حرفًا واحدًا، ولكن لا بُدّ من احترام أهل النهروان أيضًا وعدم النيل منهم، فيجب على المسلمين جميعًا أن يتساعدوا.. حتى تعود للمسلمين وحدتهم، ولا يثيروا ما يشتت شمل الأمة من القول في أحداث وقعت قبل أربعة عشر قرنًا هُم في ألف غِنًى عن إثارتها في هذا العصر الذي هُم فيه أحوج ما يكونون إلى ما يجمع الشمل ويؤلّف بين القلوب وتلك دماء طهّر الله منها أسنّتنا ونرجوونحرص أن نطهر منها ألسنتنا" [1].

---

1 – م. صص177–186

1 – الخليلي : لقاءات في الفكر والدعوة ص130

وقد نصّص صاحب "المسلك المحمود" على موقف التهدئة وإخماد أوار الفتنة بالقوْل :"اعتقادنا في الصحابة رضي الله عنهم أنهم عُدُول أتقياء، برَرة أصفياء، قد اختارهم الله من بين الأنام، لصحبة نبيّه عليه الصلاة والسلام، جعلنا الله في رياض هُداهُم راتعين، وأماتَنا على منهاجهم موفّقين لا مبدّلين ولا مغيّرين...ونُمسك عمّا وقع بينهم لأنهم كلّهم مجتهدون رضي الله عنهم"[1]. كما يستنكرُ اتهامَ الإباضية بتكفير عليّ، مستدلاً على بطلان ذلك بمقاطع من كتبهم تُثني عليه وترْوي عنه [2].

ولكنّ السؤال : كيف نفهَم ما وَرَد في "تيسير التفسير" لأطفّيش، تعقيبًا على تفسير:"...وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ"(المائدة،44/5) : " وفي الآية تكفيرُ مَن أجاز تحكيم الحكميْن فيما جاء فيه حكمُ اللهِ تكفيرًا غير شرك."3 ، ألا يكون عليّ بن أبي طالب ومَن معه من الصّحابة كفّارًا بهذا المعنى؟! [4].

وكيف نفهم قول أطفيّش:" وحبّ الصحابة كالمطبوع في القلوب، والله أعلمُ بما يُصيبني إذا تذكرتُ قوله(ص) للملائكة :أصحابي أصحابي، إذا جرّوا بعضًا من الصحابة، وقوْلُهم : ما تدري ما أحدثوا بعدَك؟، وقوْله(ص):فسحقًا سحقًا ، والله ما ندري مَن المراد في الحديث "[1]

---

1 – م. ص148 / معمّر : م.س. صص355–370

2 – م. صص148–172

3 ـ أطفيّش :تيسير التفسير ج 4 ص 45.

4 – وقد سكت ابن سلاّم الإباضيّ(ت. بعد273هـ/887م) عن عثمان وعليّ في معرض فضائل الصحابة، واعتبر أن الإسلام هودين الله ورسوله وأبي بكر وعمر فقط . انظر: بدْء الإسلام وشرائع الدين صص 69–73

وكذلك فعل البرّادي :الجواهر المنتقاة صص166–174

ولكن لا نغفل أن الإباضية يذكرون أنهم وإن أنكروا على عليّ التحكيم فإنهم لا يسبّونه، وأبوعبيدة مسلم هوالذي طلب من عمر بن عبد العزيز(ت101هـ/720م) إيقاف لعن عليّ على المنابر، وأيمة الدولة الرستمية استعملوا خطَب عليّ. الجواهر المنتقاة ص220 هـ1

1 –أطفيّش: م.س.ج14ص454

ثمّ لا نغفل عمّا أوْرده ابن بطّوطة(ت779هـ/1377) عن سكّان جبل نزوة أونزوى[1]، إذ يقول: "هُم إباضيّة المذهب، ويصلون الجمعة ظهرًا أربعًا. فإذا فرغوا منه قرأ الإمام آيات من القرآن، ونثر كلامًا شبه الخطبة، يُرضّي فيه عن أبي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي. وهُم إذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنّوا عنه، فقالوا :ذُكِر عن الرجل، أوقال الرجل، ويُرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه : العبد الصالح قامع الفتنة"[2].

ومن الجدير بالذكر أن إباضية جربة قد عانوْا من موقفهم القديم في معاداة بعض الصحابة، فقد نقل ابن تعاريت من رسائل الحيلاتي ما يلي: "هيّج بعضُ طلاّب الغنائم والأموال بعضَ الأعراب على جربة وأعمالها، أن أهل جربة، بما أنهم إباضيّة، يُخالفون المسلمين في أمور تحلّ بها دماؤهم وأموالُهم، ثمّ كوّن منهم حملةً هجَم بها على الجزيرة الغافلة، ولكن الحمْلة فشلت، وانتصر أهل الجزيرة على المهاجمين، وأخذوا منهم جمْعًا من الأسرى، وكان في أولئك الأسرى بعض المتفيْقهين، فسألهم مشايخ جربة عمّا حملهم على الاعتداء عليهم ومهاجمتهم وهُمْ إخوة لهم في الدّين، ولمْ يسبق لأهل جربة أن اعتدوْا على أولئك الأعراب أوأساؤوا، فأجاب المتفيْقِه قائلاً :"إنّ مَن دعانا إلى محاربتكم واستحلال دمائكم وأموالكم ذكَر لنا أنكم تخالفون المسلمين، ثُمّ عدّد لهم المسائل التي ذكرها لهم صاحبهم، فذكر منها بعض مسائل علم الكلام المعروفة كالرؤية والصفات وخلْق القرآن، ثُمّ قال : ومنها أنكم تكرهون بعض الصحابة"[1].

---

1 – تُصدر مؤسسة عُمَان للصحافة والنشر والإعلان منذ1414هـ/1994 مجلة فصلية ثقافية اسمها :"نزوى" انظر موقع: www.nizwa.com

وفي معجم البلدان :" نزوة جبل بعُمان وليس بالساحل عنده عدة قرى كبار يُسمّى مجموعها بهذا الاسم. فيه قوم من العرب كالمعتكفين عليها وهُم خوارج إباضية.." مج5ص281

2 –رحلة ابن بطوطة ص279

وراجع رواية في البراءة من عليّ وولاية ابن ملجم :البرّادي :الجواهر المنتقاة صص163–165

1 – معمر : م.س. صص364–365

كما أن سعيد الجادوي(ق12هـ/18) قد وجّه رسالة إلى سلطان مراكش الذي أصدر قرارًا يمنع بمقتضاه تجّار جربة من تعاطي التجارة في البلدان التي يحكمها، بعد بلوغه طعْنهم في الشيْخيْن، فيقول الجادوي: "أتى إلى سيادتك نمّام، ونسب إلينا ما لا ينسب إلى مُسْلم،...مِن بغض الشيخيْن أبي بكر وعمر وغيرهما...فوالله العظيم ونبيّه الكريم ما هذه إلا فرية عظيمة. وأما نحن فنقول فيهما سيّدَا أهل الجنة لما ثبت عن النبي(ص) أنه قال: أبوبكر وعمر سيّدَا كهول أهل الجنة....هذه أحاديث تدلّ على أفضليّة الشيخيْن. وإنما أوردْناها لنعلم من قال فينا خلاف معتقَدنا فيهما"[1].

ومن المؤكّد أنّ سعيد ابن تعاريت لا ينفي أنّ شيْخه أطّفيّش قدْ أظهر أدبًا جمًا مع الصهْريْن في "تيْسير التفسير" بدّل فيه ما أبداه من سخط عليْهما وشتْم لهما في تفسيره "هِمْيان الزّاد إلى دار المعاد" حيث قال فيه، عند تفسير: "وعَد اللهُ الذين آمَنوا مِنكُم وعمِلوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرْض كما استخْلَفَ الذينَ مِن قبْلِهِمْ.."(النور،55/24) : " قال المخالفون عن الضّحاك: إنّ الّذين آمنوا هُم: أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ وإنّ استخلافهم: إمامتُهم العظمى، وسيأتي ما يدلّ على بطلان دخول عثمان وعليّ في ذلك... وفي أيّام أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبعدهم كانت الفتوح العظيمة وتمكين الدّين لأهله لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان وعليّ فإنّهما وإن كانت خلافتهما برضى الصّحابة لكن ما مَاتَا إلا وقد بَدّلاَ وغيّرَا فسُحقًا... كما في أحاديث عنه (ص) أنّهُما مَفتونان...أقول والله أعلم بغيْبه ـ إنّ أوّل مَن كفر بتلك النّعمة وجحد حقّها عثمانُ بن عفّان...جعله المسلمون على أنفسهم وأموالهم فخانَهُم في كلّ ذلك."[2]

وممّا ورد في "همِيان الزّاد" : "ولم يصحّ عندنا معشر الإباضيّة روايةُ أنّه لمّا نزلتْ: قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...(الشّورى،23/42) قيل مَن قرابتُك الّذي تجِبُ علينا مودّتُهُم؟ فقال: عليّ وفاطمة وابناهُما..."[1]

---

1 – الجعبيري : البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ص77

2 ـ أطّفيّش : همِيان الزّاد: ج 10 ص ص 282 ـ 283.

1ـ م. س. ج 12 ص 227.

ويمكن القول إنّ هذا التّحوّل في موقف أطفيّش من الخليفتيْن الثّالث والرابع هوذاته الّذي ميّز الموقف الإباضيّ مُذْ عصر الكتمان، وتعدُّد الهجومات عليهم،1 . وقد عاش هذا الشّيخ وفي نفسه شيء من العُتبَى على بعض الصّحابة ومنهم عليّ ومعاوية، مُبيّنًا أنّ قتال عليّ الخوارجَ، والإباضيّة منهم،2 خطأٌ ندِم عليه فيما بعْد، ورُوِيَ أنه تابَ منه ولمْ يعْتنِ الناس بتوبته لأنه لمْ يُشْهِرْها ولمْ تُتَيَقّن عنه. 3

ونقْرأ لأبي القاسم البرّادي مايلي :

/"فلمّا رأى المسلمون جوْر عثمان وعتوّه عن الحقّ واستئثاره بالفيْء، وضربَه الأخيار من أصحاب رسول الله (ص)، وأخذه الأموالَ، ومنْعَه أصحاب محمّد الأعطية، وتعطيله الحدود، واستحْلاله الحرام، واستذلاله الناس، وما عمّهم به من البلاء، وما ركبهم من الظلم، فساروا إليه من كلّ أُفق ليستتيبوه أوليعزلوه أويقتلوه...."[4]

/"ومن كتاب العدْل والإنصاف:اختلف الناس في عثمان بن عفّان على أربعة أقوال،أحدها قول عبدالله بن مسعود وأبي ذرّ وعمّار بن ياسر رحمهم الله قالوا:إن الخليفة عثمان بن عفّان بعد عمر بن الخطاب، فأحدث أحداثا، خالف فيها سبيل صاحبيه، وإنهم طلبوه أن يعْدل أويعتزل فأبى وبغى وظلم واستعتبوه ستّ سنين فلمْ يعتبهم، وإن دمه حلال لهم لبغيه وظلمه لقول الله عز وجلّ:فإنْ بَغَتْ إحْداهُما على الأخْرى فقاتِلوا التي تبْغِي حتى تفيءَ إلى أمْر اللهِ..فسمّوْه جائرًا جبّارًا وكافرًا وفاسقًا وظالِمًا، كفر النعمة لقول الله عز وجلّ:وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا منكم وعمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتخْلِفنَّهُمْ في الأرْض كما استَخْلَف الذين مِن قَبْلِهم ولَيُمَكّنَنَّ لهُم دينَهُم الذي ارتَضى لهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُمَ مِن بعْد خوْفِهِم أمْنًا يعْبُدُونَني لا يُشْركون بي شيْئًا ومَن كَفَر بعْد ذلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقون. وحَكَم عليه ابن مسعود بالكفر في قوْله:وددتُ أنا وعثمان برمل

1ـراجع :كوبرلي: م.س.صص14–15/الجعبيري: م. س. صص71 ـ 73

2ـ ولاء أطفيّش للخوارج كان أبرز في تفسيره "هيمان الزّاد" انظر مثلا ج 10 ص 180.

3 ـ تيسير التفسير ج 13 ص 424.

4 –البرّادي : الجواهر المنتقاة ص95

عالج يُحثي عليَّ وأحثي عليه حتى يموت الأعجل. قالوا إذًا يغْلِبُك.قال: لا يعين اللهُ الكافرَ على مؤمن. وقول عمار بن ياسر للذي استغفر لعثمان فحثاه بالتراب، فقال: أتستغْفر له يا كافر، وإن جميع من قام بطلب دم عثمان فهومثله ضالٌّ فاسقٌ كافرٌ أهلٌ للعداوة، بدليل قولهم: يا عدواللهِ، وهُم أهلُ براءة، وسمّوا جميع الناس ممن انتصر لعثمان فهومثله عند جميع من ذكرنا حلّتْ دماؤهم وقتْلهم ببغيهم...فالأوّلون المحققون وهم طائفة عمّار بن ياسر وابن مسعود..."[1]

/"كتاب عبدالله بن إباض إلى عبدالملك بن مروان :....وكان عثمان أوّل من منع مساجد الله أن يُقصّ فيها كتاب الله، ومما نقمنا عليه وفارقناه..كان خيار هذه الأمّة قد طردهم ونفاهم..ومما نقمنا عليه أنه أمّر أخاه الوليد بن عقبة على الناس فكان يلعب بالسحر ويصلي بالناس سكران فاسق في دين الله،وإنما أمّره من أجْل قرابته. ومما نقمنا عليه جعْل المال دُولة بين الأغنياء..وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيْه...فهذا وأمثاله من خبر عثمان هوالذي فارقه عليه المؤمنون وفارقناه وطعنوا عليه فيه وطعنّا نحن اليوم فيه. وذكرت كوْنه مع رسول الله (ص) فقد كان علي بن أبي طالب أقرب قرابة إلى رسول الله وأعظم خلّة وأقدم هجرة وأسبق إسلامًا وأنت تشهد له بذلك وأنا بعد ذلك. فكيف كانت قرابته وخلّته هل كانت نجاة إذا ترك الحق أمْ هلاكًا؟ واعلم أن علامة كفر هذه الأمّة إذا تركوا الحُكْم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله..."[2].

فلا يُمكن، بعْد كلّ هذا، أن يُقنِع ابن تعاريت، ثمّ معمّر الإباضيّ الليبيّ بأنّ نسبة الإباضيّة إلى سبّ بعض الصحابة فِرْيةٌ أوإشاعة [1].

ب- حقيقة المذاهب المشهورة

لقد فهم سعيد ابن تعاريت أنّ مفتي طرابلس، ولئن لمْ يعُدَّ الإباضية من "الفرق الضالّة المنصوص على ضلالتهم كالقدريّة والمرجئة "[2]، فإنه أخرجهم

---

1 – الجواهر المنتقاة م.س. صص107–109

2 – الجواهر المنتقاة صص177–181

1 –معمّر : م.س. ص364

من دائرة الشريعة المحمّديّة، لأنهم لمْ يكونوا من المذاهب الأربعة المشهورة، وإن كان مذهبهم، كما ينعته ابن تعاريت، "موافقًا للحقّ ومؤيَّدًا ببراهين الصدق"[2].

وردًّا على هذا التعصّب، سعى ابن تعاريت إلى تجميع نُقول أيمة هذه المذاهب وأتباعهم، ليُثبت مايلي :

•حصْر الشريعة في أربعة مذاهب لا دليل عليه، وهومجرّد عناد

•المذاهب أكثر من ذلك، وأتباع الأربعة يصوّبون كثيرًا منها

•شروط الاجتهاد تتوفر في غير أيمة الأربعة، ولمْ يبيّن أتباع هؤلاء خلاف ذلك

•لا يُعرَف الحق بالرجال، بل الرجال يُعرفون بالحق

•ليس من الواجب الدينيّ اتباع الأربعة دون سواها

•أيمة الأربعة نهوْا عن تقليدهم فخالفهم مقلّدوهم، فقلدوهم رغم وقوفهم أحيانًا على ضعف أقوالهم ومخالفتها ظواهر القرآن والسنّة ، فيتحيّلون بالتأويل البعيد الباطل، و

•الأوْلى أن يُقَلَّد الصحابة

•لا يمكن أن يكون أيمة هذه المذاهب قد أحاطوا بالشريعة، لأن الإجماع حاصل على أن البشر ليس في طاقتهم ذلك إجمالاً وتفصيلاً

•بناء عليه، لا يجوز لهؤلاء الإنكار على مجتهد مخالف، أوتخطئته

•يجب على كل مقلّد أن لا يعترض على قول مجتهد خفّف أوشدّد، ما لمْ يخرج عن قواعد الدين

•يجب أن يأخذ المُقلِّد العلمَ من حيث أخذ المُقلَّد، لا أن يقلّده

---

1 –م. ص269

2 – م. ص269

• اختلاف العلماء رحمةٌ من الله على هذه الأمّة، فكلّ يتبع ما صحّ دليله عنده، وكلٌّ على هُدى، وكلٌّ يريد الله، والمذاهب كلها مسالك إلى الجنة، وطرق إلى الخيرات

• أيمة المذاهب بشر يخطئون ويصيبون، فكل ما وافق الكتاب والسنّة يُؤْخذ به، وما خالفهما يُترَك

• كثير من أساطين العلماء خالفوا أهل مذهبهم[1]

وقد أبطل صاحب"المسلك المحمود في معرفة الردود" القول بأن الاجتهاد مقصور على الأيمة الأربعة ومحصور فيهم. ويستدلّ في ذلك بمعاصره الليبيّ المهدي السنوسي(ت1320هـ/1902)، الذي عدّه من علماء العصر، وذكر أنه دوّن مذهبًا مغايرًا للمذاهب الأربعة، واتبعه بعض من أهالي ولاية طرابلس الغرب، وكثير من أهالي القسم الشرقي من الصحراء الكبرى، ورجعوا إلى مذهبه بعد أن كانوا على مذهب الإمام مالك [2].

كما أبطل حديثًا يعتمده المالكيّة لتزكية مؤسس مذهبهم، وهو:"يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالِمًا أَعْلَمَ من عالِم المدينة" [3]، فاعتبره من انتحال أتباع مالك بن أنس، بدليل أنّ في سنده بلفظ آخر القرشيّ أبا البختري وهب بن وهب القرشيّ(ت200هـ/815م) المتهم بوضع أحاديث، ونعته ابن حنبل(ت241هـ/855م) بأنه أكذب الناس.

وعلى احتمال صحّته، كما يرى ابن تعاريت، ليس فيه دليل على أنه مالك، بل الأوْلى أن يكون ابن عبّاس (ت68هـ/687م) أو ابن عمر (ت73هـ/693م)[1].

1-م. صص269-279

2 – م. ص428

3 – بوعجيلة : قضايا الحديث النبويّ في فكر محمد الطاهر ابن عاشور صص33-34، وهو عنده صحيح بلا ريب

1 –م. صص295-296 / وراجع عن وهب : الزركلي : م.س. ج8 ص126

ويقيم الحُجة على أتباع المذاهب الأربعة بما ذهب إليه أحدهم، وهو القاضي عياض(ت544هـ/1149م) المالكيّ، بأن كلّ واحد من أيمة هذه المذاهب ناقصُ ركن في كمال العلْم الدينيّ، وهوما يعوق عن بلوغ درجة الاجتهاد العالية [1].

كما لمْ يُفوّت المصنّف إيراد ما رُوِي في عداء مالك لأبي حنيفة، ونقْل سخط القاضي عياض على أبي حنيفةَ ومذهبه ، وقدحه في مذهبيْ الشافعي وابن حنبل [2].

وقد عاتب المفتيَ على عدّ داوود الظاهري(ت270هـ/884م) من الأيمة المتبوعين وتصويبه، والحال أنه، وإن كان "جبلاً من جبال العلم"، لا يقول بالقياس الذي هوأحد أركان الاجتهاد، ويسأل: فبماذا يكون اجتهاده وعلى ماذا فيما لا نص فيه يكون اعتماده؟ [3]

من جهة أخرى، توسّع ابن تعاريت في الاستدلال على أن هذه المذاهب الأربعة لمْ تخالف في الأصول الاعتقادية، غيرَها، فقط ، بل ختلفت هي نفسها فيما بينها في ذلك.

فقد استدلّ المؤلف بقولة الفقيه المالكيّ التونسي إسماعيل التميمي(ت1248هـ/1832) في التعليق على حديث الفرَق [1] : "الذي عليه

---

1 – م. صص426–427

2 – م. صص298–302

3 – م. ص272 /ص426

1 – نصّه في مسند الربيع بن حبيب : "ستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلُّهُنّ إلى النار ما خلا واحدة ناجية، وكلُّهُم يدّعي تلك الواحدة " ح41 باب: في الأمّة أمة محمد(ص) ص17

وقد اعتبر أطفيّش أنّ في هذه الرواية زيادة شاذّة؛ وأوْرد روايات قريبة مما رواه الترمذي وابن ماجه

تيسير التفسير ج4صص530–531 / ج7صص56–57

موسوعة الحديث الشريف، الترمذي ح2640 ص1918 / ابن ماجه أحاديث3991–3993 ص2717

وراجع :

المحققون أن الحديث يعمّ ويتناول كل جماعة تميزت ببدعة سواءٌ تعلقت بدعتها بأصول الدين أوبفروعه، إذ لا تختص البدعة بالعقائد، بل كما تكون فيها تكون في الفروع،لأن أصل الابتداع زيغ القلوب واتباعها للمتشابه، وقد تقدم أن المتشابه يجري في الأصول والفروع، فإذا كانت البدعة تكون في هذا وفي هذا وجَب أن تدخل فرقها مطلقًا في الحديث لعدم ما يدل على التقييد بل فيه ما يدل على الإطلاق، وإن الفرعية داخلة"[1]، ليُثبت أن المذاهب الأربعة فرَق متعدّدة متباينة لا فرقة واحدة، كما صرح كثير من علماء تلك المذاهب، ومن قال خلاف ذلك فهومكابر متعسّف، في نظره.

ونلخّص ما نقله ابن تعاريت من التصنيفات الواردة في بعض كتب أتباع المذاهب الأربعة :

- غالب الحنفيّة ماتريديّة
- الغالب في الحنفية معتزلة
- أبوحنيفة من المرجئة

البغدادي : الفرق بين الفرق صص299–354

ابن قيم الجوزية : الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

الإسفرايني :التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين

علي معمّر ؛ الإباضيّة في موكب التاريخ صص42–45

ومن الذين عدّوا الأحاديث في هذا الموضوع منتحَلة، محمود إسماعيل الذي يقول :"...نخلص من ذلك إلى الإلحاح على حقيقة استبعاد الكفر والإيمان في الحكم على هذه الفرق والانطلاق في فهمها من منطلقات دنيوية بحتة، تأسيسًا على أنها جميعا فرق موحّدة وهوأمر يكفل إمكانية التوصل بعد الحوار إلى ثوابت عامة وقواسم مشتركة خصوصا فيما يتعلق بالأصول أما الخلاف حول الفروع فهوأمر مشروع يدخل في إطار التنوّع والتعدّدية وهوفي حد ذاته إثراء للفقه الإسلامي الذي أسهمت جل الفرق في تأسيسه وتطويره ".

انظر كتابه : التراث وقضايا العصر صص239–253

حسن السقاف :تنبيه الحذّاق إلى بطلان حديث الافتراق على الموقع : www.ghrib.net

والردّ عليه : دفع الاختلاق عن حديث الافتراق على الموقع : www.muslm.org

1 – المصدر صص282–283

- جمهور المالكية أشعرية
- الغالب في المالكية قدَريّة
- غالب الشافعية أشاعرة
- جمهور الحنبلية أثريّة
- الغالب في الحنبلية حشويّة
- الحنابلة أصحاب الظاهر
- أحمد بن حنبل من الحشويّة
- لا تصحّ الصلاة خلف شافعيّ يقول: إلاهي ما عرفناك حق معرفتك، أويقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، أويقول: العمل من الإيمان، أويقول: الإيمان يزيد وينقص
- لا تصحّ الصلاة وراء المالكية والشافعية الذين يقولون : الإيمان مخلوق
- الأشعريّ كافر ودمُه مباح
- الغزالي(ت505هـ/1111م) كافر
- الماوْردي(ت450هـ/1058م) الفقيه الشافعي اعتُبر من فضلاء المعتزلة
- عداوة المالكية لابن تيمية الحنبليّ [1]

ويتتبع ابن تعاريت المسائل الأصولية المختلف فيها بين المذاهب الأربعة، في دقة لافتة وإسهاب وافٍ [2]، ونُجملها في الجدول التالي :

---

1 – م. صص282–297

2 – راجع م. صص304–424

المسألة	المذهب	الآراء
وجوب الإيمان	الأشعريّة والشافعيّة	واجب شرعاً
	الشافعية العراقية والحنفية أي الماتريديّة لأن جمهور الحنفية ماتريديّة	واجب عقلا
نوْع الإيمان	الأشاعرة وبعض الحنفيّة	مخلوق
	جمهور الحنفيّة	غير مخلوق
أفعال الله	الأشاعرة	لا توصَف بالقُبْح ولو فعل الله القبيح لا يوصف به
	الحنفية	الله لا يفعل القبيح ولو فعل لكان قبيحًا، فلا يجوز عقلاً تعذيب المطيع وإثابة العاصي
زيادة الإيمان ونقصانه	الأشاعرة والشافعي	الإيمان يزيد وينقص
	الحنفيّة والجويْني (ت478ه/1085م)	الإيمان لا يزيد ولا ينقص
إيمان المقلّد	جمهور الحنفيّة ومالك والشافعي وابن حنبل	يصحّ إيمان المقلّد
	بعض الأشاعرة	يصحّ إيمان مَن قلّد

		القرآن والسنّة القطعيّة
الخاتمة	الأشعريّ	العبرة في الإيمان بالخاتمة
	الحنفية	العبرة في الإيمان بالحال لا الخاتمة
الارتداد	الشافعيّ ومن تبعه من الأشاعرة	يعود العمل بالتوبة بعد الإحباط بالارتداد
	الحنفية	لا يعود
توبة الموحّد الفاسق الآيس	الأشاعرة	لا تُقْبل كإيمان الآيس
	الحنفيّة	تُقْبَل
خُلْف الوعيد	الحنفيّة	يمتنع تخلّف الوعيد كامتناع تخلّف الوعْد
	الأشاعرة	العقاب عدْل أوْعد به العاصي، وله أن يعفوعنه، لأن الخُلف في الوعيد لا يُعَدّ نقصًا
القدرة	الحنفيّة	تصلُح للضدّيْن
	الأشاعرة	لكل واحد من الضديْن قدرة على حِدة
		إثباتها لله حقًّا لكنها معلومة بأصلها،

المتشابهات (الوجه، اليد..)	الحنفيّة	مجهولة بوصفها
	الأشاعرة ومالك	هي مجازات عن معان ظاهرة
	ابن حنبل	تأويل بعضها فقط
صفات الأفعال (الخالقيّة، الرازقيّة، الإحياء، التكوين،....)	الحنفيّة	صفات قديمة
	الأشاعرة	حادثة
صفتا السمع والبصر	الأشعريّ ومن وافقه	صفتان متعلقتان بكل موجود
	الحنفيّة	تتعلق صفة السمع بما يصحّ أن يكون مسموعًا، وصفة البصر بما يصحّ أن يكون مُبْصَرًا، وتتعلقان بالموجودات
الوجود	الحنفيّة والأشعريّ	ليس زائدًا على ذات الله
	مشائخ الأشاعرة	زائدة
البقاء	الحنفية والباقلاني (ت402هـ/1013م) والجوينْي والفخر الرازي (ت606هـ/1210م)	هوالوجود المستمرّ

	الأشعريّ ومن تابعه	هوصفة وجودية زائدة على الوجود
كلام الله	الأشعريّ وابن كُلاّب(ت245هـ/860م)	هوصفة واحدة قائمة بذاته تعالى وهوزائد على الذات
	الأشعريّ وبعض المتأخرين	يجوز سماع الكلام النفسيّ القديم ن وهوما سمعه موسى
	بعض الأشاعرة	القائم بذات الله اللفظ والمعنى وليس بمترتب الأجزاء حتى يلزم الحدوث
	بعض الأشاعرة	المسموع من أصوات القرآن والنغمات هو كلامه تعالى
	الجمهور	اللهُ لمْ يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهويتكلم به بصوت يُسمع ونوع الكلام قديم وإن لمْ يكن الصوت المُعيَّن قديمًا
	الماتريدي(ت333هـ/944م)	كلام الله يتضمّن معنى قائمًا بذاته هوما خلقه في غيره

	طائفة من أهل الحديث والكلام	هوحروف وأصوات أزليّة مجتمعة في الأزل
	الحنابلة ومنهم ابن تيمية	هوحروف وأصوات تقوم بذاته تعالى وأنه قديم
رؤية الله الكيفيّة	الأكثرون	تكون بخصوص العيْن
	آخرون	بكل جزء من أجزاء البدن
	آخرون	بخصوص أجزاء الوجه
	الشعراني(ت973هـ/1565) وأبوحنيفة وحماد بن أسامة الكوفي (ت201هـ/817)	بالقلْب
.....	الغزالي	نفي الرؤية المعتادة
الرائي	الأشعريّ والبيهقي(ت458هـ/1066م) وابن قيّم (751هـ/1350م)	مؤمنو البشر والملائكة
	ابن عبدالسلام الشافعيّ (ت660هـ/1262م)	لا تراه الملائكة
	بعضهم	مؤمنوالبشر فقط مع الاختلاف في:

		٥مساواة النساء للرجال ٥ الرجال دون النساء
المرئيّ	السيوطي(ت911هـ/1505)	الجنّ يروْنه في الموقف مع سائر الخلق
	الجمهور	كما يصح رؤية ذاته يصح رؤية صفاته لاقتضاء الوجود صحة رؤية كل موجود
	الأشعريّ والباقلانيّ والإسفرايني(ت406هـ/ 1016م)	يجوز أن تدرَك ذات الله بحاسّة الشمّ والذوق واللمس
الوقت	بعضهم	في جميع الأوقات للرجال والنساء
	السيوطي	النساء لا يريْنه إلا في الأعياد خاصّة، باستثناء أزواج الأنبياء وبناتهم وسائر الصديقات فيريْنه في غير الأعياد أيضًا خصوصيّة لهنّ
المحلّ	الجمهور والأشعريّ في أحد قوْليْه	تقع في الجنة ولا تقع في الدنيا ولولنبيّ

الحالة		
.....	البعض	وقعت في الدنيا للنبي(ص) خاصة
	الأشعريّ في القول الثاني	وقعت في الدنيا للرسولين موسى ومحمد عليهما السلام
	أكثر مثبتيها في الدنيا	تجوز في المنام من غير كيفيّة وجهة
	الباقون	لا تجوز في المنام

لقد رجع ابن تعاريت في رصد هذه الاختلافات إلى ما يقارب مائة وثلاثة وتسعين إمامًا وعالِمًا من أهل السنّة والمعتزلة والشيعة والمتصوّفة، فاستدلّ بكم غزير من مؤلّفاتهم، وجمع مادة كلاميّة وأصوليّة هائلة تدلّ على سعة إلمامه واطلاعه، وقدرته على الحِجاج في نسخته القديمة [1].

كلّ ذلك ليؤكّد على ما يلي :

-المذاهب الأربعة فرَقٌ متباينة ولا يؤولون إلى فرْقة واحدة

-الاختلاف بين الأربعة في معظم المسائل الاعتقادية كالاختلاف فيها بين سائر الأمّة

-الاختلاف فيها واقع بين علماء كلّ واحد من المذاهب الأربعة

---

1 – سنعرض في آخر هذا القسم بيبليوغرافيا (4) ؛ نعْرض فيها نصيبا من عناوين المخطوطات غير الإباضية في المكتبة البارونيّة. وهي تؤكّد اهتمام إباضية جربة بمصنّفات المخالفين

-أتباع المذاهب يسْكتون عن الاختلاف الواقع فيما بينهم، ويستعظمونه وينكرونه حينما يكون هونفسه بينهم وبين مخالفيهم

-قول الإباضية في كثير من المسائل الأصولية والفروعية لا يخرج عن قول أحد أيمة هذه المذاهب.

-عرْض حجج الإباضية على عقيدتهم

-تعصّب المفتي ومَن وافقه[1]

ولقد ظهر لنا عرض ابن تعاريت للاختلافات بل المشاحنات بين أصحاب المذاهب الأربعة، مُهمًّا وذا فائدة منهجيّة، فكريّة، تاريخيّة،، على خلاف ما ذهب إليه محققًا كتاب "المسلك المحمود"[1] فسعيد ابن تعاريت كتب تأليفه ردًّا على فتوى تداخل فيها:

- الاختصار المخلّ
- الخلْط
- التعميم والإجمال
- انعدام التدقيق
- الوصْمُ

وكلّ هذه النواقص من الخطورة بمكان، حيث تُوَجّه هذه الإجابة إلى العوامّ، وكمْ في ذلك من التحريض على الإباضيّة، بقصْد أوبغيْر قصْد.

---

1 – م. صص425–437 / وراجع استعراضًا آخر منْ الخليلي يقول في أوّله :" وإذا قارنا بين موقف الإباضية من سائر المذاهب الإسلامية ومواقف تلك المذاهب بعضها من بعض، وجدنا من المرونة والتسامح من الإباضية في حق تلك المذاهب ما لا نجده من بعضها لبعض، وإن اجتمعت مجموعة منها تحت شعار واحد، كالمذاهب التي تنتمي إلى أهل السنّة والجماعة " لقاءات صص142–161

1 – ورد في الهامش :"تردّدنا بين نشر هذه الصفحات وحذفها لكن الأمانة العلمية تقتضي إبقاء النص على ماهوعليه على مسؤولية المؤلف وهويكتب لعصره. كنا وددْنا لوأن التعاريتي لمْ يكتف بإيراد المشاحنات بين أتباع المذاهب الأربعة وأضاف إليها ما بين أيمة هذه المذاهب من معاني المودة والإخاء" . م. ص280

ومما يُذكر هاهنا أن إجابة المفتي انتشرت، وكان عليها ردٌّ فعْل عنيف، وكُتِبت عليها كثير من الردود،ومنها إلى جانب ردّ ابن تعاريت، رُدّ قطب الأيمة أطفيّش، الذي عرضناه سابقًا.

فكان من المنهجيّة العلميّة في نظرنا أن يُفصّل ابن تعاريت فيما ورَد حتى تظهر جذور عقيدة أصحابه ومواردها الموغلة في أعماق تراث الأمة الإسلامية، وحتى يعلم مخالفهم من أهل المذاهب الأربعة أن مقالات الإباضية تكاد لا تخرج عن اختلافات أصوليّي "السنّة" ومتكلميها وفقهائها. فلا ينظر إليها على أنها خلاف يُقابل "الإجماع"غير المتفق حول مفهومه وضوابطه، بل هي جزء من الخلاف الذي يكاد يمحُو"الإجماع".

وحينئذ يكون ابن تعاريت قد دعا المخالفَ إلى أن يراجع مدوّنته الأصولية والفقهيّة حتى ينْأى عن الإنكار والعداء. وهوالصنيع نفسه الذي قام به الإباضي العُماني مُعاصرنا سعيد القنوبي [1]. وكذلك فعل الشمّاخي، من قبلُ، في ردّه على الغدامسي، حيث استعان بمصنفات الماتريديّة والأشاعرة، لتبيين الاختلاف داخل المذاهب الأربعة، والتنبيه إلى أن جلّ ماورد عند الإباضية قال به بعض الأشاعرة أوبعض الماتريدية [2].

إنّ معضلة كثير من المتمذهبين، خاصّتهم وعامّتهم تتلخّص في :

/العلْم المحدود بالاختلاف المذهل صُلْب مذاهبهم التي يتقلّدونها

/محدودية القراءة واضطرابها

/المسارعة بالإنكار على المخالفين

/شعبويّة تصنيف مخالفيهم

/الدغمائيّة الصمّاء

---

1 – راجع كتابه : السيف الحادّ في الردّ على من أخذ بحديث الآحاد، فهوعيّنة قيّمة في هذا الباب.

وقد ردّ عليه السلفيّ الوهّابي عبدالعزيز الراجحي بكتاب : قدوم كتائب الجهاد لغزوأهل الزندقة والإلحاد القائلين بعدم الأخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد.

2 –م. صص78–79

وقد كشف ابن تعاريت ذلك، حينما قال، مخاطبًا المفتي :" فهل عرفتَ ذلك بالاطلاع على كتبهم، أوبمباحثةٍ وقعتْ لك مع علمائهم، أوبلغَك من بعض الأوباش المتشدقين...فإن قلتَ :إني لمْ آتِ بشيْءٍ من عندي، وإنما هوكلام صاحب المواقف[1] نقلتُهُ، قلتُ: إن صاحب المواقف لمْ ينسِب ذلك للوهبيّة المتبعين لهُم أهل الجبل الذين جزمت فيهم بما ذُكِر، ولعلّه أراد فرقة أخرى من الإباضية إذ هُم كثيرون.. فلوتمهلتَ وسالتَ أحد طلبتنا، أوأخذتَ كتابًا من كتُبِنا.. لعرفتَ عقيدتنا. وإذّاك يصحّ الردّ علينا. مع أنه قد تحقق أن صاحب المواقف حكى عن الإمام عبد الله بن إباض خلاف الواقع في أكثر المسائل التي نسبها إليه، كزعمه بأنه يقول :إن العالم يفنى بفناء أهل التكليف، وأن الاستطاعة قبل الفعل، ولعلّ سببه عدم التحرّي في النقل عنه، وهذا دأب كثير من العلماء"[1].

أما العبرة التاريخيّة المستخلصة من عرض ابن تعاريت عيّناتٍ من المشاحنات بين أصحاب المذاهب "السّنّيّة"، فتكمن في التنبيه على أنّ الهجومات والهجومات المضادة، وحملات السّباب، بل الاعتداءات اللفظية والجسديّة المتبادلة، بين المتخالفين في العقيدة والفقه، والتي تتواصل إلى اليوم، لها نظائرها من قبْل في التاريخ القديم. ولكن، هلْ فعلتْ شيْئًا؟؟ ، فضْلاً عن الاستدلالات والاستدلالات المضادّة؟؟ ..

كلاّ، إنها لمْ تُحلْحِل أيًّا من المتنازعيْن عن عقيدته ومذهبه، بل تمادى كلّ منهما على طريقته، معتقدًا فيها الصواب والهُدى،وعلى قدْر الأذى الذي لحقه،ازداد إصرارًا وتشبّثًا.

---

1 – هو عضد الدين عبدالرحمان بن أحمد الإيجي(ت756هـ/1355م)، عالم بالأصول والعربيّة، شافعيّ.....، ومن كتبه :المواقف في علم الكلام"، "العقائد العضديّة ، "شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ". الزركلي : الأعلام ج3 ص295

1 – م. صص263–265

ولذلك فإطْلاع أتباع المذاهب على هذه العيّنات من التعصّب المذهبيّ، دافعٌ لهُم، إن كانوا يعقلون، إلى التفكير في الأسلوب الحضاريّ الراقي الذي يحفظ الذات والآخر من الأذى.

3- حتميّة السماحة المذهبيّة ومواكبة العصر

بقدر ما تبيّن من خلال كتاب"المسلك المحمود" ألمُ ابن تعاريت مما سُلّط على الإباضيّة من الطعْن والازدراء والعداوة [1]، كانت لهجة الردّ على المفتي في غاية الأدب والاحترام، استندت إلى المنهج العلميّ والأسلوب الحجاجيّ الهادئ.

يقول المؤلف في هذا السياق :"قصدْنا إظهار الحقّ المبين رغم أنوف المتعصّبين، الذين دأبُهم الطعن في مذهبنا وإضمار العداوة لنا حتى أن بعضهم يُشافه البعض منّا بذلك، ومنهم مَن ينسب إلينا في كتُبه ما ليس هنالك. وما درى ذلك الطاعن أنه يطعن في شريعة نبيّنا الجليل..ظنًّا منه أننا عاجزون عن المدافعة وتحرير المصنّفات، ومستعظمون لما أودع في هاتيك المؤلفات. بل إن لنا ألسنة حدادًا غمدها الأدب المحمّديّ، واجتماعُ كلمة أهل الإيمان..وفحولٌ أجلّة في كلّ آن.."[1].

وإذا كان ابن تعاريت قد تفهّم مقصد المفتي من إجابته وأحسن به الظنّ[2]، فإنه رأى السؤال والجواب بلا معنى ولا فائدة، وكان الأوْلى الإعراض عنهما والاهتمام بما هوأوْلى. بل إنّ ضررهُما أكبر من نفعهما، حيث يدعمان التعصّب المذهبيّ، ويُسعّران نار الكراهية والبغضاء بين متبعي المذاهب " إذْ كلّ أحدٍ مجبولٌ على حبّ دينه أوْمذهبه، ويراه أحسن الأديان أوالمذاهب.."[3].

ومثلما يدافع ابن تعاريت، تصريحًا وتلميحًا، عن حرّيّة التمذهب بأيّ مذهب [4]، فإنه يؤكّد على أن انقسام الأمة الإسلامية إلى طوائف غيرُ مستحْسَن، لأنه يؤدي إلى الاختلاف بين أرباب الدين الواحد فيما ليس من

---

1 – م. ص115

1 – م. صص302–303

2 –م. ص114

3 – م. ص465

4 – م. ص465

المسائل العلمية التي تستوجب دقة النظر في أدلتها حتى أنه يجب على المجتهد العمل بما أدّاه إليه اجتهاده الذي لا يجوّز له تقليد غيره [1]

وهاهنا نفهم أن حرية التمذهب وتعدّد المذاهب واختلاف الأيمة، لا تتعارض مع وحْدة الأمة، ولا تُهدّد كيانها، حسب رأي ابن تعاريت. وهورأيٌ قديم، ولمْ يتجاوزْه المعاصرون، وأيّده المدافعون عنه بجملة من النصوص، حيث رأوْا في الاختلاف رحمة، وفي التنوّع قوّة وعمقًا وحياةً.

فالطاهر ابن عاشور، مثلا، يرى أن تفريق الآراء في التعليلات والتبيينات لا بأس به، وهومن النظر في الدين مثل الاختلاف في أدلّة الصفات، وفي تحقيق معانيها مع الاتفاق على إثباتها. وكذلك تفريق الفروع، كتفريق فروع الفقه بالخلاف بين الفقهاء مع الاتفاق على صفة العمل وعلى مابه صحة الأعمال وفسادها كالاختلاف في حقيقة الفرض والواجب. فكلّ تفريق لا يُكفّر به بعضُ الفرَق بعضًا ولا يُفضي إلى تقاتل وفتَن، فهوتفريق نظر واستدلال وتطلّبِ الحقيقة بقدر الطاقة [1].

وتعبيرًا عن هامش الحرّيّة المذهبيّة الوسيع، ونسبيّة الحقيقة في كلّ المذاهب والعقائد الإسلاميّة، يقول ابن عاشور في جرأة المفكّر العقلانيّ الرصين :" وفيما عدَا ما هومعلوم من الدين بالضرورة من الاعتقادات، فالمسلمُ مخيَّرٌ في اعتقاد ما شاء منه، إلا أنه في مراتب الصواب والخطإ. فلِلمُسلم أن يكون سلفيًّا، أوأشعريًّا، أوماتُريديًّا، أوأن يكون معتزليًّا، أوخارجيًّا، أوزيْديًّا، أوإماميًّا. وقواعد العلوم وصحة المناظرة تُميِّز ما في هذه النحل من مقادير الصواب والخطإ، أوالحق والباطل. ولا نُكفّر أحدًا من أهل القبلة. فإذا كان من بعض النحَل المحدثة ما يستلزم ويجر إلى إبطال معلوم من الدين بالضرورة، فترجع إلى المؤاخذة بلازم الرأي. وتعرف عند الفقهاء بالتفكير باللازم وتلك حالة للنظر فيها مجال وتفصيلها يُستطال"[2].

---

1 – م.ص453

1 –تفسير التحرير والتنوير ج8ص194

2–ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعيّ في الإسلام ص172

إنّ التمذهب الذي يُنذر بالخطر، كما يذهب إلى ذلك سعيد ابن تعاريت، هوالذي يؤدّي إلى "التنازع"، وهومفهوم قرآنيّ [1]، وهوالذي ينشأ بالتعصّب الشديد للرأي،واعتباره مطلقَ الحقيقة،والعمل على إلزام المخالف بالرجوع إليه، مع نفي الرأي الآخر، واعتباره مطلق الضلال، وإلزام صاحبه بالعدول عنه. وقد رافق هذا المنهجَ غير السويّ في الاعتقاد، عبر التاريخ، العُنف والدمار والهرج. وإلى هذا أشار ابن تعاريت حينما قال :" متى تفرّق أبناء الدين الواحد تعِس حالُهُم، وخاب مآلُهُم،وتحكّم عليهم شيطان الشقاق،وانحلّتْ بينهم عرى الوفاق "[1] ويرى أنّ من أسباب ما آلت إليه وضعية المسلمين من الانحطاط والذوبان :

-"المناقشة المذهبيّة التي جعلها السذّج من فواكههم الطيّبة المرضيّة، وما دروْا أن كافة المسلمين أشقاء في الروابط الجامعة الإسلاميّة..مع أنه في الحقيقة لا خلاف بينهم إلا في مسائل جزئية لا تؤثر في تعزيز رابطتهم الدّينيّة "[2]

-"الحميّة المذهبيّة المفضية إلى وقوع الجدال والبغض والتنافر والقتال"[3]

ويلفت الانتباه إلى أنّ الدعوة إلى الوفاق بين المسلمين والنصارى، وهوممكن يسير، أهمّ منها السعْي إلى نبْذ الخلاف بين سائر فرق المسلمين، وذلك "لاشتراكهم في العمل بمقتضى قواعد الدين القويم، واتفاقهم في الإيمان بسيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم"[4].

---

1 – الأنفال(46/8)، وقد رصدَه أطفيّش في حياة الصحابة وفي عصره حيث لمْ يرجع الناس إلى العقيدة الإباضية ، فتأمّل قوله :" والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد فملكهم أهل الشرك، ولورجعوا إلى مذهبنا في الأصول وغضّوا عن مسائل الخلاف كأن لمْ تكن، وكانوا يدًا واحدة لغلبوا على أهل الشرك...وقد كان هذا الخلاف والزلل في زمان الصحابة..." تيسير التفسير ج5صص339–340

1 – م. ص456

2 – م. ص454

3 – م.ص456

4 – م. ص456

وتثمينا منه للجهود المبذولة في التقريب بين المذاهب ولمّ شتات الأمة الإسلامية، أثنى على الدولة العثمانيّة التي جمعت جلّ المماليك الإسلاميّة تحت سلطنتها، وأحسنت معاملة رعاياها على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم[1]، ونشرت "لواء الحرية في اتباع أيّ مذهب كان، وفي اقتفاء الشعائر الخصوصيّة لكلّ فريق من السكان، وأسست قانونًا متكفلا بحفظ شرف كل أمّة، دافعًا عنها سائر المعضلات المدلهمّة، وحاثًّا كافّة الطوائف الإسلاميّة على التعاون والتعاضد بحيْث يكون الجميع كالشخص الواحد عملاً بقول الله تعالى: واعتَصِمُوا بحبْل اللهِ جميعًا"(آل عمران،103/3)، وبقوله(ص): المؤمن للمؤْمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعْضُهُ بعضًا، وقوْله: المسلمون تتكافأُ دماؤُهُم ويقومُ بذمّتِهم أدْناهُم وهُمْ يدٌ على مَن سواهُم، وأسوة بما هوجار منذ أحقاب بالممالك المتمدّنة من عدَم الخوْض في المذاهب والأديان، لما فيه الفوائد الجمّة.."[1]

ويفصح عن إعجابه بمنشور السلطان عبدالمجيد(ت1278هـ/1861) س1272هـ/1855، الذي عرف بـ"التنظيمات الخيريّة" [2]، ووَردَ فيه : "وإنّ كل امرئ له الحرية التامة في دينه ومذهبه، فلا يمنع أحد من رعايا السلطنة عن عبادتِه ولا يُجْبَر على تبديل دينه أومذهبه"[3] .

كما يذكر القانون الأساسيّ الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني (ت1336هـ/1918) معاضدًا للمنشور [4].

ويُردفُه بتعليق ورَد في جريدة الرائد التونسي التي نشرت القانون : " وقد رأينا في جريدة الاتحاد التركية هذا الترتيب فإذا جميع موادّه التي تركّب منها، -وهي مائة مادة وتسع عشرة مادة، منها المادة الحادية عشرة، ونصها

---

1 -م. ص493

1 - م. ص455

2 - انظر: يلماز أزتونا : تاريخ الدولة العثمانية صص7-91

3 - م. صص459-460

4 - م.صص462-464، وانظر :

أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية صص92-199

كتاب محمد حرْب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار

:أن دين الدولة العثمانية هوالإسلام، ومع وقاية هذا الأساس تجري الحرية في جميع الأديان، بشرط التجنّب عن الخلل المؤدّي لتحيير راحة الأمّة والآداب العموميّة، وكذا الامتيازات المذهبية تجري كما كانت سابقا تحت حماية الدولة –، إنما جرتْ على وجه يقتضي تأثيل الدولة العليّة وحفظ سياجها على الوجه الذي لا أظنّ أن عالمًا ينكره البتّة إن كان بحث علم مغازي الأصول الشرعية وفروعها، وتحنّك بمعرفة المصالح الحاليّة، ونظر إلى الأحوال الحاضرة، بل إنا قد رأيْنا القانون في هذا الوقت حافظا للديانة الإسلامية ولدولتها العليّة خلّد الله عزها لا سيما وفيه من تأليف قلوب الرعايا على تباين أجناسهم ومللهم ما لا يخفى على بصير. وهذا مما قد حثّ عليه الشرع القويم بما هومبسوط في دواوين الشريعة "[1].

ولا يمكن أن نغفل عن أن العثمانيّين بشكل عامّ،والحسيْنيّين بشكْل خاصّ، قد وظّفوا على الإباضية ضرائب لمْ تكن تُفرض إلا على غير المسلمين(=أهل السنّة فقط)، وتعاملوا مع الإباضيّين تعاملاً غير متكافئ، سواء لما كانت الضرائب تُجبى في جربة عن طريق أعوان وعائلات هياكل النفوذ المحليّ (آل بن جلود) أوعن طريق أعوان المخزن المختصين في ق12ه/18.واقترنت نوعية الضرائب المفروضة على إباضية جربة بحقّ الملكية السامية للأتراك على أرض الجزيرة، فاعتُبرتْ أرضًا خراجية، واكتسى تعامل هؤلاء مع أولئك صبغة ثابتة تمثلت في اعتبار مجموعتيْ :الوهبيّة، ومستاوة مخالفين دينيًّا، ومعارضين سياسيًّا. فكانت نيّة السلطنة من وراء سياستها مع إباضية جربة هي إخضاعهم لسلطتها وبسط نفوذها عليهم[1].

كما أن سلطة الباب العالي تعاملت مع أهل جربة بطريقتيْن : الأولى مع المقيمين منهم في الجزيرة،وفق سياسة ثابتة امتدت إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية في تونس، وتمثلت في اعتبارهم خوارج. أما الثانية فمع الجرابة

---

1 – م. ص464

1 – المريمي :إباضية جزيرة جربة م.س. صص189–190

"الشتات" خارج البلاد، حيث اعتبرتهم رعايا عثمانيّين لا فرق بينهم وبين غيرهم من الرعايا المقيمين خارج بلدانهم [1].

وكانت المناورة المذهبيّة إحدى وسائل السلطة التركيّة لإخضاع الإباضيّين، يقول المريمي : "واصطدم الأتراك العثمانيّون منذ القرن16 بهياكل النفوذ المحليّ للمجموعات الإباضيّة في جزيرة جربة ن فاتخذوا من المذهب المالكيّ هناك أداة من أدوات تثبيط سلطتهم، وتشبّث الإباضيّة في المقابل بمذهبهم المنتسبين إليه منذ العهد الحفصيّ وقبْله، واتخذوا منه أداة من أدوات تدعيم النفوذ المحليّ، فاختلف تعامل الأتراك مع الفئات الاجتماعية ذات المذاهب الدينية والمذهبيّة المتباينة الموجودة على الساحة في جربة خلال العصر الحديث "[2].

ومن المهمّ، في سياق تبيان تعلّق صاحب "المسلك المحمود" بالخلافة العثمانيّة ورفضه التنازع تحت سلطانها، قوْلُه :" ومنهم طائفة الانكشاريّة فإنه لمّا اقترحت عليهم الدولة العليّة أيدها الله الدخول في سلك النظام الجديد تعصّبوا عليها وأخذوا ينادون في شوارع المدينة اليوم قتْل العلماء وكبار رجال الدولة وكلّ من تسبّب في وضع ذلك النظام، فكانوا ينهبون البيوت، ويطرحون فيها النار، ويقتلون من صادفوه حتى كان ما كان ومنهم محمد علي باشا والي مصر الذي كان في أوّل أمره ضابطًا على جماعة من عساكر الدولة العليّة فإنه شقّ عصا الطاعة عليها حتى أنه أرسل ولده إبراهيم باشا لافتكاك الشام من يدها ونشأت عن ذلك حروب شهيرة قُتِلت فيها نفوس كثيرة"[1]، قال هذا في معرض الاستدلال على أنّ من أهل السنّة مَن ينطبق عليهم وصْف "الخوارج" الذين خرجوا عن الأيمّة بعد البيْعة الإشارة إلى ما أورده، عند استدلاله على أنّ الخروج على السلطان كان من أهل السنّة أيضًا.

---

1 – المريمي : م.س. صص249–250

2 – المريمي : م.س. صص13–14

1 – المصدر صص201–202

وقد وافق المؤلّف شيخه أطفيّش، وسائر الإباضية وجماهير واسعة من المخالفين، في الحضّ على الالتفاف حول السلاطين الأتراك، والدعاء لهم، لأنّ دولتهم نعمةٌ إلاهيّة، وكفيلة بأن تحرّر أرض الإسلام من الاستعمار والهوان [1].

ولا تظهر هذه الحماسة للعثمانيّين لدى زعيم النضال الثعالبي، بل المتأكّد هوعكس ذلك، إذ هومعجَب أيّما إعجاب بمحمدعلي باشا(ت1265هـ/1849) معتبرًا إياه رائد الإصلاح الدينيّ والتمدّن في مصر[2].

وكما أكْبر ابن تعاريت نداء الأمير عبد القادر الجزائريّ(ت1300هـ/1883) إلى الوحْدة والاجتماع[3]، أشاد بجهود رجال الإصلاح المصريّين مثل عبده (ت1323هـ/1905) ورشيدرضا(ت1354هـ/1935) وجماعتهم، الذين رغبوا في "جمع الكلمة والائتلاف، واستئصال جراثيم ما يؤدّي إلى النفرة والاختلاف، طبق ما جاءت به شريعتنا الأحمديّة، وما تستحسنه النفوس الزكيّة "[1]، ،هوالمسلك نفسه الذي حذاه سليمان الجادوي كما سنرى.

ويضمّ صاحب "المسلك المحمود " صوْته إلى هؤلاء قائلاً : "ما أحوجنا معشر المسلمين قاطبة في هذه الأوقات، التي تراكمت علينا فيها البلايا والكربات، إلى نفض غبار الحقد من قلوبنا، والتضافر على ما يكون به إعلاء ديننا، والإقبال على ما فيه سراج الحضارة والعُمران، لأن تقدّم كلّ أمّة إنما هوبالاتحاد والتعاون، لا بالتعصّب والنفرة بين السكّان، حسبما يشير لذلك قوله تعالى :وتعاوَنُوا عَلى البرِّ والتقْوَى ولا تَعاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوان (المائدة،2/5) تلك آية شافية في اختبار حوادث الزمان"[2].

---

1 ـ تيسير التفسيرج 10 ص 336 / ص 378.
2 – الثعالبي : روح التحرّر في القرآن صص15–16
3 – م. صص454–456
1 – م. صص453–454
2 – م. ص453

لقد أكّد الإباضيّة المعاصرون، كثيرًا،على ضرورة التسامح المذهبيّ، حتى تُصان الجامعة، وينصرف المسلمون إلى ما هوأهمّ.

فعلي معمّر ، يؤكد على أن العصبيّات المذهبيّة وأصابعَ السياسة وبُعْدَ بعض المسلمين عن بعض وجهلَ أهل كلّ مذهب بما عليه الآخرون، كانت حواجزَ تحول دون تعرف المسلمين بعضهم ببعض. أما الآن، وقد اختلط المسلمون بعضهم ببعض، وعرف الكثير منهم الكثير عن الآخرين، فإنه ينبغي أن تختفي بعض المصطلحات أوبعض المفاهيم، وتنشأ بدلا منها مفاهيم أومصطلحات أخرى، تكون أقرب إلى توحيد جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم . وآن للمؤسسات العلمية الإسلامية أن تغيّر مناهجها ودراساتها، وآن لمن يهتم بالإسلام والمسلمين في هذا العصر أن ينظر نظرة أخرى يمليها واقع الحياة للأمة المسلمة ضمن الإطار العامّ لمبادئ الإسلام.

كما يرى أن الأمّة الإسلاميّة تتكوّن من جميع ما ينتسب إلى الشيعة أويُنسب إليها، وجميع من ينتسب إلى الخوارج أويُنسَب إليها، وجميع من ينتسب إلى المعتزلة أويُنسب إليها، وجميع من ينتسب إلى الإباضية أويُنسَب إليها، ولا يخرج منها إلا من أخلّ بأصل من أصول الإسلام، فأنكر معلومًا منه بالضرورة بطريقة التصريح لا بطريقة الإلزام. والأخوّة الإسلامية اليوم رابطة بين الشيعة وأهل السنّة والإباضية، وعلى هؤلاء أن يتعاملوا على أساس اشتراكهم في أصول العقائد والسياسة والشريعة، وإن اختلفت بينهم التفاصيل، وما كان يُلزم به كلّ فريق غيره في الماضي لا يلزم أحدًا في الواقع ونفس الأمر. ولمْ يعُد من المهمّ الالتفات إلى الماضي، بل الأهمّ أن يعمل علماء الأمة المسلمة المعاصرة، بناءً على النظرة المنصفة، وتسويةً في الحقوق بين جميع المسلمين، ودفْعًا للاحتكار الدينيّ أوالعلميّ بين مجموعات محدودة، على إسقاط الأحكام المتعصّبة الجائرة التي كانت تصدر على مجموعات من الناس أوبعض العلماء بأنهم :أصحاب أهواء، أومبتدعة، أوفَسَقة، أويحكم عليهم بالكفر، وأن ينظروا إلى عمل الرجل مجرَّدًا من المذهب أوالفِرْقة أوالكتلة في عمله الفرديّ وسلوكه الشخصيّ، بقطع النظر عن الجهة التي ينتمي إليها. كما أن المذهبيّة في الأمة الإسلاميّة لا تتحطّم بالقوّة، ولا تتحطّم بالحجّة، ولا تتحطّم بالقانون، فإن هذه الوسائل لا تزيدها إلا شدّة في التعصّب وقوّة ردّ الفعل، وإنما تتحطّم المذهبيّة بالمعرفة والتعارف والاعتراف. فبالمعرفة يفهم

كلّ واحد ما يتمسك به الآخرون، ولماذا يتمسكون به، وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعيّ للعبادات، وبالاعتراف يتقبّل كل واحد منهم مسلك الآخر برضىً ويعطيه مثل الحق الذي يعطيه لنفسه "[1].

أمّا الخليلي فيذهب إلى أن الموازنة بين الانتماء المذهبيّ وبين الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة، تكون بالدعوة إلى إلى أن يكون الاختلاف بين المذاهب اختلاف تكامل لا اختلاف تنافر، وأن يكون بين الأمة وفاق وتراحم وتلاحم[2]، ويرى أن كوْن هذه الأمة مستهدفة في عقيدتها، وفي سياستها، وفي أخلاقها، وآدابها، وفي ثقافتها وقيَمها، وفي قوّتها وحريتها، كلّ ذلك مما يدعوها إلى الاتحاد فيما بينها، وأن يعطف بعضها على بعض، وأن يكون الكلّ متحابّين في الله، ساعين بإخلاص إلى الرابطة المقدّسة التي تربط بينهم[1].

ولقد كان سعيد ابن تعاريت واعيًا بأن العصر عصْر القوة العسكرية والصناعية، لتحقيق السيادة والتخلص من المهانة. ولذلك رأى من الأنسب لوكان السؤال متعلقًا باقتراح "الدولة العليّة على أهالي ولايتنا في هذه الأيام، من تدريبهم على الحركات الحربية في حومات الزحام هل الواجب قبوله باستبشار واطمئنان أوعدم سماعه كيفما كان؟"، ويجيب ابن تعاريت في حماسة المجاهدين الأحرار، منافحًا عن الخلافة العثمانية رمز وحدة المسلمين آنذاك، ومناهضًا المدّ الاستعماريّ الغاشم : " يتحتّم عليهم الانخراط في سلك العساكر النظامية التي عليها المدار في سعادة الأمم وحياة الدوَل، فضلاً عن التمرين على التأهب في المواقف العسكرية الذي هوأول واجب في الأقلّ، إذ هوأدنى درجات الاستعداد الذي أمر الله به في كتابه، وحثّ عليه قطب دائرة الكون (ص) وكافة أصحابه، كيف وفي ذلك صوْنٌ لأعراضنا وبلادنا، وطاعة لسلطاننا ووليّ نعمتنا، إذ نفوس الكُمّل والأحرار، تموت في الدفاع عن الوطن والدار، وبذلك نأمن على أوطاننا من الوقوع في قبضة من يذيقنا كأس الذلّ

---

1 – راجع : معمّر : الإباضية بين الفرق الإسلامية م.س. صص453–482

2 – الخليلي : لقاءات في الفكر والدعوة ص243

1 – م.س. ص277

والهوان، لا سيما أنها بعيدة عن عاصمة السلطنة، دام ملكها بدوام الزمان،... ولما فيه من القيام بواجب دينيّ ووطنيّ.."[1].

ومن اليسير الانتباهُ إلى أثر الفكر الإصلاحيّ المصريّ والتونسيّ في ثقافة ابن تعاريت وكتاباته.

فهو يدعو إلى نشر التعليم، والإقبال على العلوم العصريّة، ويكتب عن العلوم الصحيحة أوالصلبة، كما يكتب عن جامع الزيتونة، والمدرسة الصادقيّة، والجمعية الخلدونية[2]، ويُنكر بدَع الدروشة والأوهام والخرافات، ويُقوّم مفاهيم المعاني الدينيّة [1] بما يشبه موقف معاصريه ورفقائه من المستنيرين [2].

نخلص في نهاية هذا الفصل الثاني إلى أنّ التونسيّ سعيد ابن تعاريت قد وعى لحظته التاريخية، بما لابسها من القضايا والإكراهات، وبما فرضتْه أوفُرض عليها من التحدّيات. فهو مؤمن بأنّ حاضر الأمّة لا يهمّه اختلاف العقائد الإسلاميّة، وتباين جزئياتها، ولا تنوّع المذاهب ونظرياتها، بل يطْلُب وحْدة المسلمين وطنيًّا وإقليميًّا وكوْنيًّا، من أجل إسلام عزيز مكين، يدْفع عن أتباعه مخاطر الهيمنة والاستلاب، ويحفظ لهم سيادتهم وأمنهم.

ولا يمكن أن يكون "المسلك المحمود في معرفة الردود" إلا صدًى للمشروع الإصلاحيّ مشرقًا ومغربًا، ذلك المشروع الذي ينظر إلى التراث مقوّم نهضة وامتياز، لا مِعْول تفتيت وتشتيت، والذي يضع في صدارة جدول مشاغله همومَ العصْر ومعضلات الراهن، لا المعارك العقديّة، والصراعات المذهبيّة.

ولعلّ الإباضيّة كانوا أحْرص الناس على الوفاق والتقارب والتكتّل، تحت راية الإسلام بديلاً من التنابز والوصْم والتمييز، لأنهم ذاقوا أكثرَ من غيرهم، مرارة التعصّب المذهبيّ والتهميش والإقصاء.

---

1 – م. صص466–467

2 – م. صص15–18

1 – م. : العزّابة وأهل الطرق صص438–452

2 – قارن ما أثبته في كلامه عن الطرق الصوفية وهوما أحلنا عليه في الهامش السابق، بما ورد، مثلا، في "روح التحرّر في القرآن" للثعالبي. صص57–85

وقد كان ابن تعاريت أنموذجًا، من خلال الكتاب، في احترام المخالف، وحفظ أدب الأخوّة الدينيّة، فلمْ يواصل في قسوة الردود التقليديّة وفظاظتها.

ولا يمكن أن يخطر بالبال أنّ مؤلّف الكتاب قد ظاهر على تضليل المخالف بتصويب الإباضية، بل المؤكّد، وكما بيّنّا، كان مسعاه جادًّا في صيانة حرّية التمذهب، والاحترام بين المتمذهبين، وأن يكونوا مؤمنين أولياء ضدّ كفّار مستعمرين أعداء.

وربما يظهر للبعض أنّ موضوع الكتاب تقليديّ، تجاوزه عصر المؤلّف، واندرج في سنّة قديمة، هي المفاخرة الفِرَقيّة، وهورأي وجيه نسبيًّا. ولكنّنا نرى، أنّ الأمر فيه أيضًا، تأصيلٌ للهويّة التونسيّة الثريّة.

فإذا أكّد شيوخ الزيتونة، من معاصري ابن تعاريت وسابقيه وتالِيه، على أنّ الشخصيّة الدينيّة التونسيّة متكوّنة بالعقيدة الأشعريّة ثمّ الماتريديّة، وبالحنفيّة ثمّ المالكيّة أوالعكس، وبالفكر الصوفيّ السنّيّ، فإنّه من واجب الإباضيّ أن يذكّر، بل يهتف بأنّ الإباضيّة جزء من الهويّة التونسيّة، أصّلتْها في انتمائها الإسلاميّ، وأثرتْ موروثها بنظريات وأصول وفروع لها من العراقة والوجاهة، ما لنظيراتها الأخرى المتكوّنة بها تلك الهويّة.

فالإباضيّة ليست بدعة في الثقافة التونسيّة، وليس من حق أيٍّ كان أن ينظر إليها نظرة دونيّة، وحقيق بالتونسيّين غير الإباضية أن يقطعوا مع العادات السيّئة التي مارسها بعض الساسة والمتعصّبون من فقهاء الدين تجاه "أهل الدعوة والاستقامة".

إنه الدفاع الرشيد عن هُويّة التنوّع والاختلاف، هويّة التونسيّين جميعًا بلا تمييز، هويّة المالكيّة والإباضيّة معًا، هويّة القطْر الواحد المتعدّد في تونس، والجزائر، وليبيا، وعُمَان، دون السقوط في جحيم الطائفيّة المقيتة، لأنها لا تصنع الوَحدة ضدّ الاستعمار.

بيبليوغرافيا(3) مختصرة : في أدب الردود

المؤلف [1]	الكتاب [2]
ابن تيمية(تقي الدين)	الاستغاثة في الردّ على البكري. تحقيق: عبدالله السهيلي (ط1الرياض1417هـ/1997)
	بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وأهل الإلحاد . تحقيق: موسى الدويس (ط1422هـ/2001)
	تقريب الصارم المسلول على شاتم الرسول. إعداد: صلاح الصاوي (ط1 دار الإعلام الدولي1415هـ/1995)
	الردّ على الإخنائي . تحقيق: أحمد العنزي (ط1جدّة1420هـ/2000)
	الردّ على الشاذلي في حزبيْه وما صنّفه في آداب الطريق تحقيق: علي العمران (ط.دار عالم الفوائد)
	نصيحة أهل الإيمان في الردّ على منطق اليونان. تحقيق: عبدالصمد الكتبي (ط1بيروت

1 –رتبنا الأسماء ألفبائيًا

2 –اخترنا العناوين الآتية لوضوح الفكرة والجهة المردود عليهما

	1426هـ/2005)
	نقض المنطق . تحقيق وتصحيح : محمد حمزة/سلمان الصنيع (ط.دمشق د.ت.)
	نقض أساس التقديس (ردّ على :أساس التقديس للرازي) تحقيق:موسى الدويش (ط1المدينة المنورة1425هـ/2004)
ابن الجوزي(عبدالرحمان)	الردّ على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد. تحقيق:هيثم محمد (ط1بيروت1426هـ/2005)
ابن الحاج القفطي (شيث بن إبراهيم)	حزّ الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر(ردّ على المعتزلة). تحقيق: عبدالله البارودي (ط1بيروت1405هـ/1985)
ابن حنبل(أحمد)	الردّ على الزنادقة والجهمية فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأوّلوه على على غير تأويله. تحقيق: صبري شاهين (ط1 الرياض 1424هـ/2003)
ابن رشد (أبوالوليد محمد)	تهافت التهافت (ردّ على كتاب الغزالي:تهافت الفلاسفة) تحقيق: محمد العريبي (ط1بيروت 1413هـ/1993)
ابن سحمان(سلماس)	الأسنّة الحِداد في الردّ على شبهات علوي حدّاد (ذكرنا كتابه) (مطبعة العامرة الشرقية 1325هـ/1907)
ابن الصديق(أحمد)	المرشد المبدي لفساد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدى (ط.دمشق1347هـ/1928)
ابن عاشور(محمدالطاهر)	نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم

	(ط.تونس د.ت.)
ابن عبدالهادي (محمد)	الصارم المنكي في الردّ على ابن السبكي (ط1القاهرة1328هـ/1910)
ابن عساكر الدمشقي (أبوالقاسم)	تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري تقديم وتعليق: محمد زاهد الكوثري (ط.القاهرة1431هـ/2010)
ابن عيسى الحنبلي(أحمد)	الردّ على شبهات المستعينين بغيرالله (ط.الرياض1409هـ/1989)
ابن قتيبة(أبومحمد)	الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهمية والمشبهة (ط1بيروت1405هـ/1985)
ابن قيّم الجوزية	مختصر الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة. اختصار: محمد الموصلي
	الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (سلسلة مطبوعات المجمع الفقهي بجدّة . ط.دار عالم الفوائد)
ابن مضاء (أبوالعباس)	الردّ على النحاة .دراسة وتحقيق: محمد إبراهيم البنا (ط1 القاهرة1399هـ/1979)
ابن ناصر الدين (محمد)	الردّ الوافر على من زعم أنّ مَن سمّى ابن تيمية "شيخ الإسلام" كافر تحقيق: زهير الشاويش (ط1بيروت 1400هـ/1980)
ابن يحيى المغربي	بذل المجهود في إفحام اليهود.تقديم: محمد أحمد الشامي (ط.القاهرة د.ت.)

(السموأل)	غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود تحقيق: سيد عبدالله (ط1القاهرة1427هـ/2006)
آل ريّس(عبدالعزيز)	تبديد كواشف العنيد في تكفيره لدولة التوحيد ردّ على كتاب:الكواشف الجليّة في تكفير الدولة السعوديّة (ط1مصر1428هـ/2007)
آل سلمان(مشهور)	ردود القرطبي على الشيعة (الدار الأثرية د.ت.)
	الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمّات (ط.الرياض1415ه/1995)
آل الشيخ(صالح) سلفي	هذه مفاهيمنا (ردّ على كتاب محمد بن علوي المالكي:مفاهيم يجب أن تُصحّح) (ط.الرياض 1407هـ/1987)
آل الشيخ(عبداللطيف)	مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام (يعني ابن عبدالوهاب) تحقيق ومراجعة: إسماعيل عتيق(ط.الرياض د.ت.)
آل معمر(حمد)	النبذة الشريفة النفيسة في الردّ على القبوريين (ط1الرياض1409هـ/1989)
أبوزيد(أبوبكر)	الردود . (ط1الرياض1414هـ/1994)
أبوشادي(إبراهيم)	الردّ العلمي على شبهات في العقيدة والتصوّف

	(ط1 الإسكندرية 1429هـ/2008)
أبوشهبة(محمد)	دفاع عن السنّة وردّ شبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين وبيان الشبه الواردة على السنّة قديما وحديثا وردّها ردًّا علميًا صحيحا (ط1بيروت1411هـ/1991)
الإسفراييني(أبوالمظفّر)	التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ط.القاهرة1431هـ/2010)
الأشعري(أبوالحسن)	اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع. تصحيح وتقديم وتعليق: حموده غرابة . ط.مصر1375هـ/1955)
الأعرابي(أبومحمد)	فرحة الأديب في الردّ على ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه تحقيق: محمدعلي سلطاني (ط.دمشق1401هـ/1981)
الأفغاني(جمال الدين)	الردّ على الدهريين تعريب : محمد عبده (ط.القاهرة د.ت.)
الألباني(ناصرالدين)	الردّ على جهالات البوطي في كتابه: فقه السيرة (ط.دمشق د.ت.)
	نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق (ط3المكتب الإسلامي1416هـ/1996)
الألوسي(محمود شكري)	غاية الأماني في الردّ على النبهاني (ط.القاهرة د.ت.)
الأنصاري(يعقوب)	الردّ على سيَر الأوْزاعي، تصحيح وتعليق: أبوالوفاء الأفغاني (ط1 مصر د.ت.)
بازمول(محمد)	الردّ على كتب مشبوهة (ط1القاهرة 1428هـ/2007)

برّي(عمر بن إبراهيم)	سيف الحق على من لا يرى الحق (ردّ على كتاب الحدّاد) (ط.تونس1350هـ/1931)
البليهي(صالح)	عقيدة المسلمين في الردّ على الملحدين والمبتدعين (ط2الرياض1404هـ/1984)
بن مراد(محمد صالح)	الحدادْ على امرأة الحدّادْ، أو: ردّ الخطإ والكفْر والبدَعْ، التي حواها كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمعْ (ط.تونس1350هـ/1931)
البوطي(محمدسعيد)	دفاع عن الإسلام والتاريخ، ردّ على بعض ما جاء في كتاب :التاريخ العباسي لشاكر مصطفى. (ط.دمشق د.ت.)
التويجري(حمود)	الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر (ط1الرياض1404هـ/1983)
الجاحظ	المختار في الردّ على النصارى. تحقيق: محمد الشرقاوي (ط1بيروت1411هـ/1991)
جبل(محمد حسن)	الردّ على جولد تسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية (ط2القاهرة1423هـ/2002)
الحدّاد(علوي)	مصباح الأنام وجلاء الظلام في ردّ شُبَه البدعي النجدي التي أضلّ بها العوامّ. (ط. قديمة)
حسين(محمد الخضر)	نقض كتاب :الإسلام وأصول الحكم (ط.القاهرة1344هـ/1926)
	نقض كتاب: في الشعر الجاهلي (ط.القاهرة د.ت.)
حمزة(محمد عبدالرزاق)	ظلمات أبي ريّة أمام أضواء السنّة المحمّديّة (ط.القاهرة1378هـ/1958)

الحويني(أبوإسحاق)	سمط اللآلي في الردّ على الشيخ محمد الغزالي (ط1مصر1410هـ/1989)
الدارمي(أبوسعيد عثمان)	الردّ على الجهمية. تحقيق: زهير الشاويش / تخريج: ناصرالدين الألباني (ط4بيروت1402هـ/1982)
	ردّ الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد، تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي (ط1بيروت1358هـ/1939)
دحلان(أحمد)	الدرر السنيّة في الردّ على الوهابية (ط1القاهرة1432هـ/2011)
الدواني(جلال الدين)	الحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة تحقيق ودراسة: عبدالله منيب (ط1420هـ/2000)
دياب(محمود)	الصهيونية العالمية والردّ على الفكر الصهيوني المعاصر (ط.مصر1396هـ/1976)
الراجحي(عبدالعزيز)	قدوم كتائب الجهاد لغزوأهل الزندقة والإلحاد القائلين بعدم الأخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد. (ط1الرياض1419هـ/1998)
السبكي(تقي الدين)	السيف الصقيل في الردّ على ابن زفّيل (ردّ على نونيّة ابن قيّم) ومعه تكملة الردّ لمحمد زاهد الكوثري (ط.القاهرة1424هـ/2003)
السحيباني(عبدالقيوم)	اللمع في الردّ على محسّن البدع (ط1الرياض1416هـ/1996)

السخاوي(شمس الدين)	الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ. تحقيق وتعليق (بالانقليزية): فرانز روزنثال .تعريب: صالح أحمد العلي، (ط.بيروت د.ت.)
السندي(عبدالقادر)	الردّ الأوْفر على فقه الشيخ الأكبر(ابن عربي). ويليه :إتمام البحث والردّ على الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد (ط1المدينة المنورة 1416هـ/1996)
السهسواني(محمد بشير)	صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان (ط5 1395هـ/1975)
السيد علي(حامد)	الردّ على كتاب جورج بوش : حياة محمد (ط.القاهرة1427هـ/2006)
السيوطي(جلال الدين)	الردّ على من أخْلَد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرْض. (مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د.ت.)
الشبل(علي)	ابن الحنبلي وكتابه:الرسالة الواضحة في الردّ على الأشاعرة (ط.مجموعة التحف والنفائس الدولية)
الشرفي(عبدالمجيد)	الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن4ه/10م (ط.تونس1406ه/1986)
الشطي(حسن)	النقول الشرعية في الردّ على الوهابية تحقيق: بسام عمقية (ط.دمشق1417هـ/1997)
الشعراوي(متولي)	ردًّا على الملاحدة والعلمانيين (من خلال حوارات معه) (ط.القاهرة1415هـ/1995)

شنيوتي(منصور)	الأصول الذهبية في الردّ على القاديانية (ط1مكة1428هـ/2007)
صبح(عبدالمجيد)	الردّ الجميل على المشككين في الإسلام (ط2 1424هـ/2003)
الطوفي(سلمان)	الصعقة الغضبية في الردّ على منكري العربيّة تحقيق: محمد الفاضل (ط1الرياض 1417هـ/1997)
الطوفي(نجم الدين)	درْء القول القبيح بالتحسين والتقبيح . تحقيق: أيمن شحادة (ط1الرياض1426هـ/2005)
عامري(سامي)	جهالات وأضاليل: نقض افتراءات عبدالمجيد الشرفي على السنّة النبوية (ط.دارالبصائر1433 هـ/2012)
عبدالحميد(علي)	كشف المتواري من تلبيسات الغماري وردّ عدوانه على السنّة (ط1دارابن الجوزى1410هـ/1990)
عبدالخالق(عبدالغني)	الردّ على من ينكر حجّيّة السنّة (ملحق بكتاب : دفاع عن السنّة)(انظر: أبوشهبة)
عبدالكافي(أبوعمار)	الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الردّ على أهل الخلاف، حقّقه عمار الطالبي، ونشره تحت عنوان: آراء الخوارج الكلامية (ط.الجزائر1398هـ/1978)
العفاني(سيد)	رياض الجنة في الردّ على المدرسة العقلية ومنكري السنّة، (ط1القاهرة1426هـ/2006)

العمراني(يحيى)	الانتصار في الردّ على المعتزلة القدريّة الأشرار دراسة وتحقيق: سعود الخلف (ط.المدينة المنورة 1419هـ/1998)
الغامدي(سعيد)	الردّ على منكري صفتيْ الوجه واليد (ط1جدة1414هـ/1993)
الفريدان(أبوعبدالرحمان)	الردّ الشافي على الجفري في زعمه أن إقامة الموالد سنّة مؤكدة (ط1القاهرة1426هـ/2005)
الفقيه(محمد)	الكشف المبدي لتمويه السبكي تكملة الصارم المنكي، دراسة وتحقيق: صالح المحسن /أبوبكرشهال (ط1الرياض1422هـ/2002)
الفقيهي(علي)	الرد القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمى بالحق الدامغ (ط2المدينة المنورة1422هـ/2001)
الفيروزبادي(محمد)	الردّ على الرافضة. تحقيق: عبدالعزيز المحمود (ط1428هـ/2007)
القاري(علي)	الردّعلى القائلين بوحدة الوجود. تحقيق: علي رضا (ط1دمشق1415هـ/1995)
القرافي(شهاب الدين)	الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة في الردّ على الملة الكافرة، تحقيق: بكر زكي عوض (ط2 القاهرة 1407هـ/1987)
القطامي(يعقوب)	الكافي الممتع والمفيدْ والردّ المفحم الملجم السديدْ على من صادم اعتقاده الوحييْن. (ط1المدينة المنورة1429هـ/2008)

القنوبي(سعيد)	السيف الحادّ في الردّ على من أخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد . (ط.عمان 1419هـ/1998)
كشك(عبدالحميد)	كلمتنا في الردّ على أولاد حارتنا (ط.القاهرة د.ت.)
الكوثري(محمد زاهد)	إحقاق الحق بإبطال الباطل ومغيث الخلق (ردود على عدد من الفقهاء والأصوليّين) (ط.القاهرة د.ت.)
	تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب . ويليه : الترحيب بنقد التأنيب (ط.القاهرة1410هـ/1990)
	صفعات البرهان على صفحات العدوان. (مجموعة ردود)، تصحيح ومراجعة: محمد الشاغول (ط. القاهرة1426 هـ/2005
	النكت الطريفة في التحدّث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة (ط.باكستان1415هـ/1995)
مايابي(محمد خضر)	إبرام النقض لما قيل من أرجحية القبض. (دارالبشائر الإسلامية د.ت.)
المحجوب(أبوحفص عمر)	رسالة علماء تونس المحميّة إلى الضالّ الوهابي (ط2بيروت1428هـ/2007)
المرعشي(شهاب الدين)	القول الفاصل في الردّ على مدّعي التحريف (في القرآن) تحقيق:محمد فؤاد (ط1إيران 1424هـ/2003)
المصري الشافعي (بهاء الدين)	رسالة في الردّ على ابن تيمية في مسألة حوادث لا أوّل لها، تحقيق وشرح :سعيد

	فودة (ط.القاهرة 1417هـ/1997)
المقدسي(محمد)	رسالة في الردّ على الرافضة. تحقيق: عبدالوهاب خليل (ط1الهند1403هـ/1983)
الميورقي(عبدالله الترجمان)	تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب تحقيق: محمود علي حماية (ط2القاهرة د.ت.)
الملطي الشافعي (أبوالحسن محمد)	التنبيه والردّ على أهل البدع (ط.القاهرة 1428هـ/2007)
النجاد(أحمد)	الردّ على من يقول :القرآن مخلوق (ط.الكويت1400هـ/1979)
الهرري(عبدالله)	المقالات السنّيّة في كشف ضلالات أحمد بن تيمية (ط7دمشق1428هـ/2007)
الوادعي(مقبل)	ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر وبيان بعد محمدرشيدرضا عن السلفية. (ط2بيروت1420هـ/1999)
	صعقة الزلزال لنسف أباطيل الرفض والاعتزال (ط2صنعاء1423هـ/2002)
تأليف جماعي	موسوعة بيان الإسلام، الردّ على الافتراءات والشبهات (ط1مصر1433هـ/2012)
	الردّ الشافي على مفتريات القذافي (ط.مكة1402هـ/1982)

بيبليوغرافيا (4) مختصرة من مؤلفات المخالفين

في المكتبة البارونية [1]

المؤلف	الكتاب[2]
ابن أبي بكر المقدسيي(الحسن)	غاية المرام في شرح بحر الكلام في العقائد للنسفي
ابن أبي زيد القيرواني(عبدالله)	الرسالة
ابن حجر الهيثمي(أحمد)	الإعلام بقواطع الإسلام
ابن سلاّم(طاهر)	جواهر الفقه
ابن عبدالعظيم الحنفي(محمد)	القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد
ابن عثمان(أبوالمعالي حسن)	شرح المواقف العضدية
ابن غنيم الجوهري(إسماعيل)	ورقات في الفقه
ابن قاسم المرادي (بدر الدين حسن)	شرح ميّارة على ابن عاشر
الأجهوري(علي)	تعليق لطيف على منظومة أصول الدين
الأمير(محمد بن محمد)	ضوء الشموع على شرح المجموع
الأنصاري(أبويحيى زكرياء)	حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه والدين

---

1 – راجع الفهرسة التي تمّت تحت إشراف المكتبة الوطنية وبيت الحكمة وجمعية صيانة جربة،
على الموقع: elbarounia.com

2 – انتقيْنا، باختصار، المؤلّفات الأصولية والفقهيّة ؛ فقط

	للمحلى
التفتزاني(مسعود)	رسالة في ماهية وتعريف المنطق
الحضرمي(إبراهيم)	كتاب عن تاريخ الخوارج
الحطّاب المالكي(أبوعبدالله)	شرح كتاب الورقات للجوينى
الحفناوي(محمد)	الثمرة البهيّة في أسماء الصحابة البدريّة
الحموى الحنفي(أحمد بن محمد)	القول البليغ في حكم التبليغ
الدمرداش(شمس الدين)	القول الفريد في معرفة التوحيد
الدمني(مصطفى بن عبدالقادر)	تنبيه الأنام عن منافيات الإسلام
الروضي(محمد بن عمر)	شرح منظومة القاضي عياض في شروط الإمامة
الرياحي(إبراهيم)	مولد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام
الزرقاني(عبد الباقي)	شرح على متن خليل
زروق(أحمد)	التنبيه على بعض غوامض حزب أبي الحسن الشاذلي
	رسالة تحفة المريد
الزمخشري(أبوالقاسم)	تفسير الكشّاف
زيتونة(أبوعبدالله)	مطالع السعود على إرشاد أبي السعود
السبكي(تاج الدين)	مُعيد النعم ومُبيد النقم
السيوطي(جلال الدين)	تنوير الحلَك في رؤية النبي والملَك

	الحاوى للفتاوى
الشعراني(عبدالوهاب)	اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر
الفيّومي المالكي(أحمد بن أحمد)	رسالة في بيان مسألة الخلق الذي ابتُلِي به مذهب مالك
القاري الحنفي(نورالدين علي)	شرح رسالة بدر الرشيد في الكلمات الكفريّة بالإشارة الإيمانيّة على ماذهب إليه الأيمّة الحنفيّة
القرافي(شهاب الدين)	تنقيح الفصول في اختصار المحصول
القزويني	مختصر التلخيص
الكشناوي الأشعري(محمد)	أندر المنظوم وخلاصة السر المكتوم
المحلي(جلال الدين)	شرح الورقات للجويْني تحقيق: أحمد بن قاسم العبادي
المغربي المالكي(خليل بن محمد)	ختم على آخر مقدمة أبي الليث الحنفي في الصلاة والإيمان
المقدسي(عز الدين)	حلّ الرموز ومفاتيح الكنوز
المقدسي الحنبلي(مرعي بن يوسف)	سلوك الطريقة في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة
المنجوري(أحمد بن علي)	شرح قواعد الزقاق المسمّاة ب: المنهج المنتخب في قواعد المذهب(المالكي)

الفصل الثالث

الفكر التحرّريّ والمشروع الإصلاحيّ

تمهيد :قراءة في المعطى التَرْجذاتي

لمْ تظهر حماسة الإباضيّة التونسيّين للقضايا المصيريّة التي رمتْ بثقلها في النصف الأوّل من ق20، كما ظهرت عند الشيخ سليمان الجادوي. وفي هذه الشخصيّة الفذّة امّحَت الفوارق العقَديّة والمذهبيّة، وحلّت محلّها العبقريّة الإبداعيّة، والروح الوطنيّة، التي تنظر إلى تونس وطنًا واحدًا، وشعبًا واحدًا، وصفًا واحدًا، يقاوم عدوًّا واحدًا، وليس له إلا خيارٌ واحد هو الانصهار في جبهة إنقاذٍ تصون الدِّين والبلاد. فمن هو الجادوي؟

إنّه الإباضيّ سليمان بن قاسم الجادوي(1293–1371هـ/1876–1951)[1] نسبة إلى بلدة "جادُو" بجبل نفوسة الليبيّة، وقد اشتهرت هذه البلدة في بدْء الفتح العربيّ الإسلاميّ، وخاصّة في عهد دولة بني رستم بتيهرت، بكثرة العلماء المجتمعين بها. حيث ينقل المؤرخون والرحالة أنها ضمّت في عصر واحد حواليْ أربعمائة عالِم [2].

وترجَم بن يعقوب لسليمان الجادوي ولثمانية علماء من عائلته، ونَقَل عن التعاريتي :"دار الجادوي دار علم قديمًا وحديثًا إلى وقت متأخّر "، واعتبرَهم إلى جانب عائلة الشمّاخي، على امتداد خمسة قرون "أمّة" تنهى عن المنكر، وتأمر بالمعروف، نهَلَت من مدارس الجزيرة، ومن جامع الزيتونة، ومن المدرسة الإباضيّة بمصر، ومن الجامع الأزهر، ثم أتتْ جامع بني ليمس بآجيم تعمّر مدرسته وترسخ مبادئ العلم والعقيدة فيها، سبّلوا أنفسهم وأموالهم وأوقاتهم لخدمة الدين ونصرة المذهب، فعمّروا مساجد الله، وبثّوا بعلمهم وتقواهم أصول الدين الصحيح"[3].

---

1 – تاريخ ولادته الميلاديّ الذي أثبتناه منقول عن بن يعقوب :تاريخ الجزيرة ص285، أما الجيلاني بلحاج يحيى(ت1431هـ/2010) فيرجّح أنه ولد س1871. راجع : الجيلاني بلحاج يحيى : الصحفيّ المناضل سليمان الجادوي ص14

2 – الجادوي :الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة ص777

وفي معجم البلدان : " جادو: مدينة كبيرة في جبل نَفُوسة من ناحية إفريقية، لها أسواق وبها يهود كثيرة " مج2ص92

3 – بن يعقوب : تاريخ جزيرة جربة ص289

وُلِد سليمان الجادِوي بحومة آجيم في جربة، وفي مدرسة جامع لِيمِس تلقى مبادئ العلوم.ثمّ التحق بجامع الزيتونة ليلازم الدروس فيه ثلاث سنوات. وهوالمسار نفسه الذي سلكه سعيد ابن تعاريت من قبْل، وبن يعقوب من بعْد. فيَحْسُن بنا هاهنا أن نقف لنستنطق صلة الإباضيّة المغاربة عمومًا، وبالأخصّ الجربيّين، بجامع الزيتونة الذي لا يُقِرّ إلا مذهبَيْ المالكيّة والأحناف. فالذي يظهر أوّلاً أن الإباضيّة لا يُمكن لهم أن ينكروا قيمة جامع الزيتونة العلميّة، ودوْره العريق والشهير في نشر الثقافة الدينيّة، وترسيخ مقومات الهويّة الوطنيّة والعربية الإسلاميّة.

ولذلك سعى إباضيّة جربة إلى الاستزادة من العلوم الدينية بالتوجّه إلى العاصمة، ورأوْا أن تكوينهم لا يكْمُل، إلا بالدخول إلى جامع الزيتونة الذي يصفونه ب:"الجامع المعمور" و"الجامع الأعظم"، ويدعون بعمرانه، ويصفون نخبة من شيوخه ب"الأساتذة الفحول"، كغيرهم من التونسيّين والمغاربة.

وقد عبّر بن يعقوب عن هذا المعنى عندما تحدث عن مدرسة جامع الباسي التي تعلم فيها قائلا:"لفظتْ أنفاسها الأخيرة خاصة عندما عزم التلامذة الأوّلون مواصلة دراستهم بجامع الزيتونة.فانقطعتُ عن الدراسة في آخر1346هـ/1928 وابتدأتُ دراستي في جامع الزيتونة "[1]. وكان الجربيون يتهيّبون الدراسة بهذا الجامع، فلا يبعثون إليه إلا مَن تبيّن نبوغه.

وكل هذا لا يعني البتة أن إباضية جربة يستنقصون مشائخهم، بل على العكس يتباهوْن بألمعيّتهم، محليًا ووطنيًا.

ويحقّ لهم أن يتباهوْا. فجزيرة جربة أنجبت جمهرة من العلماء المبرّزين الذين لمْ ينالوا نصيبهم من التراجم والشهرة، ولكن آثارهم ظلت غرّة في جبين البلاد التونسيّة.

ومن الأمثلة على افتخار الجربيّين بذلك، هاتان القصتان :

/"قدم العالم أحمد السنّاري الحبشيّ إلى جربة طالبا مناظرة العلماء، وكان ممتازًا في علم المنطق وغيره، واجتمع مع القاضي والمفتي المالكيّيْن فأفحمهما،

---

1 – بن يعقوب :م.س. ص209

ونعَتَا له الشيخ موسى بن علي الباروني(ت1284هـ/1867) وقد أتى زائرًا، فابتدأت المناظرة في سائر الفنون من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر. وقد ذهب الشيخ سعيد ليستريح. أما الشيخ موسى فتابع النقاش مع السنّاري حتى عجز هذا الأخير وسلم للشيخ موسى وقال : هذا هوالفقيه العالم. ثم ذهب السنّاري إلى تونس ودخل جامع الزيتونة وناقش علماءه، وباحثهم، وعرف مقدارهم فلمْ يُعجبْه،فقال : لمْ أجِد العلم إلا في جربة "[1].

/يروي الشيخ يوسف بن محمد المصعبيّ :"اتفق لي اجتماع مع بعض فقهاء تونس بجامع الزيتونة فأوّل ما سألني عن دليل الوحْدانيّة، فقلتُ له : أدلّة كثيرة، منها طريقة الصفة وطريقة الممانعة. فلمّا سمع منّي ذلك انتقل للسؤال عن غيرها، وأجبتُ عن جميع ما سأل. ثمّ قُلتُ له : أخبرْني عن من قلدتَ من العلماء؟ فقال : مالك، فقلتُ له : فبماذا قلدتَه؟، فقال : في جميع الأحكام.فقلت له : إذًا في إيمانك خلاف، فقال : بل في الفروع ، قلت له : في جميعها أوفي بعضها؟ فقلت له :لا يصحّ ذلك لكوْن بعض الأحكام معلومًا بالضرورة من أنفاس الشريعة كوجوب الصلاة والحجّ وتحريم الزنا ونحوذلك فارتبك وقمت عنه خالصًا من شره والحمد لله رب العالمين وذلك في ذي القعدة سنة1153 وذلك في أيام علي باشا بن محمد"[2].

وفي ترجمته لسليمان المدنيّ الذي درَس هو نفسه بجامع الزيتونة بعدما تلقى المبادئ بجربة يقول بن يعقوب:"..ترك مؤلفات هامّة منها شرح كتاب ايساغوجي للسيخ أثير الدين الأبهريّ في المنطق وقد اشتهربشرح سليمان الجربي وكان علماء جامع الزيتونة يستعملونه للتدريس حيث لمْ يجدوا مثله"[3].

ولعلّ المطلع على تراث الإباضية العلميّ في ميزاب وجربة يتأكّد من أنّ لهُم قدَمًا راسخة في العلوم الدينيّة، ولهُم ثروة ضخمة من المدوّنات والمصنّفات

---

1 – بن يعقوب : م.س. صص154–155/صص388–389

2 – بن يعقوب : م.س. صص143–144

3 –بن يعقوب :م.س. ص128

تؤهّل أصحابها، بجدارة، أن يكونوا أعْلامًا بارزين في مختلف الجامعات الدينيّة مشرقًا ومغربًا.

إنّ الإباضيّة أكّدوا أنّ وفودهم على جامعِ الزيتونة، ثمّ الجامع الأزهر، ليس إلا توقيرًا للعلم وأهله، ونهمًا في الطلب والمعرفة. ولذلك كان الطلبة الإباضيّة يتابعون من الدروس ما يروق لهم، ولا يحضرونها بصورة منتظمة وقانونية، وكانوا لا يجتازون الامتحانات، إذ لم تكن لديهم رغبة في الوظيفة [1] كما عند غيرهم[2] فلمْ يحصل منهم على الشهائد العلميّة إلا قلّة قليلة لا تكاد تُذكَر.

إلى ذلك ، تكتنز هذه العادة العلْميّة المحمودة رمزيةَ التفتّح والسماحة. فالإباضية لم يجدوا حرجًا في أن يجالسوا مَن يخالفهم جوانب في العقيدة، وهُم لا يصنّفون العِلْم إلى إباضي وغيره.

وقد أحصيْنا مِن تراجم بن يعقوب في "تاريخ جزيرة جربة" :

/أربعة عشر(14) جربيًّا توجّهوا إلى جامع الزيتونة

/خمسة (5) توجّهوا إلى جامع الزيتونة، ومنه إلى الجامع الأزهر

/خمسة وثلاثين (35) توجّهوا من جربة إلى الجامع الأزهر

أمّا إباضية الجنوب الجزائريّ، فقد توطّدتْ صلتهم بجامع الزيتونة، وبالأجواء العلميّة والثقافيّة التونسيّة، مع البعثة الميزابية الأولى س1330هـ/1912، وهُم لا يسهوْن عن ذكرها في كتبهم، وهي ليست بدعة في تاريخهم بل هي قديمة.

وبرز في هذا المنحى : أبوعمّار عبد الكافي(حيّ قبل570هـ/1174م) صاحب التآليف الكثيرة، وصالح بن عمر لعْلي(ت1347هـ/1928) من تلامذة

---

1 –بن يعقوب : م.س. صص302–303

2 – يذكر الفاضل ابن عاشور أن جميع المتخرجين من جامع الزيتونة كانوا موظفين، وأن المتعلمين التونسيين بصفة عامة على اختلاف ثقافتهم قد انحصروا في طبقة الموظفين. الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص62

أطفيّش ومؤلّفٌ مشهور، وعبد الرحمان بكّلي(ت1406هـ/1986) [1]، ومحمد بن صالح الثميني(ت1390هـ/1970)، الذي جلس إليه سالم بن يعقوب حينما انتقل إلى تونس. ونقرأ في رسائل شاعر الثورة المزابيّ مفدي زكريا (ت1397هـ/1977) الذي درس في الزيتونة والخلدونيّة، إلى مواطنه الإباضيّ أبي اليقظان إبراهيم(ت1305هـ/1973)، الذي زاول دراسته هوالآخر بالجامع الأعظم بين س1335هـ/1917 وس1339هـ/1921، ما يدلّ على مكانة الثميني في العلم والكفاح، فيقول :"إن الفاجعة التي فوجئنا بها في وفاة أستاذنا الشيخ الثميني زلزلت كياننا، ولوْلا مكين من الإيمان والثقة بالله لضللْنا الطريق. فالحمد لله فيما أعطى والشكر لله فيما استردّ. وإننا إذ نقدّم لفضيلتكم أحرّ التعازي نسأل الله أن لا يريكم مكروها في عزيز، وأن يتغمّد الفقيد الراحل بفيض رضوانه وسابغ رحماته. ولقد عزمنا على إقامة أربعينيّة لتأبينه بتونس نزولا عند رغبة الكثيرين من أقطاب الفكر. وقياما بالواجب نحوتاريخ هذا الرجل العظيم.فنرجومن فضيلتكم تزويدنا بمعلومات ووثائق عن مختلف جوانب نشاطاته الثقافيّة والسياسية والمهنيّة من تاريخ دراسته في حلقات قطب الأيمة إلى البعثات بتونس وملابساتها، وإسهامه في الحركة السياسية إلى غير ذلك مما يمكن أن يُقال في شأنه"[1]

فالثميني الإباضيّ، دخل جامع الزيتونة مع البعثة الميزابية س1336هـ/1917، ودرّس على ثلة من المشايخ اللامعين من أمثال محمد الطاهر ابن عاشور(ت1393هـ/1973) الذي كانت له به صلة وطيدة. وكان عضوًا في اللجنة التنفيذيّة للحزب الحرّ الدستوري، وكان يجمع التبرّعات للحزب من التجّار التونسيّين والجزائريّين لدعم موارده. كما كان عضوًا في النادي الأدبي التونسيّ، إلى جانب محمد العربي الكبادي(ت1381هـ/1961) وغيره. وله مقالات في مجلّة"العرب" لزين العابدين السنوسي(ت1386هـ/1966) تحت عنوان : حقائق عن وادي ميزاب. و هو صاحب مكتبة"الاستقامة"، التي كانت همزة الوصل بين تونس

---

1 -راجع :معمّر : الإباضية بين الفرق الإسلامية صص665-669

1 - فرصوص :أبواليقظان م.س. صص145-146

والجزائر، وكان لها دور هامّ في الحياة السياسيّة. ويُذكَر هاهنا أنّ الزعيم الحبيب بورقيبة(ت1421هـ/2000) ظلّ يزورها بعد الاستقلال، ويقول :"إن هذه المكتبة كانت في أيام الحماية ملاذًا لكلّ الأحرار"[1]

ولقد امتزجت مهج الجزائريّين، إباضيّين وسنّيّين، المنضوين تحْت مظلّة جامع الزيتونة، والتحموا بالتونسيّين، ليعالجوا جميعًا نازلة الاستعمار، ويوطدوا دعائم الهويّة الثقافيّة الصلبة، ويذوّبوا الفوارق المذهبيّة.

وتنقل السيَر الإباضيّة أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس(ت1359هـ/1940) الشديد التمسّك بالفكر السنّيّ، والمعروف بتتلمذه على العلاّمة الطاهر ابن عاشور، كان يزور البعثة الميزابيّة في مقرّها بالعاصمة التونسيّة، فيستقبله الطلبة بحفاوة بالغة، وحفلات فنّيّة متميّزة.

ويكتب هو نفْسه عن أبي اليقظان فيصفه بأنه ممّن قرأوا العلم للعمل والتفكير، وأُشربوا في زمن التعلّم حبّ الاطلاع والنهوض، ويقول :"أقام بتونس يكرع من مناهل جامع الزيتونة المعمور، ويقوم على تربية نشأة من إخواننا الميزابيّين لتخدم المستقبل. ثمّ آب إلى الجزائر بمعارف صحيحة وخبرة واسعة ورغبة صادقة في خدمة الدين والوطن...بحقّ يُعَدّ ركنًا من أركان نهضتنا الفكريّة الإصلاحيّة وزعيم الناهضين من إخواننا الميزابيّين" [2]

ومما يلاحَظ، في سيَر إباضية واد ميزاب وجربة الزيتونيّين، الحرْص على إيراد أسماء ثلّة من الشيوخ التونسيّين الذين تلقى عنهم المترجَم لهُم.

ففي ترجمة سعيد ابن تعاريت نجِد من مشائخ الزيتونة :

/مصطفى رضوان(ت1322هـ/1904) وقد وصفه الفاضل ابن عاشور (ت1390هـ/1970) بـ"العلاّمة الرئيس الذي كان للنبوغ في المالية والسياسة والإدارة مثالاً فذًّا، ولكفاءة العلماء والفقهاء والأساتذة حجة ناطقة"[3].

وأخذ عنه كذلك سُليمان الجادوي.

---

1 –موقع :التراث www.tourath.org

2 – فرصوص : م.س. ص89

3 – المجلة الزيتونيّة مج9 صص285–288

/أحمد بن مراد(ت1359هـ/1940) المفتي الحنفيّ [1]

/إسماعيل الصفايحي(ت1337هـ/1918) القاضي الحنفيّ المتوفّى في اسطنبول، وهومن أبرز زعماء الحركة الوطنية في عهدها الأوّل[2].

وأخذ عنه كذلك الجادوي

/صالح القايجي(ت1329هـ/1910) المدرّس الحنفيّ في الزيتونة والصادقيّة، ومدير مدرسة ترشيح المعلمين[3]

/محمد الصادق ابن القاضي(ت1330هـ/1911)المدرّس الحنفيّ.

وأخذ عنه كذلك من الإباضية الجزائريّين أبواليقظان إبراهيم

/محمد بيرم(ت1318هـ/1900) المدرّس والمفتي والقاضي شيخ الإسلام الحنفيّ[4]

وفي ترجمة الجادوي نجِدُ :

/عثمان بن المكّي التوزري(ت1350هـ/1931) المدرّس والقاضي المالكيّ، من كتبه :المرآة في إظهار الضلالات. ينتقد فيه الطرق الصوفيّة[5]

/محمد بن يوسف(ت1358هـ/1939)شيخ الإسلام الحنفيّ [6].

وأخذ عنه كذلك أبواليقظان

/أحمد بيرم(ت1356هـ/1937) شيخ الإسلام الحنفيّ[7]

/محمد النجّار(ت1332هـ/1913) المفتي المالكيّ [8]

---

1 – راجع ترجمته : قرين :العلماء التونسيّون ص336

2 –قرين : العلماء التونسيون ص364

3 –قرين : م.س. ص367

4 – قرين : م.س. ص348

5 – قرين : م.س.ص339

6 – المجلة الزيتونية مج3صص408–416

7 – قرين : العلماء التونسيّون صص346–347

8 – قرين :م.س.صص374–375

وفي ترجمة أبي اليقظان إبراهيم ، نجِدُ :

/محمد العزيز جعيط(ت1390هـ/1970) شيخ الإسلام المالكيّ ووزير العدْليّة[1]

/محمد النخلي(ت1342هـ/1924)[2]

/محمدالطاهر ابن عاشور[3]

/محمد الصادق النيفر(ت1334هـ/1938)[4]، الذي ناله التوقيف عن التدريس بسبب نشاطه السياسيّ، وتعرض للسجن والاعتقال، وترأس الوفد إلى الناصر باي(ت1340هـ/1922) لطلب تزكيته تأسيسَ حزب وطنيّ[5]

/بلحسن النجار(ت1373هـ/1953)المدرّس والمفتي المالكيّ [6]

وفي ترجمة سالم بن يعقوب نجِدُ :

/محمد الزغواني(ت1399هـ/1979)[7]

ولا شك في أن ذكْر الإباضيّة لأسماء هؤلاء الزيتونيّين، هو تعبيرٌ منهم عن اعتزازهِم بهم وتشرّفهم بالتلقي عنهم. وهو أمر طبيعيّ، لأنّ هذه الزمرة من العلماء جمعوا إلى جانب الألمعيّة والتبحّر، الروحَ النضاليّة الصادقة، وسعةَ الصدْر والفكر، وسجيّةَ التفتّح والتواضع.

فأنْ يختار الإباضيّة هؤلاء ويجْلسوا إليهم، ويباهوا بهم، فهذا دليل على أن الاختلاف في العقيدة والمذهب يتضاءل أمام حبّ العلْم والتعلّم، واحترام الآخر والاعتراف به، والانشغال بالهاجس الوطنيّ الإصلاحيّ.

---

1 – قرين : م.س. ص353

2 – الشيخ محمد النخلي وإسهامه في حركة الإصلاح والتجديد .وزارة الشؤون الدينية تونس

3 – ابن الخوجة : شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهرابن عاشور

4 – المجلة الزيتونيّة مج2صص236–238

5 – العريبي : الفكر الإسلاميّ في نصف قرن ص165

6 –محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج5ص15

7 –تراجم المؤلفين التونسيين ج2صص423–424

يقول الجادوي، معبّرًا عن إعجابه بقضاة جامع الزيتونة من أمثال بوعتور(ت1323هـ/1907) وجعيط: "..أولئك هُم نبغاء الجامع الأعظم الذين لمْ تعرف مناصب القضاء غيرهم قديمًا وحديثًا، والذين تدرّجوا..فبلغوا أسمى الدرجات، وازدانت بهم الوزارات، وساروا بالحكومة... سيْرًا عرفه لهم رجال الحماية، وباهى بهم فضلاء الشرق أبناء الأزهر المعمور"[1].

ومما يلفت انتباهنا الزيُّ الزيتونيّ الذي اختار ارتداءَه كلٌّ من سعيد ابن تعاريت وسليمان الجادوي، خلافًا لسالم بن يعقوب الذي يظهر أنه يميل إلى لبْسة العزّابة.

فالظاهر أنّ ابن تعاريت والجادوي قد انسجَمَا مع البيئة الزيتونيّة أيّما انسجام. وقد أوْردْنا سابقًا، ذكريات المودّة والتقدير التي جمعت بين ابن تعاريت وبين الخضر حسين، وحسن حسني عبدالوهاب.

أمّا الجادِوي فتستوقفنا قصيدته التي نشرتها له جريدة "الحاضرة"، بتاريخ 1905/12/05، وهوفي ريْعان الشباب، وعنوانُها "صدى عيد الفطر"، ومهّدتْ لها الجريدة بما يلي : "وَرَدَتْ لنا القصيدة الآتية في رفع فروض الإخلاص للسّدّة الملوكيّة، وتهنئة حضرة مولانا العليّة بعيد الفطر ونعمة العافية. وهي من نظْم الأنجب الأديب الفاضل سليمان الجادوي الجربي من أعيان طلبة جامع الزيتونة عمّره الله. فالتزمنا إدراجها خدمة للأدب ولركاب الجناب الملوكيّ العالي، دام ممدوحًا بالقلم واللسان مدى الأيام والليالي"، وأُولى أبياتها :

تبلّجَ صبْحُ الأمْن واليُمْن واليُسْرِ ... وغادرَنا ليْلُ الكآبة والعُسْـــــــرِ
وأقْبَل من قصْر السعادة منبـــأ ... ونعّم بالأركان في حيرة الفكـــــرِ
إذا ما نمَى أن المليك محمّـــــد ... هوالهادي باشا قد تعافى من الضرِّ
فمِن خاشع لله يشكر نعمـــــةً ... ومن قائمٍ بالذكْر للمِنَن الغُـــرِّ..[2]

---

1 –الجادوي : الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة ص193

2 – بلحاج يحيى : م.س. ص14/ صص137–138

وقد ظهر هذا الانسجام أجْلى، فيما بعْد، حينما لَمع صيتُ الجادوي في أوساط المثقفين والمناضلين على اختلاف أنسابهم ومشاربهم، وتوسعت علاقاته بهم،وازداد تعلقهم به وتقديرهم له، حينما بدأ إنتاجه الصحفيّ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وتنامت نشاطاته الفكرية والسياسيّة. وقد وصفه الشاذلي خزندار(ت1373هـ/1954) ب"أحد الإخوان الأفذاذ، من ذوي الغيرة والشرف..ومن المؤسسين معنا للحركة الملّيّة، من كبار رجال التجارة في سوق اللفّة أيضا، ومن خرّيجي جامع الزيتونة الأقدمين، والمناضل عن ذماره، والمجاهدين الأبطال في كلّ ما يمسّ العقيدة وحرمة الدّين السمح"[1].

وبالتوازي مع حضور دروس الزيتونة والأزهر، يلازم الإباضيّة مدرستيْ الهنتاتي بالعاصمة التونسيّة، والجاموس بالقاهرة، لصيانة انتمائهم، ودعْمه، ومراقبة سلوكهم، وتفكيرهم.

ولمْ نجد في ترجمة سليمان الجادوي ذكْرًا لتلقيه التكوين الإباضيّ الموازي والأساسيّ، حينما استقرّ مع عائلته الثلاث سنوات في العاصمة[2]، وهوما يدلّ على أنّ هذه السّنّة الإباضيّة لمْ تُعْتمَد إلا فيما بعْد، ووجدناها قائمة في عهد الشيخ سالم بن يعقوب.

ولمْ يتّجه الجادوي، بعد أن أحرز شهادة التطويع كما يذكر بعضُهم [3]، إلى الأزهر، كعمَل الشيخ سالم بن يعقوب، بلْ إلى يفرِن بجبل نفوسة [4]، كما فعل سعيد ابن تعاريت، ليتعمّق في الفقه الإباضيّ.

---

1 – راجع : بلحاج يحيى : م.س. ص159

2 – راجع :

بلحاج يحيى : م.س. صص13–16

بن يعقوب : م.س.صص285–289

حمادي الساحلي:الصحافة الهزلية في تونس صص52–53 / محفوظ :تراجم المؤلفين التونسيين ج2ص7

3 – وجدنا الساحلي، فقط، ينقل أن الجادوي تحصّل على شهادة علميّة م.س. ص52

4 – راجع :

فاطمة المعلول : يفرن، دراسة في جغرافية المدن

محمود الكوردي :الحياة العلمية في جبل نفوسة

وهذه عادة علميّة أخرى، هدفها الاستزادة من العلم ، حيث يرْحل الإباضيّ إلى هذه البلدة الليبيّة لينهل من منابع العقيدة الإباضيّة وتراثها. ومما هومعلوم أنّ وفود المشائخ وكذلك الطلبة كانت متبادَلة على امتداد التاريخ بين جربة ومزاب ونفوسة، وكذلك عُمان[1].

وكلا الإباضيّيْن ابن تعاريت والجادوي تتلمذ هناك على الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني(1236–1332هـ/1820–1914) [2]، الذي انتقل هوبدوْره إلى جامع الزيتونة حواليْ س1251هـ/1835 لينهل من معين شيوخه، ثمّ توجّه إلى الأزهر س1259هـ/1843. وكان من العلماء الذين تركوا الأثر الحسن في نشر العلم، وقد أشرف على مدارس قامت بمهمة التربية والتعليم لزمن طويل، منها مدرسة يفرن البارونية التي اضطلعت بدور هام في إثراء الحياة الثقافية في الجبل الغربيّ في ليبيا. وألّف رسالة :"سلّم العامّة والمبتدئين إلى

وراجع عن مجال المناطق الإباضية وحركتها العلمية : محمد حسن : مقدمة تحقيق كتاب السيَر للشماخي ج1صص25–81

ونقرأ عن نفوسة في "معجم البلدان" مايلي :"نَفُوسة.. جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحوثلاثة أميال في أقل من ذلك. وفيها منبران في مدينتيْن، إحداهما سَروس في وسط الجبل، وبها خبز الشعير ألذ من كل طعام، والأخرى يُقال لها جادومن ناحية نفزاوة. وجميع أهل هذه الجبال شُراة وهْبيّة وإباضية متمرّدون عن طاعة السلاطين...وافتتحها عمروبن العاص وكانوا نصارى. ومن جبل نفوسة رجع عمروبن العاص بكتاب ورَد عليه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه" مج5 صص296–297

وراجع : من كرامات جبل نفوسة ضمن كتاب السيَر للشماخي ج2صص771–772

وادخل موقع : www.tamatat.com

1 –راجع : الجعبيري : نظام العزّابة صص287–296

2 – يقول محمد محفوظ : "أسرة الباروني أصلها من جبل نفوسة بليبيا...هاجر فرع منها إلى جربة. ومن الملاحظ أن كثيرا من أسر جبل نفوسة هاجرت إلى جربة مثل الباروني والشمّاخي والجادوي. ومثل هذه الأسر موجودة إلى الآن في المكانيْن. ويمكن للملاحظ معرفة الأصل بتتبع القسمات البشرية ؛ فالأنموذج الجربي يميل إلى القِصَر مثل أنموذج وادي ميزاب، والجبالية يميلون إلى الطول وقوّة البنية. وبعض الأسر الجربية هاجرت إلى نفوسة " ج1ص74

ونضيف نحن أنّ عددا من العائلات المزابية تحوّلت إلى جربة وتواصلت إلى عصرنا، ومنها ألقاب : المزابي، المصعبي، زكري،..

أيمة الدين" في علماء الإباضية، ذكر فيه كثيرا من علمائهم وأصحاب الرأي فيهم [1].

وقد تخرّج على يديْه أقطاب العلم والسياسة من بينهم ابنه الشيخ سليمان الباروني(1287-1359هـ/1870-1940) الزعيم السياسيّ والمجاهد [2]، الذي تعلّم في تونس والجزائر ومصر، وعاد إلى وطنه ليقاوم ضدّ سياسة الدولة العثمانية والاحتلال الإيطاليّ. ثمّ جعله سلطان مسقط مستشارا لحكومته. من مؤلفاته :"الأزهار الرياضيّة في أيمة وملوك الإباضيّة "، وحقّق رسالة والده :"سلّم العامّة والمبتدئين إلى معرفة أيمّة الدين" وطبعها س1324هـ/1906[3].

وإذا كان الشيخ سعيد ابن تعاريت قد كتب شرحًا لقصيدة شيخه عبد الله الباروني تضمّ مائة وعشرين بيتا، ينصح فيها ابنه سليمان عند حلوله بتونس لطلب العلم بالجامع الأعظم س1305هـ/1887 [4]، فإنّ للشيخ سليمان الجادوي قصيدتيْن بعثهما إلى المجاهد سليمان الباروني، الأولى قبْل محاكمته في دولة حافظ باشا، والثانية يهنّئه فيها بالبراءة من المحكمة التركية بطرابلس في محاكمة س1316هـ/1899 والتي كان فيها عرضة للإعدام من أجل تُهَمٍ سياسيّة ملفّقة [5].

ولعلّ هذه الأجواء النضاليّة التي عايشها ابن تعاريت والجادوي في تونس وليبيا، كانت من العوامل المساعدة على أن يكون لهما نصيب في الحراك السياسيّ، وكان الجادوي علمًا بارزًا في هذا المضمار.

---

1 – الزاوي :أعلام ليبيا ص246

2 – يذكر الإباضيّ أبواليقظان إبراهيم أن شكيب أرسلان(ت1366هـ/1946) صرّح أن سليمان الباروني جاهد باسم الإباضية خاصّة وعلى رأس قومه الإباضية الليبيّين. وهي فرْية ومغالطة، لأن الباروني قالها صريحة : "أنا لم أحمل راية الجهاد باسم مذهب أوإقليم وإنما حملتها باسم الإسلام ". وقد كتب أبواليقظان كتاباً عن سليمان الباروني ، تصحيحًا ودفاعًا. فرصوص : م.س. صص40-41

3 – راجع :الزاوي :أعلام ليبيا صص173-174
الزركلي :الأعلام ج3ص129 / ج4ص145

4 –ابن تعاريت : المسلك المحمود في معرفة الردود ص12

5 –بن يعقوب :تاريخ الجزيرة صص287-289

ومما ورَد عند بعْض من ترجَم للشيخ، أنّه تحوّل إلى القاهرة لأغراض تجاريّة فلمْ ينجح، وعاد إلى تونس ليتابع دروس الخلدونيّة [1].

لقد ظهرت إباضيّة الجادوي في جريدته "مرشد الأمّة"، حينما وقف ثلاث مرّات عند العلاّمة الإباضيّ الجزائريّ، الذائع الصيت، امحمد بن يوسف أطفيّش(1233–1332هـ/1818–1914)، الملقّب ب"قطْب الأيمّة"، وصاحب المؤلفات الغزيرة[2].

وقد تتلمذ عليه ولازمَه أشهرًا سعيدُ ابن تعاريت، كما ذكرْنا.

وفي هذه الوقفات الثلاث أوثقَ الصلة بين تونس، والجزائر، وعُمان، وزنجبار، أشهرِ مواطن الإباضية في العالم الإسلاميّ.

ونُورد هذه الوقفات باختصار فيما يلي :

/ ينشر الجادوي تحت عنوان :غرر المدائح الشعريّة، قصيدةً عُمانيّة في ستة وخمسين بيتًا، ويُمهّد لها بقوْله :"سلّم لنا بريد مسقط عاصمة عمان الفريدة الآتية، وهي من نظْم الشاعر الكبير والعلاّمة الخطير مفتي الديار العُمانيّة الشيخ محمد بن شيخان السالمي. مدَح بها مجتهد العصر وحجّة الدهْر، مولانا وشيخنا الشيخ محمد بن يوسف طفيش المصعبي أطال الله بقاءه ونفع بعلومه الإسلام والمسلمين آمين وذلك إثر وصول شرحه لكتاب :النيل وشفاء العليل، وتفسيره الكبير :هميان الزاد إلى دار المعاد، للعاصمة المشار لها، فبادرْنا بإدراجها خدمةً للإماميْن وللأدب الفحْل " [3]

/ تحت عنوان :بدائع المدائح الشعريّة، ، ينشر الجادوي قصيدة تضم ستة وسبعين بيتًا، قدّم لها بالقول :"بعث إلينا عالم جزيرة العرب وشاعرها الفذّ حضرة الأستاذ شرف الدين صديقنا الشيخ عيسى بن القاضي صالح بن عامر الطيواني من مشاهير علماء مسقط بقصيدة مدح بها إمام المفسرين وخاتمة

---

1 – محمد حمدان : أعلام الإعلام في تونس ص72

2 – راجع للتوسّع في ترجمة هذا العالم الجزائريّ : بوعجيلة :المذهبيّ والتاريخيّ والنقديّ في تيسير التفسير الإباضيّ صص24–53

3 – الجادوي :الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة ط.تونس1323هـ/1925 صص56–57

الأعلام المجتهدين حكيم الأنام وشيخ الإسلام شيخنا الشيخ سيدي محمد بن يوسف المصعبي نفعنا الله تعالى بعلومه آمين. فبادرْنا لإدراجها خدمة للأدب الغضّ ولذوي العلم والفضل "[4]

/ يكتب تحت عنوان :صدى فاجعة العلم والدّين بالمشرق، :" ما كاد نبأ فاجعة العلم الكبرى ورزية الدين العظمى بوفاة حبْر الأمّة وانتقال قطب الأيمة فخر المفسرين وخاتمة الأعلام المجتهدين العارف بربه شيخنا سيدي محمد بن يوسف آل طفيّش رضي الله عنه أن يبلغ الديار الزنجبارية حتى ساد الدهش بأرجائها بل وأغمر الأسى أصقاع مطلع الغزالة ومشرق الأهلة ضعْف ما حصل بمغربها الكئيب، حزنًا على كسوف شمسه المشرقة التي كانت تضيء ما بيْن المحيطيْن علمًا لدُنيًّا ضياء سراج الأفق الوهّاج لعوالم الحسّ والشهود. ولمْ نلبث أن جاءنا البريد منها يحمل إلينا وصف ما داهم النوادي العلمية وصدع فزعه المعاهد الدينية هنا وهناك من فقْد ذلك الإمام المجدّد الذي كان ملجأ لشدّ الرحال وفيضًا في فتح غوامض كلّ إشكال. وقد تسابقت قرائح أهل العلم إلى رثائه وذكر فضائله وتعداد كراماته، وتدوين حسناته للعلم والدين بغُرر من المرائي، وفي بديع من القريض. فكان الذي نال أسمى المراتب في ذلك المضمار هوفضيلة عالم الشرق وحكيمه مولانا أبوالمعالي الشيخ سيدي ناصر بن سالم بن عدي الرواحي قاضي قضاة سلطنة الزنجبار العلية في مرثيته البالغة مائة وسبعين بيتًا. وبوصولها إلينا أثبتناها هنا خدمة لمبرّات ذلك الطوْد الراحل وإقرارًا بفضل صايغ درّها وناظم عقدها الحكميّ حتى كانت آية المواعظ والحكمة البالغة والقدوة التي يجب أن يسار على أسلوبها في ذلك السبيل الرهيب. فالله تعالى أسأل أن يعوّض عن الإسلام من يأخذ بيده ويجدد ما عفى عنه فإننا في عصر أصبح الدين فيه كما بدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنا لله وإنا إليه راجعون. قال حكيم الشرق وإمام القريض..."[5].

---

4 – الجادوي : الفوائد الجمّة ص223

5 – الجادوي : الفوائد الجمّة صص331–332

فلئن لمْ يُسافر الجادويٍ إلى وادي ميزاب[1] للاغتراف من النبْع الإباضيّ هناك، فإنّ فؤاده كان متعلقًا بعلمائها ومجاهديها.

ولا نسهوعن أنّ منزع الجادوي الإباضيّ ظهَر من خلال إشارات عابرة في ثنايا مقالاته،

ومنها على سبيل التمثيل لا الحصْر :

/نقْله الأحاديث النبويّة برواية الربيع بن حبيب [2]

/ذكر "كتاب النيل وشرح العليل" في الفقه للثميني الإباضيّ الجزائريّ(ت1223هـ/1808) وشرَحَه أطفيّش[3]

/استدلاله بكتابيْ :"تيسير التفسير"، و"هميان الزاد إلى دار المعاد" لأطّفيّش[4]

/الاستدلال بمنظومة أبي نصر النفوسي وشرح البدر التلاتي الجربي عليها[5]

/الاستدلال بالفتاوى الجادويّة[6]

أمّا استقرار الشيخ سليمان الجادوي الأخير فقد كان في تونس العاصمة، ليمتهن التجارة، والظاهر هاهنا أنه اختارها عن اقتناع خاصة وأنه ينتقد

---

1 –وادي ميزاب أومزاب :منطقة صخريّة مساحتها 80ألف كم2 بالجزائر، تتكوّن من مجموعة الواحات في الصحراء على بعد حواليْ1600كم من الأغواط ن مركزها الرئيسي غرداية، ويسكنها البربر منذ ق5ه/11م . الموسوعة الميسّرة ص3319
وتذكر السيَر الإباضيّة أن علماء جربة هم الذين أحيوْا الحركة العلمية بوادي مزاب في ق10هـ/16م
الجعبيري : ملامح عن الحركة العلمية ص11
2 – تامّل مثلا مقدّمة الفوائد الجمّة
3 – الفوائد الجمّة ص46
4 –الفوائد الجمّة ص462 /ص567
5 –الفوائد الجمّة ص659 /ص675
6 –الفوائد الجمّة صص659–660

المسلمين لعدم اشتغالهم بالمهن الحرّة[1]، وسرعان ما أصبح من مشاهير التجّار الجربيّين بسوق اللفّة، وأصبح دكّانه منتدى يقصده السياسيون والأدباء.

وتذكر الوثائق أن سليمان الجادوي ترشّح لعضويّة "الحجْرة التجاريّة" من جديد س1351هـ/1932 نيابة عن مجموعة المهن الثانية التي ينافسه عليها أحمد بن مامي ابن الحاضرة، الذي قدّم طعْنًا في الكيفيّة التي ضبطت بها قائمة الناخبين من المجموعة الثانية، وقدّم تحفظات حول السوابق العدليّة والسياسيّة لمنافسه الجادوي الذي فاز عليه، وبيّن أنه رجل سياسة، والسياسيّون البارزون همُ الذين أشرفوا على ترشيحه. كما وجّه أغلب أعضاء مجلس العشرة في جمعيّة الشوّاشين المهنيّة عريضة إلى المدير العامّ للداخليّة يعترضون فيها على احتمال تزكية الجادوي لأسباب مهنية، ولأنه نزيل سجون، وسبق أن أفلس، ويساندون أحمد بن مامي الذي ينتمي إلى جمعيّتهم وإلى فئة الأعيان.

وانتهت هذه المواجهة المدعومة بمناورات الإدارة العامة للفلاحة والتجارة والجهة الاستعماريّة بإقصاء الجادوي، رغم قرار الداخلية باقتراح تزكية عضويته، لأن سوابقه العدليّة والسياسيّة لمْ تعُد مبررًا لإقصائه بعد تزكية عضويّته في مجلس قيادة جربة ومجلس الجهة الخامسة.

وأحدث إقصاء الجادوي ردود فعل في الأسواق، وخاصة في صلب التجّار الجرابة، واحتجّت الصحافة على القرار الاعتباطي الذي يمثل طعنة خطيرة للحرية الانتخابية.

ثمّ كانت هذه الضجّة عاملا إيجابيًّا في تطوير نظام "الحجرة"، وأصبح الانتخاب هوالقاعدة، وتحصّل الأعراف والتجّار على نظام نيابيّ أكثر تحرّريّة [2] وقد كان موضوع استقرار الجربيّين خارج الجزيرة ظاهرةً سمّاها المريمي : "الجرابة الشتات"، داخل الإيالة التونسيّة وخارجها، وقد ارتبطت أشدّ الارتباط بمهنتهم التاريخيّة:التجارة فقد بيّن المريمي أن "ظاهرة الجربي"

---

1 –الفوائد الجمّة ص125

2 – خميّس العرفاوي : سليمان الجادوي وقضية "الحجرة التجاريّة"، نصّ أورده بلحاج يحيى : م.س. صص156–158

ارتبطت بهجرة الجربيّين المزمنة، وكان من أسبابها العوامل الطبيعيّة، والردع البدنيّ والماليّ اللذيْن سُلّطا على الجربيّين.

وأثبت أن تونس العاصمة جذبت الجرابة على امتداد العصر الحديث.وقد سكنوها في عهد عثمان داي(1007–1018هـ/1599–1610) الذي أجْلاهم عنها لما كانت جزيرتهم تحت حكم طرابلس، وبنَى لهم يوسف داي(1018–1046هـ/1610–1637) سوقا خاصًّا لتجارتهم. وكان الأمر كذلك خلال القرنيْن 18و19. ولم يستقرّ الجرابة في المناطق الجنوبية من البلاد، وكانوا يترددون على صفاقس إلا أنه لمْ يستقرّ منهم فيها سوى تجّار الفخّار[1].

وقدّم المريمي، اعتمادًا على وثيقة ضريبة "الإعانة"، إحصائيات قديمة تعود إلى س1273هـ/1856،(وهي فترة قريبة من تاريخ ولادة الجادوي)، تهُمّ توزّع الجربيّين في الإيالة التونسيّة، وملخّصها :

/العدد الجملي للجرابة المقيمين في مختلف الجهات :1916نفرًا، وهو ما يمثل36, 8 في المائة من العدد الجملي للجرابة البالغين سن الرشد والذي يساوي 22920نفرًا

/يستوعب إقليم الساحل 279نفرا من الجرابة البالغين سنّ الرشد، وهو ما يمثل58,2 بالمائة من مجموع الجرابة الموزّعين في أنحاء الإيالة

/عدد الجرابة في الوطن القبلي 108نفرا بالغين سن الرشد، وهو ما يمثل22,5 من مجموع الجرابة في نواحي الإيالة

/بنسبة6,2 بالمائة في راس الجبل وفي القيروان

/بنسبة4,5 بالمائة في الكاف

/بنسبة1,6بالمائة في باجة[2].

---

1 – المريمي : م.س. صص235–237

2 –المريمي : م.س. صص235–248

لقد امتاز الشيخ سليمان الجادوي بنشاطه السياسيّ، الذي ملأ فكره وعمرَه. وقد انتُخِب عضوًا في اللجنة التنفيذية للحزب الحرّ الدستوريّ عند تأسيسه س1339هـ/1920.

وسنرجع إلى صدى علاقته المتينة بهذا الحزب، غير أننا نودّ أن نقتطف فيما يلي مقطعًا من مقال موسّع سمّاه الجادوي :"الاحتفال العظيم بالإفراج عن الزعيم"، كان من الدلائل على تعلّقه الصادق بالشيخ الثعالبي مؤسّس الحزب ورمز الكفاح التحرّريّ.

يقول الجادوي :"من المعلوم وأن لسائر الأمم أعيادًا ومواسم دينيّة ودنياويّة سياسيّة، وأنّ لها أيامًا ملحقة بها شأنًا واعتبارًا... وعليه فلا غروإذا قلنا وأن من الأيام التي تؤخذ كعنوان على الاتحاد العامّ شعورًا ووطنيّة، وانتشار ذلك بكيفيّة مدهشة فيها على طبقات الأمّة التونسيّة، هو يوم إطلاق الأستاذ الشيخ الثعالبي، معلنة فيه براءته من سجن سيق إليه إثر قيامه بمصلحة عامّة وخدمة وطنية مساقا لهما بوجدان صادق وخلوص ضمير، شأن كبار النفوس المسؤولين لشعوبهم وبلادهم بالسيْر بهم إلى الرقيّ والنهوض...نعم خرج الأستاذ في ذلك اليوم الجدير بأن يكون من بعض الأيام التي أشرنا إليها آنفًا...إن الاحتفال لم يكن قاصرًا على الإفراج وإطلاق الزعيم ذاتيًّا لنعوته العالية، وفصاحته السحبانيّة، وصبره على الشدائد، بل كان أيضًا للمسألة التونسيّة التي تزعّم أمرها حتى التفّت حوْله القلوب وأجلّتْه إجلالها للدستور... وأهنّئ الأمة في زعيمها مجدّدًا لها الحثّ على العمل ثمّ لها أن تثق بالمستقبل ما عملت في دائرة الهدووالصدق والإخلاص"[1].

وقد احتلّ الثعالبي ذو الأصول الجزائريّة، في قلوب الإباضيّة التونسيّين والجزائريّين مكانة سامقة، فهورمز الجهاد ضدّ الاستعمار والاستلاب، وعنوان الثقافة الدينيّة الصافية، ورسول الوحدة العربيّة والإسلاميّة.

ونذكّر أن الشيخ سعيد ابن تعاريت كان هو الآخر قد تعرّف إلى الثعالبي، وكان انخراطه في الحزب منذ س1340هـ/1921.

---

1 – الجادوي : الفوائد الجمّة صص511–514

كما كان أبواليقظان إبراهيم أنموذجًا من إباضية ميزاب الذين التفُّوا حول الشيخ الزعيم، يقول الإباضيّ أحمد فرصوص متحدثا عن أبي اليقظان : "ومن مدارسه الأساسية السياسية، فضيلة الشيخ عبدالعزيز الثعالبي. وسمّيْته مدرسة، لأنه فعْلاً كان عبارة عن مؤسسة تربويّة سياسيّة. وكان الشيخ أبواليقظان رحمه الله يحدثني الشيء الكثير عن الثعالبي. ومنذ أن تعرّف عليه لمْ يقطع الصلة به، وكان يلازمه ملازمة الظلّ في الجلسات الطوال بحلق الواد، وكان يقصده مشيًا على الأقدام من وسط العاصمة التونسيّة. وبحُكْم معاشرته له، عيّن الشيخ أبواليقظان عضوًا إداريًّا في اللجنة الأدبيّة للحزب الدستوري التونسي بالإجماع، فقام بدوْره أحسن قيام في صفوف المجاهدين لنصرة الإسلام والمسلمين خاصة في شمال إفريقيا. ونذكر أن الفضل يرجع إلى الشيخ الثعالبي في تكوين الشيخ أبي اليقظان تكوينًا أهله إلى معرفة السياسة العامّة، ومعرفة ما يجري بالمحافل الدوليّة آنذاك، حتى أن الشيخ أباليقظان ألّف وبإيحاء من الشيخ الثعالبي مخطوطًا يحمل عنوان :شذرات حكميّة وسياسيّة "[1] .

واقتحَم سليمان الجادِوي س1324هـ/1906 ميدان الصحافة، فكان أحد أبرز أعْلامها، وصَفه خزندار بأنه : "من كبار رجال الصحافة التونسيّة النوابغ"، وقال يرثيه :

هذا سليمان المثال لَمن سعَـــــــى سعْيَ الموَفَّق كلُّنا لهُ يشْهَـــدُ
في السابقين العاملين لنهضـــــــةٍ لهُ موقفٌ بين الكتائبِ يُحْمَـــدُ
كمْ خطَّ في الصحُف الرسائلَ أنجُمًا في كلّ نجْمةٍ في سمائه مُرْشِدُ
مجْموعةٌ من غرْسِه مِسْكيّـــــــةٌ في كلّ سطْرٍ للحقائق مرْصَـــدُ[2]

والفاضل ابن عاشور بأنه :"أحدُ الستّة البارزين الممتازين الذين سمَا فنّ المقال السياسيّ على مطايا أقلامهم..وأنه فارس الدفاع في سبيل الفكرة الدستوريّة الذي لا يتراجع ولا يلين "[1].

---

1 – فرصوص : أبواليقظان م.س. ص33

2 – بلحاج يحيى : م.س. صص159–160

وكتب عنه محمود بيرم التونسي(ت1381هـ/1961) بأسلوبه الطريف : "...لوكان لجميع طوائف تونس ما للجرابة من النظر النافذ والعزيمة الماضية لما دخل إليها أيّ مستعمر. ليس من السهل أن نحصي في هذه السطور القليلة مزايا طائفة غلبت جميع أقليات الدنيا في الاحتفاظ بكيانها، والسبق إلى اقتناء مادة الحياة(أي الفلوس)....فأيّ رجل هذا الذي يكون من صميم الجرابة ويحمل دمهم المركّب من مزيج فينيقيّ،بربريّ، عربيّ، تركيّ، ثمّ ينحرف عن جادّتهم، ويحترف صناعة الصحافة والأدب، في مثل هذا الزمن وفي بلادنا؟ إنه الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة : مرشد الأمّة...الشيخ الجادوي في أشد الحاجة إلى جريدة، وهي وإن لمْ تُرْشد الأمّة، فحسبه أن ترشده وحده، وإن لمْ تنفعها فيكفيه أن ينتفع بها وحده..إذ هومع اشتغاله بالصحافة يشتغل بالتجارة، وعلى الأخصّ في التاي والسكّر والمنتوجات الثمينة الخفيفة التي تأتي من الشرق، وله عملاء في الجزائر ومراكش وكلّ ناحية في إفريقيا الشماليّة. يسلمهم بضائعه بطريقة تتعب في فهمها دواوين الجمارك وإدارة الباتيندة. وبنفس الطرقة يستلم بضائعه. إذن فالجريدة تصلح في هذا الموقف، فتدافع عن الاقتصاديات التونسيّة، وتخيف الموظفين والمزاحمين. وعلى كلّ حال فالتاجر الذي يملك جريدة خير من التاجر الأعزل. قل معي مرة أخرى : تحسبها خرقاء وهي صنّاع"[2]،

ووصفتْه جريدة"النديم" بـ"الأستاذ"، فقالت :"..إذا افتخرت الصحافة التونسيّة بالقادرين من رجالها، كان الأستاذ في مقدمتهم غيرة قوْميّة، وإحساسًا شريفًا، وانحيازًا إلى جانب الحق في المواقف كلّها "[3]

وعدّه محمد صالح الجابري(ت1430هـ/2009) من بين كتّاب النقْد السياسي، وسيفَ ديمقليس، مسلّطًا على رأس الاستعمار في مطلع القرن العشرين[4].

---

1 –ابن عاشور :الحركة الأدبية والفكريّة في تونس صص147–148

2 – بيرم التونسي :الأبطال...بالريشة والقلم سليمان الجادوي. بلحاج يحيى : م.س. صص141–143

3 – الجابري :القصة التونسيّة: نشأتها وروّادها ص65

4 –الجابري : م.س. ص50

صدَرت للصحفيّ المناضل سليمان الجادِوي ثلاث جرائد :

/المُرْشِد، س1324هـ/1906، واستمرّت بتقطّع عامَيْن، وهي جريدة أسبوعيّة نقديّة ذات اتجاه إسلاميّ إصلاحيّ. كما تصنَّف بأنها جريدة علميّة سياسيّة قضائيّة تجاريّة.

/أبونواس س1327هـ/1909، واستمرّت عامَيْن، وهي أسبوعيّة هزليّة نقديّة

/مُرْشد الأمّة، وهي التي استمرّت من س1327هـ/1909 إلى س1370هـ/1950، وجمع مختارات منها في مجلّد عنوانه :" الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة " [1]، ظهر في طبعة أولى، ولعلها الوحيدة س1343هـ/1925، وتراوحت مقالاته بين سنتيْ 1324هـ/1906 و1343هـ/1925.

وقد وعد الجادوي بأن يفرد منتخبات من جريدة "أبونواس" والقسم الفكاهيّ من "المرشد" و"مرشد الأمّة" بجزء خاصّ [2].ولكن لمْ يتمّ ذلك.

وعلى كلٍّ، ندَعُ الجادِوي يصف كتابَه، ويذكر عمَله فيه، وهدفَه منه، فيقول :" كان سفرًا تاريخيًّا سياسيًّا أدبيًّا، [كان سفرًا حافظًا لدوْر من حياة فكريّة لشعب أخذ في النهوض، بعد أن طال به الاستخذاء ثمّ استفزّته آلام الرضوض، كتابًا جمع شوارد الفصول للمراجعة، وأثرا لمن قطع فترة حياته العامة في الإرشاد والمقارعة، حاويًا لما دون فاتحته وخاتمته لنحومن مائة وتسعين مقالا عموميًّا. وذلك بعْد الحذْف والإيصال والتهذيب والإكمال،مما لا يخرج مجموعها عن إعطاء صفحة صقيلة من الحياة الفكريّة في الأمّة التونسيّة تربط مابيْن طرفيْ سنة1423 وسنة التاريخ. وهو دوْرٌ لا يقل عن عشرين ربيعًا. ثمّ أُضيف له ما ذكرْناه استطرادًا في هاته المقدمة فلا يكون أقلّ من ثلُثيْ قرن

---

1 – هذا العنوان شبيه ب"كنز الرغائب في منتخبات الجوائب" وهي الجريدة التي أصدرها أحمد فارس الشدياق(ت1304هـ/1887) في أسطنبول س1277هـ/1861. راجع :حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة صص141–164

2 – الجادوي :الفوائد الجمّة ص780

وزيادة، مما نرجوإن شاء الله تعالى أن لا يذهب فيه العمل لغير الإفادة والاستفادة...ثمّ إتماما للفائدة التاريخيّة قد أضفنا إلى الكتاب رسوم بعض رجال الإصلاح في الشعب التونسيّ الواضعين أساس نهضته التمدينيّة، والمؤيّدين لها طوْرًا إثر طوْر، من وزراء، وزعماء، وصحافيّين، وكُتّاب، ومفكّرين ن وهيئات شعبيّة، ووفود دستوريّة حتى يكون أثر المصلحين في الأمم خالدًا، ومصدر الإخلاص الوطنيّ على توالي العصور ماثلا شاهدًا"[1].

وسنعتمد هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا في كلّ ما سيرِد في هذا المبحث الثالث.

ولعلّ الله يهيّئ لنا من أمرنا مستطاعًا، فنرجع، بمشيئته، إلى المقالات التي لمْ تُودَع في هذا السفْر، لنعاينها ونستقرئها ونثريَ بها ما نصل إليه.

---

1 – الجادوي : الفوائد الجمّة صص11–12 /ص775 وهوماوضعناه بين معقفيْن

1-الصِّحافة في الصّحافة[1]

تُعرّف "الصّحافة" بأنها صناعة إصدار الصحُف، وذلك باستقاء الأنباء وكتابة المقالات والتحقيقات وغيرها، والتقاط الصوَر، والحصول على الإعلانات، ونشر هذا كلّه في الصحف والمجلات، وتولّي إدارتها وتوزيعها.

وقد عُرفت الصحافة الحديثة في ق11/17هـ. وفي العالم العربيّ، اقترن مولد الصحافة بحمْلة بونابرت س1798، إذ أصدرت الحملة في القاهرة وفي السنة نفسها جريدتيْن باللغة الفرنسيّة، ثمّ أصدرت عددا كبيرًا من المنشورات العربيّة والفرنسيّة التي كانت تقوم مقام الصحف، إلى أن أصدر محمد علي جريدة الوقائع المصريّة س 1243هـ/ 1828.

أما في تونس، فكانت أوّل صحيفة هي جريدة "الرائد التونسيّ" س1277هـ/1860 [2].

---

1 - راجع فيما نورده هاهنا : م. صص40-44/صص80-84/صص345-49د/صص514-521/صص536-552 / صص717-725

2 -الموسوعة العربية الميسرة صص2078-2085

ويورد عمايرية أن أوّل جريدة ليست "الرائد" بل سبقتها جريدة أخرى بالإيطالية هي "القازيتادي تونيزيا" ظهرت منذ فيفري1860، وصدر منها اثنا عشر عددًا كان العدد الأخير بتاريخ 1860/08/01 أي بعد بداية بروز الرائد بالعربية . الصحافة وتجديد الثقافة م.س. صص212-213

وقد ضاءل الجادوي من قيمة هذه الجريدة، منتقدًا صنفًا من شيوخ الزيتونة المساهمين في تدنّي مستواها؛ فيقول: "..على ضُعْف مادتها واختصاصها بالشؤون الرسميّة قد احتيج إلى استقدام محرّر لها من الخارج، مع اكتظاظ هذا المحيط إذذاك بالعلماء لدرجة الترجيح..ولمْ يكن من عُذْر لأولئك النحارير سوى الترفّع أوالابتعاد عن مواقف السياسة التي يرونها وعرة الولوج غيرَ آمنة المروج. لكنهم وصموا بما يروى عن أحدهم من كوْنها بدعة داخلة عنده في قوله تعالى :ومِن الناسِ مَن يشْتري لهوالحديث ليُضِلّ عن سبيل اللهِ بغيْر عِلْم..".

المصدر صص5-6 .

وراجع، عن تاريخ "الرائد التونسي"، ومنهجها، وموادّها، ومواقفها :

محمد ابن الخوجة : متى كان ظهور الطباعة بالأحرف العربية في تونس. المجلة الزيتونيّة مج4 صص143-150

عمايريّة : الصحافة وتجديد الثقافة صص209-321

أ-المفهوم والمأمول

يقْصر سليمان الجادوي "الصّحافة" على أنها الأمر الذي يُبْحث فيه عمّا يرْفع النوع البشريّ إلى أوْج الكمالات، وسعادة الحياة، ويحُلّ عُقَد المشكلات. ويعتبرها أنجعَ دواء لصداع التأخّر، وجراثيمِ الانحطاط، وعللِ الكسل، وكلومِ الخمول، وأمراضِ التفرّق.

كما يرى الجادوي "الصّحافة" رائدَ العمران، ومعجزة العرفان، ومُوقظة النوْمان، وقائد الإنسان إلى عيشة الرضوان. وهي منبر الأمّة، عليها توضع حاجياتها، وترفع شكاياتها، وتنير بالدليل طلباتها، وتقوم بالترجمة الحُسْنى بين الحاكم والمحكوم. وهي التي تبصر الجهّال، وتولم الأنذال. تبشّر تارة بالخير العميم، وأخرى بالعذاب الأليم. سلطانها فعّال، ونورها. مِدْلال، بها تنهض الأمم إلى شامخ القمم عزًّا ورفعة، ومجْدًا، وهيْبةً، وبأسًا، وشوْكة. فمنها انفلق الصدق، ونبَع الحقّ، وانتفع الخلْق. وهي العضد المتين، والهدى المستبين. وهي هيكل يقام عليه أساس الإرشاد. لذلك طار صيتها، وعلا شأنها بين الأمم الحيّة، حتى صارت هي القطب الوحيد الذي تدور عليه رحى سياسة الحكومات الأوروبية التي امتازت بمدنيّتها ونظامها. وواصل الانقليز، منذ احتلالهم لمصر، العملَ في ترقية الشعب، وإعطاء الحريّة للجرائد العربيّة، بتصييرها في مصافّ الصحف الانقليزيّة من جميع الوجوه "حتى غدوْا مغبوطين بين من ساقتهم الأقدار للاستظلال براية بعض الدوَل، على أن من ينظر لرقيّهم ويطالع جرائدهم يندهش من ذلك التقدّم السريع، ويحكم بادئ بدْء أن بلاد النيل اليوم جزء لا يتجزّأ من أوروبا حرية ومدنيّة ونظامًا "[1].

ويَرى من الأدلة على رقيّ الأمم، إلى جانب وجود الأحزاب السياسيّة، واحترام التفكير والاجتماع، حريةَ النشر، ورواجَ الصحف. و"أيّما قطرٍ وصلتْكَ أنباؤه وهوفي وصف معتبَر من حيث حرية النشر وما في معناه، تحْكُم بأن السعادة مخيّمة في ربوعه، وأن أهله في راحة من الحياة الاجتماعية، وعيش رضي، سائرون إلى استكمال ما نالوه، ونوالِ ما استنقصوه. وبخلاف ذلك

---

1 -م. ص42

تجزم بتعاسة الشعوب التي تبلغكَ الأنباء عنها بأنها مغلولة العقْل، فاقدة لحرية الكتابة والنشر، مسلوبة الإرادة في الخطابة والفكر محجّر عليها المجاهرة بالشكوى.."[1]

ويعرض الجادوي مقوّمات الصّحافة، ومبادئها، وأهدافها، وقد سمّاها ب"شروط إيجاد"، فيَذْكر:

/حرّيّة الفكر

/قوّة العزم والصمود لمواجهة الاضطهاد

/التزام المنزع الثقافيّ الإصلاحيّ لا الماديّ التجاريّ

/عدم التزلّف للحكومات

/عدم خدمة الأغراض السافلة والغايات الساقطة

/نبذ الاحتيال والتدجيل والتضليل

/تجنّب الأنانيّة والميل إلى الحظوظ النفسانيّة

/مقاومة المستبدّين ومحاربة المعتدين

ويعتبر "الصّحافة الحرّة المخلصة الرشيدة" هي الكفيلة بوقاية الأمّة، وحفظ كيانها، وإعلاء شأنها، و"هي لسان الجمهور الذي لا يجرُؤ على تبكيته إلا الغرور". ويؤكّد على أنّ "الضربة العظمى على رؤوس الظالمين، والطامّة الكبرى لكبار المجرمين، والوبال الأعظم على أرواح استبداد المستبدّين، هي الصحافة الصادقة الأمينة، التي طبعت على ضمائرها القيود، وأخرست ألسنتها البنود، ولوّث وجدانها النفاق، ودنّس أعمالها الرياء ". وينادي بملْء فِيه : "إنّ الصحافة منيرة كشّافة، فلْتحْيَ ولْتَعِش الصحافة"[2]

ويُثبت الجادوي للصحف الدوْريّة شأنًا، تُعْرف به في عالم الفكر، وتُعَدّ به من دلائل النهوض في الأمّة والرقيّ في الشعوب، والسعادة في البلاد، سيما

---

1 –م.ص718

2 –م. ص318–319

إذا انتهجت طريق الاتحاد على المصلحة العامّة، وناصرت قضايا الحقّ، وحافظت على المبدإ.

إنّ الجادوي يقْرن الصحافة، أوّلاً وأخيرًا، بالنضال ضدّ المستعمر الذي هوخطر على الهويّة والمجتمع من كلّ وجوهه. فيكون الهدف من القلم أن يسدّد سهامه إلى مشروع الفرْنسة في كلّ أبعاده. ثمّ تتعدّى مهمّة الصحافة إلى القضاء على جرثومة "القابليّة للاستعمار"، كما في تعبير مالك بن نبي(ت1395هـ/1973)[1]، المتغذّية من التخلف والانحطاط والسلبيّة والأنانيّة.

ولمْ يُغادر الجادوي هذا الهاجسُ، فسخّر الجدّ فيها والهزْل في جرائده الثلاث، خادميْن في الفضْح؛ والتعرية، والاستفزاز، والتحْريض.

يقول في تصدير العدد الأوّل من جريدته الهزليّة "أبونواس" :" معاشر القرّاء، لوأنّ الجرائد الهزليّة ما أُحْدِثت إلا للتسلية والفكاهة وجلب دواعي الانشراح، لما أتحفْناكم بهاته الجريدة. ولكنها لا تقتصر على هذه الفوائد الثانويّة، بل إنها تُحْيي النفوس الخامدة، وتربي الأفكار الجامدة، وتقوّي الإحساس، وتبثّ الشعور، وتزيد في الإرباك. فمنزلتها ليست بالسافلة، إذ هي من أعظم عوامل التربية الاجتماعيّة، لأنها تشخّص المحاسن في أجلّ صوَرها، وتمثّل القبائح في أتعس مناظرها، وتهوّلها...فالجرثومة قد تكون فتّاكة، ولكن بخفائها عن الأعين واستصغارها لا تُؤْخذ الاحتياطات اتقاءً من أضرارها. ومتى ظهرت بالمرآة المكبِّرة فإنها تدخل الرعب في القلوب. تلك هي منزلة الجرائد الهزلية في الهيئة الاجتماعية. فلا عجب إذا قلنا إنها من أجل الوسائط للخدمة القوْميّة، بل أقرب طريق للإصلاح، لأن الرمز خير من الهمْز لمن كانوا يفقهون، وبالإشارات يفهمون، إذ أن العقلاء تكفيهم الإشارات وتعفيهم عن العبارات.."[2]

---

1 – راجع: بن نبي : شروط النهضة صص156–160

2 – الساحلي :الصحافة الهزلية م.س. ص54

وقد اقتفى أبواليقظان إبراهيم،الإباضيّ الجزائريّ، أثر الجادوي في اقتحام عالم الصحافة، وسمّى إحدى جرائده الثماني الصادرة بين 1344هـ/1926 و1357هـ/1938: "الأمّة".

وقال في افتتاحيّة جريدته الأولى "وادي ميزاب"..وأبشع من ذلك وأنكى أن تبقى أمة كأمّتنا الميزابيّة ولها مركزها في الوجود، ومقامها في الحياة، ومكانتها في التاريخ، ومنزلتها في الاجتماع، ودرجتها في تحريك التجارة في القطر الجزائريّ، وهي بكماء خرساء لا لسان لها يُعبّر عن مقاصدها، في وقت هي أكثر الأمم اضطرارًا إلى رفع صوتها، وإبلاغ رأيها إلى المراجع الإيجابيّة، وإلفات أنظار الأحرار إلى حالتها البائسة. ولتلافي هذه الحالة الأسيفة عقدنا العزم بعون الله على إنشاء جريدة وطنية إسلامية باسم —وادي ميزاب—.."[1].

وقد استهدف أبواليقظان في جريدته :

/تأييد الحق والحرّيّة والعدالة والمساواة بين كافة الأجناس المتساكنة

/السعي في بثّ روح الاتحاد والتضامن بين سائر المسلمين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم، بتأييد الصلات المتعددة بينهم، ومعاضدة الصحافة الأهلية الحرة

/حسن الوساطة بين الأمة والحكومة بإزالة سوء التفاهم بينهما

/إبلاغ رغائب الأمّة إلى الحكومة

/تشخيص دواء الأمّة وآلامها

/مقاومة الرذائل ونشر الفضيلة

/حثّ الأمة على اكتساب العلوم والمعارف

/إحياء اللغة العربية

/التربية الإسلامية الصحيحة [2]

---

1 –فرصوص :م.س. ص117

2 – فرصوص : م.س. صص117–118

ومن المهمّ التذكير بالإباضيّ الجزائريّ أبي إسحاق إبراهيم أطّفيّش (ت1385هـ/1965)، الذي أصدر من مصر س1344هـ/1925 مجلّة "المنهاج" المناهضة للاستعمار الفرنسيّ.

ويتبيّن بهذا ما للإباضيّة في كلّ من تونس والجزائر، من حسٍّ وطنيّ ووزْن ذي بال، أسْهما بدوْر فاعل في إسناد الحراك النضاليّ، وشحْذ همَم الغيورين على الوطن والدّين.

كما تناول الجادوي مواصفات الصحفيّ الحقّ، فبيّن أنه لا يجْبن ولا يخاف ولا يتملّق ولا يلهث وراء جمع المال ولا يتعامى عن تغيير المنكر. واعتبَر "من المنن الكُبرى، نواله (أي الصحافيّ) حسن الأحدوثة في القوْم، وقبول نصائحه، وإجلال آرائه وأفكاره، واعتباره صادقًا يخدم الأمّة والوطن، لا لغاية، وبلا كلل ولا فتور".

كما نعَت "كُتّاب الأمّة" بأنهم "عيون لا تأخذها سنة ولا نوْم "، وأقلامَهم بأنها "حِراب تمزّق كلّ ستار يعمل وراءه المبطلون"[1].

ووَصف، في تألّم مُحْرق، حال الصحفيّين، بأنهم لا قيمة لهُم بين التونسيّين. فهُم بين السجن، والخطيّة، والتوبيخ، وسماع مُرّ الملام، وقاسي الكلام. واستنكر محاولات تلجيمه بلجام السكوت، ورشْقه بسهام اللوْم والتعنيف، وسوْمِه الصَّغارَ والاحتقار، و" تلك غاية الغباوة، ومجلبة الدمار، وآية الجهالة، ومنتهى الاندثار."

ولمْ يُخْفِ إعجابه بصحافيّي مصر، وتبرّمَه بقصور زملائهم التونسيّين عن بلوغ ما وصلوا إليه إذ يقول :".. فهلْ من مُسْعد لبلاد النيل غير الصحافيّين؟ لا والله، فهل بلغْنا ما بلغوه من إفراد الانتقاد على الأمراء والوزراء؟ كلا والله.هل نفعَنا الركونُ للسكوت والسكون، وقهْقرَهم تجاهُرُهم وإعرابُهم عن مكنونات ضمائرهم ومخدرات عقولهم دون مخافة الرقيب؟ حاشا والله، هل جريدة؛ حبيب الأمّة ؛ التي رماها الحسد بالتطرّف والخروج عن موضوع

---

1 – وراجع، مثلاً، :فؤاد توفيق العاني : الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة م. صص318–319

الصحافة كتبتْ ما يكتبه فؤاد في جريدته ؛ الصاعقة ؛ من الانتقادات..ضدّ أعاظم مصر؟ أبدًا والله.."[1]

ب-الكفاح الصحفيّ

لقد شخّص الجادوي واقع "صاحبة الجلالة" كما ينبغي. كيف لا وهوالذي كابد معاناة الصحُفيّ والتنكيل بالصحافة المتقلّبة بين اليأس والأمل، من خلال القوانين والأوامر، وأهمّها :

-أمْر 1884/10/14(1301هـ): أوّل قانون للمطبوعات

-أمْر 1893/03/06(1310هـ): تخويل الوزير الأكبر منع رواج الجرائد وتسليط العقوبات

-أمْر 1897/01/02(1315هـ): فرْض الضمان على عموم الصحافة "فكُمّمتْ الأفواه، وخرست الألسن، وجفّت المحابر، وانكسرت الأقلام، وأظْلم جوالبلاد التونسيّة "[2]

-أمْر 1322/1904هـ: رفْع الضمان

-أمْر1910/07/15(1328هـ) إلزام أصحاب المطابع عرض المؤلّفات والعدد الأوّل من كل جريدة جديدة على المحافظة قبل نشرها بأربع وعشرين ساعة

-أمْر 1911/11/08(1329هـ) :غلْق الجرائد الوطنيّة عدَا جريدة "الزهرة"

-أمْر 1920/02(1338هـ) : إلغاء قرار الغلْق. فصدرت صحف كثيرة جديدة كانت كلها متلاقية في المنهج، تدعوإلى التكتّل الاجتماعيّ، والإقدام على المطالبة بالحقوق وإنشاء المشاريع، وتنوّه كلّها لسانًا واحدًا بالشيخ الثعالبي، وتؤازره، وتستمدّ التوجيه من لدنْه. وانطلقت تُكوّن الارتباط بين الشعْب، وبين المركز السياسيّ في باريس، وتشرح أصول البرنامج السياسيّ الذي يكون الارتباط عليه، بأن حُكْم البلاد ينبغي أن يكون شعبيًّا دستوريًّا نيابيًّا، وأن أجهزتها القضائية والإدارية يجب إصلاحها، على أساس قوْميّ

---

1 -م. صص42-43

2 - م. ص540

عصريّ يوجّه التصرّف الحكوميّ نحوالمصلحة الشعبيّة على مبدإ ضبط المسؤوليات وتفريق السلط. وبلغ عدد الكُتّاب السياسيّين في هذه المرحلة المائة، والمقالات السياسية التي تكتب كل شهر المائتيْن. وأصبح الشعور الوطنيّ عقيدة شعبيّة راسخة.[1]

ويُورد الجادوي، في هذا السياق، نصّ احتجاج الحزب الحرّ الدستوريّ على تنقيح قانون المطبوعات الصادر في جانفي1340/1922هـ

وخلاصة مافيه :

/من القضايا المسلّمة احتياج الأمم العصريّة إلى الصحافة والطباعة احتياجًا كليًّا لا يوازيه إلا احتياجها لحرية واسعة مكفولة بقوانين عادلة مُصانة، حتى ينتشر التمدّن ويعمّ الإصلاح. ولا يمكن أن يُنكَر فضل الطبْع، والنشر، وحرية الكتابة، في ترقية الأمم وتطوير العقول، وتهذيب الأفكار. كما لا يمكن أن يُجْحَد فضل الصحافة في إزالة الجفاء والحزازات الناشئة بين عناصر السكّان وتعويضها بالوفاق والوئام، وإقناع التونسيّين وحمْلهم على "الإقلاع عن القيام بحقّ الاختصاص بحقوق الوطنيّة وهي طبيعة لهم لمْ تؤيّدهم فيها الشرائع والمعاهدات وجعلهم يعترفون من تلقاء أنفسهم بقواعد المساواة التامّة مع الأقليّات".

/الصّحافة العربيّة قدّمت للمملكة التونسيّة "خدمات فائقة بحِكمة وتجرّد، إذْ هي التي وهّنت معوّقات الوفاق، وجعلت أكثريّة السكّان ميّالين لتطبيق مبدإ المساواة بين الأجناس.

لكنّ الصحافة العربيّة لمْ تنضج إلا في تونس بفضل براعة "صحافيّين قديرين" وسلامة مقاصدهم

/الصحافة الفرنسيّة تحرّض على الانقسام، وتضلّل، وتثير الأحقاد الجنسيّة، وتقاوم مطالب الإصلاح

---

1 – ابن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس صص136–146

/تنقيح قانون المطبوعات الصادر منذ س1884 (1301هـ)، هومصادرة لحرية الأفكار والأقلام، وهدْم لكيان الصحافة الوطنيّة، وتعطيل النهضة الصحافيّة

/تبرير التنقيح بأنه مطاردة للحركة الشيوعية في البلاد، غيرُ وجيه، لأن القيود خاصّةٌ بالصحافة الوطنيّة دون الأجنبيّة

/الحكومة كلما وقعت في مأزق حرج يستوجب منها الابتعاد عن سياسة الغموض، لجأت إلى سلوك سياسة الإرهاب والضغط على أفكار التونسيّين، والتضييق على الصحافة الوطنيّة

/الحكومة تتلاعب بالتشريع وتتمادى في سلب الحرّيّات

/الحزب الحرّ الدستوريّ والشعب التونسيّ يحتجّان على التنقيح، ويطالبان بإلغائه، وإلغاء كل الأوامر الاستثنائيّة المتعلقة بالصحافة المنافية للحرّيّة التي تتمتع بها كافة الشعوب.[1]

واعتبَرتْ "مرشد الأمّة" إلى جانب جرائد "الصواب"، و"النديم"، و"الوزير"، و"جحا"، و"الاتحاد"، و"لسان الشعب"، و"الفجر"، و"البدْر"، في تقرير رُفِع إلى كاتب الدولة التونسيّة العام، وخُتِم بإعلان احتجاجح الصحفيّين، أن تصرفات الحكومة المتعسفة مع الصحافة الوطنية منذ1884 إلى تاريخ صدور التنقيح، تحاول نقْض الأسس القويمة التي قامت عليها الصحافة، وهدْم المقصد الإصلاحيّ الذي شرِع من أجله ذلك القانون. ورأت أنّ التنقيح زيادة عن منافاته للحرّية المرغوبة التي يستحقها شعب ناهض كالشعب التونسيّ، فهوجارحٌ لعواطف التونسيّين جميعًا، ودليل على أن الحكومة التونسيّة مازالت متمسكة بقاعدة الاستمرار في سياسة الضغط والتقييد، وتحيّن الفرص لتكميم الأفواه وانتهاك الحريّات [2].

لقد ابتدأت مكابدة سليمان الجادوي الصلفَ الاستعماريّ خمسةَ أشهر بعد إصداره "المرشد"، حيث حكمت عليه محكمة الدريبة في

---

1 –م. صص536–543

2 –م. صص549–552

مارس1907(1325هـ) بالسجن وغرامة مالية وتعطيل الجريدة. فكان من أوائل التونسيّين الذي سجنوا من أجل حرية التعبير الصحفيّ. وقد تآزر معه آنذاك طلبة جامع الزيتونة، فجمعوا التبرعات حتى يسدّد الغرامة ويعاود غصدار الجريدة

وقد برزت منذ الأيام الأولى لصدور"المرشد" نزعة الجادوي إلى النقد والمشاكسة. إذ لمْ يمض شهر واحد على ميلاد الجريدة حتى شنّ حملة ضدّ السلطة الفرنسيّة في تونس، وضدّ قاضي سليمان، وقاضي نابل، وضدّ شيوخ جربة.

وعادت الجريدة في جويلية من السنة نفسها، ولكنّ الجادوي حوكم مرّة أخرى بعد خمسة أشهر بالسجن وبغرامة ماليّة، يسدّدها مع مدير جريدة"الرشديّة". ويعود هذا الحكم إلى تهجّمه على الباي نفسه.

ويخرج الجادوي في سبتمبر1326/1908هـ إلى قفصة، وصفاقس، وقابس، وجربة، يجمع الاشتراكات لفائدة جريدته، على أن أربعة من شيوخ جربة اتهموه لدى الكاتب العامّ للحكومة باستعمال وسائل التهديد في جمع الاشتراكات، وهذا ما أدّى بعد ثلاثة أشهر إلى تعطّل "المرشد" نهائيًّا.

أمّا "مُرْشِد الأمّة" فقد تعطّلت كغيرها في المرّة الأولى إثر أحداث الجلاّز. ثمّ استأنفت الصدور في فيفري1343/1920هـ.

ثمّ تعطّلت في ديسمبر1343/1925هـ، بسبب شنّها حملة شعواء ضدّ تمثالا لكاردينال لافيجري الذي تمّ نصْبُه وسط العاصمة، كانت وقودَ حرّكت المظاهرات الشعبيّة العارمة .

ثمّ عادت إلى الظهور س1355/1936هـ عندما وصلت الجبهة الشعبيّة إلى الحكم في فرنسا، وتمّ وضع قانون تحرّريّ للصحافة في تونس.

ثمّ تعطّلت في ديسمبر1948(1367هـ).

واحتجبت نهائيًّا في ديسمبر 1370/1950هـ .

وقد اثير الجادوي من أوائل المساجين التونسيّين من أجل أفكارهم ومن أجل حريّة التعبير الصحفيّ [1].

يتحدّث الجادوي عن رحْلة المتاعب، فيقول :"...رأى هذا العبْد أن يقوم بواجب المشاركة في مجال القيام بالعمل العموميّ ويشاطر مَن سبقه إليه قلمًا وتحريرًا، تلبيةً منه لداعي الضمير، وعملاً بأثر صادق المدلول فيه: وإنّ لوطنِك عليك حقًا...حيث إن الاشتغال بالخويصات مع الاستعداد جحود للنعم، وإ، ترْك الواجبات الوطنيّة العامة مجلبة للمصائب والنقم... فدخله خلال سنة1324 بعد رفع الضمان على الصحف الواقع سنة1322 وذلك بتأسيسنا لصحيفة المرشد... إلى أن لاقت حتفها ضحية الجهاد الوطنيّ بقرار وزيريّ أواخر سنة1326 يتخلّل ذلك الأمد القصير تحمّل مقاساة ومعاناة من خطايا وسجون وأتعاب ومحون، علاوة على اللوم والتأنيب الإداريّ المختلف الأساليب، الذي يندُر إغفاله في كل أسبوع نظرًا لحرج صدر الكتابة العامة عن تحمّل ثقل الصراحة في النقد والشدّة في البيان، مستندة في إجراءاتها القاسية المنافية للعدالة والحرّيّة القانونيّة على حداثة الرأي العامّ الوطنيّ بالنشريات الدوْريّة...كانت الإدارة وقتئذ حول ذلك الجهاد الخياليّ تتخبّط في الغضب حيث تنظر إلى القانون فلا تجد مبرّرا لمرادها فيه وترى التحرير فيضيق صدر الإرهاق منها فترسل وراءنا وتبدي لنا من التهديد الصريح تارة والمرمرم أخرى... ذلك بعض ما يتعلّق بالمرشد وأطواره. ثمّ جاء مرشد الأمّة بعده المؤسّس سنة1327 والذي انتهجنا فيه منهج سلفه من حيث المبدأ الذي لمْ تؤثر عليه العواصف ولا أرهبتْه القواصف. مع زيادة الصراحة في القول التي أوجدتها الظروف وأيّدها الشعور الشعبيّ.." [2]

وكما يكتب الجادوي :"كلمة في محاكمتنا الثانية أمام الدريبة بدعْوى إداريّة "[3]، و"إسفار بعد احتجاب"[4]، و"مرشد الأمّة أمام محكمة الدريبة للمرّة

---

1 – حمدان : أعلام الإعلام في تونس صص72–74

2 –م. صص9–11

3 –م. صص107–109

4 –م. صص345–348

الثالثة"[1]، و"مرشد الأمّة وإدارة الداخليّة" [2]، ليكون هووجريدته أنموذجًا في التضييق على الصحافة، فإنّه يكتب"القضيّة الوطنيّة أوكلمة في حرّيّة النشر والتحرير"، ليناصر قضيّة جريدة"العصر الجديد" التي عُطّلت بقرار وزيريّ، وحُوكم مديرها ومحرروها بدعْوى أُقيمت عليهم من قبَل الوزير. وكان يوم المحاكمة، كما يصفه الجادوي "يومًا مشهودًا بمحكمة الدريبة حضرها نحومن أربعة آلاف نسمة".

وممّا ورد في هذا المقال :"...إنّ النتيجة التي تحْصُل من حرّيّة الأقلام وتأييد الشعور العامّ مزدوجة النفع بين الأمم ومَن يحْكُمُها سواء بسواء. وبمثله عكسًا يكون ضرر خنق الأقلام، واضطهاد الأفهام، وإخفات الأصوات، وتحجير الاجتماعات، وما في ذلك المعنى المخيف العاقبة والمنذر بسوء المئال...على أننا اليوم مع حالة صحُفنا التونسيّة والسيف الإداريّ المسلول على رقابها بالتعطيل والإلغاء، بدون حكم وبلا سؤال، فإنه يُشاهد لها صدى حسن في الخارج قد جرّ لذوي النفوذ والحُكم ذكرًا جميلاً، وثناءً جزيلاً، حيث قرأنا في كثير من صحف الشرق المعتبرة إكبار الحرّيّة القلميّة بتونس وعدّوها من حسن تبصّر الحاكم الجمهوريّ وسعة مداركه السياسيّة. وذلك من مجرّد قراءة التحرير فقط لأنهم عفا الله عنهم على غرّة مما لها في الزوايا وفي خبايا الأحكام الإدارية من المعاناة. وفعْلاً أصبح القطر التونسيّ بسبب صحفه مغبوط الحالة وخصوصا من جارتنا الجزائر والمغرب الأقصى اللذيْن هُما على أسوإ حالة أدبية فكرية لا تلائم دعوى الحرّيّة ونشرها والتمدين وبثّه، التي أعأعْيا الأفواهَ التلفظ بها إذا أريد تطبيقها على ما في صحيفة الوجود. ولأجْل ما قررناه كان مقام الصحف الحرّة مكينٌ في الشعب، ومعتبَر الجانب في نظَر الساسة المتبصرين الذين لهم مهارة خاصة في حُكْم الأمم ومقدرة زائدة على امتلاك عواطف الأقوام المستأمنة، والتي استبانت وأن الأقلام التي هي سلاح المحكوم وإن وصلتْ في الحدّة ما وصلتْ فما هي إلا مِدادٌ على القراطيس..ويرون أن التضييق عليها ومصادرتها ضعف في السياسة وضيق

---

1 –م. صص514–520

2 – م. صص651–654

عقل في المنفذين وعمل مستهجَن لا يجلب مبرّة ولا يعود بفائدة على الطرفيْن أبَد الآبدين...على أنّ ترك البلاد خاوية إلا بمن يسبّح بحمد الحكومة أويقتصر على نشر الأقاصيص أوشرح المقاصد الحسَنة والغايات الجميلة من الحاكم نحوالمحكوم، فهيهات أن يحصل للإدارة من ورائه ما تقصده كالذي يحصل لها وتناله من حرية الصحف..."[1]

وفي أسلوب هزليّ مرّ، يُعلّق الجادوي، في جريدته "أبونواس"، على نصّ قرار تعطيل جريدة"النصْر" ، فيقول متهكّمًا :"لَعمْري إنّ هذا القرار قد جاء آية في الحكمة والسداد، لإتيانه طبْق القوانين والأوامر العليّة كما رأيْت، مشيرًا للفصل الذي أوجبه بالسواء، بلا زيادة ولا نقصان، خلافًا لما نعهده سابقًا من القرارات التي تعطّلت بها الصحف كالزهرة، والمزعج، وسبيل الرشاد، والمرشِد، والرشديّة، والصواب، والمضحك، وأبوقشة، والإسلام، والمنصف، وجحا،..فإنها كانت بقرار يقتصر فيه على :عطّلْنا وحجّرْنا. وهوما يُبشّر بأن نظام الدوْلة يزداد تحسينًا على حُسْنه، وما الفضل في الحقيقة إلا لهذا العهد الأنور الميمون..."[2].

لقد كانت جرائد الجادوي صوْت الصّحافة المقموعة المضطهدة، فأطنبت في تشخيص الأزمة، ورفْع المطالب، وتفانت في لذْع الطبقة السياسيّة، تصريحًا وتلميحًا، جدًّا وهزْلاً، دون هوادة ولا مهادنة، إذ يعتبر الشيخُ ذلكَ جهادًا في سبيل الله، وتقرّبًا إليه، وخدمةً للشعب والوطن.

يقول في افتتاحيّة "المرشد" وهي تدْخل سنتَها الثانية :"أنا لا تسوؤني خسارة المال، ولا تحيّرني صعوبة الحال، ولا توالي النوائب، ولا استرسال المصائب، ولا نزول الحوادث، ولا تكرار الكوارث، ولا رزايا الفتون، ولا ظلام السجون، ولا معاكسة الوقت، ولا مصادرة المقت...التي لا منشا لها في الحقيقة غير تجاسرنا على غزاة المستضعفين أولئك الأبالس الماردين الناهبين السلاّبين الخطّافين الخوّانين الخدّاعين المكّارين المحتالين الغرورين الهمّازين اللمّازين الكاذبين الفاسقين الجارمين الآثمين الغاوين المعتدين القاصين الباغين

---

1 – م. صص717–725

2 – بلحاج يحيى : م.س. ص30

الغاصبين الأليمين القسيسين الدجّالين الضالّين، ومحاربة هؤلاء السفلة، عِبادةٌ ثوابها محقّق ومأثرة ذكرها مستطير فتجب المعاضدة عليها والتكاتف تلقاء أنذارها المخطرة وهلاكها المحيط. ولذلك كان ما كان بالأمس، وستكون كذلك في الغد. لأننا لا نحيد عمّا عاهدنا عليه الرأي العامّ ولوقيْد شبْر تلوّن الدهْر أوصعب الأمْر

فإنّا لَقَوْمٌ لا نرى القتْلَ سُبّةً إذا ما رأتْهُ عامر وسلولُ

ولكن في الصالح العامّ، والذبّ على بيْضة الإسلام، لا لغرض النفس، واقتناص الفِلْس، ولا لأثرة بالشهرة، قوّانا اللهُ على الفتك بالأشقياء ما ارتفع الجهْل وقوي العدْل"[1].

وبسبب هذا العدد من الجريدة يُحْكَم على الجادوي بالسجن والغرامة، فيعقّب بعد شهريْن في الجريدة نفسها :"أيُّ ذنب اقترفه الفقير حتى يُساق إلى السجْن قهْرًا ويغرّم مائتيْن جبْرًا؟ هل نبش رمسًا؟ هل اغتصب فلْسًا؟ هل شنّ غارةً؟ هل أثار فتنة؟ هلْ ظلَم؟ هلْ جرم؟ هل جاهر بسوء؟. كلّ ذلك لمْ يقَع، وإنما هوكتب أسطرًا قلائل على لسان أحد الرصفاء تهنئة بدخول الجريدة في السنة الثانية.."[2].

ويعْلن عقيدته الصحفيّة الناصعة، في ثبات قلّ نظيره، فيقول :" قد تُساق الصحُف الحرّة إلى أمام القضاء، وإن لمْ تخرج عن دائرة القانون. وعلى الحالتيْن فلا يزيدها إلا تمسكًا بالحقّ، وثباتًا على منهج الإخلاص والصدق، ولا يشينها ما لمْ تكن وقفتها هنالك في غرض سافل، أعني غير عموميّ في نفسه، بأن كان شخصيًّا بحتًا أولحاجة في النفس الأمّارة. أمّا وفي سبيل الأمّة فشرف وفخْرٌ واعتبار في تاريخها"[3]

وها هو الجادوي في غضبَة عاصفة، يقرّع مَن سمّاهم ب"الجامدين" و"المتقوّلين" و"الجاهلين"، وهُم الذين سرّتهم المحاكمة الأولى أمام الدريبة،

---

1 –م. صص100–101

2 – م. ص108

3 –م. ص516

"التي كانت فاتحة عصر القضايا السياسية وكان الرأي العامّ حديث عهد بالنشريّات الحُرّة"، فيقول :"...أجيبونا يا من اتخذ الخنوثة وسمّاها لياقة أدبيّة، ونجابة عُرفيّة لا يفقهها إلا أولوالأبصار...يا هؤلاء المعترضين وإن كانت لا تجمل مجاراتكم ومناقشتكم لكوْنكم تمثلون الطبقة السفلى من الأمّة في أبشع أزيائها والفئة الرديئة منها في أقبح أشكالها فإنا نقول لكُم كلمة شديدة عملاً بقاعدة إن الكلب تقرعه العصا...وهي أنكم خاملون جاهلون عاطلون مهذارون خطّالون خلاّطون ديدنكم الأخذ من الأعراض..."[1].

لقد كان سليمان الجادوي عميدَ الصحفيّين الأحرار، بما بذله من نضال، وبما جسّده من نكران للذات، وبما أظهره من ثبات ورباطة جأش. وقد لخّص كلّ ذلك في هذا النداء :"أقول لأرباب الصحف الوطنيّة إنه لا يجب أن يوهّن عزائمكم سخْطٌ حلّ ببعضكم، أواضطهادٌ قد ضايقكم، لأنّ مَن يريد الإصلاح والنهوض بالشعب لا يليق به الجبن والخوف على راحته الوقتيّة. على أن رجال الأمّة يشقوْن لشقائها ويسعدون لسعادتها. وليس السخط عليهم واضطهادهم إلا أمورًا عرضيّة تنتهي بحصولهم على ضالّتهم المنشودة وبلوغهم إلى أمنيتهم عاجلاً أوآجلاً والله بصير بما تعملون"[2]

وقد برزت الدعوة إلى وحدة الجرائد الناطقة بالعربية في تونس، إذا لا يمكن للشعب التونسيّ أن يتوحّد إذا كانت صحافته متشرذمة.

ومما ورد في نصّ الإعداد لاجتماع مديري الصحف الوطنية لسنّ قانون داخلي للتضامن على المصلحة العامّة :"...إن الراشدين لا يكون لكلامهم موقع ماداموا هُم غير فاعلين لما به يشيرن على الغير. ورحم الله امرءًا أطلق وثاق عبده من قيود الرقّ ثمّ قام يخطب باستحباب العتق، وبيان ما يترتب عليه من الثواب والأجر، ترغيبًا للناس في تحرير الرقاب للقطع بتأثير مقاله على العقول، وتمكن وعظه من الرؤوس دون أن يُقال فيه : أيا من يداوي الناس وهوسقيم. أو: أتأمرون الناس بالبرّ وتنسوْن أنفسَكُم. أو: لا تنْهَ عن خلق وتأتي مِثلَه... أجلْ قد ارتكبنا إثمًا في زمان مضى غير مأسوف عليه. أما

---

1 –م. صص65–66

2 –م. ص44

اليوم وقد أدركنا الحاجة لما نحن به أحرى. فقد اتخذنا التواصل صديقًا، والالتئام رفيقًا، ابتداءً من الجلسة المنويّ عقدها..."[1].

1 –م. ص81

2-الصحافة الجادويّة

ليس بمستطاع القارئ أن يصنّف مقالات الشيخ المناضل سليمان الجادوي في يُسْر. حيث تسْري السياسة في كلّ نصّ وفي كلّ كلمة وفي كلّ سطْر وفي كلّ فقرة، فهمها مَن فهمها، وجهلها مَن جهلها. ويجري التلميح والتصريح، سرْدًا ووصفًا، نقاشًا وحجاجًا، نقْدًا وانتقادًا، ترهيبًا وترغيبًا، تحريضًا وتثويرًا، مَجْرى المداد على صفحة الجريدة.

ولكن، لا مناص من أن نبوّب هذه المقالات رغم هذا التمازج العجيب، الذي يدلّ على أنّ الجادوي قد محّض قلمه لكلمة الحقّ عند سلطان جائر.

أ-نشْر النصوص

لا يخفى ما للتوثيق من أهمّيّة بالغة، في المحاجّة. وهوفي الصحافة ذوأهداف متعددة، منها :

/تقريب نصوص الاتفاقيات، والأوامر، والقرارات، والتقارير، والعرائض، والخطابات، والمحاضرات، والجوابات، والمقالات، وغيرها، من القرّاء

/نشرُها استحسانًا ومساندة، أواستنكارًا..

/إنارة الرأي العامّ، وتوجيهه إلى موقفٍ ما [1]

/تحليلها ونقدها

/عرْضها على النقاش..

وقد أطلعَنا الجادوي على جمْلة من الوثائق، منها :

/نصّ معاهدة باردو المنعقدة في 1881/05/11(1298هـ)التي تمّ بها انتصاب الحماية [2]

/اتفاق المرسى المؤرخ في 1883/06/08(1300هـ)، وتعليقًا على فصله الأوّل الوارد فيه:" لما كان مراد حضرة الباي المعظّم أن يسهّل للحكومة

---

1 – انظر: الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيَم. مركز دراسات الوحدة العربية

2 –م. صص13–14

الفرنساويّة إتمام حمايتها تكفّل بإجراء الإصلاحات الإداريّة والعدليّة والماليّة التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إجرائها"،

يقول الجادوي :"إن هذا الاتفاق وبالأحرى الفصل الأوّل منه هوالذي يستند له الاحتلال في كلّ إجراءاته الإصلاحيّة...وهوعلى رغم ما فيه، فإن مدلول كلمة –الإصلاحات– هوقيْد مُحكم لا يساعد أبدًا على تسمية المسْخ أوالقلب إصلاحًا في أيّ لغة كانت، اللهمّ إلا في لغة القوة والجبروت. فليجعل الشعب التونسي نصب عيْنيْه هذيْن العقدين وليتمسك بهما حجة ما كانوا عليه.." [1]

/خطاب المقيم بالقسم التونسي في فتْح الجمعيّة الشوريّة [2]

/محاضرة فيلسوف سويسري عن انتشار الإسلام [3]

/خطاب وفد المرسى في02 شوّال1338هـ/1920، وهوالتاريخ الذي رجَا الجادوي أن يُحْفظ له الذكر الجميل في الأمّة التونسيّة، مثل ما لكثير من الأمم أيام كانت مبدأ لمشاريع الرحمة ببني الإنسان[4]

/خطاب وفد الأربعين الذي واجه المقيم سان على إثر وصوله واستلامه لخطة السفارة بعد مواجهة وفد الأمّة الثاني له بباريس.

وقد قدّم له الجادوي بتشخيص الحالة التونسيّة ، ورَد فيه قوْلُه :"نعَمْ لا يُجْحَد أنه حصل للأمّة التونسيّة إيقاظٌ وانتباهٌ، وسرَى في عمومها الشعور بأنّ عاقبة العدول عن المطالبة بحفْظ جانبها، وتأييد ما ترغب فيه من إيجاد كفالات تحول دون ذلك الحُكم العمراني لا تحمد بحال. ومن أجل ذلك نهضت للسير في ذلك السبيل الموصل أسوة بأمم الأرض التي لها حق الحياة في الوجود. وأوّل عمل قامت به على الوجه المحمود بعد أن قدمت كعربون على نيْل ما تطلبه إخلاصَها الفعلي الذي لا تطرق ساحته الشكوك، هووفدها

---

1 –م. صص15–16

2 –م. صص218–222

3 –م. صص340–345

4 –م. صص352–356

الدستوري للجناب العالي، ثمّ وفد باريس الأوّل، ثمّ الثاني، ثمّ وفْد السفارة بالأمس. ولمْ تزل على عزمها واثقة من المستقبل بالمرام شأن من يطلب حقوقًا عادلة شرعيّة من أحرار جمهوريّين "[1]

/جواب المقيم عن الخطاب[2]

/نصّ التقرير الذي قدّمه وفد الأمّة الثاني إلى أعضاء الندوة الفرنسويّة [3]

/الفتوى القانونيّة في الدستور، التي حصل عليها الحزب الحرّ الدستوري التونسي، واعتبرها خطوة متقدّمة، وقوبلت بالإعجاب والابتهاج [4]

/خطاب كاتب عام الحزب الحرّ التونسي على رأس الوفد الذي قابل المقيم الفرنسي أثناء وجوده بباريس في 1921/08/09 (1339هـ)تذكيرا بالمسألة التونسيّة[5]

/جواب المقيم عن الخطاب [6]

/خطاب الكاتب العامّ الحزب الحرّ الدستوري التيجاني بن سالم، الذي ألقاه على الجماهير الغفيرة من التونسيّين في ساحة جامع الهوا، بيّن فيه ما قام به الوفد الأوّل والثاني من الأعمال بباريس في أمر القضيّة التونسيّة [7]

/احتجاج الحزب الحرّ الدستوري على التنقيح الجديد في قانون المطبوعات[8]

/إجابة أحد العلماء في انتشار الفكرة الشيوعيّة في البلاد[9]

---

1 –م. صص387–394
2 –م. صص394–396
3 –م.صص411–424
4 –م.صص473–478
5 –م. صص478–482
6 –م. صص482–484
7 –م. صص438–441
8 –م. صص536–543
9 –م. صص544–548

/تقرير الصحافة العربية ضد التنقيح الجديد لقانون المطبوعات المرفوع إلى كاتب الدولة التونسية العام[1]

/النصّ الذي كتبه كاهية رئيس لجنة المستعمرات والحمايات والنائب بمجلس الأمّة الفرنسي، الذي وصفه الجادوي ب"حبيب التونسيّين"، يناصر فيه القضيّة التونسيّة [2]

/خطاب المقيم العام في افتتاح الجلسة الأولى للمجلس الكبير بتاريخ 1922/12/11[3]

ب-مواكبة المستجدّات

تُعتبر مواكبة الأحداث المحلّيّة والدوليّة، جوْهرَ العمل الصحفيّ. ولعلّ تعطّش التونسيّ إلى أخبار الجرائد في أوائل القرن الماضي، كان أشدّ. إذْ ليس هناك حينها أنترنيت، ولا قنوات تلفزية فضائيّة، محلّيّة، ووطنيّة، وعالميّة، تُسابق الطوارئ، وتُلاحقها، وتستقرئها . ولمْ تكن الإذاعات بالوفرة، والبثّ المتواصل، وسهولة التقاطها، كما عليه اليوْم.

وقد انتقى الجادوي في "الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة"، جملة من الأحداث، ارتأى أنّ لها أهمّيّة وأثرًا في مجريات الحركة الوطنيّة.

ونذكر منها :

/استقبال تونس لوزير الخارجية الفرنسيّ الجديد. واغتنم الجادوي المناسبة، ليوجّه إليه رسالة في المطالب الشعبيّة الملحّة [4]

/المظاهرة الوطنية ضدّ تجنيس اليهود. ويصفها الجادوي فيقول، مؤكّدًا على رفعة تحضّر التونسيّين :"..لمْ يسَع الأمّة التونسيّة إلاّ أن لبّت دعوة التعاضد والمؤاخاة، وحضر الاجتماع فوق العشرين ألف نسمة. منهم من امتلأ

---

1 -م. صص549-552

2 -م. صص569-572

3 -م. صص606-612

4 -م.صص44-48

به الباللماريوم، والباقي عمّر شوارع فرنسا، وباريس، وقرطاجنّة، وجول فري، حيث لمْ يسع المكان المعدّ للاجتماع، وغصّ الخلائق. والكلّ على غاية السكينة والاستبصار. وعند تمكّن الوقت المعيّن، رُفِع الستار على مرسح الخطابة، فتُلِيَت الخطب الاحتجاجيّة على مسامع الحضور،وقد نُشِرت بالجرائد اليوميّة، ثمّ انفضّ المجتمع، ولمْ يحدث أدنى حادث..."[1]

/انتهاء المفاوضات الشوريّة بفرنسا، التي أثارت استياء الوطنيّين، وأخبر الشيخ بأنّ المفاوضين رجعوا بخيبة المسعى، والسمعة الفاسدة، وسقوط الاعتبار، ولمْ يعينوا أمّتهم على إنجاز مقاصدها [2]

/صدور الحكم على رئيس الحزب الوطنيّ المصريّ فريد بك، بسجنه ستة أشهر، لكتابته مقدّمة لكتاب "وطنيّتي".

وقد استقى الجادوي الخبر من الجرائد المصريّة، التي استنكرت تسييس القضاء المصريّ، ومثالَه إلى التواطؤ مع الاستعمار الانقليزي [3]

/زيارة رئيس جمهورية فرنسا فليار(ت1931) لتونس، بعد انتحابه.

واستبق في مقال أوّل هذه الزيارة بشهر تقريبًا، فكتب موصّفًا وضع البلاد ومقيّمًا النتائج التي أسفرت عنها زيارة سلفِه لوبييه (ت1929)، ومجاملاً، ولبقًا في المطلب ورسْم الانتظارات :".. سيَرى حضرة الزائر خطوتيْن خطتهما الجمهورية الفرنسويّة بهذا الشعب نحوالحريّة في هذه الفترة القصيرة التي مرّت بين الزيارتيْن. نعَم إنّ في حرّيّة الصحافة ثلمًا قد أُحْدث مؤخّرًا، وهوإطلاق الحرّيّة في الإلغاء دون أن يكون الموقف مسؤولاً. وفي الهيأة الشوريّة ثلْم أكبر من أخيه وهوتنصيب نوّاب دون منتخبين وفي كل لغة يستلزم النائب منوبا عنه ومن ناب عن أحد دون استنابة فهوفضوليّ. ولكن حيث كانت الزيارة الأولى على عهدها ما ذكرنا وجاء بعدها ما أسلفنا، فإنا نتفاول بأن هذه الزيارة سينجم عنها سدّ لتلك الثلمات وخطواتٌ إثر تلك الخطوات،

---

1 –م. صص160–165

2 –م. صص169–173

3 –م. صص248–252

حتى لا يمرّ مثل ما مرّ إلا وقد أوتينا كثيرًا من الحقّ، وارتفعت حالتنا أكثر من ذي قبْل. ومن علِم أن الرئيس الحالي ليس بقصير الخطى عن سلفه، ويجب أن يكون اسمه مقرونًا بجميل الذكرى وصحيفة زيارته لقطرنا منقوشة على صفحات القلوب يشاركنا في هذا التفاؤل ويقوى له فيه الرجاء، وعسى أن يكون المستقبل بالتحقيق كفيلا.."[1]

وبعْد شهْر من الزيارة يكتب الجادوي :"كلمتنا على الرحلة الفلياريّة للمملكة التونسيّة"، ليصبّ جام غضبه على "الخطباء الحقوقيّين" الذين أغرقوا الزائر في المغالطة، وصناعة الشعر، وتزيين الخيال، والمدْح الزائف، والتمويه، والتضليل، والنفاق [2]

/إشاعة تنازل صاحب العرش الحسيْني محمد الناصر باي(ت1340هـ/1922)عن المُلك. ويصف الجادوي بأنّها صدعت الخواطر، وأثارت الهلع، وبسببها كان الإضراب العام في العاصمة "تعلقًا برضاء الأمير، وحبًّا في بقائه على عرش أسلافه المكين". وهُرِع الشعْبُ بعشرات الآلاف إلى قصْره بالمرسى، ليعبّروا عن شدّة تعلقهم "ببقاء جلالة الملك على أريكة الملك والصوْلجان المهاب الذي آل إليه بوراثة عهد مقدّسة، وبيعةٍ لها أصل في الدين القويم"[3]

ت-النقد والتحْليل

من مبادئ الصحافة :"الخبر مُقدّس والتعليق حرّ". ولذلك يتبارى الصحافيّون في قراءة الأخبار والأحداث والتصريحات والإجراءات والقوانين، وتتبعّها بالتفكيك والتحليل وقراءة ما بين السطور.

وعلى قدْر براعتهم في هذا الحقْل، تكون شهرتُهم، ويظهر تأثيرُهم في الرأي العام وحتى في الساسة وأصحاب القرار .

---

1 -م. صص260-262

2 -م. صص262-266

3 -م.صص558-562

وقد اعتبر الفاضل ابن عاشور ما سُمّيَ بـ"السّانحة"، البابَ الثالث من أبواب النثر السياسي، لمْ يزل مفتوحًا منذ أوّل عهد الصحافة التونسيّة، ويُعرّفه بقوْله :".. هوباب التعليق على الأخبار والحوادث بما يستخلص عبرها، ويستمدّ منها التوجيهات الملائمة لمبدإ الجريدة ومسلكها. وقد ازدهرت الكتابة في هذا الباب، وتفتقت، بسبب كثرة الأحداث واختلافها، ووضوح المناهج السياسية وتباينها، حتى اتخذه كثير من الكتاب طريقة ملتزمة في تحاريرهم الصحفيّة، فلا يبتدئون الكتابة إلا بالتعرّض لحدث يجعلونه أساسًا لموضوعهم، ثمّ يتدرجون في تحْليله، والتعليق عليه، حتى ينتهوا إلى تحصيل الفكرة التي يريدون، وذلك ما يُعرف في الاصطلاح الصحفي باسم :السانحة. وقد كان كثير منهم يعنون بهذا العنوان، وامتاز فيه إلى جانب بطليْه القديميْن :الصنادلي والجعايبي، الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، في جريدة التونسي، لولا أنه كان يطيل في تعاليقه حتى يخرج بها عن الحدّ المألوف للسانحة عند الصحفيّين، وإن كان يزينها بما عنده مَن جمال التعبير ووضوحه، وحسن اختيار الألفاظ، والمزج بين الوصف والتعليق، حتى ينتهي إلى غرضه بانتهاء سرْد أطوار الحادث الذي يعلق عليه"[1].

ولأنّ "الفوائد الجمّة" جمّةٌ بهذه المادة المهمّة ، تتجاذبها العبارة والإشارة، والجدّ والهزْل، واللطف والعنف، وهي سارية في ثنايا مبحثنا، نرى من التكرار إيرادَ أمثلة هاهنا.

ث-الردود

يمكن أن يكون التحليل والنقد الصحفيّان ردًّا غير مباشر، على بعض الأفكار، والتوجّهات والفئات. ولذلك تكون الردود بهذا المعنى مندغمة في شتى الموادّ الصحفيّة.

وما نجده من الردود صريحًا، في "الفوائد الجمّة" سبعة تقريبًا، وهي على التوالي :

---

1 -ابن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية م.س. صص122-123

/ردّ على بعض "المارقين". ويذكر الجادوي أنّه قرأ في جريدة Le Temps الفرنسيّة فصْلاً لـ"كاتب تونسي متستّر اعتاد نشْرَ آرائه أحيانًا فيها. وقد جاء فيه ما معناه : إنّ المسلمين التونسيّين ينقسمون إلى فريقيْن، فريق متشيّع للكنيسة الإسلامية (متعصب) ومنه الصحافة العربية وهو بؤرة التقهقر والجمود. وفريق الأحرار، وهم القائمون بحرّيّة الإصلاح العقليّ، والمؤسسون للجمعيات النافعة والمشاريع المفيدة إلخ...".

وبعْد مقارنته بين الأمّة الإسلامية وبين المسيحيّة، يستخلص الجادوي أنّ كاتب المقال ذووجهيْن، وجه يظهر به للمسلمين أنه من المتديّنين المحافظين، ووجْه يظهر به للأوروبيين أنه من الأحرار المفكرين. وهو بذلك يريد أن يجمع بين النقيضيْن ويحتوي على قلوب الأمّتيْن، ولكن بطريقة الختْل والجمود والاستغفال.

وينصحه بأن يعْدل في كتاباته عن غمز المسلمين، ولمْز الإسلام بالمطاعن التي يعرف فسادها حتى بسطاء المستشرقين فضلاً عن المحققين من المسلمين. كما يوجّهه إلى عدد من المواضيع التي يراها الشيخ جديرة بالدراسة والانتقاد[1].

/ردّ على محاضر فرنسيّ. حيث يُورد الشيخ أنّ مستشرقًا فرنسيًّا خطب بنادي قدماء الصادقيّة، بدعوة من مجلس إدارتها، "فكان خطابُه خَطْبًا في البلاد، إذ نعى فيه اللغة العربيّة، وحرج صدرها عن إيواء مدنيّة العصر وعلومه ومستحدثاته ومستجدّاته، نادِبًا إلى الإعراض عنها، ومُوجِبًا صرف الهمم عن الاشتغال بها إلى تعليم اللغة الفرنسيّة لغة المدنيّة والعلم والإبداع".

ويعبّر الجادوي عن استنكاره لتأييد النشء الجديد للخطيب "بإقرارهم له على غباوته إذ كانوا هُم معه في صعيد الجهل بها على السواء، وإن انفردوا بالجرم الجسيم ". وتوجّه إليهم قائلاً:"لتعلموا أيتها العصابة المفتونة الجاهلة. فوَذِمّةِ العربية، لقد أربيْتم في الذنب على قابيل معلّم القتل لبني الإنسان. فإنه قتَل أخاه وأنتم تقتلون أمّكم وهوقد سنّ قتْل الأفراد وأنتم

---

1 –م. صص122–125

تسنّون قتْل الشعوب. ليْتكم علمتم قبْل أن تكلمتم أن اللغة روح الشعوب كما أن الدين حياتهم. فكيف عمدتم إلى روح شعبكم تزهقونها واستمعتم عليها بمَن لا يهمّه أمرها إن لمْ يرُقْ له مصْرعها الرهيب"[1]

/ردّ على مقال لطبيب تونسيّ نشره بجريدةLE DEPECHE TUNISIEN وعارض فيه مطالبة التونسيّين بدستور. وانتهى معه الجادوي إلى أنّ الأخلاق هي الجديرة به محاربتها، "وللأمّة التونسيّة صحافة وطنيّة وعلماء وكُتّاب درّيّون لا وثوق لها في غيرهم، ولا تعمل إلا بنصحهم، ولا تنقاد إلا لمناداتهم، والطبيب طبيب وله شأن يخصّه"[2]

/ردّ أوّل على حسن قلاتي(ت1386هـ/1966) الذي نشر مقالاً في جريدة "التونسي" [3] تحت عنوان "دار الباي"، وانتقد فيه انتداب المتخرّجين من جامع الزيتونة في القضاء العدلي، لجهلهم بفقه القضاء، ولخلوّهم من شهائد علميْ الحقوق والقانون المدنيّيْن.

---

1 –م. صص125–130

2 –م. صص425–430

3 – وقد أشار الفاضل ابن عاشور إلى ما سمّاه ب"لون الجدل بين الصحف على طريقة المناقشة والمناقضة"، واعتبر "مرشد الأمّة" بكاتبها الشيخ محمد مناشوعيّنة بارزة، قائلاً : " وكثر هذا في المناقشات التي بين أنصار الاستقلال الثقافي، وبين أنصار الامتزاج بالثقافة الفرنسية، خصوصًا في مسألة المدارس القرآنية؛ ومسألة إضراب الطلبة، فكان هدف مهاجمات الصحافة العربية غالبًا في الأمريْن بجريدة التونسي، وكان أبرز الصحف في التهجم عليها، جريدة الزهرة وجريدة مرشد الأمّة، وقد اصطبغ تحرير هذه المناقشات بما يناسبها من التهكم والتورّي والنبز؛ ووصف الكتّاب والصحف بصفات من شأنها أن تثير ذكر مواقف ينكرها الناس، أوتصريحات تختلف مع المناهج الوطنية التي عليها الجمهور، وتتبع المقال الموضوع للمناقشة تفصيلاً بتتبع أفكاره والتعليق على فقره. وقد اشتهر في هذا الباب كاتب زيتوني بارع القلم، حرّر في صحف كثير أخصّها مرشد الأمّة، وولع بإبراز حدّة النقد والأخذ بالمخانق، هوالشيخ محمد مناشو..". الحركة الأدبية والفكرية صص121–122

وإذا وصف الجادوي زملاءه الزيتونيّين بـ"النبغاء"، و"سعَة المدارك"، و"غزارة العلم"، و"بُعْد الغوْر في الأفكار"، فإنّه نعَت قلاتي بـ"الجهْل"، وبأنّه "الحدَث الدخيل" [1]

/ردّ ثان على قلاتي، حول مقاله الذي ندّد فيه بأعضاء الحزب الحرّ الدستوري.

وقد انتهز الجادوي الفرصة ليبيّن "أنانيّة" و"طمع" قلاتي الذي وصفه ب"الرجل الغريب"[2]

/ردّ على "حزْب الخذلان، حركة الشقاق التي كوّنتْها ثلّة من المخذولين"، ويقصد الجادوي المنشقّين عن الحزب الحرّ الدستوريّ.

وقد ركّز الردّ على رسالة محمد نعمان الذي آخذ الثعالبي على كتابه: "تونس الشهيدة"، والحزبَ على شططِه في المطالب [3].

/ردّ على جريدة النهضة في التنديد بسير المحاكم الشرعيّة واستقباح نظامها وتثاقل حكّامها [4]

ج-التاريخ

نزّلت المادةُ التاريخيّة في الصحافة الجادويّة الثقافةَ التونسيّة في محيطها المغاربيّ والعربيّ والإسلاميّ. فكانت "مُرشِد الأمّة" نافذة على صفحاتٍ من التاريخ الإقليميّ والعالميّ، القريب والبعيد ، شحْذًا للروح القوميّة، وتمتينًا للآصرة الدينيّة، واستخلاصًا لعبَر الأيّام.

كما التحمت هذه المادّة بالحاضر الراهن، لتجلّيَ اللامتداد بين الماضي والحاضر، وتثبت أن الحضارة تُبنى بالتراكم عبر مختلف الأجيال.

ومن الأمثلة على ذلك، المقالات التالية :

---

1 –م. صص189–194

2 –م. صص490–495

3 –م. صص484–490

4 –م. صص663–671

/الجزائر . ويقارن الجادوي فيه بين حال الجزائر وماضيها [1]

/الآثار الخالدة. ويقْصد آثار الجزائر التي رصدها أثناء زيارته مدينة تبسّة العتيقة،وذات الارتباط بمدينتيْ تالة وسبيطلة، من حيث الآثار، والخطّ، والموقع [2]

/البلاد المغربيّة، التي يصفها ب"البلاد المهمّة"، و"الأقطار الشاسعة ذات الأمصار العامرة، والبيداء الآهلة، والأراضي الرابعة، والجوالصقيل"، و"البقاع العزيزة الموقع الجليلة الشان". ويتحدّث عن أهلها فيقول :"..لا يروعهم شيْء، ولا يخيفهم غزوالصائلين، مطمئنين متواصلين، لا تنازع بينهم، ولا هُم من المشاكسين. ذلك عندما كانوا يوقنون بالوحدة المِلّيّة، ويخضعون للرابطة القوميّة، ويستميتون في حبّ الولاء. وما كانت لتنفكّ عرى جامعتهم أويهوي جانبهم لدرجة الاحتضار والنزع، لوْلا انكباب مِلكِهم على الملاذّ وتفانيه في الترف الذاتيّ، وتعاليه في البذخ والتبذير..."[3]

/الحرْب الطرابلسيّة والعالم الإسلاميّ. ومما قاله الشيخ محمد مناشو في هذا المقال :"..أرادت إيطاليا أن تسنّ لأوروبا قاعدة جديدة تسعى بمقتضاها لمقصدها إذا سدّت عليها أبواب الاحتلال. ومن العجب أنها مع بساطتها لمْ تهتد إليها إلا إيطاليا فهي مختصرة في جملة وجيزة لا تكلف عناءً وهي :قُم لِأجلس". بتلك القاعدة مدّت إيطاليا يد الإثم لولاية طرابلس الغرب وسلّت سيف البغي والعدوان على رؤوس العثمانيّين.."[4]

/مصر وتونس. وهو تصوير لرواسب الحالة المصريّة، حيث رفع "أشلاء القبط بمصر عقيرتهم على إخوانهم المسلمين المصريّين وهتكوا حرمة الجوار ومزقوا رحم مصر المحميّة". وكانت هذه فرصة لدعوة التونسيّين إلى مراعاة "الوطن" فقط ، ونادى :"لنأتمر لحياة الوطن"[5]

---

1 –م. صص88–91

2 –م. صص687–689

3 –م. صص96–98

4 –م. صص321–324

5 –م. صص274–278

/نبذة تاريخيّة عن اليمن، بمناسبة الأحداث الجارية فيها. وقد تمّ البحث في نشأتها، وطبيعتها، ومساحتها، وأقسامها، وملوكها الأقدمين [1]

/نبذة تاريخيّة أومعلومات سواحٍ في الجنوب الإفريقي. هذا مقال بإمضاء أحمد مفتي مكي، الذي يذكر أنه طُلِب منه أن يكتب شيئًا عن انتشار الدين الإسلاميّ في المستعمرات الإفريقية الجنوبيّة، وبخاصة في رأس الرجاء الصالح. فبادر بالاستجابة نظرًا إلى أن التونسيّين وكل مسلمي الشمال الإفريقي "يسرُّهم أن يقفوا على أحوال إخوانهم مسلمي تلك الجهات".

وقد عرض صاحب المقال نبذة عن المنطقة وسكانها وأحوالهم [2]

/الهند ينهض نهضة دينيّة. فالجادوي يؤكد على أن نهضة الهند إلى جانب كوْنها قوميّة سياسيّة عامّة، قامت على حركة وطنية قوميّة عظيمة تبشّر بتخليص خمُس اليابسة من براثن الأسد البريطاني، فإنها كذلك "نهضة إسلامية دينية عظيمة تبشّر حقيقة بأن فخر اللإسلام سيعاد شروقه من الشرق كما طلع من قبْل".

ويستذكر الجادوي ما أخبر به الزعيم الهندي غاندي(ت1948)، من أن الوطن سيمنحه تكرمة تخلّد ذكْره على توالي العصور جزاء جهاده في سبيل تحرير بلاده.

كما ينقل خطاب "أمّ الهنود الكبيرة"(ت1343هـ/1925) والدة الزعيمَيْن علي شوكت(ت1938) ومحمّد شوكت(ت1931)، الذي ألقتْه في مؤتمر نسائي بجزيرة سيلان عند مرافقتها لابنها علي الذي كُلّف بالتجوّل في الهند لفائدة الخلافة وبثّ دعوة الاستقلال[3]

---

1 م. صص266–274

2 ـم. صص135–142

3 –م. صص735–741 / وقد أشار الطاهر الحدّاد إلى زعامة النساء في الهند، وقيادتهنّ للحركة المليّة، وما نفخْن من روحها في القدس ومصر وسوريا وتركيا، بظهورهن مظهر الشجاعة والتضحية المغذّية لجهد الرجال ونشاطهم، والمنعشة للروح الوطنيّ عمومًا. امرأتنا في الشريعة والمجتمع صص218–219

خ-الدّين

من الطبيعيّ أن يكون للمادة الدينيّة نصيبٌ موْفور في صحافة الجادوي. فهوشيخ زيتونيّ، وقلمُه مُسخَّر في الدفاع عن الإسلام والمسلمين. والكفاحُ الوطنيّ ضدّ المستعمر معنى عميق من معاني ذلك الدفاع المستميت.

والمطالع لـ"الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة" يخال لأوّل وهلة أنّ الكتاب دينيّ صِرْف، إذ الديباجة التقليديّة التي اشتملت على الثناء على الله تعالى، والصلاة على رسوله الكريم، والدعاء بخيْري الدنيا والآخرة، وسرْد الآيات والأحاديث، والموعظة، استغرقت ستّ صفحات كاملة.

وقد سمّاها الشيخ "فاتحة"، وهي بحقّ "خُطبة الكتاب" كما يصطلح عليه بعض المصنفين القدامى. والجادوي نفسُه نشَر نصًّا سمّاه "خطبة السنة الثانية للجريدة"[1].

وقلّ أن تجِد مقالاً للجادوي لا ينتهي بدعاء، أواقتباس من القرآن الحكيم والحديث النبويّ،

مِن مِثْل :

/" والله سبحانه المسؤول أن يجعله من الأعمال الواضحة السبيل، إنه وليّ الإعانة، وهوحسبنا ونعْم الوكيل"[2]

/"وعلى الله المعوّل ومنه جلّ شأنه العون والتوفيق"[3]

/"فسبحان مُحوّل الأحوال ومقلّب القلوب، له الملك والملكوت، وبيده الخيْر وهوعلى كلّ شيء قدير"[4]

/"إنّ الله لا يظلم الناس شيئًا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون"[5]

---

1 -م. صص99-101

2 -م. ص12

3 -م. ص22

4 -م. ص568

5 -م. ص25

/"ويد الله على الجماعة والسلام"[1]

إنّ المادّة الدينيّة في الصحافة الجادويّة، هي التي تجعلها في خانة "الصحافة الإسلاميّة"، كما يسمّيها البعْض، وهيَ وسيلة المحافظين المؤمنين ل"مواجهة" مَن يُسمّونهم ب"المارقين"، و"أعداء الدّين"، و"المتفرنسين".

ولذلك كتب الجادوي على الصفحة الأولى من "مرشد الأمّة" بأنها جريدة "تخدم الملّة والوطن"، ووصف ابن عاشور روحَ كتابة الجادوي بأنها "روح إسلاميّة وطنيّة" [2]، ونعَت الساحلي(ت1426هـ/2004) "المرشد" بأنها جريدة ذات "اتجاه إسلامي إصلاحي"[3]، مع العلم أنه نعت بهذا الوصف، كذلك، جريدة "ولد البلاد" للجربي البشير الفورتي(ت1374هـ/1954)[4]، الذي نشر الجادوي صورته ونعَته ب"الوطنيّ الصادق"[5].

ولا يفوتنا أن الإباضيّ أبا اليقظان صنّف جريدته الأولى ضمن الصحافة "الوطنيّة الإسلاميّة"[6]

وسنفيض القوْل لاحقًا في قضايا الإسلام والمسلمين عند الجادوي، غير أنّنا نكتفي هنا بإيراد ثلاثة نماذج من المقالات الدينيّة :

/"مسيحيّ يتكلّم على بلاغة القرآن"

هو نقْل لما كتبَه سليمان البستاني(ت1343هـ/1925) في أنّ فضل القرآن على الشعر العربيّ يكاد يضاهي فضله على لسان العرب، وأنّ لغة قريش ازدادت رسوخًا في أذهان الشعراء، وشيوعًا بين العرب، كلما دانت قبيلة منهم بالدين الإسلاميّ بعد سماع آي القرآن، وأنه لما دوّنت اللغة وسائر علوم

---

1 –م. ص284

2 –ابن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية م.س. ص148

3 –الساحلي :الصحافة الهزلية م.س. ص53

4 –م.س. ص64

5 –م. ص560

6 –فرصوص :الشيخ أبواليقظان م.س. ص117

العربيّة وغير العربيّة كان القرآن وكذلك الحديث مرجعًا للاستدلال على التعبير وإحكام التركيب وضبط المفردات [1].

وفي هذا الموقف شيءٌ مما يستحقّ أن يُناقش، حسب رأينا.

/"مَن هوأعظم رجل في العالم ولماذا؟ "

هُما سؤالان توجهت بهما جريدة "الوطن" السوريّة، والتي يديرها مسيحيّ، وكان أوّلَ من أجابها "كاتب من أحرار الطائفة المسيحيّة"، كما ينعته الجادوي، وينقُل إجابته.

فأعظم رجل هوالرسول محمّد (ص) لأنّه :

-أُمّيّ وضع في عشر سنين دينًا، وفلسفة، وشريعة اجتماعيّة، وقوانين مدَنيّة،

-غيّر شريعة الحرْب،

-أنشأ أمّة ودوْلة،

-جعل للمسلمين مؤتمرًا ينعقد في كل عام في مكة،

-مهّد الطريق النبوغ لأفراد الأمّة،

-كان الإسلام جمهوريّة حقيقيّة يختار المسلمون رئيسها الذي هوالخليفة،

-سهّل اعتناق الإسلام لغير العرب، وجعل الحكمة ضالّة المؤمن [2]

ويظهر الخلْط جليًّا في هذا الكلام، ولمْ نرَ الجادوي قد صحّح بعض التعابير، أوعقّب بتوضيح بعضها، من قبيل "وضعَ دينًا"، و"جعلَ للمسلمين مؤتمرًا"،إلخ..، فعقيدة المسلمين ترى أنّ الدين وشرائعه سماويّة. وربما كان الإعجاب بهذه الشهادة المسيحيّة صارفًا الشيخَ عن هذه الجزئيّات.

---

1 -م. صص203-206

2 -م. صص256-257

/"الآثار النبويّة المقدّسة"

هو تسجيل لزيارة السلطان العثماني "الدائرةَ الفاخرة التي تحتوي على الأمانات المقدّسة في سراي طوب قبو". وسرَد الجادوي هذه الأمانات المتكوّنة من البردة الشريفة، ومعها خمس وثلاثون قطعة أثريّة مباركة [1].

د-الأدب

لا تحجب عنّا أخطاء الجادوي اللغويّة اللافتة، مما لا يمكن أن تكون أخطاء مطبعيّة، وما في تحريره من قلّة الانسجام، واضطراب التسلسل المنطقي، وما يُغرق فيه من الاستطراد، والبيانات اللغويّة، ومسائل العلوم الآليّة التي ينبوعنها ذوْق التحرير الصحفي، وما يعتري جُمَله أحيانًا من لحْن وسقم في التراكيب [2]، لا تحجبُ عنّا كلّ هذه، أنّ لكتابات شيخ الصحفيّين قيمةً أدبيّة، وأنّ مانشره في صحُفِه الثلاث، كان إسهامًا إبداعيًّا في الشعْر، والنثر، واللطائف.

/الشعْر

لمْ يكن الشعر في "الرائد التونسي" غير الشعر السياسيّ الدائر في فلك الفئة الحاكمة وشؤون البلاد في الدرجة الأولى. ثم انضاف إليه الشعر الإصلاحيّ الذي كان علَمه الأوْحد محمود قبادو(ت1288هـ/1871)، واشتهر بتجديده في المضامين السياسية والاجتماعية، حيث كان ينتقد انغلاق بعض الشيوخ، وفساد القضاء، ويشيد بالدستور، ويمدح التمدّن، ويدعوإلى الأخذ بالعلوم والتقنيات الحديثة. وكان ذلك القاعدة التي تأسس عليها فكر خيرالدين التونسي(ت1306هـ/1889).

وابتدأت الصحافة الشرقية تطلق "الشعر العصري" على الشعر الاجتماعي والحكمي لا سيما الذي يقصد إلى التذكير بالمجد، والتوجيه إلى مسالك النهضة والتحرّر والتجدّد. وبدأ الأدباء والمفكرون التونسيون ينسجون على ذلك المنوال، فبرز محمد النخلي، والخضر حسين، ومحمد

---

1 -م. صص726-728

2 -ابن عاشور :الحركة الأدبية والفكرية في تونس م.س. ص148

الحشايشي(ت1330هـ/1912) الذي أنشأ في معرض باريس س1318هـ/1900 قصيدة في التنويه بحضارة الغرب ومقارنتها بعظمة التاريخ الإسلامي ثمّ حضيض حاضر المسلمين، وسمّاها "العقد النضيد في التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدن العصر الجديد" وتقع في قرابة مائة بيت، وصالح السويسي(ت1360هـ/1941) الذي كان شعره ترجمان سخطه على المجتمع، وثورته في سبيل الإصلاح، واعتزازه بالمجد الإسلامي[1].

ولئن اشتهرت جريدة"أبونواس" بـ"الملزومات" و"الأزجال"[2]، فإنّ "مرشد الأمّة" قد اهتمّت بالفصيح من الشعْر العموديّ .

ففي المدْح، نشر الجادوي : قصيدتيْ محمد بن شيخان السالمي(ت1346هـ/1927)، وعيسى بن صالح الطائي(ت1362هـ/1943) العُمانيّيْن[3].

وفي الرثاء : قصيدة ناصر الرواحي(ت1334هـ/1916)الزنجباري [4]،

وفي الشعر الحماسي :

"يا أمّتي" لفؤاد الخطيب(ت1376هـ/1957) الملقّب بـ"شاعر ثورة الحجاز[5]،

و"صوت الحرّيّة" للشاعر التركي نامق كمال بك(ت1305هـ/1888)[6]،

وفي الحكمة :

---

1 -عمايرية : م.س. صص283-304
ابن عاشور: م.س. صص94-96
2 -الساحلي : م.س. صص55-57
3 -م. صص57-59 /صص223-226
4 -م. صص332-339 / الأعلام ج7ص348
5 -م. صص324-325 / الأعلام ج5ص160
6 -م. صص246-248

قصيد "الإنسانيّة" الذي امتدّ على عشر صفحات[1]، و"عبَر الأيّام" أو"خلع السلطان عبد الحميد" لحافظ إبراهيم(ت1351هـ/1932) شاعر مصر القومي، والذي نشر له كذلك "التهاني الفائقة" بمناسبة عيد الدستور العثماني[2]،

و"هي الحقيقة" للزهاوي(ت1354هـ/1936) وهومن طلائع نهضة الأدب العربي المعاصر، وذومنزع فلسفيّ إسلامي، وكان معروفا بمناهضته للاستبداد[3]،

و"الدهر" لمعروف الرصافي(ت1324هـ/1945) شاعر العراق، وصاحب أناشيد ثورة بغداد إبّان الحرب العالمية الثانية، والذي نعته الجادوي ب"فرزدق العصر" [4]، ونشر له، كذلك، "شكوى إلى الدستور العثماني"[5]، ورثاء قصر شراغان مقرّ مجلس الأمّة التركي بعد احتراقه[6]، و"إلى الأمّة العربيّة"[7].

والذي يُفْهَم من هذه المنتخبات المنشورة، أنّ الجادوي ينشر من الشعر ما كان له مرجعيّة دينيّة مذهبيّة، وبُعْدٌ وعْظيّ، ونزعة قوْميّة إسلاميّة، وصبغة نضاليّة حماسيّة.

ولذلك لمْ نجِد نصوصًا شعريّة، في الغزل، والوصْف، مثلاً، عدَا بعض الشواهد اللغويّة والبلاغيّة المتناثرة.

ولكن أين هو الشعْر التونسيّ الوطنيّ العروبيّ؟!

√النثْر

---

1 –م. صص360–370

2 –م. صص142–144 / الأعلام ج6ص76

3 –م. صص773–774 /الأعلام ج2صص137–138

4 –م. صص230–231 /الأعلام ج7صص268–269

5 –م. صص177–178

6 –م. صص194–196

7 –م. صص206–208

سعى سليمان الجادوي إلى التنويع في صياغة أفكاره الوطنيّة النقديّة الإصلاحيّة.

فإلى جانب الأسلوب المباشر، الذي هو أعْلق من غيره بالعمل الصحفيّ، وهو الذي يعتمد التشخيص، والتفكيك، والتحليل، يعتمد الشيخ طريقة التخْييل الفنّيّ، تفصّيًا من إرهاق الإدارة الفرنسيّة، واستغناءً عن التصريح المعنت.

ونجِد من القطَع الخياليّة الجادِويّة :

/القصّة القصيرة

ومثالها في "مرشد الأمّة" :"فكاهة في مجلس القضاء"، وقد أمضى تحتها "المعرّي" [1]

وفيما يلي مكوّناتها :

الأُطُر المبْهَمة	الشخصيّات بالحضور والغياب	الأحداث
/المكانيّة -البلد الأصلي -المنزل -وكر الفساد -قاعة المحكمة -بلد المهجر	-شاب خليع، وقاضٍ من قضاة المحاكم -فتاة حسناء وثريّة -أمّ الفتاة الرؤوم -أبوها الحنون	-التعارف بين الشاب القاضي وبين جارته الفتاة الحسناء -وقوع الخطيئة -حمْل الفتاة -تشرّدها -دخولها عالم الرذيلة

1 -م. صص208-213

/الزمانيّة		
-الماضي -أشهر الحمْل -الدهر -مدّة الحبْس -أيّام قلائل -سبع سنوات بعد ولادة البنت -ما بين زمن الأحداث وزمن السرْد	-الخدَم -البنت الجديدة -العجوز صاحبة وكر الخناء -الرجال الباحثون عن اللذة الحرام -الرجل الذي قاضى الفتاة -خصومها شهود الزور -الشرطيّ	-مقاضاتها من قِبَل أحد زبائنها، بتهمة سرقة كيس نقوده -حضورها جلسة المحاكمة، برئاسة الشابّ، عشيقها الأوّل -مكاشفتها القاضي الشاب بفعلته معها، وإعلامه بأنه هونفسه مجرم يستحق المحاكمة، وأن سرقته عرضَها وشرفها، أفظعُ من سرقتها كيس نقود، وأنّه هوالسبب في كل ما فعلتْه. كما أعطتْ عبرًا في أن نفوس القضاة لا تقل شرًّ ومكرًا عن نفوس المحكومين، وأن المظاهر خدّاعة... -صحوة ضمير القاضي -تزوّجه بأمّ ابنته -هجرتهم إلى بلد آخر

ولمْ يكن الجادوي، وحْده، الذي وظّف القصة القصيرة في إبداء مواقفه السياسيّة من الاستعمار الفرنسيّ، وفي مقارعة المستعمرين، والتشهير بذيولهم، والمتواطئين معهم من الفاسدين، والتعاطف مع أبطال الحركة الوطنيّة، وشهداء النضال، بل كان واحدًا من مجموعة وطنيّة، سخّرت فنّ القصّ

والرواية في الصحافة التونسيّة، لمنازلة الغزاة، ومن هؤلاء محمّد الحبيب(ت1401هـ/1980)، والصادق الرزقي(ت1358هـ/1939)، مؤسس جمعية الشهامة العربيّة لخدمة المسرح التونسي" س1327ه/1909، ومهذّب مسرحيات أبي خليل القباني(ت1321هـ/1903)اللبناني، وصاحب مجلة "العمران"، وجريدة"إفريقيا"التي استمرّت أربعة أعوام، ثمّ عطّلتْها الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة بقرار من سفير فرنسا بتونس[1].

ولئن استبعد الجابري، في تناقض كما سنرى، أن تكون خواطر الجادوي ذات الطابع الروائيّ من أساليب الرواية، فإنه أثبت فيها "بذور خياله القصصيّ"، الذي نشره ليدافع عن مواقفه، وأكّد أنّ له : " روحًا قصصيّة "، و" أشياء قصصيّة "، انتثرت في عديد مقالاته. ولاحظ فيها أسلوبَه الاستطراديّ الجناسيّ. كما اعتبره ممثّلاً جريئًا لجيل مطلع القرن، بأسلوبه الأدبيّ الموروث عن ثقافة تقليديّة، وكعلامة من علامات الصدام الفكريّ، والمدافعة، والتمرّد. وكان أبطال قصصه من أبرز رجالات السلطة الإستعمارية يذكرهم بأسمائهم، وأحيانًا بوظائفهم "مما يجعل خياله واضحًا، وموضوعاته أشبه ما تكون بتقارير سياسيّة [2].

وقد اختار له قطعتيْن :

ه‍دوكارنيار، التي نشرها الجادوي على "مُرْشِد الأمّة"، لكن يظهر أنه لمْ يخترْها في "الفوائد الجمّة ". ولذلك، بعْد أن يُورد تنويهَ الجادِوي الساخر : " انتهى مدير الجريدة من تأليف رواية دوكرنيار العجيبة، وهي رواية خياليّة، تمثيليّة، فكاهيّة، تاريخيّة. وقد أتى فيها على أدوار ذلك الرجل الخطير، منذ وجوده على هذه البلاد، وضمنها أعماله وظاهره، وباطنه، تخليدًا لحياة الرجل، وخدمةً للأجيال. وقد بعثنا بهذه النسخة إلى الجلالة الديكارنيّة"، يقول الجابري : " وإذ لمْ نتمكّن، رغم الملاحقة، من الاهتداء إلى نسخة هذه الرواية، فإنا لا نستبعد أن يكون هذا النبأ مجرّد مزاح، ووسيلة من وسائل التهديد والتشهير بهذا الذي أوْرد الكاتب ذكره في لقطات

---

1 –الجابري : القصة التونسيّة نشأتها وروّادها صص50–55

2 –الجابري : القصة التونسيّة ، نشأتها وروّادها م.س. صص55–67

أخرى متعددة ة نجدها في الكتاب الذي انتقى فيه مجموعة من خيار مقالات صحفه التي أصدرها..فمن بين هذه المقالات ما يُشبه الحوار وضع له الجادوي عنوان :محادثة بين الوطني ودوكارنيار، ونشره في باب : في عالم الخيال، والمحادثة هذه ن نستبعد ان تكون هي الرواية نفسها التي أشار إليها النبأ السالف الذكر ن نظرًا لقصرها، ولأنها لمْ تتناول موضوعات التاريخ والأدوار الخطيرة التي يشير إليها النبأ" [1]

ه دلماس، الذي جعله الكاتب بطل رواية مطوّلة، نشر منها سبع حلقات متتاليات في جريدة"أبونواس".

ورأى الجابري أنّ أهمّية هذه الرواية لا تكمن في أسلوبها، وفي اعتبارها من أوّليات القصة التونسيّة فحسب، وإنما كذلك في معالجتها مشكلة هامّة من المشاكل التي تأتي مع كل العصور، وتصحب كلّ تحوّل وتطوّر، وهي مشكلة المؤسسات التعليميّة، التي تُصدّر الثورات، وتصنع الوعْي، ومشكلة التلميذ والطالب، عندما يكشف التناقضات ويُفجّرها.

كما عدّ الجابري "رواية دلماس" النموذج التاريخي لميلاد "الرواية المقاومة"، و"القصة النضاليّة" التي عرف منها الأدب التونسيّ أنماطًا أكثر نُضجًا في فتراته الأخيرة. ويضيف : "..هذه الرواية تصبح ذات مغزى عميق، حين ندرك أن كاتبها ينتمي في دراسته إلى المعاهد الزيتونيّة، ولكنّ حوادثها من المعهد الصادقي الذي كان من المعاقل الصلدة في مناهضة الاستعمار، وإنجاب القادة الثائرين. وهي أساسًا تعالج غضبة صادقيّة، يشنّها الطالب على مدير المدرسة دلماس، أجْرى الكاتب حوادثها من زاوية استبطانيّة، تقصّى فيها ذلك الغوْر الآهل بالنوازع والأهواء حوادثها. فأبرز لنا تارة، دلماس غازيًا أمام نفس تزخر بالحقد والكراهية، ومرّة أخرى، نجده يلامس المشاكل على السطح، في تقريرية تصل حتى الإملال. وإذا كان الكاتب لا يقصد، ولن نُقصّده أن يزاوج بين أسلوبيْن : مباشر وخفيّ، فقد مسّ عمله الروائيّ عن غير عمْد، شريانًا هامًّا من شرايين القصة الحديثة، ألا وهو ما ندعوه بالحوار الذاتي أوالمونولوج وما إليهما. أما الإشارات التي قصدت فضح نوايا

---

1 –الجابري : م.س. صص57–58

المستعمر، فتبرز في اتجاهيْن. أحدهما دينيّ، ويركز الكاتب عليه، كأنما يريد أن يقول لنا بأن الاستعمار هو شكل من أشكال الغزوالصليبيّ، غايته خذْل الإسلام والمسلمين.. والاتجاه الثاني هو الاتجاه الوطنيّ، الذي نجد له أيضًا تلميحات كثيرة خلال الفصول السبعة بداية من الفصل الأوّل.. ولعلّ أروع هذه التعليمات هو ما كان أشدّها إيلامًا لنفس دلماس، عندما نراه في نهاية الفصل السابع، وهو يؤكّد على هزيمته مخاطبًا نفسه بقوله : وكيف لا أتوقّى شرّهم، وهُم الآن يشعرون، ويتألمون، ويذبّون عن حقوقهم متى زعموا أنها مهضومة "[1].

/التمثيل المسرحيّ

وهوأن يوزّع المضامين التي يبتغي إيصالها إلى القارئ، بيْن متحاوريْن أوأكثر. ومن الأمثلة على ذلك :

- **محادثة خياليّة بين شخصيّتيْ** : الوطنيّ، والدخيل المستنير والمنصف.

وكان بينهما حوارٌ هادئ، فيه السؤال، والجواب، والاستيضاح، والاستفسار..، وسلّم فيه أحدُهما للآخر ببعض الأفكار .

ويُمكن أن نلخّص كلّ ذلك[2] في الجدول التالي :

أفكار الوطنيّ	المشترك من الأفكار	أفكار الدخيل
-تقاعس الحكومة الاستعمارية عن نشر المعرفة	-قلّة عدد المعلمين والمتعلمين من التونسيّين	-نيّة الحماية نحو التونسيّين، ترقيةُ مداركهم، ورفع غشاوة الجهل

1 -الجابري : م.س. صص60-62

2 -م. صص59-63

-التقليص من المدارس والمعاهد الذي سبق وجودها انتصاب الاحتلال -التونسيّون متشاحنون متخاذلون، مقصرون في الاعتماد على الذات، وهُم جزء من مشكل التعليم، وليسوا الحلّ -من الحلول : مساعدة باريس للتخلّص من سياسة الميْز -مدير الأشغال العامّة يمنع التونسيّين من الوظيف -مدير الزراعة يحتقر الفلاح التونسي ويهمّشه	-انتشار الجهل والخرافة خاصة في الأرياف -محاصرة مدير العلوم لانتشار التعليم في تونس لا يعني أنه قرار فرنسي، بل هودالّ على عنصريّة الرجل وعنجهيّته -سياسة الحماية : عسف وظلم	-الحماية تعتمد سياسة التدرّج في نشر المعرفة -الحكومة تتغافل وتتثاقل عن تغيير مدير العلوم، وهوتقصير -الفرنسيّون بالغوا في غبْن التونسيّين والتنكيل بهم -على التونسيّين أن يتولوْا بناء المدارس والكليات من أموالهم، ولا ينتظروا إعانة الحماية -المدرسة الخلدونيّة مثال حيّ عن الوعي الأهليّ -المطلوب من التونسيّن عدم الاستسلام -في رجال فرنسا من سيأخذ بأيدي التونسيين -العزم على الذهاب إلى باريس لتشخيص الحالة التونسيّة

– **محادثة بين شخصيّتيْ** : الوطن، والعنصريّ victor de carnières (ت1917)، وهي محادثة حادّة، مُلِئت سخرية وتهكّمًا،وفضحت المخطّط الاستعماريّ، وعبّرت عمّا يشعر به التونسيون تجاه هذا المستعمر الفرنسيّ، الذي عُدَّ كبير المعمّرين، ومن عتاة الفَرْنسة، وُلِد س1849 بشمال فرنسا، واستقر بالبلاد التونسيّة لتحقيق أطماعه الاستيطانيّة، فاستوطن بمنطقة سليمان من ولاية نابل، واشتغل بالفلاحة،وترأس حزب الفلاحين في تونس، وقد كانت الإقامة العامّة تخشى لسانه وقلمه، وتميل إلى تلبية طلباته الملحّة، فأصبح هووحزبه السيد المطاع في تونس، وكان فوق رؤساء المصالح وفوق المقيم العام نفسه .

ودخل السياسة بأساليب انتهازيّة مكّنته من الهيمنة على الحجرة التجاريّة، ثمّ من الوصول إلى رئاسة اتحاد العمّال الفرنسيّين.

وتظهر كراهيته للأهالي من خلال أقواله، ومنها : "الأهالي مصابون بالعجز لا يُرجى لهم شفاء من نقائصهم الموروثة"، "إذا اعترض سبيلك عربي وأفعى، فاقتل العربي قبل الأفعى"، "كلّ العرب لصوص ومخربون".

وقد أسّس وأدار بعض الصحف الاستعماريّة، من أبرزها: " La Tunisie Francaise "، و"Le Colon Français". وقد عارض تأسيس "الجمعيّة الخلدونيّة" س1314هـ/1896، واعتبرها مركزًا من مراكز الدعاية لـ"الجامعة الإسلاميّة"، الهادفة إلى توحيد المسلمين تحت راية السلطان، للوقوف في وجه التوسع الأوروبي، كما رأى أن دروس "الخلدونيّة" ومحاضراتها، ستفتّح أبصار التونسيّين على قيَم فلسفة التنوير ومبادئها، كالمساواة، والحرّيّة، وحق تقرير المصير، وتجعلهم يطالبون فرنسا بتطبيق هذه المبادئ في تونس.

كما ندّد بما جاء في برنامج"حركة الشباب التونسي" المعروض في افتتاحية "Le Tunisien" بتاريخ1907/02/07 واعتبره بداية نهاية الحضور الفرنسي في تونس، وطالب بقمع الحركة، وإجهاض كل مساعيها. فهي في نظره ليست إلا امتدادًا ل"حركة الجامعة الإسلامية" التي أرساها السلطان عبدالحميد للدفاع عن المسلمين بوصفه خليفة الرسول على الأرض، ومحاربة التوسع الأوروبي في الامبراطورية العثمانية في الامبراطورية العثمانية، ثم

تبناها الشباب التركي عند وصولهم إلى الحكم في اسطنبول س1326هـ/1908[1].

ونُوجز الأفكار والنعوت [2]، فيما يلي :

أفكار الوطن	نُعوت Decarnieres	أفكار Decarnieres
-الاستعمار= /الانتهازيّة، /الطمع، /الاستبداد، /الأنانيّة، /الإثقال الضريبي، /نشر الجهل /نكْران الجميل	-أحمق -محقاد - عدوالإنسانيّة -مخمور -ضالّ -النفس الخبيثة	-مذهب الفرنسيّين = /سلب المستضعف حقوقه /نهْب أمواله /لا تُسمَع شكواه /لا تُقْبَل دعْواه /جواره خطر /إجلاؤه هوالحلّ /تعبيره عن رأيه خطأ /مشاركته في الشورى خطأ /تعليمه خطأ /ما أخَذه فيه
-مطالب التونسيّين: /تنفيذ مقررات الاجتماعات /نشر المعارف /التخفيف من المجبى		

1 – العريبي : م.س. ص20 /ابن الحاج يحيى : م.س. ص36 / توفيق العيادي : حركة الشباب التونسي ، ضمن كتاب: تونس عبر التاريخ صص65–70

2 –م. صص110–115

/حرّيّة الصحافة /التسوية بين المسلم والأجنبيّ /تسوية الأجور /عدم المسّ بالأراضي الفلاحيّة /الرفق في الأحكام القضائية /احترام الشعائر الدينيّة /رفع التعطيلات عن المشاريع /وضع حدّ لسوء استعمال النفوذ /الأولويّة لليد العاملة التونسيّة /دار للأيتام والفقراء والمشرّدين /السلوك الحضاري		كفاية **-فرنسا أفادت أكثر مما استفادت** /الطرق /السكك /التلغرافات /الإدارات /المدن /الأمن

إنّ هذه المسرحة للأفكار، لئن كانت تنويعًا في أسلوب الكتابة، وإضفاءَ شيء من الطرافة، فإنها لا ترقى إلى العمل الفنّيّ الذي يميّزه الترميز، والإيحاء، والتصوير، والتشخيص العميق، ولا يسقط في المباشرتيّة والسطحيّة.

وقد استدلّ الجابري بفقرة من هذا الحوار، على "النزعة الروائيّة" عند الجادوي، واعتبرها "النموذج الذي يعطي فرصة الحُكم على الأسلوب الإنشائيّ للكاتب المتميّز برداءة الاستطراد والتكرار واستخدام العبارة المكمدة"[1] المكمدة"[1]

/التخْييل العجائبيّ

على طريقة ابن شُهيْد الأندلسي(ت426هـ/1034م)،

والمعرّي(ت449هـ/1057م) .

وقد اعتمد الجادوي هذا النوع في ثلاثة مقالات :

عنوان المقال	التفاصيل
لُغز تحت طبقات الأرض[2]	**الشخوص:** -ملَك شريف، وهوشاعر مفْلق، وكاتبٌ مُغلق -إبليس صغير اسمُه : الفساد -إبليس صغير اسمُه : أبوالخبائث. **الأمكنة:** - عاصمة الشياطين :الجحيم - فندق"العذاب" **الأحداث:** -مُرور الملَك الشريف في سفرة من سفراته على مكان لا يعرف أنه : الجحيم -خروج الإبليسيْن من الجحيم

1 -الجابري : م.س. ص58

2 -م. صص66-68

	-ترحيبهما بالمَلَك لإيقاعه في حبالهما -وقوع الملَك في مكيدة الإبليسيْن -يُسْكنانه في فندق"العذاب"، الواقع في منتصف"البخْت"، أمام مطلع"النكال"، في أحد شوارع "سقَر" الكبرى -يذهب معهما طمعًا في مقابلة أمرائهم، ووزرائهم، وقضاتهم -تنكرهما له بعد مصاحبته إياهما -أصبح وحيدًا شريدًا -فكّر في مهنة يتمعّش منها مدة بقائه في ذلك العالم -أنشأ صحيفة يتوخى فيها طرق الرشاد وينازل بها الأضداد -استياء الأشخاص الذين انتقدهم في الصحيفة -محاكمته عن طريق لجنة متكوّنة من :عضويّة الارتشاء، ومعونة الغبْن، ورئاسة الخراب، -رغم حججه وبراهينه فقد حُكِم عليه بغرامة ماليّة.
	-**النصّ :** رسالة -**المرسل إليه :** جريدة "المرشد" -**المرسِل :** مكاتب الجريدة الخصوصي من السماء الرابعة،

من السماء إلى الأرض[1]	-الموضوع : وصف أحوال ساكني الكواكب وما يجري بينهم من الحوادث الهامّة ذات الشأن التي لونزل عشر معشارها بأبناء البسيطة لاختلّ نظام الكون **-الأحداث التي عاشها المراسل في عالمه العلوي:** /مغادرة مسقط رأسه لزيارة قارّة الاستبداد وعاصمة الاضطهاد، والاطلاع على سير حملة العناد وما يأتونه من البغي والفساد /امتطاء قطار الأصيلان المتوجّه من زُحَل إلى الكيوان /عند تجواله في البلاد، خرج عليه زنجي من أحد القصور، يحمل بطاقتيْن، مكتوب على الأولى:"لا ترتاع مما تبصر وإياك تغيير المنكر، كيْ لا يطرقك الردى، ويذهب سعيك سدى وتكون كالساعي بظلفه لحتْفه"، ومكتوب على الثانية :"اُدخُل لتحظى بالمثول بين يدي القصر، وتُسْعف بما تشتهي من الميْسر" /يدخل القصر الفخم والضخم /يظهر السلطان ليتنزّه، ثمّ ليحكم بين المتخاصمين /يتشكّل مجلس الحكم من : قسيس عضويْن، اسم الأوّل :التعيس، وكنية

1 -م. صص101-104

	الثاني: النحيس رئيس لقبُه: إبليس وقد وصفهم له بعض المعربدين بأنهم :الزعماء، والقادة العظماء /يصيح الامبراطور :"أنا الجبار، أنا القهار، ومَن يُكرم الشقي، ويظلم البري، ويواصل الفجّار، ويقطع الأبرار /يُكلّف المكاتب الخصوصي بتسجيل تفاصيل الجلسة التي كان من نوازلها : احتاجت الدولة إلى توظيف شخصيْن فجاءها ثلاثة، رُفض منهم واحدٌ، لفهاهته وقلة نباهته. لكن أحد الأشرار من المسؤولين السامين وعده إن أعطاه مالاً، بأن يمكنه من إحدى الخطتيْن. ففعل. ولم تمرّ ثلاثة أشهر حتى تحقق له ما أراده، وأخذ مكان أحد الناجحيْن

وكما هو بيِّن، فالقصّة تصوير لمحاكمة الجادوي من أجل أفكاره، ومعاقبته على التعبير.

وقد علّق على هذا "اللغز" بقوله :"تعبيره أوبيانه هوقضيّة القاضييْن، واجتهاد الإدارة وقتئذ، في إثبات الدعوى وإصدار الحُكْم. ثمّ اتضاح الحيْف، والميْل لها، ولتأييد دعواها من رئيس المحكمة الشيخ غفر الله له...بما أبداه من الاهتزاز والارتعاش ضد المطلوب حتى أوْقع سخط العموم عليه..."[1]

---

1 –م. ص66

أمّا الثانية فقد كانت نقدًا لاستشراء ظاهرة الارتشاء، والفساد الإداريّ، واستعمال النفوذ في تحقيق مآرب ماديّة، وانعدام كفاءة بعض الإداريّين.

يقول مكاتب الجريدة بالسماء الرابعة في آخر مراسلته :"..أما السارق اللئيم، والجارم الأثيم، مكوّن الفعلة، وناشي الشنعة، فقد بقي في المنصب على ما له من المرتب، بدون ما لحقه عتاب، أوتناوله مرّ الخطاب، لكوْنه... فليفقه الأريب، وليتدبّر اللبيب في فهم هذا الحُكم العجيب، وما احتوى عليه الرمز من طرائف الغمْز. فإن التلويح أبهر من التصريح، والحقيقة يفضلها المجاز، والإشارة لها ينتهي الإعجاز"[1]

/التخييل البسيط

وجدنا ذلك في تصوير الهمجيّة والنظام، كائنيْن بشريّيْن، عاشا في زمن غابر، ومَرّا بمراحل الحياة الثلاث : الطفولة، والشباب، والكهولة، وتربّيَا في عائلة،إلخ..

وأُريد منه إظهار فساد "غزاة القرن العشرين" باسم "الاستعمار" الذي ادعَوْا وجوب نشره، حتى استباحوا حرْق القرى، وقتل العُزّل. ثمّ الإيماء إلى الفرق بين "الاستعمار الأوروبي" و"الاستعمار الإسلامي"[2]

√اللطائف الأدبيّة

نختار منها ثلاثة أمثلة :

/" اللغة العربيّة : كيانها، محاسنها، فوائدها " [3]

لا يمكن أن نعتبر هذا المقال بحثًا علميًّا نقديًّا، لأنّه سلك مسلك المفاخرة، والمنافحة التي تضمّنت مقصد الإتحاف، والطرافة، والفسْحة اللغويّة والبلاغيّة .

وقد أثبت كاتب المقال ما يلي :

---

1 –م. ص104

2 –م. صص68–70

3 –م. صص145–149

-اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يخبر بها عن أي غرض كان، دون تكلف أواحتياج إلى إدخال لفظ أجنبيّ عنها، ولوكان المتكلم بها طبيعيًّا، أوفلسفيًّا، أومعلمًا طبيًّا،..بخلاف بقية اللغات الأخرى

-تشتمل على نحو5525000 مفردًا بخلاف بقية اللغات الأخرى

-مترادفاتها كثيرة

-وفرة تشبيهاتها وكناياتها ومجازاتها ومحسناتها البديعيّة

-الخطبة العربيّة أشدّ تأثيرًا من الخطبة الفرنسيّة

-اللغة من الأخلاق

/" لطائف أدبيّة " [1]

تحت هذا العنوان، يشدّد الجادوي النكير على أحد الخطباء السياسيّين المتملقين، الذين تنكبوا القاعدة البلاغية :"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، فكانوا في خطاباتهم، موضع الاستغراب، بل السخرية من العموم.

وبنقد لاذع مؤلم، يرى الشيخ أن الأمر لا يخرج عن أوجه أربعة :

- جهل هؤلاء السياسيّين بأساليب الخطابة المشترط فيها مراعاة المقام

-اتساع دائرة طمعهم، فهجموا على الكلام من سائر جهاته، فانغمسوا في الهذيان

- السياسة تجوّز كلّ شيء

- زادوا قاعدة في البلاغة

ويُرجّح الوجه الثاني ساخرًا، فيقول :" لأنه لولم يكن ذلك، ما أمكن لأحدِهِم أن يهجم بسائر قواه اللسانية على أوصاف الفضل، ونعوت الكمال، وإلباسها لمدوحه المعروف بين الناس علمًا، وعملاً، وكرمًا، وفضلاً. مع طول في الخطاب مملّ، وسجع مخلّ، وأشعار وشعور وأخلاق زكيّة، ونعوت

---

1 -م. صص582-583

عبقريّة، وماض أزهر، ومستقبل أبهر، وصفاوة درة، وسكون في المجرّة، ونصرة المظلومين، والأخذ بيد المساكين المستضعفين، وتعلّق الرعية، وإجلال البريّة إلخ.. لحدّ يعتقد السامع أن الممدوح لا يسعه إلا أخذ الخطيب المادح من ساعده وإلقائه في الجنّة...".

وبعد أن يُورد الشيخ أمثلة من التزلّف المقذع، يعقّب بقوله :" يرى مرشد الأمّة من واجبه إرشاد هؤلاء وإنذارهم بالاستكبار عن عبادة البشر أوّلاً، ثمّ أن يرحموا الحقيقة، ويراعوا القاعدة، وحسبهم الاقتصار على اللازم في اللازم، ويثقوا بأن الذي قدّره الله سيكون، ولا يكون غيره أبدًا"

/ "في الأوسمة والنياشين"[1]

يعتبر الجادوي "الوسام" و"النيشان" بمعنى واحد، واشتقاقه يرجع إلى رفع الشان. ويُورد أن أصل اختراعه يرجع إلى بعض الملوك، كوسام "اللجيون دونور" لبونابرت(ت1821) الذي خصّه بالجيش، تنشيطًا للقوّاد على الفتح، ووسام"المجيدي العثماني" للسلطان عبد المجيد.

ويصف الجادوي "النيشان" بـ"الجماد المحبوب"، الذي وإن كان عنوانًا "لرضاء الحكومة على حامله، وهوشرف لها تكرم به من ترضى عنه، وتقلده لمن يعمل في مرضاتها في السر والعلانية "، فإنه كذلك يُعطى "للتنشيط على فِعْل يُترقّب أومشروع فيه ".

وهو لدْغ منه لسياسة الحكومة في شراء الذمم، ومراودة الطمّاعين.

ولذلك ختم الجادوي لطيفته بإرسال سهامه النافذة، فيقول :" أما اليوم وقد لُحِظ عليه (أعني الرأي العام) برودة عندما شاهد أسماء فرديْن أوثلاثة في سلسلة مَن أصابهم الوابل الأخير من النياشين..ولا يبلغك عن العقلاء إلا أحاديث : ألمْ تسمع أن فلانًا أخذ وسامًا، والجواب: عجبًا فماذا صنع ياترى حتى يستحق هذا الإنعام العظيم؟ فيقول الآخر : لأنه وطنيّ غيور.. فربما ناله لتنشيطه على الوطنية والأسرار الخفيّة، والأعمال الزكيّة، واللفّ

---

1 –م. صص583–584 / وراجع للإثراء بالتوصيف التاريخي : محمد ابن الخوجة : متى كان ظهور النياشين التونسيّة. المجلة الزيتونيّة مج2 صص27–30/صص80–85

والنشر، وعلم طبقات الأرض، والميقات والجبْر..حتى أدرك أحد المنعَّمين عنهم ما قراه في العيون. فأخذ يتأوّل، ويتمحّل الموجب والسبب، ويقول في نفسه : قد أظهر السرَّ والشان هذا النيشان.."

√التعريفات

مما يسترعي الانتباه في مقالات الصحفيّ المناضل سليمان الجادوي، حرصه على التحْديد المفهوميّ للمصطلحات التي يستعملها حقيقة أومجازًا، ومحاولة ربط ذلك بصميم الموضوع، وبالفكرة المقصود إبلاغها، والصورة المبتغَى إبرازها أو نقدها، إلخ..

وكلّ هذا يدلّ على تأثّره بالثقافة العلميّة الأصوليّة الزيتونيّة، وتميّزه عن فئة من الصحفيّين الذين لا يهتمّون بتنزيل التسميات والاصطلاحات في سياقاتها، ولا يكترثون بما يمكن أن تثيره استعمالاتهم من لبْس في الفهْم. كما يدل على وعْيه قيمةَ التأصيل والتحديد منهجيًّا، بما يمنح نصّه قيمة علميّة .

وباستثناء مقال واحد، ورَدَت تعريفات الجادوي في مُستهلّ مقالاته، كما هومعهود في البحوث والدراسات.

وقد تتبعنا هذه التعريفات، فوجدناها في المقالات، والعبارات، وبالمعاني التالية :

/كلمة في الوزارة لغةً واصطلاحًا [1]

هذا هوالمقال الوحيد الذي محّضه الجادوي للتعريف بمصطلح "الوزارة".

وكانت مناسبة كتابته، الخلاف الذي اشتدّ بين محمد الناصر باي وكبير وزرائه. حيث طلب إبعاده عنه إبعادًا لا رجوع فيه، وظهر من الوزير التشدّد، إذ "كانت الدوائر السفيرية تحاول إقناع الأمير والرجوع به إلى استكشاف موجبات التكدير في العلائق ورفعها. فكان الفوْز لتنفيذ إرادة الأمير

---

1 –م. صص566–568

رغمًا عن كل الوسائل التي حفّت بالقضيّة والترجيات التي شملت حتى الرئيس ميلران عند زيارة الأمير له في سفارة المرسى ".

ويُستفاد من المقال :

-"الوزارة" لغةً، هي من المؤازرة التي هي الإعانة المطلقة، أومن الوِزْر أي الثقَل، أومن الوَزْر أي الملجأ، أومن الأَزْر أي القوّة

-هي في الاصطلاح السياسيّ، من أسمى الخطط الدوليّة وأعلاها مرتبةً، وأهمّها اعتبارًا. وتتفرّع بحسب النفوذ في الحكم إلى مراتب ودرجات. كما تنقسم من حيث مسؤولية العمل إلى هيئات، وإلى مجموعها ينصرف ما يُراد ويُقصَد من مدلول لفظ "الحكومات". وللتمايز في هيئتها الحكوميّة، خُصَّ كل وزير بإدارة تُضاف إليه. ويرأس الجمع رئيس يُلقّب بألقاب تُزاد على لقب "الوزارة"، وتختلف في الدوَل بحسب الاصطلاحات فيها، ك"الصدْر" مثلاً في بعض الممالك، أو"كبير الوزراء" أو"الوزير الأوّل" أو"الأكبر" في غيرها...

وقد ظهرت مساندة الجادوي للباي في تعقيبه بالقوْل :" هذا وقد قصّ التاريخ أن لهذا اللقب عظمَ شأن حتى في القرون الغابرة، فلا يطلقونه إلا على مَن كان مُقرَّبًا من الملك أوالسلطان، محبوبًا لديْه، مرجحًا في ثقته عنده، لا يخشى على أسراره منه...ولا يتوهّم خيانته في السرّ والعلانية...وخصوصًا عند العرب الذين يقدّرون قيمة الوفاء والثبات على العهد وإعطاء الثقة والأمانة...وأصبح من المستهجن في شرع الإنسانيّة بقاء صدر في صدارته، والأمّةُ لا ترغب فيه، ووزير في وزارته، وقد شكا سوء فعْله ملِكه...الذي له عليه حق الولاء، ومُدانٌ له بالصدق والإخلاص.."

/لنأتمر لحياة الوطن

يُقال : استوْطنَ الأرض، إذا اتخذها سكنًا له، أومستأنسًا يستأنس به، أومجتمعًا يجتمع فيه مع غيره، أومشهد يوطن نفسه فيه على الثبات أمام ويْلات تنازع البقاء. وإذا تأمّل البصير في هاته المعاني اللغويّة وجدها كلها ترمي إلى السبب الذي حدَا بالإنسان إلى وضع سلسلة الوطنية الذهبيّة المحبّبة

في عنقه، واختار لنفسه أن يكون أسيرها المخلص، وفضّلها على حرّيّته المطلقة..[1]

/لنأتمر لتحقيق الآمال

"الآمال" جمْع أمل، وهوما يرجوه الإنسان، ويتمنى الحصول عليه عفوًا أوبعْد عناء وتعب، على حسب الأميال والأهواء، وما يقارنها من الحمْق والتعقّل، والكسل، والعمل. ولقد تباينت آراء العلماء في تنزيل الأمل المنزلة اللائقة به، من حيث شدة تأثيره في الأعمال والاجتهاد ونتائجها حتى وصل بهم البحث جميعًا إلى أنه الباعث الأوّل لناموس مبدإ حفظ النوع، وتنازع البقاء، ورأس مال كلّ حيّ يعزّ عليه مساس جوهر هذه الحياة، وهوما يعبّر عنه بـ :النظر للاستقبال "[2] .

/فذلكة أو الوطنية هنا وهناك

حقيق ما قالوا من أن الألفاظ لا تدلّ على المعاني إلا من حيث الاصطلاح. ولذا رأيت كُلاًّ يضع، ويدوّن ما شاء، وشاء له الاتفاق، ولا لوْم ولا عتاب. نعمْ، قرّر المنطقيّون في دواوينهم في الدلالة وجوهًا أربعة، وجعل المتكلمون من المعتزلة الأسماء تابعة للأحكام، واصطلح البديعيّون على جواز إطلاق الألفاظ على معان يُراد بها عكس المقصود... كما تباينت اصطلاحات النحويّين بتباين الخُطوط وبعد المواقع، كنحاة النجف الأشرف، إذ قيست ببعض ما دوّنوه من القواعد على الكوفيّين والبصريّين..[3]

/الجنون فنون [4]

"الجنون" له حقائق لغويّة واصطلاحات عرفيّة، وإطلاقات خاصّة، واستعمالات تقع بحسب الحقيقة والمجاز. ولذلك يُقال :جنّ فلان، وجنّ

---

1 –م. ص285

2 –م. ص314

3 –م. ص326

4 – استُعْمِل هذا المثل السائر في "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، عند الحديث عن انعكاسات الحكم الفرديّ في تاريخ فرنسا . أقوم المسالك ص115

عليه الليل، وجِنّ، وجانّ، وجنين، ومجنون، وبه جِنّة ومفتون، وتائه، ومجذوب، إلى غير ذلك مما يتحقق معه المثل السائر، وهوقولهم : "إنّ الجنون فنون". والأصل في ذلك كله مسٌّ بالعقل، وقد يكون مطبقًا وغير مطبَق.[1]

/تفريق السلط أو وزارة العدليّة

"السُّلط"، جمع سلطة، ومنها التسلّط والسلطان. وقد تعرف بأنها قوّة معنويّة يكتسبها الفرد بعرْض الوظيف، فينال بها من أفراد متعددة، وإن شئتَ قلتَ من أمّة كاملة غرض الطاعة والانقياد. وقد يُنعت ب"المطلق" ما إذا كان ملكًا ولمْ يكن مسؤولاً عن أعماله لنظام مسنون، وبعكس ذلك "المقيّد" بإرادة الشعب وقانونه، فلا يوصَف بذلك بل يُقال عنه إنه ملِك دستوريّ ومملكة شوريّة [2]

/حول التغييرات الشوريّة

"السفسطة والمغالطة"، هما القياس الذي يفيد خلاف المطلوب، وأثبت المناطقة أنه من القضايا الفاسدة الإنتاج. وأن الحكمة في وضعه هواجتناب نتيجة العلم به، وتصوّره، ومعرفة وضعه الذي يرفع الستار عن مقاصد المناظر إذا حاول مغالطة صاحبه، فلا يقع في حبائل مباهته وترويجاته [3]

/غرائب الساسة أوعجائب السياسة

"السياسة" في العرف الحاضر، شرْعٌ متسع النطاق، لا ينضبط بقواعد مسلّمة يمكن الارتكاز عليها حتى تؤْخَذ عهدًا أوتعتمد ميثاقًا. وإن أقرب شبه له في وصفه بجرم يتلوّن بلوْن ظرْفه، فتراه في كل آونة على تعاقب وانتقال... قلنا :في العُرْف الحاضر ، اعتباره كالقيْد، إخراجًا للسياسة الحقّة التي هي وضْع الأشياء في محلها كتحقيق الوعود والمجازات على الجميل فعْلاً لا قوْلاً،

---

1 –م. ص381

2 –م. ص450

3 –م. ص528

ومشاركة الشعب في أمره، وتحقيق الإخاء الإنساني، وإجراء العدالة والمساواة، والعدول عن التمويه، ومصادرة السفسطة..[1]

/السياسة الاستعماريّة

"الواجهة" في كلّ شبح هوما يُقابل منه، ويبدوللعيان، وفيه معنى خاصّ هوالحسن والاعتبار، وأن الأصل في إطلاق الواجهة على الهياكل الحسّيّة، ولكنها أجريَت في المعنويّات على المجرى الوضعي استعمالاً حقيقيًّا أيضًا..

ومن ذلك سُمّي "الوجه" وجهًا، واستعمل لفظ "الوجاهة" و"الوجيه"، وقيل للكلام :كلام وجيه، وللسياسة : سياسة وجيهة... غير أن السياسة بإطلاق فقد قالوا عنها أن لا وجْه لها، ولا واجهة، وإن شئت قلت : لا باطن ولا قلْب، وأن يظهر للناظر منها مقابل، فيظنّ أنه الوجه، فربما كان في الحقيقة هوالقفاء، وهكذا العكس بالعكس...[2]

/صدى المجلس الكبير

"الصّدى" يُعرَّف بأنه أثر من تصادم الأجرام ببعضها، أوصوت يتكيّف به الهواء، فيحصل منه دويّ يتجدّد في أزمنة متصلة الأكوان والآونة، وذلك حسب التموّجات الهوائيّة التي تحصل من شدة التصادم أوالقرْع قوة وضعفًا. وهوبهذا التعريف يكون حقيقة في الحسّيّات فقط، وأما في المعنويّات فيكون مجازًا غير مرسل على مذهب جار الله تعالى، وعلاقته حصول الشبه بين الأثريْن، وأقلّه حمْل وصف الحسْن والقبْح عليهما معًا، فيقال : صدى الحادثة مؤلم، وصدى المجلس الكبير مضحك، وصدى الخطاب حسن جدًّا... وربما تجتمع فيه الحقيقة والمجاز وضعًا لغويًّا سكاكيًّا، والقرينة ما يفهم من المقام كالصدى الذي نحن بصدد الكلام عليه..."[3].

/التشريع الإداريّ ومضارّه في الشعب

---

1 –م. صص552–553

2 –م. صص676–677

3 –م. ص699

"التشريع" يُراد منه ما سنّ من القوانين، والتكاليف الوضعيّة، ويُطْلَق اللفظ إطلاقًا أعمّ من أن يكون المسنون شورويّ الوضع، أوإداريّ التقنين. وهوخلاف ذلك من حيث الحقيقة، إذ أن الأصل في التكاليف، شرعُ الله، وتنزيله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديْه ولا من خلفه، ثمّ سنّة الشارع العظيم، وما اقتُبس منها مفهومًا، أواتحدت في المقتبَس علة الحكم والسبب. وأما الأوضاع العقليّة المجرّدة، وبالأحرى الفرديّة، فمجاز في تسميتها شرع، وفي إسنانها تشريعًا، وفي احترامها شريعة [1].

/واجهة جديدة في الاستعمار بالمملكة التونسيّة

دلالة الألفاظ على المعاني إنما كانت بطريق الوضع أصالة واعتبارًا. ثم توسّع المصطلحون في ذلك، فاعتبروا صحة تلك الدلالة من حيث الاصطلاح أيضًا. لكنهم اشترطوا لتأييد ما اصطلحوا عليه شرطًا يجعله في مأمن من السقوط عند الاستعمال وحول التفاهم والاستدلال، وهوقولهم : لا مشاحة في الاصطلاح..بحيث إنه لولا ذلك القيْد، لاختلّت فهوم كثيرة، ولتشاكست دلالات جمة عند ظهور المقصد في المقال. وعلى ذلك جاء معنى ما يطلقون عليه اليوم لفظ "الاستعمار"..[2]

/هل بقيَ عندهم في الكنانة سهْم

"الكنانة"، وضعًا لغويًّا، هي جعبة السهام التي تُتّخذ للنزال، وتُستصحَب للقنص، كما يحمل الهميان للزاد، والجراب للعون على المسير. وقد يتجوّز في مدلول ذلك اللفظ إطلاقًا على المحتالين والامضلّلين عند استعمالهم لضروب من الحيَل، وأنواع من الخدائع والمكْر. وذلك إذا نفدَ ما عندهم منها، وحصل لهم الفشل، وساورتهم الخطية، وسامرهم الوهن، وظهر عليهم ما يظهر على الواقف في ساحة الكرّ والفرّ، وقد نفذت عنه ما في "الكنانة" من السهام، فيُقال هنا استفهامًا، كما يُقال هناك استعلامًا : " هل بقيَ في الكنانة سهْم"...[3]

---

1 –م. ص742

2 –م. ص749

3 –م. ص756

إنّ هذه التعريفات، لئن أظهر فيها الجادوي نوْعيّة تكوينه العلميّ الذي امتزج بمنهج التأصيل، فإنّها أسهمت بنسبة عالية في التضعيف من قيمة المقال، وتحويله إلى درْس علميّ، بسبب التطويل أحيانًا، والتعويم، والإلغاز، وتعسير الفهم، أحيانًا أخرى. إلى جانب أن بعض التعريفات غير ذات علاقة قريبة بالموضوع المُتَناوَل .

3-الاستعمار والمستعمرون

لا يذهب في ظنّ مَن قرأ :

ثناءَ سليمان الجادوي على فرنسا حينما يقول :"الأمّة الفرنسويّة الفخيمة"، و"فرنسا العظمى"، و"فرنسا عظيمة الشان"، ونعْتَه إياها بأنها "أعرق من انقلترا في باب السؤدد والفخار وأبَرّ منها برعاياها "، وبأنها "لا تريد بنا إلا خيرًا ولا تودّ لنا ضررًا ولا ضيرًا"،وأنها "تتفانى في إحراز الفخار وتستفرغ الوسع وتعمل أقصى الجهد لتصيير اسم فرنسا مبرّأً في التاريخ من كل نقص مشين "،

ووصْفَه بعضَ الفرنسيّين بـ"رجال باريس"، و"الرجال الأعْلام"، وبأنّ منهم "مَن يتهالك في صالحنا ويتعشّق نهوضنا وبريء من ذنوبنا براءة الذئب من يوسف. بل تراه يبذل وسعه ويسرف جهده في انتشالنا من حضيض الظلم إلى حيث المساواة"،

وإطراءَه رئيسًا من رؤساء فرنسا بأنه "أرْفع رجل يسكن باريس جنّة الغرب بغير نزاع..له من الإحساس القسط الأوْفر لكوْنه موضعَ الثقة التامّة من كافة طبقات أمّته العظيمة. وإنّ من أعظم ما تقرّ به عيْناه وتشرئبّ له نفسه أن يرى شعبًا من شعوب بني الإنسان بعد أن رزح تحت المظالم دهرًا طويلاً قد تخلّص من تلك الأثقال وأفضى إلى مرج الحرّيّة يمرح شاكرًا اليد الفرنساويّة التي انتشلته من هوّته وبوّاتْه مبوّأ الصدق والرفاهية والهناء"،

وتنويهَه بأنّ وزيرًا فرنسيًّا جديدًا في تونس هو"أحد عظمائها..رأيًا ثاقبًا ولُبًّا صائبًا، شبّ على حبّ القسط والإنصاف، ومتاركة الإيثار والاعتساف. وجعَل طالعة تقريره إعطاء الحريّة للتونسيّين وتخويلهم الحضور في المجلس الشوري والمناقشة على حقوقهم المهضومة. وأدرك ما يقاسيه التونسيّون من آلام الاستبداد وضروب الاستعباد فصدع بما يخلد له الذكْر الجميل والثناء الجزيل.." [1]،

---

1 –م. صص41–48 /صص260–261

ونعْتَه كاهية رئيس لجنة المستعمرات والحمايات والنائب بمجلس الأمّة بـ"حبيب التونسيّين"[1]،

لايظنّ من قرأ هذا ونظائرَه في صحافة الجادوي، أنّ الشيخ رضيَ يومًا بقضاء الاستعمار الفرنسيّ نازلاً في ربوع الخضراء. فليس ذلك منه جبنًا، أوتواطؤًا، أوانخداعًا.

فالجادوي يدرك جيّدًا أنّ "الاستعمار"، كلمة ومعنى، جاء بهما التمدّن الحديث كسائر ما جاء به من كلّ المظاهر المزيّفة، والأشكال الغرّارة، التي تَخدع بدْءًا، ويُسْتسلم لشرّها آخِرًا.

فـ"الاستعمار" عنده هو الاستئثار، وسلْبُ الضعيف بيد القويّ، وحُكم المغلوب بسياسة الخسْف، فلا تُرْعى له ذمّة ولا يُعْصَم له دم[2]، والمستعمرون همُ الحريصون على استعباد العباد والاستئثار بخيرات البلاد[3].

ولعلّه أظهر نصيبًا من السلبيّة، حينما يتألّم من أنّ "الدهر ساقَ" إلى حُكْم فرنسا أقطارًا شاسعة وراء البحار، آهلة بشعوب هادية، وأمم ذات وحدة ومجد باذخ وتاريخ صقيل"[4] ، كما "ساقَ الدهرُ" إلى المستعمرين "مَن استضعفوه في الأرض عن غير إرادة منه"[5]

إنّه على يقين بأن السياسة الاستعمارية ذات هيْكل مزركش يحْجُبُ باطنًا ممتلئًا أكدارًا. وهو يسأل :"هل وقع النظر في في محتويات الهيكل الذي يبدو الجمال الفتّان على واجهته، يعني: الحرية، والإخاء، والعدالة، والمساواة، والتمدين، ونشرالثروة، وبث العلم، وإجراء سياسة التشريك في الحكم، وتحرير الرقيق، والحماية، والانتداب، والوصاية، والتحرير، والاستقلال، وغير ذلك مما يعسُر عدُّه...؟. والأمم المستعمَرة لا تطلب إلا العيش على

---

1 –م. ص569

2 –م. صص173–174

3 –م. ص182

4 – م.ص678

5 –م. ص350

الصفاء والمساواة واحترام العهود والوقوف عند البنود وتحقيق الوعود والمكافأة الفعليّة على القيام بالواجب وبغير المفروض.[1]

ونَقل عن أحد النوّاب الفرنسيّين قولَه :

" سياستنا لا تهضم، إنها تحرّر،

سياستنا لا تنهك إنها تثمر،

سياستنا لا تبتزّ إنها تقتسم.

إذا بحثنا على السلع فإنها تأتي معها بالأمان، والخير، والتعليم، والعدالة، والصحّة، زيادة على تضاعف الثروات الجديدة التي يستخرجها الممدّن من الأرض البوار للمنفعة المشتركة بين الحامي والمحتمي... هاته السياسة لا تقول للأهلي : إنّي السيّد لأنني القويّ، بل تقول له :إني حامي حماك ووصيّك..وأخوك الأكبر. ولهذا فإنك مَدينٌ لي بالاحترام والتوقير المخوّل في نفس وطنك إلى الأكبر سنًّا والأرسخ عقلاً والأعظم علمًا، ولأنّي سائر بك نحومثال أرقى مما أنت عليه ولولا وجودي لاستحالتْ عليك معرفته بصفة أبديّة...والأحسن من ذلك كله فإن سياستنا تريد تشريك المحتمين بنا واستدعاءهم تدريجيا إلى إدارة الوطن..."[2].

ويستغرب الجادوي هذا الادعاء " لبقاء القوانين والأوامر حبرًا على ورق، أي معطّلٌ العمل بها القرون تلوالقرون، بحيث إنه لمْ يُعْلم وأنّ لها مدلولاً في بعض المستعمرات أوبلدان الحمايات التي مضى عليها قرن ونصف قرن وهي مشمولة لذلك النفوذ العادل! ! ! "[3]

وانتهى الجادوي إلى أنّ "التمدين" معناه عند "المعمّرين" "هوأن لا تجعل لمغلوبك قيمة في حقّ، ويجب عليك إرهابُه على الدوام، لدرجة يعتقد معها أنّ سيف غالبه فوق عنقه ما هَمَّ أن يقف مستقيمًا أويرفع رأسَه "[4]. أنّ المعمّر

---

1 –م. ص.ن.

2 –م. صص678–680

3 – م. ص681

4 –م. ص604

الفرنسيّ يسير سيْرًا حثيثًا في طرق إعنات الأهليّين والتلاعب بحقوقهم المقدّسة وعدم المبالاة باحترام امتيازاتهم الحياتيّة التي خوّلتهم إياها الوطنيّة وتوارث البلاد أب عن جدّ من نحواثنيْ عشر قرنًا أوتزيد [1].

وفي أسلوب طريف لاذع، ينشر"المُرشد" لائحة تشتمل على عشرين فصْلاً قانونيًّا مقدّسًا، أخذها الجادوي "من دماغ دوكارنيار بفوتغراف الفراسة "، تصوّر أنها منهج المعمّر الفرنسيّ الصليبيّ في الاستحواذ على تونس، وإذلال أبنائها، وتوطين الغزاة.

وأهمّ ما ورد فيها :

/الفصل الأوّل : جِدّوا في وصْم العرب بكلّ معرّة

/الفصل الثاني :اغتصبوا أراضي هذه الإيالة

/الفصل الثالث :لا يُلقّن العربيّ المعارف العصريّة

/الفصل الرابع :استئصال التونسيّين من الوظائف الإدارية والخدماتيّة وإغراقها بالفرنسيّين

/الفصل الخامس :إثقال كاهل التونسيّين بالضرائب

/الفصل السادس :هدْر دم الأهليّ والأخذ بثأر الأجنبيّ عند النزاعات

/الفصل السابع :الحذر من سماع le jeune tunisien

/الفصل الثامن :الحرص على الغنى الطائل والثروة الواسعة

/الفصل التاسع :الدعاء الصالح لإدارة الفلاحة التي لا شغل لها إلا شراء الهناشير وتوزيعها على الفرنسيّين

/الفصل العاشر :إياكم مِن فهْم سياسة التشريك

/الفصل الحادي عشر :تكثير الجرائد الكنيسيّة لمقاومة الاشتراكيّين

/الفصل الثاني عشر : ما علينا إن سعدْنا وشقي غيرنا

---

1 –م. ص71

/الفصل الثالث عشر :فتح اكتتاب لإقامة تمثال لمدير المعارف مسيومشويل رائد سياسة التجهيل

/الفصل الرابع عشر :العمل بالفصل الحادي عشر تجاه تخفيف الدولة المجبى على الأهالي

/الفصل الخامس عشر :إلحاق تونس بالمستعمرات

/الفصل السادس عشر :سياستي سياسة مُثْلى، فيها إسعاد النزلاء وإشقاء الأهالي

/الفصل السابع عشر :تركتُ لكم موارد الثروة بهذه المملكة بأيديكم

/الفصل الثامن عشر :مقيمنا المحبوب أطال الله أيامه أكثر من ذكر الكلمة الجميلة "الاستعمار"

/الفصل التاسع عشر :المعمّرون الأبرار يجب عليهم نشر هذه اللائحة وحفظها وإفهامها للأتباع

/الفصل العشرون :الجوْر مكلَّف بتنفيذ ذلك [1]

وبأسلوب الطرافة والتخيّل نفْسه، يُجْري الجادوي محادثة بين الوطن ودكارنيار.

وقبْل أن ينطلق المعمّر الفرنسيّ في استعراض بنود مشروعه "الإصلاحيّ" المزعوم، يقول مخاطبًا الوطن : " أفلا تنظر إلى الطرق كيف سُوِّيَت، وإلى السكك كيف بُنِيَت، وإلى التلغراف كيف نُصِبَتْ، وإلى الإدارات كيف شُكِّلت، وإلى المدائن كيف بُلِّطت، وإلى الضرائب كيف جُبِيَت، وإلى النفوس كيف أصبحت في اطمئنان وأمان بعد أن كان هذا القطر خُلوًا من جميع ذلك"،

فيجيبه الوطن قائلاً :" بالحقّ، ذللتُم المسالك الوعرة ولكن لتساعد عرباتكم على السير والجولان والركض والطيران. وصدق، أنشأتم القطارات

---

1 –م. صص72–77

ولكن لجرّ منقولاتكم بأبخس ثمن ولتعبية جنودكم في أقل زمن. وثابتٌ، أقمتم بهمة الأسلاك البرقيّة ولكن للتخابر في شؤونكم والتشاور في أموركم على أيسر وجه. وواقعٌ، نظمتم الدواوين وأبدعتم في تنسيقها ولكن لتقليدكم مناصبها واختصاصكم بمراتبها. وصحيحٌ، هذبتم الشوارع ولكن لوقاية أحذيتكم من الطين ونجاتكم من الوحل المهين. وحريٌّ، توصلتم لاستخلاص الأداءات بأتم أنواع الحكمة ولكن لتصرفوها في مساكنكم وملابسكم ومشاربكم ومنازلكم ثم ما بقي على ما تروْن فيه سداد ولا جحود في سيادة الراحة بأنحائي والسكينة بأرجائي حتى الحسب والنسب ولكن كيف يخاف مَن لا ذنب له سوى التغالي في الطاعة والمبالغة في الولاء" [1].

وإنّه لمن اللافت حقًّا أن يطْلق الجادوي مصطلح "الاستعمار" على ما سُمّيَ بـ"الفتْح الإسلاميّ".

ففي دفاعه عن العرب والمسلمين، وتشهيره بفظاعات المعمّرين، يؤكّد على أنّ العرب جاؤوا "بآيات البراعة في الاستعمار"، وأنّ "منزلتهم في قلوب من استعمروهم مكينة "، وأنهم "انتهجوا في استعمارهم نهج الصراط السويّ "، ويضيف : "انظر إلى وقت قيام العباسيّين في وجه بني أميّة وملكهم يومئذ ممتدّ إلى حدود فرنسا ترَ العرب وقتئذ قد امتشقوا السلاح في أوجه بعضهم وثارت اليمانية على المصرية وامتدت تلك الثورة إلى حيث انتهت رايات العرب. هنالك ترى الخلافة ملقاة بين الشامي والعراقي يتنازعها من يرى أن له فيها حقًا والجيش الذي هوقوة الأمّة وسياج سلطانها قد انفرد لبعضه وولى المستعمرات ظهره، حتى بقيت بلاد الأندلس ثلاثة أعوام بلا حاكم وبلا نصير. ولكن مع ذلك ترى المستعمرات هادئة وأهلها مقبلون على الأشغال لا يبتغون عن أولئك بديلا...". [2]

ولعلّ الجادوي قد أفرغ، هاهنا، مصطلح "الاستعمار" من كلّ معاني الهيمنة والاستبداد وانتهاك حقوق الإنسان، وهي المعاني المألوفة والمتعارف

---

1 –م. صص110–115

2 – م. صص182–185

عليها في عصره، وازدادت رسوخًا في عصرنا، واكتفى بالمعنى اللغويّ والقرآنيّ[1].

بل نجده يصحّح مفهوم "الاستعمار"، ويعتبره أمرًا إلاهيًّا، بقوله :" المقصود من استعمار الشعوب القويّة للضعيفة إنما هومحوْأسباب الضعف عنها، والأخْذُ بيدها إلى مرتقى الأقوياء. ذلك ما كلّف الله به مَن رفعَهُم على بعض عباده درجات. ولوكان المقصود تسليط القويّ على الضعيف ليمتصّ قوّته، وينهش جسمه، ويزهوبالاستعلاء عليه لكان الكواسر من الوحوش أحقّ بمنصب الحكم وأجدر بالاستعمار"[2]

فهل هذا يعني أن الجادوي يُقرّ بشرْعية الاستعمار الفرنسيّ إذا اكتفى بتمدين تونس وترقيتها؟؟

يقول ، تحت عنوان:"واجهة جديدة في الاستعمار بالمملكة التونسيّة":

" جاء معنى ما يُطلقون عليه اليوم لفظ :الاستعمار، الذي يقابل بوجهيْن، ويكيل بمكياليْن من حيث تطبيقه ومعناه. فإنه بالنظر إلى وضعه وتصريف فعْله فلا يُفهم منه غير تصيير الخراب عمارًا، والقاحل ثمارًا، ثم ارتفاع الغبن، وامتداد الأمن، ونشر ألوية العرفان، وإسعاد بني الإنسان، وغير ذلك مما هو داخل في مفهوم العمران ولوازمه. وأما إذا أردنا فهْمه بصورة جاء بها التمدّن الحديث، وحملنا جمال صورته على باطنها المخيف، فلا نجد له مدلولاً غير تحميل المستضعفين في الأرض والمغلوبين على أمرهم أحمالاً ثقيلة، ومعاناة وبيلة. ولا نعكس معك مفهوم قولهم : الاستعمار إلى الاستئثار، واستعمر الأرض بمعنى استأثر بها وأجْلى أهلها عنها إلى حيث لا زرع ولا ضرْع.. "[3]

---

1 –أطفيّش : تيسير التفسير ج6صص427–428

2 – م.ص184

3–م. ص749

أ-التصفية

لقد دأبت "مرشد الأمّة" على التشهير بجنايات المستعمر، وشراسته العدوانيّة.

فتَحْت عنوان "جناية سوق الإربعاء أوبعض جرائم المعمّرين "، ينقل الجادوي من خطاب الرئيس الفرنسيّ ميلران(ت1943) إلى جاليته حينما زار تونس :".. إنّ أمّ الوطن لا تنساكم أبدًا وهي في إعانتكم، لا رئيس الجمهورية فقط أووزير الفلاحة، بل الوطن أمّ الوطن، لأنكم تقومون بمشروع التمدين..وراء البحار، وتُنمّون بجهادكم ثروة الأرض، وتستخرجون كنوزها، وتغرسون محبّة فرنسا في قلوب الأهالي الذين أتيْتم لحمايتهم، وقد أخلصوا بتقديم الضحايا في سبيل نجدتنا ولتعليمهم وتربيتهم وتخليصهم من الهمجية والاستعباد وتشريكهم في منافع البلاد...".

ثمّ يُعقّب على ذلك بسرْد جناية المعمّر دومنيفال بإجهازه على عامليْن من عملته التونسيّين، في وحشيّة وضراوة، بسبب أكلهما لعنقود عنب بلا إذنه.

وينبّه الجادوي إلى أنّ مثل هذه الجرائم التي ترجعنا إلى القرون المظلمة وعصور التوحّش، وهي حلقة من سلسلة اعتداءات طويلة، تدلّ على أنّ مقترفيها لا إنسانيّة لهم. والذي شجّع أمثال دومنيفال على هذا هي الرحمة التي يجدونها في القانون عند تطبيق الحُكّام للفصول على الجريمة فلا يقع نظرهم إلا على قانون التأجيل لا غير.

ويُذكّر بجناية ماطر التي صادف فيها الجاني شفقة الحُكّام، فلمْ يُعاقَب الجاني بغير خطيّة بخمسين فرنكًا، بعد أن قتَل وطنيًّا عمدًا ولا ذنب له إلا الوقوف بالطريق ينتظر المارّة صباحًا وهوأعزل من كل سلاح.

ويسأل الجادوي في جرأة، مستنكرًا صمْت الإدارة الفرنسيّة وسياسة المكياليْن التي تعتمدها واحتقارها للنفس التونسيّة، ومومئًا -في إشارة عابرة- إلى سلبيّة أبناء وطنه، فيقول :".. ما بالُهم أهملوا ذكر هذه الحادثة وشرْحها في جرائدهم ولوبنوع إنكار واستهجان حتى من جهة الخطاب الرئيسي فقط، وسترًا لماضيهم في تجسيم الصغاير والهفوات الطفيفة التي تصدر من الوطنيّين وبمجرد الوهم أحيانًا؟. فإنهم لا كثّر الله من أمثالهم في الجالية قد عوّدونا عند تلف دجاجة لمُعمّر أن يملؤوا الفضاء صراخًا وعويلاً، ويشيروا على

الحكومة بتوجيه القوة العامّة إلى محلّ الحادثة في أسرع وقت. على أننا لوفرضنا أن وطنيًّا أجْرى عمليّة دومنيفال في كلب ضارّ لأحد المعمّرين لقِيل في جانبها..إنها مقدمة ثورة، فيجب إرسال الجيوش وتلافي الخطر. ولكن من فضل الله تعالى أن كانت الحجّة معنا على الدوام، فبارك الله في الشعب التونسي وفي هدوّه...إننا نعلّق آمالاً على عدالة المحكمة الفرنسويّة التي تولّت الأخذ بناصر الحق في هاته النازلة التي نؤمّل أن تكون خاتمة المصائب من نوعها، ونرجوأن لا يعتبر إسقاط المجني عليهم موجبًا لترك سبيل المعتدي مقابل سبعة عشر ألف فرنك دفعها تفصيًا من عقاب القانون.."[1].

وفعْلا، أصدرت المحكمة الفرنسيّة في هذه القضية، حُكما بسجن الجاني ثمانية أشهر مع تأجيل التنفيذ، وغرامة مالية قدرها 20ألف فرنك، فيعلق الجادوي متهكمًا ومحروقا :" هكذا تحكم الضمائر المتلئة عدْلاً "

إنّ مثل هذه الجرائم والجنايات، يؤكّد على أنّ الاستعمار الفرنسيّ كان يسعى إلى إبادة الشعب التونسيّ وتصفيته بكلّ الطرق، حتى يُستبْدل بالعنصر الأجنبيّ.

وقد حشَد الثعالبي الأرقام والإحصائيّات ليستدلّ على استهانة فرنسا بصحة التونسيّين وبحياتهم، لا سيما المعوزين منهم، وليصوّر وضعيّة المواطن الأهلي "المحزنة". وتكلّم عن محدودية ميزانية مستشفى عزيزة عثمانة المسمّى بالمستشفى الصادقي، وهوالوحيد بالعاصمة التونسية وتزيد عليه ميزانية المستشفى الفرنسي بقرابة الستّة أضعاف ، ويعقّب على ذلك بقوله :" إننا ندرك أنه يُراد الشرّ لأراضينا، وأن دخول الإدارات العمومية محجَّر علينا. ولكن لا ندرك ما هوالضرر الذي يمكن أن يلحق مصلحة التعمير أوالسيطرة الفرنسيّة من الحرص على صيانة وجودنا؟ فهل تكون الغاية النهائيّة للحماية هي القضاء علينا؟"[2]

---

1 –م. صص603–606

2 – الثعالبي : تونس الشهيدة صص223–235

وأطلق الطاهر الحدّاد صيحة فزع لحماية تونس وشعبها العربيّ المسلم من نتائج تلك الخطة الاستعماريّة الخطرة، وأبعادها العنصريّة، وروافدها المساعدة على نجاحها وتحقّق أهدافها، من ارتفاع نسَب الوفيّات بسبب سوء التغذية، والتربية الصحيّة المتردية، وبسبب حوادث الشغل، والأوبئة، والخصاصة، وبسبب الاستشهاد في سبيل الوطن والدين[1].

وتحت عنوان :"إلى الملتقى يا مستشفى" يبُثّ الجادوي لوْعته، بعد أن استصدر كاتب الدولة العام أمرًا عليًّا في فصل المستشفى الصادقي عن جمعيّة الأوقاف بإعطائه ذاتية مستقلة تحت إدارة كبير أطبائه وتخصيص ميزانية له. وهوما يعني تغيير صبغته الخيريّة، وحرمان الفقراء من خدماته الصحيّة. يقول الشيخ :"...كلّ التغيّرات الحديثة قد جاءت لتكون قاضية على الآمال، وبرهانًا على قطع الرجاء، وأن الحالة لا تزداد إلا تعاسة، وقد تحققنا من الآن أنه لمْ يبْق لنا صدر يحمل الضيم، وقلبٌ يصبر على الآلام..نعم إننا لوحاسبنا أنفسنا على تفريطنا لما كنا الجانين، وإلاّ ما سبب تقاعسنا وتناعسنا وتنازلنا ونحن على شفا جرف الانقراض..كمْ نسرد وكمْ نعدّد وكمْ ننتقد مع أن مصائبنا التي حلت بنا أوعلى وشك الحلول لا يفيها حصر ولا يكفيها تعداد..."[2]

ب-التجهيل

تؤكّد رسالة وجهتْها "المُرشد" إلى "جناب الوزير الخطير"، على أن تفشيَ داء الجهل بين الأمّة مؤذِن بذهابها ضحية التأخّر، وغنيمة باردة للانحطاط، وشامة في جبين السقوط والانحلال، ومسكنًا للفقر المتقع، ونُزلاً للفاقة والهوان . أمّا العلم فبه "يعرف الإنسان ما له وما عليه، وتسموالمدارك، وتُذلّل صعوبات الاسترزاق، ونأمن من أهوال المخمصة والبؤس، وهوالوسيلة الوحيدة والضالّة المنشودة لصدّ هجمات نوائب الدهر، وطوارق الحدثان المدهشة. بدونه لا تألف الطباع النظامَ ، ولا تركن النفوس للمدنيّة ومجاراة الأمم الحيّة، ولا تذهب خزعبلات الدجالين أدراج الرياح. فهوالذي يصقل

---

1 – بوعجيلة : ثورة النخبة الإصلاحية التونسيّة ص167

2 –م. ص179

الباطن من أدناس الكسل، ويطهّره من غوايات الانخذال. وهوالجند العديد، والعلاج الوحيد لأمراض الأرواح، ودواء الأشباح من علل الشقاوة والأتراح[1].

ويقْرن الجادوي، في براعة ترميزيّة فائقة، بيْن الجهْل والهوان والهمود،من جهة، وبين العلْم والطموح والتحدّي، من جهة أخرى.

فالجهل بأصل طبيعته ميّالٌ للمسالمة، صبور على مؤثرات الكوارث، مِقناعٌ بما أفرغ عليه ربّه من ميازيب الثراء ولوالحشيش والماء، مِطواعٌ لعوامل العزلة والانقطاع لحدّ الزهد، تأبى نفسه احتمال الضيْم من غير بني جنسه، بل تكره حتى مرور ذكرها على لسانه ولوعن غير قصد، أما موادته فعندها من أكبر الكبائر. أما العلم فمكلاف بالفتوحات، مِقراع لأبواب المشاغبات، جزّاع من النكبات والحوادث الملمّات، حريص على اقتناء الأرض والسماوات وسيادة ما فيها من المخلوقات، مفتونًا بالحفلات والاجتماعات، عَشّاق لاقتحام المشاقّ في سبيل الرغبات، فلا تصدّه العقبات، ولا يهاب الورطات، ولا يبالي بالزلاّت حتى بين قوْمه وذويه وعشيرته التي تؤويه، فلا يقرّ له قرار إلا إذا أنشأ مشكلة أوأثار فتنة أوأحدث مقتلة تسير بذكرها الركبان، لا كما عليه الصنف الأوّل من الهدوالمتوالي والسكينة المسترسلة [2].

ويستنكر الجادوي وصفَ أحد البرلمانيّين التونسيّين بأنهم "أمّة أُمَيّة"، ويحمّل دولته الاستعمارية هذا العار، على فرض التسليم بدعواه. ففي حين ارتقت الأمم إلى أسمى درجات الرقيّ، وأصبح فيها غير المتعلم من الشواذّ، عاملت إدارة المعارف أبناء الوطن بتقتير التعليم وضيق نطاقه[3]

يقول :"مضى على الحماية ما يناهز الربع قرن ولمْ يُرَ وطنيٌّ مهندسًا، أوحكيمًا، أوحقوقيًّا عليمًا أومقتدرًا على الركض في معارج الصناعات...أمّا ما جرى من قفل المكاتب بالآفاق، وسدّ أبوابها بصخور الاستبداد بالحاضرة، فحدّثْ عن مدير المعارف ولا حرج. فإنه أبْدى من أفانين حرمان التونسيّين من التغذّي بلبان العرفان ما لا يقدر عليه نيرون الجبّار، وتيمور الظلوم حتى

---

1 –م. ص47

2 –م. صص78–80

3 –م. ص376

أصبحت البلاد كأنها ليست بها فرنسا عظيمة الشان ولا خفقت في أرجائها مثلثة الألوان"[1].

وفي سياق تعليقها على مطالب "وفد الأربعين" الذي واجه المقيم الفرنسيّ لأوّل مرة عند حلوله بتونس بعد مقابلته الوفدَ الثاني بباريس وعرْض المسألة التونسية عليه، تؤكّد "مرشد الأمّة" أن إدارة المعارف المشرفة على سياسة التعليم لا يُطْمَع منها بالعرفان. فلا حقوق، ولا هندسة، ولا نبوغ في الكيميائيّات، ولا تضلّع في الطبيعيّات، ولا تعليم أوّليًّا منتشرًا بين العموم، حتى أن المدرسة الصادقيّة التي هي خاصة وتصلح أن تكون كلّيّة بأوقافها الشاسعة وإيراداتها الواسعة قد جذبتها تلك السياسة الماكرة، فأصبح البوْن بعيدًا بين مستوى تلامذتها حاضرًا وبين مستوى نظرائهم عند تأسيسها. إضافة إلى العراقيل الإداريّة التي توضع في طريق فتح المدارس [2].

ونُورد فيما يلي أهمّ ما يخصّ حالة التعليم المتردّية، ممّا وردَ في تقرير وفد الأمّة الثاني :

/الإدارة الفرنسيّة تغلق أبواب التعليم في وجوه التونسيّين

/الحكومة تتذرّع، في مواجهة مطلب إجباريّة التعليم، ومطلب قبول صغار الأهالي الذين يقدّمهم أولياؤهم للتعلّم، بانعدام المدارس الكافية لاستيعاب الراغبين في التعلّم، وبعجزها الماليّ عن بناء مدارس جديدة

/مماطلة الحكومة في إقامة معاهد التعليم الأهلي

/تحويل أوقاف المدرسة الصادقيّة التي وُضعت لإعانة التونسيّين القادرين على مزاولة العلوم في المعاهد الثانويّة أوالعليا، إلى أشغال لا تهمّ إلا الجالية الفرنسيّة

/وقْف الصادقيّة شرْطه أن تكون مدرسة ثانويّة، ولكنها أصبحت مدرسة ابتدائيّة عُليا معَدّة لتكوين أعوان مساعدين للإدارات العموميّة

---

1 –م. صص47–48

2 –م. صص390–391

/إحصائية المتمدرسين التونسيّين تفيد : 1000نسمة/5تلاميذ [1]

وقد عبّر الجادوي عن إعجابه ببراءة صبيان أحد الأرياف التونسيّة وصراحتهم، حينما سألهم أحد رؤساء فرنسا، عند زيارته تونس، عمّا تعلموه، فأجابوا :" لا شيْء "، وبذلك "ترجموا عن أنّ الأمّة لمْ تزل في ظلمات الجهل، لم تفتح أبصارها لأنوار العلوم. أولئك هم الناطقون بلسان الصدق، لمْ يدنّس نفوسهم دجَل ولا نفاق، وهُم الذين لا يحسنون التمويه والتضليل، وغيرهم ممن يدعون لأنفسهم أحلامًا، يظنون أن الإطراء الكاذب شكرًا، ثم يظنّون أن المشكور يرى مثل رأيهم وبئس الرأي الأفين"[2] .

كما أبدى سخطه على المنظومة التعليميّة الفاسدة، حتى المدارس القرآنيّة، حيث يقول: " إن كلّ شريان من شرايين أمّتنا قد وقفت حركته الدمويّة أوكادت. وأعظم هذه الشرايين فسادًا، هوشريان التعليم الفاسد، سواء بمدارس الحكومة، أوبالمدارس القرآنيّة ذات الصبغة الفرنسويّة الذّات، الأهليّة اسمًا، الأجنبيّة قلبًا ورسمًا "[3]

لقد سار الجادوي في ركاب الشيخ الزعيم، الذي أثبت، بعْد تمجيد وضعيّة التعليم قبل الاحتلال الفرنسيّ بما جلب عليه كثيرًا من الانتقاد والمؤاخذة[4]، أن التعليم الوطنيّ قد تعرّض منذ س1881 إلى أقسى ضروب الاستعباد، مبيّنا أن الحكومة، عوض أن تساعد على تطوير المؤسسات القائمة بالبلاد، عمدت إلى ضربها في الصميم، وتجاهلت معاهد التعليم العربي، وعارضت كل محاولة للقيام بإصلاحات جدّيّة صلب هذه المؤسسات التعليمية، وألغت الاعتمادات المالية المخصصة لها، وكان دعمها محدودا ولم يكن إلا تحت الضغط الشعبي. وغرس التعليم الرسمي في نفوس الناشئة احتقار حضارة آبائهم وتاريخ وطنهم، مع حشوأدمغتهم بعبارات فرنسيّة لا يفقهون معناها ولا مرماها إلا من خلال كلمات عربية ذات المعنى المستهجن.

---

1 –م. صص417–419

2 –م. صص263–264

3 –م. صص277–278

4 – راجع كتابنا : ثورة النخبة م.س. صص187–189

وحذفت اللغات الأجنبية من برامج المعهد الصادقي، كما دعت الطلبة المتمتعين بمنح إلى الرجوع من فرنسا، وتمّ غلق المدارس الابتدائيّة الفرنسيّة التي يؤمّها أبناء التونسيّين. وعملت فرنسا إلى جانب ذلك، على التقليل من المعاهد الثانويّة، وعلى منع إنشاء الكليّات ومعاهد التعليم العالي، وحرمان الطلبة التونسيّين من المنح، وحرمانهم من الدخول إلى الإدارات الفنّيّة ومن تعاطي مهنة المحاماة صدًا للطلبة عن التوجه إلى كليات الحقوق والمعهد التقنية العليا. وغير ذلك من الدلائل على السياسة التعليميّة الاستعماريّة [1].

من أجْل ذلك رفع الجادوي صوْته عاليًا، ليتحرّك التونسيّون،ويعوّلوا على الذات، ويزيلوا غشاوة الوهم تجاه نيّات فرنسا :" نُريد إحياء العلْم، وغرس بذوره في نفوسنا، نفوس العُلا، ومهد الحكمة، ومبعث الشهامة الإنسانيّة، والرحمة الملكوتيّة. ولن نجِد منفذًا ننفذُ منه إلى إحياء تلك الروح العربيّة الكريمة إلا إذا أخذنا بيد أبنائنا وبأسماعهم وبأبصارهم، نحوخدْر عروس الحقائق العلميّة، وتوجيه وجوههم شطر جمالها الرائع الفتّان، علّها أن تثير في نفوسهم ما كمن من الوجْد نحومراقي السعادة والمجْد. نُريد أن نخاطر في حُومة وغى المزدحم العصريّ بنفوسنا، ونغترف حقيقة المعارف، ونبتر أغلالها، ونفكّ عنها ما كبّلتها بها أيدي المغرضين من السلاسل الاستبداديّة، والغلائل أو الأغلال الاستئثاريّة، ونبرزها للعالمين عروسًا استغنت بكمال حرّيّتها الطبيعيّة عن جمال الحُجُب والأطواق الجنسيّة، والأساور العصبيّة الجاهليّة...نسعى للعلْم، ولا يضرّنا أن نلقى في سبيله العناء، إلى أن نلفت أنظار أنصاره نحونا. ومتى تمّ لنا ذلك فليبارك لنا العالم بالحصول على هاته الحرّيّة الجديدة في خدْر عزها وبيت مجدها. وعند ذلك، فلتمُت الجهالة، ولْيحْيَ العلم، ولتُطرد أنصار الجهالة من ساحة الإنس والإنسانيّة، ويسعد أنصار العلم بالعلم.."[2]

---

1 – الثعالبي : تونس الشهيدة صص57–83

2 –م. ص317

ج- التجويع

لقد أفاضت "مرشد الأمّة" في عرْض البراهين على توحّش الاستعمار الزراعيّ في تونس. وقد استفدنا المعطيات التالية :

/ 1274 فلاحًا فرنسيًّا يملكون 800ألف هك من الأراضي الفلاحية :

- 131 ألف هك مزروع

-538 ألف هك بُور

/الحكومة تملك 6175000 هك :

- 04 مليون هك :أراضي عروش
- 01 مليون و95ألف هك غابات وسباسب
- 01 مليون هك أملاك دولية
- 80 ألف هك :مساحة مناجم أقطعت للغير

/02 مليون تونسي يملكون 02مليون هك

/ لمْ يبق تحت تصرّفهم إلا 95ألف هك[1]

ويفضح الجادوي المخطّط الاستعماريّ في الاستحواذ على أراضي الأحباس، تحت غطاء إحيائها ليعمّ نفعها البشر المهدّد بأخطار الغلاء والفقر وشظف العيش.

فينبّه إلى أنّ هذا القرار الجائر يكسوه التضليل الصراح، لأنّ الأوْلى إحياء تلك المئات من آلاف الهكتارات من الأراضي الأميريّة، وما على ملك الشركات الفرنسيّة، وأغلب أراضي المعمّرين التي بقيَت على حالها دون خدمة. كما أنّ هذا الإجراء العنصريّ قتْلٌ لمن يستحقّ الأرض، وهوتطبيق لشعار :"قُمْ لأجلس مكانك، وافتقِرْ أيها الضعيف ليثري القويّ الغالب على

---

1 -م. صص421-422

أمرك "، ويؤول بالوطنيّ إلى التلاشي والفقر والفناء، لأنّ من يفقد أرضه، تهن قواه عن التكسّب، ويفقد الحزم والعزم، فيصبح قراره بين الراحلة والرحيل.

ولذلك، طالب مواطنيه بوجوب أن يواصلوا إقامتهم في أراضيهم، وصدّ الغارة الاستعمارية عنها. وطالب الحكومة بالعدول عمّا قررته، ومساعدة صغار الفلاحين، وإرغام إدارة الفلاحة على الإقلاع عن إغمار الوافدين بالأرض والمال، مما يصرفهم عن إحياء الأرض، ويشجّعهم على تجارة الأراضي الشاسعة التي تحصّلوا عليها بطرق مشبوهة [1].

وتعرض "مرشد الأمّة" تحت عنوان :"هنشير إن شاء الله أوكيف يصير المرء مالِكًا"، قضيّة استيلاء أحد المعمّرين على أراضي في ريف الكاف، لتبلّغ أصوات المتضررين :"لقد وقعنا في العراء ولمْ يبْق لديْنا شيءٌ ونطلب الإنصاف من هذا المعمّر الخبيث الذي خرّب بيوتنا" [2].

وقد ورَد في خطاب "وفد الأمّة " أنّ إدارة الفلاحة استحوذت على أخصب الأراضي، من الأحباس العامّة، والأملاك الدوليّة، وغيرها، وجعلتْه تحت طلب الفلاحين الأوروبيّين، عن طريق الهبَة لا البيع، وقيّدت إدارة الأحباس عن كلّ إشهار فيما بقي لديْها من كل ما ترغب فيه تلك الإدارة وتطلبه. وهو"إطلاق وتصرّف مؤذنان بحصْر الثروة والنتائج في فريق قليل بالنسبة إلى مجموع الأمّة، وأن الاستمرار على ذلك ينبئ بصيرورة الشعب إلى الفاقة والفقر"[3].

لقد أقضّت هذه السياسة المجحفة مضجع الوطنيّين، فتجنّد جميعهم في مناهضتها، والتشهير بها.

---

1 –م. صص349–352

2 –م. صص684–686، ويعلّق الجادوي تحت هذا المقال بقوْله :" إثر هذا المقال وقع إبعاد صاحبه نفْيًا من الديار التونسيّة بقرار من السفير الجمهوري وذلك استنادا على أمر1778 الامبراطوري...وهومع إيجازه يعطيك مذاقا من عذوبة السياسة الاستعمارية في جزئية من جزئيات تصرفها العادل...

3 –م. ص390 / وراجع صص752–756، حيث عرض الجادوي القوانين الاستعمارية الجائرة في تقسيم الأراضي الفلاحية وتوزيعها.

ومن ذلك مقال المنصف المنستيري[1] في جريدة "الإرادة" بتاريخ 30 محرّم1357هـ/1938، تحت عنوان :"نريد برنامجًا شاملاً واضحًا لحلّ مشكلة إقرار الأهالي بالأرض"، وأكّد فيه على أنّ "مشكلة الأراضي لا تزال على حالها، وهُم يريدونها أن تبقى كذلك، وكلما مرّ مشروع على كهنة السياسة البيروقراطية أصابه المسخ في الصميم، ولمْ يعُد هناك رجاء في فائدة تصدر منه". وعرض قضية أراضي France Africaine الكائنة بالنفيضة، وذات العلاقة بمشكلة عرش أولاد سعيد الذين أصبحوا "ضحية تضخّم الاستعمار في جهتهم، بصورة أصبحوا معها لا يملكون شيئًا، وعجزوا حتى عن الاكتراء، وتأجير المراعي، لارتفاع الأثمان، وقساوة الشروط التي تفرضها هذه الشركة على المتسوّغين، والتي تُقرأ في مطبوعاتها المعدة لعقود التسويغ. وأصبحوا أيضا بسبب الفاقة عرضة لخطر الجوع والعراء.."[2].

ولمْ يسْلم موظّفو الإدارة التونسيّون من سياسة التجويع والتفقير القائمة على التمييز بين السكّان المحلّيين وبين المعمّرين.

ففي مقال "قضية المتوظفين التونسيّين"، يُبيّن كاتبه الذي أمضاه بعبارة "متوظّف"، أنّ التونسيّ المغلوب على أمره، الكسير الجناح، المكلوم الفؤاد، يرى الجاليات الأجنبيّة تتزاحم على خيرات البلاد الطبيعيّة، وتنال المساعدات العظيمة لامتلاك نواصي ثروتها والتمتع بنتائجها، في حين يرى قوْمه قد طرحتهم يد الإهمال، ويجد وضعيّته الماديّة في الدرك الأسفل. ومن ذلك حالة المتوظّف الأهلي.

وأهمّ الدلائل على تردّيها :

---

1 – الذي يعتبره ابن عاشور أحَد الستة، وأوّلهم الجادِوي كما ذكرْنا، الذين تطوّر معهم النثر السياسي، ويصفه بأنه تناول شؤون السياسة بروح علميّة، ومقالاته ممتازة بطول النفَس، والإحاطة بالموضوع، وحسن تحليله إلى عناصره الأوّليّة والثانويّة، وقوّة الاعتماد في حججه على الوثائق، والوقائع المنصرمة مضبوطة بتواريخها ومراجعها، وصار الكاتب السياسي الراقي الذي اصطبغت مقالاته بصبغة الدراسات العميقة الدقيقة. الحركة الأدبية ص150

2 –ابن عاشور :الحركة الأدبية صص420–422

/ تعسّر حصول التونسيّ على الوظيف

/حرمان الموظّفين الأهليّين من الوظائف السامية والخطط

/المضيّ في الاستغناء عنهم

/يفوق مرتّبُ الموظّف الأجنبي مرتّبَ زميله التونسيّ ب60٪، لسببيْن :

- التونسيّ لا يقوم بالخدمة العسكريّة
- عدم توفّر الكفاءة الإداريّة

ويبطل صاحب المقال هذيْن السببيْن، منتهيًا إلى أنّ الدافع وراء هذا القانون، هوفقط تطبيق مبدإ اللامساواة واللاعدالة [1].

أما الجادوي، فقد كتب :"إدارة العلوم والمعارف، أغرب ما يُسمع"، بمناسبة احتجاج جرائد الاستعمار ونوّابه بالمجلس الشوري على قرار مدير المعارف بأن يتساوى جميع موظفي إدارته من تونسيّين وفرنسيّين في الأجر بناء على قاعدة الاتحاد في العمل. وقد نقَل ما قالته جريدة La Tunisie Francaise، التي وصفها ب"سافلة الصحف الارتجاعيّة"، وبيّن أن "مدير المعارف لمْ يبتكرْ شيئًا جديدًا، وإنما نفّذ قرارًا كان معطّلاً، ولا استقلّ بذلك التنفيذ حسب التحقيق"، وأنّ بصائر الاستعماريّين مظلمة، وأنّ لهُم "معاول يحفرون بها هوّة عميقة بين العنصريْن المتساكنيْن، اللذيْن يطلبان العيش بصفاء على السواء "، ويتساءل :

"إلى متى وهاته الأمّة تساير في حقوقها طبق رغايب حزب الاستعمار الجائرة ومطالبه المبيدة؟.."،

"ما مصداق الحماية عند هؤلاء، هل هيَ اضطهاد التونسيّين وحرمانهم من منافع بلادهم، وتخصيصهم لحمْل الضرائب، وتسخيرهم في خدمة الفلاحين بثمن زهيد، وأن لا يشارك الوطنيّ بتساوفي الوظايف والوظيف؟ "،

---

1 –م. صص430–434

"كيف يتلفظون بتلك الأقوال، وهُم على يقين من أنها مغالطة، يُلبسون بها على أهل الحل والنفوذ بألفاظ يستعملونها لغرضهم السافل، كالدفاع عن النفوذ الفرنساوي، وعن مسّ أرجحيّته، وتفوّقه، والإخلال بناموس العدالة والإنصاف؟.."[1]

/تجميد المنحة العائليّة رغم ارتفاع الأسعار، وسقوط قيمة الفرنك.

حيث قرّر المجلس الأهلي أن لا وجْه للموافقة على الزيادة في المنحة، والسبب :" لا نسْبة بين متوظفي فرنسا وتونس، لا من حيث العمل، ولا من حيث العدد، ولا من حيث ارتفاع المعاش. وإنه لعارٌ على الحكومة أن تطلب الزيادة بصورة فجئيّة لهم، وهي تعلم أن مائة وثلاثين مليونًا من الميزان يتقاضاها الموظفون، وأن عددهم قد ضاقت به رحاب دواوين المملكة التونسية الصغيرة إذ بلغ إلى عشرة آلاف. وذلك بعد الثلث الاستعماري، وبعد العلم بأن كثيرا من العائلات الفرنسويّة مستخدمون برجالهم ونسائهم وبناتهم.."[2].

ويشير الجادوي إلى أنّ انتداب تونسيّين في الإدارات الحكوميّة، لمْ يَصُنهم عن آلام الاحتياج، وشظف العيْش، لأن جراياتهم الطفيفة لا تسمن ولا تغني من جوع، "بل ربما كانت مجلبة لفساد السجايا، ووخامة المستقبل"، ودفعتهم إلى الاختلاس، والرشوة، والتحيّل.

ويضيف، متعرضًا لأدقّ الجزئيات، ومشخّصًا الحالة الاجتماعية الحَرِجة بالطريقة التي سلكها فيما بعد الحدّاد في "امرأتنا في الشريعة والمجتمع": " فالعيان والعادة يمنعان قيام المائة فرنك أونحوها بعائلة ربما تربوعلى العشرة، ولو بالاقتصار على سدّ الرمق الذي هودون قوام البنية، مع ما تستدعيه الأسفار والتنقلات من بلد إلى آخر. فلا لوْم على من يحلف أنه مدينٌ للمرابي حرفة، أوينفق من ماله الخاصّ، أورقى فوق السماك الأعزل في باب النهب والارتشاء. على أننا ما سمعنا أنه وقع تشكيل لجنة تنظر في ترقية مرتباتهم مثل مواطنيهم أرباب المرتبات العالية بسبب رفع أسعار مآكلهم وملابسهم

---

1 –م. صص376–380

2 –م. صص711–713

ومشاربهم، وما تستلزمه خلاعتهم وتفكههم وامتطاؤهم عجلة البسكليت، وجلوسهم في القهاوي العالية مما تمنعه وحشية الأهالي...وتحول دونهم همجيتهم التي تركوا عليها إلى حدّ الآن...فإذا ما أردفنا ما تقدّم بتزايد المعمّرين يومًا فيومًا المؤذن بتوجيه العناية إليه، ومساعدته على مرغوباته، فكيف تكون حالة التونسيّين ياترى؟. يكلّ اليراع أيضًا في تسطير ما يلحقهم يومًا تتجدد على أعناقهم الطلبات الدوليّة، ويُؤمر المخزن باستخلاصها منهم على أي حالة كانت، فتراهم بين بائع لدوابه،..ومزجوج في أعماق السجون، سعيًا وراء استنزافها منهم ولوبطريق العسف الأكرب، والمقت الأشهب، والعذاب الأليم، ولا من مجير، ولا من رحيم. فترى العديم يومئذ، الأرضُ لا تُقله، والسماء لا تُظلّه ...أما ما يقاسونه عندما تتعلّق بهم النوازل، وإن تنوّعت من سوء القضاء المفضي لخراب هذا العالم، فإن القلم يفحم دون إبدائه، وما على مَن يروم الاستطلاع إلا أن يتأمّل قليلاً في أوراق النازلين في ظلمات السجون فيجد من الغرائب والعجائب ما لمْ يُوجد في بقية عواصم الدنيا.." [1].

ولمْ يشمل الحيْف الوظيفةَ العموميّة، فقط، وإنما تعدّاه إلى الدفع الضريبيّ، الذي هو عمل ممنهج، يُبتَغَى منه تركيع التونسيّين.فقد استنكر الجادوي هذه المظلمة قائلاً :"..أيّ قانون في شرائع العدليّة يميز بين العناصر التي تعيش من ثمرات أرض واحدة، وتحت سقف واحد مرفوع؟. ما للنزيل يُسْعَف بالإعانات، والوطنيّ يُلتزَم في حقه الإعنات؟. أكلّ هذا جزاء الخضوع والخنوع؟. إن كل جبار يلين بهذين الوصفيْن، إذ تخلق بهما عبيده. فأين عدالة الجمهوريّين الأحرار. أأعجب النزلاءَ ثروةُ الأهلي أورواجُ بضاعته، أويده العاملة، حتى لمْ يستثقلوا على كاهله هذه الضرائب، وهُم بالأمس يروْنهم زمرا يتسوّلون الأرغفة التي جادت بها عليهم الحكومة في العام الماضي؟. أفيريدون أن يؤدّوا أثمانها مضاعفة أضعافًا كثيرة، ما دام الدم

---

1 –م. صص45–46

وفي المقابل راجع عن استحسان الفقْر ومدْحه : أطفيّش : تيسير التفسير ج11 صص419–420 / محاسن الفقر. المجلة الزيتونيّة مج2 ص198

المتحصل منها يجري في العروق، والإيطالي وغيره يأتي هذه الأرض بخرج مفقود النعل، فيحمل خراجا لا يؤدي عليه خرجًا؟..." [1]

وواكبت "مرشد الأمّة" الضرائب الجديدة وسمّتها "الأزمة الشديدة"، فكذّبت ادعاء الحكومة العجز الماليّ، وأكدت على أن الشعب التونسيّ لا يزال يكابد النوائب. فما كاد يتلقى بارتياح التفات الحكومة إلى حالة فقره وما آلت إليه مصانعه ومتاجره ومزارعه من إغلاق وإهمال، حتى كان محروما من خيرات بلاده وثمار وطنه، بينما يأتي الأجانب فارغواليد ولا يلبثون حتى يستغنوا من مكاسبه مستفيدين من التسهيلات المخوّلة لهم.

ويوصّف الجادوي الحالة المتردّية المنجرّة عن الإثقال الضريبيّ، فيقول: "..توقف دولاب الصناعة، وتعطلت وسائل التجارة، وماتت الفلاحة، لأن الصناعة قضت عليها الجالية السيسيليّة والإيطاليّة، والتجارة تحتاج إلى رؤوس أموال، والفقْر قد عمّ، والفلاحة قد استحوذ عليها المعمّرون الذين ملكوا الأراضي الواسعة، واشتروا الهناشر الشاسعة الأطراف، ولم يُبقوا بأيدي الأهالي إلا الأراضي الجدبة. ولذلك فإن الموظّفات الجديدة جاءت في وقت اشتدت أزمته على التونسيّين، وبالتنقيص من الجزء اليسير الذي لمْ يُسلب منهم بعوامل التحاكك الحاضر قد أُوقِعوا في الأخطار التي لا تُطاق مصائبها. بهذا اشتدّ تذمّر الشعب من هذه الأزمة المحزنة، وقدّم شكايات مقبولة إلى من لهم النظر يدافع بها عن حقوقه الشرعيّة، وأوْفد إلى الحاضرة مئات من كلّ الأعمال ليمثلوا للدولة شكوى الفكر العام ولم تتقاصر سكان الحاضرة عن التجمهر بالزوايا وتقديم العرائض وبالأخصّ للزيادة الفادحة في المعاليم البلديّة التي وطأتها أكثر على أهل المدن.. إن الأهالي لا محيص من إفلاسهم لوتبقى معاملتهم جارية على هذا المنوال.."[2]

وفي تحلْيله لأخطاء السياسة الماليّة المقصود من ورائها تفقير الشعب التونسيّ، يستفظع الجادوي انعكاسات الجباية المشطّة،مستفيدًا ذلك من قواعد علم العمران، فيقول :" إن ازدواج الضرر من الإرهاق دائرٌ بين الحاكم

---

1 –م. صص167–168

2 –م. صص199–203

والمحكوم، وربما كان الأوْفر للأوّل وحتمي له، لأنّ الشعب هوقوام الدولة ومادتها ومورد خزائنها. فإنهاكه بالعدوان عليه في ماله مُذْهِبٌ لماله، ومُفْقر له، ومُلجيه إلى تجاوز الحدود بالهجرة. وإنّ الإكراه على أداء ما فوق الطاقة يفقد عاطفة السعْي، ويحبذ القعود عن العمل، وذلك هوالمرض الذي يلاقي العمران به حتْفَه، أويخور شيئًا فشيئًا، ثم ينزل به القضاء العام وإن طال الزمان..."[1].

ويرصد سوء التصرّف في ميزانيّة الدولة، التي تأخذ منها إدارة الأشغال العامّة القسطَ الأوْفر، وتزيد بالاستحواذ على القروض التي يتحمّل الشعب التونسيّ وقر فوائضها. وفي المقابل تعيش القرى والأرياف التونسيّة، ومنها سليانة، بؤس التهميش، وألم العزلة والنسيان[2].

كما ينشر حقائق وإثباتات في الفساد الماليّ، وإهدار المال العامّ، وسوء التصرّف في ميزانيّة الدولة، والسياسة العنصريّة في توزيع الاعتمادات[3].

وممّا ورَدَ في تقرير "وفد الأمّة الثاني" :"..ليس من المعقول أنه عند تقرير ميزانيّة ذات مليونيْن ندفع منها التسعة أعشار، يكون لا حقّ لنا في التداخل ولا المعارضة والمراقبة. وليس من المعقول أيضًا أن تقرّر الإدارة توظيف الضرائب وصرفها بمعزل عن مراقبة الدافعين، وأن تُعقد القروض وتُصْرف بدون استشارتنا نحن الذين نتكبّد في الحقيقة أعظم حمْل منها. إن التاريخ السيّء الذي تركه في الأذهان عقد القروض المتتابعة من عام1901 إلى عام1920، وكذلك أنواع التبذير التي تسبّبت عنها، والتي ردّد صداها نادي البرلمان لا تدع مجالاً للشكّ والارتياب في أمرها.."[4]

هكذا، كشف الجادوي الخطّة الاستعماريّة العنصريّة، وفضح برنامجها الاستئصاليّ، والذي يستهدف الثروة والوطن والدين [5].

---

1 –م. ص627

2 –م. ص391

3 –م. صص456–459/ صص620–646 / صص765–772

4 –م. ص416

5 – راجع للإثراء، على سبيل المثال في هذه الفكرة : كتابيْ :

4- الوطن والوطنيّون: هل من الواجب وحدة المعالجة ؟

لئن كانت الصحافة الجادِويّة كلها، فكرة ومنهجًا ومقصدًا، مسيرةً نضاليّة، قدّست قيمة "الوطنيّة"، بكلّ معانيها وأبعادها، فإنّ "مرشد الأمّة"، أطنبت في التأكيد على أنّ الوطن عزيز، وأن حبّه من دعائم الإيمان، وبه عمارة البلدان، وأنه آية كبرى على وجود روحٍ في قلْب مُحبّه، وأنّ الجماد ينطق ب"لا إلاه إلا الله محمد رسول الله حبّ الوطن آية من آيات الله"، وأن دعوة إبراهيم ومحمّد عليهما السلام تُثبت حبّ الوطن. ومن معاني هذا الحبّ ، انبعاث الإنسان نحوشؤونه الماديّة والأدبيّة. وأشرف الأغراض، هوالاشتغال بما يهُمّ الوطن العزيز، والتفكير والتدبير ليتخلّص من يد الذلّ والتقهقر والانحطاط، وإرسال الفكر في إحيائه، و"إذا سار العبْد في في رقيّه الماديّ والأدبيّ، اكتسب المعالي، وخلّد له التاريخ اسمًا حسنًا بين الأجيال، وتصير كلمته هي النجم الذي تهتدي عليه بواخرِ الرؤوس في ظلمات البرّ والبحْر، وفكرته تجلب الألباب، وتقود جيوش المفكّرين. وليس له سوى حبّ الوطن" [1].

أ-الأصالة التونسيّة

"الوطن" عند الجادوي، ما هو إلا بيتٌ كبير يضمّ شتات "أمّة" واحدة. والإنسان ببيْته الخاصّ، ما هوإلا عضومن أعضاء تلك "الأمّة" التي قضتْ عليه روابطُه بها، أن لا يسعد إلا إذا سعِد مجموع أمّته، كما أنه لا يشقى إلا إذا شقِي ذلك المجموع. والمشابهة شديدة بين الحياة البيْتيّة والحياة الوطنيّة، والبيْت ليس في الحقيقة إلا قطعة من جملة "جسد الوطن الشريف"[2].

وإقامةً لصرْح هذا الوطن العزيز، يوجب الجادوي "على كلّ فرْد من أفراد الهيئة الاجتماعيّة القيام بأعمال عموميّة النفع، ووطنيّة القصد "، وذكر أنّ هدفه من دخول الحقل الصحفيّ، هو"أن يقوم بواجب المشاركة في مجال

محمد الغزالي : الاستعمار أحقاد وأطماع

عبدالرحمان الميداني : أجنحة المكر الثلاثة : التبشير –الاستشراق–الاستعمار

1 –م. صص253–256 /صص284–285

2 –م. ص286

القيام بالعمل العموميّ، ويُشاطر من سبقَه إليه قلمًا وتحريرًا. تلبية منه لداعي الضمير، وعملاً بأثر صادق المدلول فيه، وهو: وإنّ لوطنِك عليك حقًّا... حيث أن الاشتغال بالخويصّات مع الاستعداد جحودٌ للنعم، وأن ترك الواجبات الوطنيّة العامّة مجلبة للمصائب والنقم.."[1]

أمّا "الشعب"، فقد أطلق عليه الجادِوي : "الأمّة التونسيّة" [2]، ومن أجلها كانت "مُرشد الأمّة"، ويصفها بأنها أمّة مسلمة ذات آداب، وقوميّة عريقة وخاصّة، عرفت بحسن المكافأة على الجميل، والغضّ عن المكروه، وتميّزت من بين الأمم جمعاء بالرصانة، والثبات، والهدوء، وعدم التزحزح عن مركزها الأسمى. لا يبتغي أفرادها بغير الإسلام دينا، ويتبرّأون سرًا وجهرا من كل فوضى وما يؤدي إليها وينافي دوام العمران والنظام ، [3]

واصطلاح "أمّة"مستغرَبٌ لدى البعْض، لأوّل وهْلة، إذ كيف لشيخٍ زيتونيّ عروبيّ إسلاميّ، أن يفتّت "الأمّة الإسلاميّة"، و"الأمّة العربيّة"، بأممٍ مشرقيّة ومغربيّة [4].

لكنّ الحقيقة خلاف ذلك، ففلسفة التحرّر الوطنيّ قامت على فكرة :" نحْن التونسيّين أمّة "، تأصيلاً للكيان، وتصديًا لمخطّط الذوبان في الثقافة الفرنسيّة الغازية.

---

1 –م. صص8–9

2 – وفي المقابل استعمل مصطلح" الأمّة الفرنسويّة"، وهوالاصطلاح الذي اعتمده خير الدين التونسي في "أقوم المسالك" : الأمّة الفرنساويّة، أمم ألمانيا، الأمّة الانقليزيّة، الأمم الإفرنجيّة،...إلخ...

3 –م. ص358 /ص495 /ص527 /ص762

4 – وقد استعمل ، مثلا، محمد الجعايبي (ت1357هـ/1938) مؤسس مجلة "خير الدين"، "الإسلامية العمومية"، مصطلح : "الأمم الإسلاميّة"، هكذا بصيغة الجمع، مع أنه بنى منهجه السياسي في جريدته"الصواب" على "فكرة الجامعة الإسلاميّة " كما يقول الفاضل ابن عاشور. الحركة الأدبية والفكرية ص88 .
وهذا جدير بالتأمّل.
العريبي : الفكر الإسلامي في نصف قرن ص57

ولذلك اشتهر كتيّب علي البلهوان(ت1377هـ/1958) : "نحْن أمّة "[1]، وكان أوّلَ الوطنيّين المدافعين عن هذه العقيدة، واعتبر "الدولة" مظهرًا من مظاهر "الأمّة"، فالأنظمة تزول، غير أن الحكم السياسيّ ل"الأمّة" يبقى مستمرًّا دائمًا.

كما استعمل الزيتونيون والصادقيّون هذا الاصطلاح [2]، وكان تفسير ابن عاشور لكلمة "الأمّة" القرآنيّة [3]، وتعريفاته إياها، معاضِدةً لاستعمال "الأمّة التونسيّة".

---

1 – هوكتيّب في44ص دوّن فيه البلهوان محاضرة كان ألقاها في نوادي الجمعيات الثقافية والحرب العالمية الثانية على وشك النهاية. وفيه ردّ على من أنكر وجود أمّة تونسية وجحد شخصيتها وتاريخها.

محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج1 ص122

وراجع : عزالدين دياب : قراءة لكتاب علي البلهوان : "نحن أمّة" . على الموقع الإلكتروني :

http : //tayyar3wordpress.com

2 – "الأمّة"، "الأمّة التونسيّة"، "القوميّة التونسيّة"، "القوميّة الوطنيّة"، "الذاتيّة القوميّة"، استعملها كثيرًا، على سبيل الذكر لا الحصْر :

البايات

بعض الصحفيّين في تسمية جرائدهم،إلى جانب الجادوي، مثل "الأمّة" التي نشر فيها الحدّاد، و"حبيب الأمّة"..

الحزب الحرّ الدستوري في بياناته وتقاريره وبلاغاته

الثعالبي : الكلمة الحاسمة صص69–73. ولا نكاد نعثر على هذه التسمية في "تونس الشهيدة"، وهوأمر لافت. ولا ندري أحَصل هذا الغياب، أصلاً، في نسخة الكتاب العربية المندثرة، أمْ أنّ نقْله إلى الفرنسيّة، ثمّ إرجاعه إلى العربيّة، هما اللذان استعاضا عن عبارة "الأمّة التونسيّة" ب "التونسيّون"، "المجتمع التونسيّ"..؟؟، مع مراعاة الجدل في نسبة الكتاب إلى الثعالبي.

الحدّاد : امرأتنا م.س.

ح.ح.عبدالوهاب : شهيرات التونسيّات م.س.

ابن عاشور : الحركة الأدبيّة / أركان النهضة الأدبيّة

3 – اختارها سالم بن يعقوب، حينما تكلم عن علماء جامع بني ليمِس فقال : "..وطوال خمسة قرون على الأقلّ برزت أمّة تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف. نهلت من مدارس

فـ"الأمّة"، عنده، اسمٌ مشترَك يُطلَق على معان كثيرة، والمراد منها : الجماعة العظيمة التي يجمعها جامعٌ له بالٌ من نسب، أودين، أوزمان. فيقال : أمّة محمّد(ص) للمسلمين[1]، لأنهم اجتمعوا على الإيمان بنبوّته،

و"الأمّة" بمعنى مأمومة، اشتُقّت من : الأمّ، وهوالقصْد، لأنّ الأمّة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمّة كلها مثل : الأمّة العربيّة، لأنها ترجع إليها قبائل العرب، و"الأمّة الإسلاميّة"، لأنها ترجع إليها المذاهب الإسلاميّة،

و"الأمّة" اسمٌ للجماعة الذين أمْرهُم واحد، وإنما تكون الجماعة "أمّة" إذا اتفقوا في الوطن، أوالدين، أواللغة، أوفي جميعها،

و"الأمّة" الطائفة من الناس التي تؤمّ قصدًا واحدًا، من نسب، أووطن، أودين، أومجموع ذلك، ويتعيّن ما يجمعها بالإضافة أوالوصف، كقولهم : أمّة العربً، وأمّة غسّان، وأمّة النصارى [2] .

وفي إجابته عن سؤال : ما الأمّة؟، يرى محمد الطالبي أن هذا المتصوَّر متشعّب ينطوي على مفاهيم عديدة. فكل مجموعة بشرية أوغير بشرية تربط بين أفرادها روابط مشتركة هي :أمّة. فهذه الروابط قد تكون لسانية، وقد تكون مصالح متنوعة، وقد تكون على الخصوص سياسية وقد تضمّ المجموعات السياسية أفرادا يلتقون على صعيد ويفترقون على آخر. وهكذا تبدولنا كل أمّة هرمًا من بلّوْرات يزيد ويقل بينها الالتحام والتماسك. وقد تدخل البلّوْرة الواحدة في تراكيب مختلفة، وتنتمي إلى أجسام متعددة [3].

ويساند علماء الاجتماع هذه التعريفات، حيث يذهبون إلى أنّ "الشعب" لا يمكن له أن يصبح "أمّة" إلا إذا أظهر بصفة مستمرّة وحَيّة، إرادة جماعيّة

الجزيرة، ومن جامع الزيتونة، ومن المدرسة الإباضيّة بمصر، ومن الجامع الأزهر...."
تاريخ جزيرة جربة ص289

1 – وابن منظور يزيد ما قيل : أمّة محمد(ص) :كل مَن أُرسِل إليه، ممّن آمن به أوكفَر.
لسان العرب ج1ص158

2 – راجع :التحرير والتنوير ج1ص721 / ج2ص300 / ج4ص37

3 –الطالبي: دراسات في تاريخ إفريقية..ص76

للعيْش عيشة مشتركة، وإذا عرف كيف يكوّن لنفسه الهياكل اللازمة لوجوده ك"أمّة" قائمة الذات، وكذلك إذا أمكن له أن تكون له نوع من الثقافة، ونوع من القدرة على أن يحْكم نفسَه بنفسه، ويدير شؤونه دون وصاية من أحد [1]

وفي هذا السياق، يرى فتحي التريكي أنّ الفكر السياسيّ الإسلاميّ تطوّر، بعد التلاقح الحضاريّ، فبدأت تتكوّن فعاليّة فكريّة جديدة، لها مقوّمات فكر سياسيّ عقلانيّ، لا يكتفي بأنّ مفهوم "الأمّة" مرتبط بالخيار الدينيّ، وب"الهويّة الإسلاميّة" التي هي القطْب المحدّد للمجموعة والمكوّن لبنيتها وأنشطتها خضوعًا للشريعة، بل تجاوز ذلك إلى إضافة معطيات اجتماعيّة دنيويّة، إنسانيّة. ويُعدّ الفارابي (ت339هـ/950م)، من أبرز الفلاسفة الذين أعطوْا بُعْدًا دنيويًّا لمفهوم"الأمّة"، فهي : تكتّل أناس في إقليم واحد حسب أنماط معيّنة، يتحدّد أدناها في المنزل، وأقصاها في المعمورة، مرورًا بالقرية والمدينة. فالذي يوحّد الجماعة و"الأمّة" ليس الدين فقط، وإنما كذلك الإقليم والتاريخ واللغة.

ويستنتج التريكي من كلّ هذا، أن مفهوم "الأمّة" قد تخلص من النفوذ الدينيّ، والمقدّس، وأنّ العلمنة السياسيّة لـ"الأمّة" قد وُجِدت في حضارتنا قبل أن تأتينا من الغرب، وأن مفهوم"الأمّة" تطوّر باتجاه العقلنة والدنيويّة، ومكّن الفرد من اكتساب شكل من الحرّية، بنصيب لا يُستهان به، وأنّ هذا التحوّل في المفهوم، قد يشجّع على تكوين مفهوم"المواطنة"، وبناء مؤسسة إنسانية متحررة من المجتمع [2]

وبهذا، كان مفهوم "الأمّة القُطريّة"، كما عند الجادوي ومعاصريه، في الأساس، مفهومًا دفاعيًّا ضدّ الإلغاء الاستعماريّ. فلمْ تكن "الأمّة التونسيّة" في هذا الإطار مفهومًا مناقضًا للانتماء العربيّ الإسلاميّ، بقدْر ما كانت مفهومًا

---

1 – عدنان منصر : من "الشخصيّة التونسيّة" إلى "الهويّة التونسيّة" إلى "الأمّة التونسيّة" : محمد مزالي والبشير بن سلامة
على الموقع الإلكتروني : tunisiehistoire.blogspot.com

2 –فتحي التريكي : مفهوم "الأمّة" بين الديني والعلماني . صحيفة العرب 2014/07/08 ص8

ضروريًّا، لإعادة استكشاف الهويّة العربية السلاميّة المميّزة ل"الأمّة القطريّة"، والتي تمّ تهميشها في ظلّ هيمنة الاستعمار. غير أن الصراعات بين "القطريّة" فيما بعد الاستقلال، وخاصة بين بعض الزعماء المغاربيّين والرئيس عبد الناصر (ت1390هـ/1970)، أدّت إلى التأثير على أصول مفهوم "الأمّة القطريّة، ليصبح إطارًا مفهوميًّا للانعزال ليس عن الانتماء العربيّ الإسلاميّ في المطلق، ولكن عن القيادات القوميّة في المشرق العربيّ [1].

وقد تواصل استعمال هذا الاصطلاح إلى ما بعْد الاستقلال، فورَد في فاتحة نصّ إعلان الجمهوريّة :" نحن نوّاب الأمّة التونسيّة، أعضاء المجلس التأسيسيّ.."، وسُمّي مجلس النوّاب من1959 إلى1981 بـ"مجلس الأمّة".

كما استعمل الزعيم بورقيبة هذا الاسم في خطاباته الأولى [2]، عُدَّ "محرّر أمّة".

ولعلّ الذين عدُّوا تعبيرة "الأمّة التونسيّة" مشروعًا بورقيبيًّا، كانت له آثار سيّئة في الشخصيّة التونسيّة، وتمّ به عزْل التونسيّ حتى لا يؤثّر ولا يتأثّر، ودلّ على علمانيّته وعدائه للعروبة والإسلام، حسب رأيهم، لمْ يطّلعوا على تاريخ هذه التعبيرة الوطنيّة في الصميم، والمميّزة حقًا، والدّالّة عن العبقريّة التونسيّة، والصائنة الخصوصيات الوطنيّة.

أو لعلهم أرادوا، وهو ما نراه صائبًا، أن بورقيبة سعى إلى جعْل مفهوم "الأمّة التونسيّة" ثمْرة دولة الاستقلال، ورفدَه برؤية أعلام من النخبة المثقّفة، ذات المنزع العروبيّ الإسلاميّ الحداثيّ المتفتّح، والتي شاركت في الحُكم البورقيبيّ، وتركت بصماتها الثقافيّة، مثل محمد مزالي(ت1431هـ/2010)، والبشير بن سلامة،..

---

1 – الطاهر الأسود : في العلاقة بين القوميّين والإسلاميّين عربيًّا ومغاربيًّا . على الموقع : http://wwwarabphilosophers.com

2 – راجع مثلا : لطفي حجّي : بورقيبة والإسلام صص141–142 / صص257–262

فهؤلاء كانوا يعتقدون أن مِن مسؤولية النخبة التونسيّة، بناء "الدولة الأمّة"، باعتبار أن دولة الاستقلال هي المفعّلة لمفهوم"الأمّة" الذي يقترب كثيرًا من مفهوم "الدولة الأمّة" الذي عرفته أوروبا في ق19.

وفي هذا الإطار كان بورقيبة حريصًا على إضفاء الصفة القطريّة لـ"القوْميّة التونسيّة"، بما يعني ذلك إعادة تشكيل ل"الهويّة التونسيّة"، واستبعادًا لهيمنة الانتماء العربيّ الإسلاميّ على مكوّناتها. وقد سعت هذه النخبة أن تؤصل هذا المشروع نظريًّا، وتقوم بتعبئة وطنية لجيل الاستقلال، والأجيال الجديدة من بعده، فكان النظام التربويّ سائرًا في ترسيخ مقوّمات "الأمّة"، وغرس العقيدة الوطنيّة في نفوس الناشئة، حتى يؤمنوا بأنهم ينتمون إلى وطن له خصائصه الحضاريّة.

وكان مزالي يرى أنّ مشروع "الوحدة القوْميّة" يقتضي من التونسيّين الإيمان بأنهم "أمّة" قبل كل شيء، ومعرفة مقوّمات تلك، ثم العمل على تغذية هذه المقوّمات، وجعل الأجيال الصاعدة تتعرّف إليها، وتتغذّى منها، وتعتزّ بها، ثم تعمل بدوْرها على إشاعتها وتنميتها، وتبليغ الأمانة إلى الأجيال التي تأتي بعدها.

كما يرى أنّ لـ"الأمّة التونسيّة" تاريخًا مجيدًا، والشعب التونسيّ ظلّ صامدًا حيًّا، رغم تعاقب الغزاة، وشراسة الطامعين، ولمْ يذُب في الغيْر، بل هضم ما استساغتْه روحه الحضاريّة، وأخذ وأعطى. فخصائص "الأمّة التونسيّة" ترتكز على "القاعدة الروحيّة ذات المنبع الشرقيّ"، وعلى "جدليّة العلاقة مع حضارات وشعوب البحر المتوسط عبر القرون، في السلم والحرْب".

كما أنّ تونس، حسب محمد مزالي، " ليست مجرّد فرع من أصل، إنها وطن متميّز، له كيانه المعروف، وحيّزه الجغرافي المضبوط، ودينها الإسلام معتقدًا، وحضارة، وتراثًا، وسلوكًا، ونظام حياة، ونظرة إلى الوجود، ولغتها العربية، الركن الركين للشخصيّة الوطنيّة، والعنصر المتين للذاتيّة القوْميّة " [1]

---

1 – منصر : م.س.
مراد مهني : الثقافة السياسية وتطوّر المؤسسة البرلمانية
على الموقع الإلكتروني : manifest.univ-ouargla.dz

إنّ العقيدة التحرّريّة الوطنيّة، ومن حامليها الشيخ سليمان الجادوي، والتي استمرّت مع رجالات دولة الاستقلال المؤمنين بالمشروع العروبيّ الإسلاميّ المتحرّك، يفهمون أنّ "الأمّة التونسيّة" عربيّة إسلاميّة، منذ الفتح الإسلاميّ، تغلغلت فيها الروح الدينيّة، وصهرت شعبها، وطبعتْه بطابعها، حتى أصبح الدين الإسلاميّ من أخصّ خصائصها، وأمتن مقوّماتها، ولا يمكن أن تتنكّر له أوتزورّ عنه، دون أن تفقد ذاتها، أوتمسخ شخصيّتها، كما يقول مزالي.

ولا يعني التأكيد على وجود "الأمّة التونسيّة"، عند هؤلاء، وكما أسلفنا، الاستنقاصَ من أهميّة انتسابها إلى الأمّة العربيّة، فـ"الأمّة الكبيرة لا تقوم إلا إذا نهضت الأمم العربيّة، وإلاّ ستبقى أجزاءَ مبعثرة، يوحّدها الأمل ويفرّقها الواقع".

لقد أهْدى الجادوي كتاب "الفوائد الجمّة" إلى هذه الأمّة التونسيّة، قائلاً :" أختار تقديم كتابي هذا هديّة إلى الشعب العزيز، ثمّ إلى متنوّريه، والمخلصين له. وذلك.. ليبقى مُتناوَلاً ما تفرّع الشعب، وتعاقب تجدّد السنين.."[1].

ولكأنّ لسانه يُردّد هاهنا عبارة حشّاد(ت1372هـ/1952) : أُحبّك يا شعْب..

ب–دعاة الوطنيّة وأدعياؤها

لا حاجة بنا إلى القول إنّ الحزب الحرّ الدستوريّ هو روح الصحفيّ المناضل سليمان الجادِوي، وهو قلبُه، وفؤادُه. وما عملُه في الصحافة إلا نذْرٌ في خدمة هذا الحزْب، ونصرة مبادئه. فهو رمز الوطنيّة الصادقة، وعنوان وحْدة الأمّة، وصوْت التونسيّين المضطهدين، والقاضي العدْل في قضاياهم ونوازلهم.

---

1 –م. ص12

كيف لا والحزب نُعِت بأنه "حزب سياسيّ، إصلاحيّ، اجتماعيّ، دينيّ"[1]

ولذلك ، كانت جرائد الجادوي الثلاث، إلى جانب جرائد كثيرة أخرى، مَعرضًا مفتوحًا، ومنبرًا دائمًا، لأنشطة الحزب، وقراراته، وبلاغاته، ومواقفه.

كما كانت قناةً يصل بها الحزب إلى الشعب، ليكشف "مغالطات" المناهضين و"تضليلاتهم" ، ويُبرز "الحقيقة"، كما يراها، خاصّة بعد الانشقاق الذي صدّعه، والذي اعتبره أحمد توفيق المدني(ت1403هـ/1983) " نكبة من شرّ ما انتاب تونس في ذلك العهد من نكبات جسام"[2]

ومن الأمثلة على ذلك، "بلاغ من الحزب الدستوريّ الحرّ إلى الكافّة" [3]، الذي يُمهّد له الجادوي بقوله :" على إثْر عوْد الوفْد الثاني من الديار الباريسيّة، حدثت جلَبة من المناهضين للحزب الدستوريّ حاولوا بها تضليل الرأي العامّ في عقيدته حوْل أعمال الحزب ووفوده، بدعْوى أن الوفْد الثاني تراجع من نفسه في خصوص المطلبيْن الأوّليْن. حيث لاح له وأنّ الإصرار عليهما من موجبات الإحباط والخيبة في المسألة التونسيّة، ذاكرين أن هذا التراجع هورجوع لآرائهم المعتدلة، ومبادئهم المقبولة في الإصلاح. وهوأوّل عمل من أولئك الشاذّين خرجوا به على مرسح المشاقّة. فلمْ يسَع الحزب بعدئذ إلاّ المبادرة بنشر هذا البلاغ إلى الكافّة، مبيّنًا فيه عمله، داعيًا إلى الحذر من الوقوع في فخاخ المغرضين".

أمّا البلاغ الذي يتكلم ، أحيانًا، عن الحزب باسميْ : "الأمّة" و"الأمّة التونسيّة"، فيُفيد :

-ماي1919/1337هـ : وفد الأعيان يلتقي كاهية المقيم، ويصرّح رسميًّا بطلب الأمّة التونسيّة دستورًا

---

1 - يوسف مناصرية : الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937 ص7

2 -العربي : الفكر الإسلاميّ في نصف قرن ص25

3 -م. صص505-508

-18جوان1919: وفد الأمّة يرفع ل"سموالجناب العالي" عريضةً تتضمّن طلب مجلس نيابي لتونس، ويجيبهم ب"حطاب مطمئن"

-22جوان1919: الوفد الأوّل التونسيّ يتوجه إلى باريس ليرفع عريضة شعبية إلى رئيس مجلس الأمّة، ووعدهم بإحالتها على لجنة الحماية وبلاد المستعمرات.

وقد شرح الوفد ما يريده من الدستور بـ:

أوّلاً : مجلس تفاوضيّ يتركب من أعضاء تونسيّين وفرنساويين يقع انتخابهم بالاقتراع العامّ، يملك حق عرض المسائل على المفاوضة، وله أيضا سلطة واسعة على الميزانيّة

ثانيًا : حكومة مسؤولة لدى المجلس المذكور

ثالثًا : التفريق بصورة مطلقة بين السلط التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة

رابعًا : دخول التونسيّين في كلّ المناصب الإداريّة، بشرط الإحراز على الكفالات العلميّة والأدبيّة التي تشترط على المترشحين الفرنسيّين

خامسًا : المساواة في المرتبات بين المتوظفين الذين مع استوائهم في الكفاءة يشغلون مناصب واحدة، دون أن يقع ميْز لأوروبي على تونسي

سادسًا : تنظيم المجالس البلديّة بالانتخاب العامّ في كل أنحاء المملكة التونسيّة

سابعًا : مشاركة التونسيّين في شراء أراضي إدارة الفلاحة وأملاك الدوْلة

ثامنًا : حرّيّة الصحافة والاجتماع

-ديسمبر1920/1338هـ : سفر الوفد الثاني إلى باريس، ليستأنف عرض المطالب الثمانية، ويزيد عليها

تاسعًا : التعليم الإجباري ، ويزيدها شرحًا وتوضيحًا، ويبلغها وزارة الخارجيّة، وأعضاء البرلمان الفرنسيّ، وسائر الدوائر، والمحافل السياسيّة، والصحف الكبرى

-إرسال وفد مؤلّف من أربعين عضوًا من "أعيان المملكة"(وبينهم سليمان الجادوي) لاستقبال المقيم الوافد على تونس، وتكرار عرض المطالب التسعة عليه، ويجيب المقيم على سبعة، ويترك الإجابة المطلبيْن الأوّليْن : المجلس التفاوضيّ، والحكومة المسؤولة.

وبعد التأكيد على "شذوذ" بعض الآراء، وشرح المطلبيْن، يختم البلاغ بالقول :" وبهذا البيان الواضح يظهر جليًّا أنّ الأمّة التونسيّة لمْ تتراجع في طلباتها المتعلقة بالدستور، وأنها لمْ تزَل متكاتفة على المطالبة به، وتراه قوامًا لحياتها السياسيّة والاجتماعيّة، وأنها لا تريد بديلاً عن مطالبها المقررة المؤيدة بقواعد الحق العام بين الأمم، وليس لحزبها الحرّ غاية يسعى إليها سوى التوصّل لتحقيق تلك الرغايب بدون تراجع أووهن معتمدًا في ذلك على الله، وهوعماد المتوكّلين".

لقد أفصح الجادِوي، بما لا مزيد عليه، عن تعلّقه المتين، وإعجابه المكين، بالشيخ الزعيم عبد العزيز الثعالبي، ذي " الآيات والفتوحات "، و"مصلح التعليميّين"[1] ، ويصِفه، فيقول :"..استمرّ الشعب في سيْره يبحث عن الزعماء الحقيقيّين، إلى أن تمخّض الزبد عن صرحه، وانكشف القشر عن لبابه، فظهر الشيخ الثعالبي وحزبه في الميدان، فأعطيت القوس باريها والدار بانيها، وبطل الغشّ، وانقطع التضليل، وكان من الأمر ما كان. كانت الأمّة التونسيّة في حاجة كبيرة إلى زعيم فعّال غير قوّال، فكان الشيخ بيتَ قصيدها، ومورِدَ ثقتها، فاختارته من تلقاء نفسها، وأوْكلت لأمانته تحقيق أمنيتها، وإظهار بغيتها، فشمّر عن ساعد الجدّ، وأبدى همّة نادرة، وقام بالوظيفة المقدّسة التي دُعِي إليها خير قيام. انتُدب الشيخ للسفر إلى باريس بعد أن أحرز على الثقة التامّة من العامّة والرضا من الخاصّة، وكان يُعرَف عند الكافّة أنه ليس من طلاّب الشهرة، ولا من مريدي الظهور، بل كان يمقت الرياء والشفوف، وكان في سائر أطواره يميل إلى الزهد والتواري خلف أفراد معلومين لأنه لا يريد شيئًا غير إعزاز الأمّة التي وُجِد فيها.."[2]

---

1 -م. ص327

2 -م. ص492

فهو يرى أنّ الزعيم استفرغ جهده في نشر "المبادئ الحُرّة"، و"الأفكار العموميّة الواسعة"، ولمْ تكن القضيّة المرفوعة عليه باسم الدّين [1] إلاّ محاولة ل" إنثار عقده، وإثخان جهده ".

كما لمْ يكن سجْنه بتهمة "التآمر ضدّ أمن الدولة"، إلا عقابًا على " قيامه بمصلحة عامّة، وخدمة وطنيّة، مُساقًا لهما بوجدان صادق، وخُلوص ضمير، شأن كبار النفوس المسؤولين لشعوبهم وبلادهم بالسير بهم إلى الرقيّ والنهوض". ولكن "لمْ يخِرْ عزمه، ولا تفرّق جمعه. بل كان بعد ذلك كقطب لذوي الآراء السياسيّة، والنصائح العموميّة، بما خُصّ به من موهة التأثير، والمقدرة على الاستنهاض بتيسير "، وعَدّ يومَ إطلاق سراحه بعْد إعلان براءته "يومًا مشهودًا"، و" عنوانًا على الاتحاد العامّ، شعورًا، ووطنيّة ". ولمْ يكن الاحتفال الذي استغرق أيام الأسبوع، وزانته الخطب والأناشيد الحماسيّة، والقصائد الفخريّة [2]، قاصرًا على الإفراج عن الزعيم، وإطلاقه ذاتيًّا فقط

---

1 – كانت التهمة أنه يزدري بالكتاب والسنّة، ويُحقّر مَن ثبتتْ له الكرامة من الأولياء الصالحين، ويشتمهم . وقامت الشهادة "العادلة" كما تنقل جريدة "الحاضرة" بتجاهره في مجالس متعددة بإبداء أفكار وتقرير أقوال من شأنها الاستخفاف بالدين. وتورد الجريدة أقوالاً سمعها الشهود، ومن بينهم :العربي الكبادي(ت1381هـ/1961). وبلحسن النجّار(ت1372هـ/1952). العريبي : الفكر الإسلامي في نصف قرن م.س. صص298–299

وقد أشار الفاضل ابن عاشور إلى ذلك، بما يدلّ على سعة تفتّحه وإعجابه بالثعالبي؛ وقساوة الجهل والتعصّب والتحجّر، فيقول :" وبدأ الناس في استغرابهم شأن هذا الرجل، يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة، والأولياء، والكرامات، ويشيعونها على وجهها أوعلى غير وجهها؛ حتى بلغت أسماع كبار الشيوخ الناقمين على التطوّر، فأثارتهم ثورة أدمجت الخلدونية والمنار والثعالبي؛ وتقدمت دعوة إلى النيابة العمومية، وجرت المرافعات، والرعاعُ يترصدون للثعالبي في ذهابه إلى المحكمة ورجوعه، يهاجمونه بالسبّ والأذى؛ ثمّ حكم عليه بالسجن؛ فكان أوّل مظهر لتميّز الحركة الفكريّة الجديدة وإقامة الفوارق بينها؛ وبين مناهج التفكير السابقة. وكان ذلك عاملاً على تكوين عطف الكثيرين عليه، وتقوّي الحركة الإصلاحية به وبنكبته". أركان النهضة الأدبية بتونس. صص44–45

2 – راجع ، على سبيل المثال : قصيدة الحدّاد مثلا في حفل تكريم الثعالبي إثر خروجه من السجن، وطالعها :

لنعوته العالية، وفصاحته السحبانيّة، وصبره على الشدائد، بل كان أيضًا للمسألة التونسيّة التي تزعّم أمرها، حتى التفّت حوْله القلوب، وأجلّته إجلالها للدستور سيما وأن خروجه كان مرتديًا ثوب البراءة مما أضمر له، وأن في ضمن ذلك، التطهير، وإزالة لتلك المضمرات السيئة التي كانت تُلصق بالأمّة وبزعمائها من مُحبّي الاستئثار، وتضاف إلى مسألتها الوطنيّة المقدّسة [1]

و الثعالبي عند الجادوي، هو"مَن هو في علمه، وذكائه، وفراسته، وإخلاصه "[2]، وهو أحد " دعاة الأمّة ورجال نهضتها "، و" طاهر الذمّة نقيٌّ مقدّس".

ويرُدّ صاحب "مرشد الأمّة" عن جماعة "الحزب الإصلاحيّ" المنشقّين، والذين قالوا إنّ كتاب "تونس الشهيدة": "هُوَةٌ ستُقبر فيها المسألة التونسيّة "، بأنه "فخْر لمنشئه ويُكسبه اعتبارًا زائدًا، إن كان به حقائق. وإن هومبالغ فيه أوغير الصواب، فيبقى في زوايا الإهمال ولا يُعمل به"[3].

وقد اعتبر الجادوي تأسيس الثعالبي الحزبَ الحرّ الدستوريّ "أجْملَ عمل قام به" في ذلك العهد، و"ألقت إليه الأمّة التونسيّة مقاليد مسألتها الوطنيّة عن رويّة واستبصار "[4]، وكان مسلكُه فيه وسياسته "مشتهريْن معلوميْن، والأمّة مجتمعة على تقديرهِما، ومعرضة عن سخافات منازعيه"[5].

ويلفت النظر إلى أنّ نُخَبًا من "الصادقين الصادقيّين" كان لهُم الفضل بتأييد الزعيم في أوّل الأمر، "وهبطوا معه إلى العمل الشعبيّ". وكان منهم علي باش حانبه(ت1336هـ/1918) صاحب جريدة "Le Tunisien"، وهي من "الصحف الوطنيّة الصادقة، بالنظر إلى مديرها الفاضل "، ويصفه بقوْله :"

الحقّ حقّ وإن ضلّت مسالكُهُ لا بُدّ أن يتجلّى بعدَمَا انكتما

الديوان ص48

1 –م. ص7 / صص511–514

2 –م. ص491

3 –م. ص488

4 –م. ص7

5 –م. ص491

الذي لا يغفل التاريخ تدوين عمله، ولا ينسى الشعب التونسيّ أياديه الغرّاء ما توالت العصور، وتذكر نفيه الإداريّ من المملكة، هوومن معه إثر اعتصاب الترنفاي الواقع س1330(1912) ضدّ جوْر الشركة ودوْسها لحقوق الوطنيّين، ذلك الإضراب الذي كان أوّليًّا في بابه، حتى اشتدّ وقْعُه على الإدارة لحدّ الجنون، حيث دام شهريْن، تقريبًا، كانت عربات الشركة طالعة نازلة مع أسلاكها تنعى الفراغ من الإضراب، ولوْلا تداخل الكتابة العامّة باتخاذ طرق الإجبار مع متوظفيها والإرهاب لغيرهم، والتوسط بمن لا خلاق لهم، لرضخت الشركة لإعطاء ما هوواجب عليها من حقوق الوطنيّين المهضومة.."[1] .

والجدير بالذكر، هاهنا أن المقيم العامّ قرّر في 1912/03/13 (1330هـ) إيقاف سبعة عناصر ونفي أربعة منهم، وهُم : علي باش حانبه، عبد العزيز الثعالبي، محمد النعمان، حسن القلاتي. كما وقع تعطيل جريدة Le Tunisien . ولكن المقاطعة تواصلت عدة أسابيع أخرى. وقد حاولت فرنسا تهدئة الأوضاع، فاتخذت جملة من الإجراءات لتحسين وضع الأهالي، وامتصاص غضبهم، ومن بينها إلغاء المجبى، وتقديم جملة من الترضيات لصالح العملة التونسيّين بشركة الترامواي. كما أنها قرّرت بعد أشهر قليلة من ضرب قيادة الحركة، العفوعن القياديّين المسجونين الثلاثة، والسماح للمنفيّين الأربعة بالعودة من الخارج. فتمّ ذلك بالنسبة إلى الجميع، باستثناء علي باش حانبه، الذي رفض العودة، وبقي يقيم في اسطنبول، يساند كل نشاط مناهض للهيمنة الفرنسية، ويساهم فيه عن بعد، رغم شدة الرقابة التي فرضتها الحماية وظروف الحرب، إلى أن توفّي هناك. وقبل وفاته بقليل، وفي رسالة إلى أحد أصدقائه بتونس، كتب باش حانبه من اسطنبول يقول :"قررت أن أقطع نهائيًّا كل صلة بتونس، إذ أن من الأشجار ما يمكن كسره، ولكن يستحيل إحناؤه، فاعذروني إن أنا كنت به شبيهًا "[2]

1–م. صص7–8

2 – توفيق العيادي : حركة الشباب التونسي م. س. ص81

ولئن أجمل الجادوي علاقة باش حانبة بالثعالبي، فإنّ تفاصيلها جديرة بالاهتمام، إذ يبرز فيها التناغم بين ثقافتيْ الزيتونة والصادقيّة، تمازجَتا واتحدتا في الفكرة الوطنيّة والروح النضاليّة. فباش حانبة "من المناصرين للروح العصريّة بتفتّحه على الثقافة الغربيّة، مع بقاء جذوره موصولة بالحضارة الإسلاميّة"[1]، وكان وكيل أحباس "جمعيّة قدماء الصادقيّة" المؤسسة س1323هـ/1905، ولكنّه المسيّر الفعلي لها، والمشرف على معظم أنشطتها، وخاصة منها الثقافية كتنظيم المحاضرات، فكانت هذه الجمعيّة مثلها مثل الجمعيّة الخلدونيّة، بمثابة "الجامعة الشعبيّة" الداعية إلى الأخذ بالأفكار العصريّة والنفَس التحديثي. وازدادت فكرة "الجامعة الإسلاميّة" تمكنًا في برنامجه، بعد تيقّنه من فشل سياسة المشاركة التي نادى بها مع المستعمر [2]، وبدأ يعمل على نشر آرائه الوطنيّة في صفوف الطبقات الشعبيّة، بعد أن أحرز نجاحًا كبيرًا في تبليغ مشاغل التونسيّين إلى الرأي العامّ الفرنسيّ الحرّ من خلال جريدة "Le Tunisien". وفي ذلك يقول :"فتجمّعنا (يعني حركة الشباب التونسي) من مصلحته التامّة ألاّ يحيد بإرادة منه عن عامّة الشعب بموقف صارم قد يؤدّي إلى قطع الصلات مع القاعدة الشعبية وإرجاع رسالتنا عقيمة" [3]

وكانت جريدة "Le Tunisien" لسانَ حال "حركة الشباب التونسي"، وقد صدر عددها الأوّل في 1907/02/07(1325هـ)، وهي صحيفة ناطقة

---

1 – وصفه به أندري جوليان. راجع : الزعيم الثعالبي وتجديد الفكر الديني صص152–153

2 – حيث يقول مثلا في رسالة مفتوحة إلى G.Alapetite في أوّل عدد لجريدتهLe Tunisien :"..نحن نقول بأننا أصدقاء صرحاء ومخلصون لفرنسا، فيجيبنا بعض الفرنسيّين : إنكم تكوّنون حزبا وطنيًا جديدًا، فأنتم بالتالي مناهضون لفرنسا. إذا كان هذا هومفهوم الوطنيّين، فنحن لسنا كذلك...ولكن إذا كان المقصود بالوطنيّين أولئك الرجال الذين يطمحون إلى الترقية المعنويّ والفمكرية لمواطنيهم. ويبحثون عن تحسين وضعيتهم الماديّة ويرفضون التعصب والظلم. فنحن بلا شك وطنيّون، نقول ذلك عاليا ونتشرّف به...".
توفيق العيادي : حركة الشباب التونسي م.س. صص66–74

3 –حمودة السعفي :العلاقة بين علي باش حانبة وعبد العزيز الثعالبي، ضمن : الثعالبي وتجديد الفكر الديني م.س. صص154–155

بالفرنسيّة تدافع عن مصالح التونسيّين لدى الدولة الحامية. وقد تضمّن العدد الأوّل افتتاحية بقلم علي باش حانبة بعنوان :"برنامجنا"، قدّم فيها مطالب الحركة، ومنها :جعل التعليم إجباريًّا ومجانيًا في الابتدائي، وضمان تغطية اجتماعيّة واسعة، وبناء نظام قضائيّ عصريّ وعادل، وإرساء حياة سياسية تمكن التونسيين من ممارسة حقوقهم بواسطة تمثيل شعبي منتخب وهياكل دستورية قائمة" [1]

ويُمكن أن نوجز المحطّات التي التقى فيها الثعالبي وباش حانبه، فيما يلي :

/الثعالبي وباش حانبه من زعماء "حركة الشباب التونسي"[2] المتأسسة س1325هـ/1907، وكان يجمعهما النادي الثقافي "المنتدى التونسي" المتأسس في بدايات ق20

---

1 –توفيق العيادي : م. س. صص70–71
وقد شهد منهج "حركة الشباب التونسي" تعديلاً نحوالميولات الشعبيّة ذات المرجعيّة الدينية التقليديّة، بعد أن لاقت بعض مطالبها ومواقفها، في الأوّل، استنكارًا شديدًا. ومن ذلك، مثلاً، أن عددًا من أعضاء الحركة، وعلى رأسهم علي باش حانبه، قد رفضوا مطلب خيرالله بن مصطفى(ت1385هـ/1965)، الذي حلل مسألة تدهور الكتاتيب القرآنيّة، وطالب بإبقائها مع وجوب تعصيرها. وأوصى باش حانبه على أعمدة الصحافة بإلغاء الكتاتيب نهائيًّا، نظرًا إلى اعتمادها على الحفظ والتلقين، ورفضها العلوم الحديثة. وطالب بتعويضها بالمدارس العصريّة الفرنكوعربية، وهوما رفضه الزيتونيون المحافظون خوفًا من أن تصبح تلك المدارس دعاية للغرب، كما رفضه المهيمنون الفرنسيون الذين يخشون أن يؤدي نشر التعليم العصري إلى تغذية الشعور الوطني، وبقوا ينادون بالإكثار من المدارس المهنية الفلاحية لخدمة التوسع الاستعماري. واعتبر هؤلاء أيضا أن الكتّاب أنسب، باعتباره قليل التكلفة مما يسمح بتخصيص معظم ميزانية لصالح المعمرين، كما أن مضمونه لا يمثل خطرًا حقيقيا على الاستعمار.
م.س. ص73

2 –نشرت "Le Tunisien " بتاريخ1907/03/28 مقالاً بعنوان :" الشبّان التونسيّون يعرّفون بأنفسهم"، وردّ فيه :"..يتصوّر بعض الناس أن الشبّان التونسيّين هم من أحفاد الأتراك، الذين لا تربطهم علاقة عرق بالعناصر الأصليّة، ويتصوّر آخرون أنهم ضبّاط بدون جنود أومجرّد غاضبين، أوأشخاص مؤتورون بسبب نقدهم للسلطة. والواقع أن — الشبّان التونسيّين– هم هؤلاء الشبّان الذين تلقوا تعليمًا فرنسيًّا إمّا في ثانوية كارنوأوفي

/الثعالبي يتولّى تحرير جريدة باش حانبه :"التونسي" بالعربيّة، بإعانة الصادق الزمرلي(ت1403هـ/1983) الذي كان يقوم بتعريب مقالات علي باش حانبه، وعبدالجليل الزاوش(ت1366هـ/1947)، والقلاتي، من النشرة الفرنسيّة[1]. وأصبحت أفكار الحركة التي يرأسها باش حانبه في متناول الحرَفيّين والتجّار، وغيرهم من طبقة الشعب

/الثعالبي يسهّل على باش حانبه الاتصال بالزيتونيّين في الجامع الأعظم، وتحريضهم على إضراب1328هـ/1910

/الثعالبي يمثّل علي باش حانبه باعتباره مدير "التونسي" في الاحتفال الذي نظمه طلبة جامع الزيتونة بساحة المعهد الصادقي، بمناسبة نجاحهم في تحقيق طلباتهم.

/تنظيم حملة واسعة لجمع التبرعات لصالح الهلال الأحمر العثماني، وإعانة بعض الضباط الأتراك والمتطوّعين التونسيّين على الالتحاق بجبهة القتال، مناصرة للشعب الليبي في حربه ضد الإيطاليّين

/مشاركة التونسيين الليبين في حربهم تحت لواء "الجامعة الإسلامية" بقيادة الرجلين

/الثعالبي وباش حانبه يصدران س1329هـ/1911، بمناسبة الحرب الطرابلسية، جريدة"الاتحاد الإسلامي"، لدعوة المسلمين إلى التكتّل، والوقوف

المعهد الصادقي أوفي المعهد العلوي. وهم اليوم موظّفون، قواد وخلفاء ومترجمون في مختلف الإدارات، أومحامون وتجار وفلاحون. وهُم ليسوا عشرة، كما يحلوللبعض أن يقول، وإنما يكوّنون مجموعة تضمّ ما بين ألف وألف وخمسمائة شخص، ويزداد عددها كلّ يوم بانضمام المتخرجين الجُدد من المدارس إليها...". العيادي: م.س. 68

1 –راجع التوصيف الدقيق لعمليْ الثعالبي والزمرلي في جريدة"التونسي". الحركة الأدبية والفكرية صص120–121

وقد اعتُبرت مقالات باش حانبه في تجنيس اليهود س1327هـ/1909، وحسن القلاتي في إصلاح العدلية التونسية، وعبدالجليل الزاوش في إصلاح النظام الجبائي والجمعية الشورية، المنشورة تباعًا في جريدة"التونسي" س1328هـ/1910 "مثلاً للدراسة السياسية العالية". م.س. ص121

في وجه الهيمنة الأوربيّة، وللردّ على مقالات جريدة "L'Unione"(الوحدة) المغرضة التي تصدرها الجالية الإيطالية بتونس، وللتنديد بعدم التزام حكومة الحماية بموقف الحياد الذي أعلنت عنه من قبْل.

/الزعيمان يعبئان الجماهير في معركة الجلاز (1329هـ/1911)

/نفيهما من جملة أربعة بسبب أحداث الترامواي الآنفة الذكر

/تلازم الرجليْن في المنفى بفرنسا

/الثعالبي يختار، بعد استشارة علي باش حانبه وظيفة متفقد المكتبات التابعة للأوقاف بإسطمبول(الآستانة)، ليتسنى له العمل من أجل الوحدة الإسلامية تطبيقا للبرنامج الذي أعده مع علي باش حانبه

/باش حانبه يرسل الأموال من باريس، إلى الثعالبي بإسطمبول، ويطلب منه البحث له عن مسكن

/أوت1330/1912هـ : باش حانبه يلتحق بالثعالبي في إسطمبول

/الرجلان يسعيان إلى عقد مؤتمر إسلامي، تُقرن فيه شكوى تونس بشكاوى سائر البلدان الإسلامية الأخرى، لإخراج القضية التونسية من محيطها الضيّق

/لجنة "تحرير المغرب العربي"التي كوّنها علي باش حانبه في اسطمبول وعاضده الثعالبي، تثمر "La Revue Du Maghreb" التي أنشأها محمد باش حانبه(ت1338هـ/1920) س1334هـ/1916 بجينيف

/المراسلات بين باش حانبه والثعالبي الذي انتقل إلى القاهرة

/حسن القلاتي يسافر من إسطمبول إلى القاهرة مرسَلاً من باش حانبه إلى الثعالبي حول القضية التونسية [1]

---

1 – العيادي : م.س. ص76 / محمد لطفي الشايبي : الحزب الحرّ الدستوري التونسي(1920–1934) ضمن : تونس عبر التاريخ م.س. ص83 / السعفي : ضمن :الزعيم الثعالبي.. م.س. صص151–163

لقد كرّم سليمان الجادوي في "الفوائد الجمّة"، عن طريق الصوَر الفرديّة والجماعيّة ، نخبة ممّن سمّاهم بـ" رجال الإصلاح في الشعب التونسيّ، الواضعين أساس نهضته التمدينيّة، والمؤيّدين لها طوْرًا إثر طوْر، من وزراء، وزعماء، وصحافيّين، وكتّاب، ومفكّرين، وهيئات شعبيّة، ووفود دستوريّة "، كلّ ذلك بغاية أن "يكون أثر المصلحين في الأمم خالدًا، ومصدر الإخلاص الوطني على توالي العصور ماثلاً شاهدًا "[1] ، وهُم في الحقيقة العناصر الوطنيّة ذات التوجّه الشرقي المحافظ والراديكالي.

ولا يعني هذا، في نظرنا، أنّ من يخالفهم الرأي والمذهب، ممّن عمل من أجل تونس، ليس من الوطنيّين المصلحين. فلا شكّ حينئذ أن انتقاء الجادوي للوجوه والأسماء، دالٌّ على ميْله الشخصيّ، وربما تعصّبه للفكر والمنهج اللذيْن يميل إليهما.

وكانت الصوَر التي اختارها الجادوي في كتابه :

/صورة وفْد المرسى، وهو، كما كتب الجادِوي :" وفد الأمّة من سائر الطبقات، الذي واجه سموالأمير المقدّس سيدي محمد الناصر باشا باي يوم2شوال سنة1338 بقصر المرسى على الساعة السادسة مساء، من ذلك اليوم التاريخي العظيم الذي عرض فيه الوفد بالنيابة عن الأمّة طلب إعلان الدستور [2] "

/صورة وفد السفارة [3]، وهوالوفد الذي قابل المقيم العام Lucien Saint إثر عوْدته من باريس، لاستيضاح الجديد فيما يخص القضيّة التونسية، وظهر في الصورة من الوجوه البارزة والفاعلة، إلى جانب الشيخ سليمان الجادوي :

– أحمد الصافي(ت1354هـ/1935) الكاتب العامّ للحزب الحرّ الدستوري، وأحد أعضاء وفْديْه، الأوّل والثالث، إلى باريس، ومدير مجلة الحزب "الفجْر" ، وبقي الحزب ممثّلا في شخْصه، بعدما غادر الثعالبي

---

1 –م. ص12

2 –م. ص352

3 –م. ص400

البلاد التونسيّة نحوالمشرق. وهومن أبناء العاصمة، وكان من خرّيجي الجامعات الفرنسيّة، ولكنّه عرف بمحافظته على الثقافة التقليديّة، كما كان أحد أعضاء "الحزب التونسي" الذي تأسس في مارس1919 (1337هـ)[1].

وقد نشر له الجادوي، كذلك، صورة خاصّة، ونعَته تحتها بأنه أحد "المخلصين في المسألة التونسيّة"[2]

– محمد الجعايبي(ت1357هـ/1938) خريج جامع الزيتونة والخلدونية، ومن أبرز الصحفيّين الوطنيّين . أسس جريدة"الصواب" س1322ه/1906، التي اعتُبرت "لسان النهضة الوطنيّة"، و"علَم الكفاح السياسي"، وبدأت منذ صدورها تدافع عن حقوق الأهالي في تسيير شؤون بلادهم، وتندّد بأساليب المعمّرين في الاستحواذ على الأراضي التونسيّة الخصبة. وكانت الجريدة في منهجها الاجتماعي إصلاحيّة بنّائيّة، تدعوإلى تأسيس الجمعيّات الخيْريّة والشركات الاقتصاديّة، وتعمل على ترويج دعوة الإصلاح الديني والاجتماعي، فحازت وصاحبها ثقة الشباب الزيتونيّ. ووُصف الجعايبي بأنه "أكْبر كتّاب السياسة"، أوتي مقدرة بيانيّة فائقة في صوْغ الجملة، وحبْك المقال، ووضوح الفكرة، وتناسب المعاني، والتدرّج المنطقي للانتهاء إلى المقصد الأصلي موضوع المقال. وكان في سياسته عنيفًا على نظام الحُكْم، وتصرّف الإدارة، قويّ الاعتداد بالحق القوميّ، عظيم السخط على سوء حال الوطن وأهله، متشائمًا من عواقب التصرّفات الإداريّة، بانيًا منهجه السياسي على فكرة الجامعة الإسلامية. وقد شارك الثعالبي في تحرير جريدة "الاتحاد الإسلامي".

وإضافة إلى هذا كان الجعايبي مساندًا للحزب الحرّ الدستوري الجديد، وحضر مؤتمر قصر هلال س1353هـ/1934، وشارك في حوادث 9أفريل1938 وتُوفي على إثرها [3].

---

1 –لطفي الشايبي : م.س. صص86–91

2 –م. ص432

3 –العريبي : م.س. صص57–58 / ابن عاشور : الحركة الأدبية صص88–89

-الطيّب بن عيسى(ت1385هـ/1965)، عضواللجنة التنفيذيّة للحزب الحرّ، وهوكاتب وصحفيّ، وصاحب جريدتيْ "المشير"، و"الوزير" اللتيْن كانتا تساندان أطروحات الحزب وساهم بهما صاحبهما في تكوين رأي عامّ مؤيّد لفكرة الدستور، وقد عُطّلت "الوزير" في مارس1931.

كما كان الطيب بن عيسى في جماعة "الحزب الدستوري المستقلّ"، وهوحزب تونسي مُوال لفرنسا، وأسسه فرحات بن عيّاد، بدعْم من المقيم العام، بعد عودته من بأريس وانسلاخه من الحزب الأمّ.

وكان، كذلك، يكتب في أوّل مجلة تونسيّة خصصت صفحة للمرأة، وهي: "شمس الإسلام"، فشارك، في تلك الصفحة، بمقالات يعرّف فيها بشخصيات نسائيّة عربيّة وإسلاميّة[1].

وقد نشر له الجادوي صورة خاصة، وكتب تحتها :"أحد رجال النهضة القلميّة العاملين"[2]

- راجح إبراهيم(ت1352هـ/1933)، هو محامٍ، من خرّيجي الزيتونة والخلدونيّة، ومن أشهر الأدباء والكتّاب. وكان من أبرز محرّري مجلّة "الفجر" الناطقة بالبرنامج الإصلاحيّ للحزب الدستوريّ، وصدرت في ذي القعدة1338ه/أوت1920، وكانت "مجلة علميّة فكريّة في ظاهرها، وأمّا باطنها فكان الوسيلة الشرعيّة الوحيدة يومئذ لجمع أموال الحزب، وتغطية مصاريفه الكثيرة"[3]

- أحمد توفيق المدني(ت1403هـ/1983)، هو جزائريّ الأصل، وكان من أعضاء الحزب الحرّ الدستوري، وأُودع السجن رفقة زميله في الدراسة حسين الجزيري(ت1394هـ/1974) إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، بتهمة "المسّ من أمْن الدولة"، ولمْ يُفرَج عنهما إلا بعد انتهاء الحرب. وفي السجن "أتقن اللغة الفرنسيّة، وتعاطى لغات أوروبية كثيرة، وطالع كتب الفلسفة

---

1 -الشايبي : م.س. صص88-91 /العريبي : م. س. ص56

2 -م. ص560

3 -العريبي : م.س. صص62-63 / الساحلي : م.س. ص95

والاجتماع والسياسة، وخالط الصحف والمجلاّت الراقية، فكوّن لنفسه بنبوغه وعصاميّته، علمًا واسعًا، وفكرة اجتماعيّة ناضجة، وثقافة سياسيّة قليلة النظير. فلمّا خرج من السجن ارتمى بكلّيّته في الحياة السياسية والفكريّة..".
وكان المدني عضوًا في الوفد الدستوري الثالث نوفمبر-ديسمبر1924(1342هـ)، الذي بيّن أنّ مسؤوليّة الحكومة أمام المجلس التفاوضي تستثني المقيم العامّ، والجنرال قائد جيش الاحتلال، والأميرال قائد البحريّة، وهودليل على قبولهم مبدإ الحماية، كما أكّدوا على عدم التعاون مع الشيوعيّين واختلافهم معهم [1].

- صالح فرحات(ت1399هـ/1979)، من قياديّي الحزب الحرّ الدستوريّ "البلديّة"، الدارسين في الجامعات الفرنسيّة، والذين كانت ثقافتهم عربيّة إسلاميّة، وكانوا من حملة "إيديولوجيا دينيّة محافظة "، وكانوا "يحترزون من الطبقات الشعبيّة، ولا تُحبّذ العمل المباشر، والالتحام بالجماهير، بل تميل إلى النقاشات النظريّة "، وكان عضوًا في الوفد الثالث إلى باريس، ثمّ كان وزيرَ العدليّة في حكومة محمّد شنيق(ت1396هـ/1976)، التي أعلن تشكيلها المنصف باي(ت1367هـ/1948) في 1943/01/01، وكان من مؤتمري ليلة القدر في 1946/08/23 الذين أُلقِي عليهم القبض من قبَل السلطات الاستعماريّة [2].

- الشاذلي المورالي، من أعضاء اللجنة التنفيذيّة، وصاحب جريدة "المنير"، وانضمّ إلى "الحزب الدستوري المستقلّ" [3]

/صورة خاصّة للشاذلي خزندار(ت1374هـ/1954) الملقّب بـ"أمير الشعراء" في تونس، وكتب الجادوي تحت صورته :" أمير القريض السيد

---

1 -العريبي : م.س. ص64 / ابن عاشور : الحركة الأدبية والفكريّة ص149 / الساحلي : م.س. ص90 / الشايبي : م.س. ص92

2 -الشايبي : م.س. ص90 /ص115

3 -م.س. صص88-91

الشاذلي خزندار عضو عامل في الهيئة التنفيذيّة للحزب الحرّ الدستوري، ومن الذين امتُحِنوا في سبيل المسألة التونسيّة " [1]

ومن المعلوم أنّ خزندار قد قرّض "الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة"[2].

/صورة لمحيي الدين القليبي(ت1374هـ/1954)، وعرّف به الجادوي قائلاً :" الكاتب الثاني للحزب الحرّ الدستوري، والرئيس للهيئة التنفيذيّة، ومن حمَلة الأقلام الذي لا يلحق في مضمار، ولا يُشق له غبار، حازمًا مخلصًا"[3]، واعتبره الفاضل ابن عاشور من الستّة اللامعين في المقال السياسي، وقال :" اختصّ برئاسة تحرير جريدة 'الأمّة، س1339هـ/1921، فكانت اللسان الشبيه بالرسمي للحزب الحر الدستوري، وكانت مقالاته فيها توجيهات ذات أثر بعيد في حياة الحزب، وكانت خطته في الكتابة خطّة الدعوة الإقناعيّة...، وجمَله سهلة التركيب، قويّة الروح الحماسي، تغترف من لغة السياسة، وتعتمد التأسّي بالأساليب الصحفيّة الرائجة "[4]

ومن المفيد شهادة الهادي العبيدي(ت1406هـ/1985) ومحمد صالح المهيدي (ت1389هـ/1966) وعلي الجندوبي بأن القليبي من أشدّ خصوم الطاهر الحدّاد، وهو الذي أضرم نار الحملة الشرسة التي استهدفته، وحرّر جلّ المقالات التهجميّة غير الممضاة أوالممضاة بأسماء مستعارة، وأوْعز إلى أحد عملة المطبعة الفنيّة حيث طُبع "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، سرقة كراريس الكتاب قبل صدوره، وتمكّن بتلك الحيلة من الاطلاع عليه وتحرير مقالات عنيفة باغتت الحدّاد في شتى الصحف العربية عند ظهور الكتاب. وكان ذلك بدافع الحقد على الحدّاد لانسلاخه من الحزب الدستوري القديم وانتقاده طرق عمل قيادته [5]

---

1 –م. ص416

2 –م. ص781

3 –م. ص432

4–الحركة الأدبية صص150–151 / تراجم المؤلفين التونسيين ج4صص118–122

5 – أحمد خالد : أضواء من البيئة التونسيّة على الطاهر الحداد ونضال جيل ص313

/صورة للصحفيّ الجربي الشهير البشير الفورتي(ت1374هـ/1954)، الذي نعته الجادوي ب"الوطنيّ الصادق" [1]، وهوصاحب جريدة "التقدّم"، وثاني جريدة هزليّة "ولد البلاد"، بعد جريدة"أبونواس". وقد اشتهر الفورتي بحيويّته، وتعدّد أنشطته في الميادين السياسية والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة [2]

/صورة لحسين الجزيري(ت1394هـ/1974) الذي وصفه الجادوي بأنه من "النوابغ الذين امتُحِنوا في سبيل الوطنيّة، وجمعوا بين الإفادة في النثر والشعر"، وأحال على قصيدته "صوت من السجْن [3].

ويُعتبَر الجزيري من أبرز الصحافيّين التونسيّين في مجال الفكاهة والسخرية، ومدار شعره ونثره روحُ الكفاح السياسيّ والاجتماعيّ. تمّ فصْله عن جامع الزيتونة، بسبب مساهمته في إضراب1910 المطالب بإصلاح التعليم. وبعد خروجه من السجن، أصدر في مستهلّ س1339/1921هـ جريدة "النديم"، التي استمرت اثنين وعشرين عامًا دون انقطاع، وساندت الحزب الدستوري منذ إنشائه، وأيّدت زعماءه دون أي احتراز، وهاجمت خصومه ومنافسيه، وانتقدت "الحزب الإصلاحيّ" والجريدة الناطقة باسمه المسمّاة "البرهان" ثمّ "النهضة"[4].

كان الجادوي، حينئذ، من جماعة الجزيري الذين شنّوا على الدستوريّين الإصلاحيّين، حربًا لا هوادة فيها.

وقد نال القلاتي نصيبًا موفورًا من قذائف الشيخ وحِمَمه، فذهب تاريخه النضاليّ على صفحات "مرشد الأمّة" هباءً منثورًا.

فحسن القلاتي الجزائريّ الأصل، كان من ثلّة الوطنيّين الذين أسسوا الحزْب التونسي، ومن زعماء حركة الشباب التونسي، وكان من أبرز

---

1 –م. ص560

2 – الساحلي : م.س. صص63–65

3 –م. ص432 /محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ج2 صص29–34

4 –الساحلي : م.س. صص89–97 / ابن عاشور : الحركة الأدبية ص161

المعاضدين للثعالبي وباش حانبه، مُقرَّبًا منهما، وكان ضمن أعضاء الوفد الثالث إلى باريس، ومن بين المكلّفين، إلى جانب باش حانبه، بالتوسّط بين طلبة الزيتونة والإدارة الفرنسيّة، للتفاوض مع السلطة، لتلبية مطالبهم حتى يتمّ إنهاء الإضراب، وفعْلاً قبلت سلطة الإشراف تقديم بعض التنازلات.

لكنّ تنافرًا شخصيًّا بين الثعالبي والصافي من جهة، وقلاتي ومحمّد نعمان من جهة أخرى،حدَث بعد رجوع الوفد الدستوريّ الثاني من باريس، وسبّب خلافًا بين الدستوريّين. وعاب القلاتي ومن معه على الثعالبي وجماعته العمل حسب إرادة القيادة دون استشارة القاعدة، واتهموهم بالاستحواذ على أموال الحزب، كما اتهموهم بالتطرّف وبإزعاج الفرنسيّين، وهوما بيّنه قلاتي في مقال له بجريدة"تونس الاشتراكيّة" بتاريخ1921/08/28(1339هـ)، وأعاد نشره في جريدة Le Courrier de Tunisie بتاريخ1921/09/24، وعنونه ب"المسألة التونسيّة"، وردّ عليه أحمد الصافي، فدحض التهم الموجّهة ضدّه وضدّ صديقه الثعالبي وحزبه، وذكّر القلاتي بأصله الجزائريّ، وكأنّه يومئ إلى أنه يتدخّل في القضيّة التونسيّة.

وكان القلاتي وجماعته يعتبرون "الإدماج" سبيلاً أسلم لانعتاق التونسيّين، في حين تجنّب الدستوريون استعمال لفظ "الاندماج".

واستغلّ المقيم العام Lucien تباين رؤى القادة الدستوريّين، مشجعًا القلاتي وجماعته على الانشقاق. وهوما تمّ بالفعل فتأسس "الحزب الإصلاحيّ" في1921/04/16 ، ثمّ أصدروا جريدة سمّوْها في الأوّل "البرهان"، ثمّ تغيّر فأصبحت تعرف بجريدة"النهضة".

ويُفسّر محيي الدين القليبي الانشقاق الأوّل هذا في الحزب الدستوريّ بالأسباب الثقافيّة،إذ يقول : " فأعضاء الحزب المؤسسين من ذوي الثقافة الإسلاميّة، ومن خرّيجي جامع الزيتونة، وعلى رأسهم عبدالعزيز الثعالبي، يريدون أن ينهضوا بالبلاد نهضة إسلاميّة، وأن يربطوا حركتهم بنهضة الشرق، ونضال الشرق مرير في وجه الاستعمار. أمّا أعضاؤه الجدد من الشباب الذين درسوا في فرنسا، وتثقفوا بالثقافة الغربيّة، فهُم يريدون أن ترتبط تونس بعجلة الغرب ".

ولا يخلو هذا الكلام في نظرنا من الخلط والتجنّي، والاستنقاص من قيمة القلاتي خاصة في الحزب.

وعلى كلٍّ، لئن نُعِت "الحزب الإصلاحيّ" مِن قبَل البعض بأنه حزب "مُعتدلٌ"، فإنّ البعض الآخر، وصفه بأنه "حزب التملّق والتواطؤ". ولمْ يجد هذا الحزب المنشقّ عنايةً من قبَل الوطنيّين، واقتصر في مطالبه على بعض الإصلاحات الطفيفة، فتنوسي أمره إلى أن انهار من تلقاء نفسه [1].

ويُورد أحمد خالد أن "الحزب الإصلاحيّ" سلك مسلك التعاون مع إدارة الحماية، وكان هدفه اقتسام النفوذ السياسي في البلاد مع المحتلين بنسبة 60٪ للفرنسيّين و40٪ للإصلاحيين التونسيّين، وقد تمتع هؤلاء بمقاعد في القسم الأهلي من المجلس الكبير، وجهروا بمطالب إصلاحية سياسية في جريدة "النهضة" اليومية، والتي كان يديرها الشاذلي القسطلي(ت1373هـ/1953)[2]

أمّا القصاب فقد أشار إلى أن أصل الخصومة يكمن في الاختلاف حول طرق عمل الوطنيّين، ذلك أن حسن قلاتي لا يرغب في التصادم مع الحماية، ولا بالخصوص مع الأوساط البرلمانية في باريس. ولهذا الغرض كان قد اقترح اتباع طريق الحذر، والاقتناع بإصلاحات تدريجية مع التعاون النزيه مع النظام القائم. ورأى أن تتابع الإصلاحات من شأنه أن يحسّن ماديًّا الوضع الذي عليه التونسيّون. ولمْ يكن الوحيد الذي يفكر هذا التفكير. وقد تألم من هجومات رفقائه القدامى الذين اتهموه بالميوعة بل حتى بالخيانة. فلمْ يتردد مع البعض من أصدقائه في تأسيس "الحزب الإصلاحيّ". ثمّ ازداد النزاع بين الوطنيّين حدّة، ففي حين استمرّ الدستوريّون في كيْل الشتائم لقدماء رفقائهم الذين انضمّوا للحزب الإصلاحي، شنّ قلاتي على الشيخ الثعالبي هجمة شرسة في جريدةTunis Socialiste في1921/08/28، وفي الوقت نفسه

---

1 – راجع :الشايبي : م.س. صص85–90 / العريبي : م.س. صص25–26 / يوسف مناصريّة : الحزب الدستوري التونسي 1919–1924 ص174 /أحمد خالد :أضواء من البيئة التونسيّة م.س. صص57–58

2 – أحمد خالد : م.س. ص190

أصدر نصيره محمد نعمان نشرية في عشر صفحات محرّرة بالعربية بعنوان"كلمة حق"، كما نشر يوم1921/09/10 فصْلاً في جريدة Le Courrier Tunisien للتهكم على الثعالبي. ويصف القصاب هذه الضجّة ب"الجعجعة"، و"الحزب الإصلاحيّ" ب"النادي"، لأن أنصاره كانوا قلّة، والحملة ضدّه كانت منظمة بمهارة[1]

لقد اعتبر الجادوي "الحزب الإصلاحيّ" "حزب الخذلان"، و"حركة الشقاق التي كوّنتها مطامعُ ثلّة من المخذولين، وقد أبرزتها الإدارة لإشْغال الحزب الدستوريّ عن صالح عمله العامّ"، ووصَف جماعتها بأنهم "عبيد الإدارة" الذين يتحرّكون فوق "مرسح الخذلان"، وهُم "ممقوتون من طرف الأمّة، ولمْ يُسمَع لهُم قوْل، ولن يُسْمَع، ولمْ تزل تجارتهم إلى اليوم في بوار..." [2]. كما يصفه بأنه "رهط الفساد " الذي تفانى في نشر "مدعياته التي يحاول ترويجها وراء الحرص على اغتنام الفرَص"[3] ، وقد "امتُحِن بهم هذا القطر وابتُلِي بهم ابتلاء سقيم بطبيب ذي غاية شخصيّة في استطالة المرض بالمصابين"، و"أشهروا حربًا على الأمّة، وأثاروا الهرج والمشاققة المهلكة"[4]

ويعُدّ الشيخ "جريدة التونسي" "من الصحف الوطنيّة الصادقة بالنظر لمبدإ مديرها الفاضل"، ولكن "بالنظر إلى بعض محرّريها كمَن يُدْعى قلاتي، فإنها تتيه أحيانًا إلى أن تصل لسواحل الذبذبة والضلال"[5]

وقد عرَض بعضًا من مواقف قلاتي ونُعمان، وجماعتهما، باختصار مقتضَب، وبتعبيره هووصياغته، ليفسح المجال لردوده المسْهبة غير ذات القيمة الحجاجيّة العالية، والصاعقة بالأوْصاف التي يطلقها.

ونذكر مِن أفكار الإصلاحيّين، ومواقفهم المبثوثة فيما ينشرونها من مقالات، كما ينقلها الجادوي بلفظه :

---

1 –أحمد القصاب :تاريخ تونس المعاصر تعريب: حمادي الساحلي صص512–514

2 –م. ص484

3–م. ص495

4 –م. صص756–757

5 –م. ص189

/إجرام بعض رؤساء الدعوى الدستوريّة (في نظر السياسة)، وجهلهم بغير العربيّة، ومصادمة الفكر العامّ الفرنسيّ بكتاب "تونس الشهيدة"

/استغفال الأمّة وانقيادها لهؤلاء الصبيان، وعدم تعويضها لهُم بغيرهم، وطلب الحساب على صرْف الأموال

/الشطط في المطالب

/عدم بيان الوفد الأوّل لأعماله الباريسيّة، ودعوى تغيير الثاني لبرنامج القضيّة

/تحبيذ أحد الاقتراضات وقتها وتخطئة المعترضين عليه، والدفاع على سياسة المقيم الراحل آنذاك (12محرم1339هـ/1921)

/جهْل الصحافة العربية، وبعْد أربابها عن خدمة الصالح العامّ [1]

ومن المقالات التي كتبَها قلاتي ، ما ورد في جريدة L'avenir Social، حيث عرض مطالب التونسيّين، وحصرها في أربعة :

/نشر التعليم

/إصلاح العدليّة

/تنظيم اليد العاملة التونسية

/إحداث حجرتين للفلاحة والتجارة[2]

ومقالٌ نشره في جريدة Tunis Socialiste بعد انفصاله عن الحزب، بعنوان "المسألة التونسيّة"، فذكر أن كلمة "دستور" خدشت آذان الديمقراطيّين الفرنسيّين، وجعلت أعداء التونسيّين يعتبرونها كلمة خطيرة تخفي بلطف الرغبة في طرْد الفرنسيين من الإيالة..[3]

---

1 –م. ص487

2 –م. ص493

3 –أحمد خالد : م.س. صص56–57

وقد وقف عنده الجادوي، ذاكرًا أنه " ندّد فيه على الحزب الدستوري، وصوّب فيه سهام مطاعنه على صفوة مسيِّريه، يحطّ من كرامتهم، ويزدري بهم بين الناس، بعد أن لفّق لهم من التهم ما شاء، وألصق بهم من الصفات والنعوت ما أراد، وأظهر في كتابته براعة فائقة في الجدل وقلْب الحقائق، ما كُنّا لنرتضيها له وإن رضيَها لنفسه، لأنها تدلّ على وهَن الحجّة، وقلة الحنكة بالأمور. على أن كلّ قارئ لهذا الفصل، لا أظنّه يشكّ أنه كتب تحت تأثير نوبة عصبيّة شديدة ألّمت بدماغ الكاتب، فأخذ يهرف بما لا يعرف، بصورة يلوح منها الغرض وسوء القصد، حتى صار لا يفرّق في قضاياه بين المقدمات والاستنتاجات فضلاً عن الصواب وأخطاء أسلوب الحكيم"[1]

ولئن لمْ يرْتقِ الجادوي في ردوده إلى مستوى مرموق، حيث أُثقِلت الجمَل بالتعميم، والاستطراد، والتطويل، والإلغاز، والتهكّم، فإنّه لفَت الانتباه بتضئيله من قيمة قلاتي ونعمان.

فهو يصف قلاتي بأن له نصيبًا من الفراسة العلميّة والذكاء، ولكنّه صرفهما في غير مصلحة التونسيّين، وفي مقارعة خصومه الشخصيّين. وتاجر بالقضيّة الوطنيّة، واستحوذ على عديد الامتيازات المالية والعقارية والوظيفيّة.

وإذ يلحّ الجادوي في دعوة التونسيّين إلى مقاطعة "رهط" قلاتي، وعِدائهم، فإنه ينعته بأنّه:

/رجل غريب

/ دعيّ الدفاع الوطني في القضيّة التونسيّة

/مجرّد كاتب مقالات في جريدة Le Tunisien

/مُسيَّر رغم أنفه من قبَل باش حانبه في "حركة الشباب التونسي"

/أنانيّ، طمّاع

/عاد بعد النفْي للاشتغال بمهنة المحاماة لا لاستئناف الخطة الوطنيّة

---

1 –م. ص490

/غالط الشعب واصطنع الانحياز التامّ للمسألة التونسيّة

/ذو وجهيْن، منافق، مموّه

/صنيع المقيم العام فلاندان، ومأجور

/لئيم قابل إكرام الأمّة بالانتقام

/مرض فتّاك، ورأس فتنة

/كذّاب

/طائش حسود حتى لمْ يجِد ما يطلب ولا ما يقول

/حقير

/سقيم الفكر

/حدَث الدخيل

/جاهل ... [1]

وشتّان بين هذه الأوصاف وبين ما نعَت به الزمرلي قلاتي، فقد وصفه بأنه "مفكّر سياسيّ"، و"الرجل المتفوّق"، و"المثقف الأصيل والرصين"، وأنه "ظلّ يعمل بدون كلل أوملل من أجل تحرير وطنه الثاني تونس زهاء الستين سنة.."[2]

كما نال محمّد نعمان، قرين قلاتي، حظّه من الصواعق الجادويّة.

ونعمان، هو محامٍ اشتراكيّ، من زعماء حركة الشباب التونسي، ومن مؤسسي الحز التونسي، ثمّ من المنشقين عن الحزب الدستوري بالحزب الإصلاحيّ، وكان أحد أقطاب "الحزب الاشتراكي الفرنسي" [3]، قبل أن

---

1 –م. صص190–194 / 488–495 / 757–765

2 –راجع: الزمرلي : أعلام تونسيون تقديم وتعريب: حمادي الساحلي صص333–340

3 –وصف أحمد خالد هذا الحزب بأنه "كان يجمع نخبة من المحامين والأساتذة والأطباء الفرنسيين المتبجحين بالاشتراكية في جريدتهم : تونس الاشتراكية، وكانوا في منأى عن

ينضمّ إلى "الحزب الدستوري الجديد، ويتعهد بالدفاع عن بورقيبة في قضية المؤامرة ضد أمن الدولة الفرنسيّة ، وهاجم فكرة "الكتاتيب العصرية" في جريدة Le Courrier Tunisien ، وكان من المنفيّين في قضية التراموای، وهو صاحب المجادلة المشهورة مع الحبيب بورقيبة في مسألة الحجاب س1347هـ/1929، فكان يدافع عن السفور، كصديقه قلاتي ، وكان من المساندين للطاهر الحدّاد في محنته ، وأسهم بعدة مقالات في مجلة " ليلى" النسائيّة التي تأسست في س1355هـ/1936[1]

وقد استوقفت الجادوي، مقالاتُ نعمان التي شدّد فيها النكير على الصحف الوطنيّة، واعتبرها تترجم عن آراء فرديّة، وبذلك انعدمت فائدتها، وبقيت البلاد شاغرة من صحف تنفع، وأقلام تقوم بخدمة البلاد، وتقود الرأي العامّ.

كما استوقفه مقاله الذي عَنونَه بـ"الحزب الحرّ والنظام"، وضمّنه سؤاله: هل في الإمكان وجود حزب سياسيّ آخر؟ [2]

فصبّ عليه الجادوي سيْلاً من الشتائم، ومنها :

/لا مبدأ له

/ذوسلوك متلوّن

/خامل يطلب الشهرة

/مطرود من الحزب

/وقِح

/ذوهذيان وبهتان وشقشقة

/مريض وفاقد الرشد

الشعب، فلم تتعاطف معهم إلا ثلة من التونسيين المتزودين بالثقافة الفرنسية. م.س.ص190

1 –أحمد خالد : م.س. ص5 / ص43 /ص53 / ص190 /صص260–271 / ص374

2 –م. ص461

/ناكر للجميل

/مموّه[1]

ولئن شهدنا هذا التركيز في "الفوائد الجمّة" على حزب قلاتي ونعمان، فإنّ هناك انشقاقيْن آخريْن في الحزب القديم، وهُما "الحزب المستقلّ" الذي تزعمه فرحات بن عياد س1340هـ/1922، وكان سائرًا في إطار الحماية، ولا يعارض انحرافاتها، وشارك في إصلاحاتها المتماشية مع روح الحماية. وكذلك جماعة "العمل التونسي" التي ترأسها الحبيب بورقيبة س1353هـ/1934، وأسس لها في مارس من السنة نفسها حزب"الديوان السياسي"، واعتبره أصحابه "امتدادًا للحزب الدستوري"، في حين رآه بعض الدارسين مخالفًا له في جميع برامجه، وبرنامجه هوبرنامج "الحزب الإصلاحي"، فحافظ بذلك على روح الحماية، وصارع سلطتها في تونس المنحرفة عن نصوص المعاهدات الفرنسية التونسية، وطالب بالتعاون مع الفرنسيّين، واتبع برنامجًا سياسيًّا يهدف إلى استقلال تونس استقلالاً ذاتيًّا تكون بمقتضاه مرتبطة بفرنسا في إطار اتحاد متوسطي للمستعمرات تحت لواء فرنسا الكبرى، واعتمد على سياسة المراحل الموصلة إلى الاستقلال الذاتي، والمحافظة على حقوق الفرنسيين المكتسبة في تونس، والاعتراف بالحماية كواقع تاريخيّ، ومشاركتها في السلطة [2]

وقد اعتُبرت "جمعية عموم العملة التونسيّين" المتأسسة س1342هـ/1924 وجهًا نقابيًّا للحزب الحرّ، ولم تكن منشقّة، واستقطبت عناصر عديدة من الحزب [3]، ومنهم أحمد توفيق المدني، وعبد الرحمان اليعلاوي، والطاهر الحدّاد الذي يقول :"أعلن (أي الحزب) بالشكوى من سوء النظام الحاضر، وطلب من الحكومة الفرنسية تغيير شكل حكومة البلاد التونسيّة طبْق برنامج سطّر فيه مطالبه التسعة المعروفة، وعرَضها على رجال فرنسا بواسطة وفود تكررت مرات، لإفهامهم حقيقة الحالة الموجودة بالبلاد التونسيّة، طبق

---

1 –م. صص459–464 /صص484–489

2 –يوسف مناصرية : الصراع الإيديولوجي م.س. صص8–9

3 –مناصرية : الصراع الإيديولوجي ص8

برنامج سطّر فيها مطالبه التسعة المعروفة، وعرضها على رجال فرنسا، بواسطة وفود تكررت مرات، لإفهامهم حقيقة الحالة الموجودة بالبلاد التونسيّة وأحقيّة المطالب التي قُدّمت لهم، حتى يعطوها عن رضى منهم. وليس قصدنا ن نتتبع هذه الحركة السياسية بالتفصيل، وإنما ذكرناها بهذا الإجمال من جهة أنها كانت أوّل دور انتقل إليه الشعب بعد سكونه ونوْمه الطويل. ففي هذه الأثناء بدأ الشعب يشعر أن الحركة السياسية وحدها لا تكفي لإفهام الحكومة ما يطلُب الشعب منها، بل يلزم أن تنضاف إليها نهضة العلم والاقتصاد وتأسيس المؤسسات لذلك بصدق وعزيمة. وتلك هي القوّة التي تفهمها الدول الوصيّة اليوم على الشعوب المستضعفة. ولقد أخذ هذا الاستعداد ينموكل يوم في البلاد، وصار حديثًا منتشرًا بين الجماعات إلى سنة1924، فجاء غرّتَها السيد محمد علي.."[1]

ولكن لا يمكن أن نسهوعن نقد الزعيم النقابي محمد على الحامي (ت1346هـ/1928) لطريقة عمل اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري القديم، إذ يقول الحداد :"..ولطالما كان (أي الحامي) يتأثّر ويلوم كثيرًا المفكّرين، ومَن وضعوا أنفسهم في مركز قيادة الأمّة، كيف لا يجتمعون بالناس إذا كانوا في نادٍ خاصّ بأسلوب خاص على منبر خطابة، وهوقدر لا يكفي للتعارف الحقيقي بينهم وبين الأمّة. بل ربما جعلها تشعر بتفوّقهم عليها واستحقاقهم للحياة أكثر منها، فتنكسر نفسها أمامهم. وهذا ما يجعلها بعيدة عن إدراك معنى الحرّيّة الحقيقيّة التي يجتهدون هُم في شرح معناها "[2].

وهذا ما اعتبره أحمد خالد سببًا في نقمة قادة الحزب على حركة محمد علي وعلى رجالها، ومن بينهم الطاهر الحداد . ويضيف خالد في موضع آخر:" ويبدوأن الدستوريين القدامى ساندوا الحركة العُمّاليّة التونسيّة في بدايتها خشية أن لا تفلت من أيديهم مقاليد الزعامة الوطنيّة بظهور نضال ثوريّ جماهيريّ أجدى من عملهم الحزبي المحتشم القائم على الدعوة لسياسة المشاركة، حسب تعبير محيي الدين القليبي عضواللجنة التنفيذية للحزب

---

1 – الحداد : العمّال التونسيون وظهور الحركة النقابية صص44–45

2 –الحداد : م.س. صص165–166

الحرّ الدستوري في مقالٍ له بعنوان: شغب وتضليل ومكابرة عجيبة، نشره في جريدة –إفريقيا– كردٍّ على هريورئيس الوزراء الفرنسي الذي صرّح أمام البرلمان بأن محمد علي دستوري...تقرّبوا إليه وساندوه في البداية عندما أدركوا قوة حركته الشعبية، قبْل أن يتسمم عليه الجوالسياسيّ في البلاد.."[1].

ولا تفوتنا، هاهنا، إشارة بعض الدارسين إلى أنّ قادة الحزب الدستوريّ في أغلبهم منحدرون من عائلات مترفهة من العاصمة التونسيّة، وهُم ينتمون إلى نخبتيْ :

/ المحامين المتشبعين بثقافة قانونية، فطبعوا الحزب بنزعة التمسك بالشكليات القانونية، ومنح الثقة للطرق الدبلوماسية، والالتجاء إلى المرافعات المقنعة والمعززة بالملفات، مفضلين ذلك على العمل الجماهيريّ والمظاهرات العنيفة

/ قدماء طلبة الجامع الأعظم الذين لمْ يسمح لهم تكوينهم بمواجهة مشاكل الساعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمقاربة جديدة كلّيًا.

وتجمع بين هذيْن الصنفيْن من المثقفين عقلية واحدة هي العقلية الأرستقراطية، فهم يتورّعون عن التوجه نحوالشعب والاختلاط به. وهم من ناحية ثانية محافظون إلى أقصى حدّ، فلا يتصوّرون قيام نظام اجتماعيّ مختلف عن النظام الذي عاشوا في كنفه [2] .

ج–الدستور

كان اهتمام الصحافة بالحياة الدستورية في تونس قبيْل الثلث الأخير من ق19 تقريبا. فقد كان نشر القوانين وأنظمة المجالس، هي السبب المباشر لإنشاء صحيفة "الرائد التونسيّ"، إذ كان هدف السلطة السياسية، تبليغَ نتائج أعمال المشرعين التونسيّين الذين اضطلعوا بشرح وتفصيل المبادئ التي تضمّنها ميثاق عهد الأمان س1857 (1274هـ).

1– راجع :خالد : م.س. صص167–194

2 –القصّاب : تاريخ تونس المعاصر م.س. صص504–506

وبصدورالدستور التونسي في 15-10-1277هـ /16-04-1860 خصصت "الرائد" في عامَيْها الثاني والثالث أهمّ صفحاتها لنقْل أخبار المجالس بعرض القضايا الجنائيّة، والأحكام الصادرة في النوازل العارضة في محاكم تونس ومدن الإيالة، وهوما يعكس رغبة السلطة في إنجاح معركة المجالس، كما يؤكّد مدى نفوذ الفئة الإصلاحيّة مثل خير الدين والجنرال حسين وابن أبي الضياف داخل الدولة رغم سلبية السكان. وبحكم كوْن الرائد جريدة رسمية موجهة إلى نخبة المجتمع ، لمْ تعكس كل مواقف الفئات الاجتماعيّة من الدستور.

ولمْ يثن التراجعُ عن الالتزام بالدستور جريدةَ"الرائد" عن اتجاهها الفكريّ الإصلاحيّ الدستوريّ، فاستمرّت في نهجها التنويريّ المستقى من الفكر الأوروبيّ، ولمْ يضعف إيمانها بالدستور، واكتفت لصفتها الرسميّة، بمعارضة سياسة الباي ودعْم الاتجاه الإصلاحيّ، بطرق غير مباشرة.

كما طُرحت مسألة الدستور على صفحات "الرائد التونسي" في عهد خير الدين بمناسبة صدور الدستور العثمانيّ وتأسيس البرلمان على يد المصلح التركي مدحت باشا(ت1301ه/1884)[1]

أما جريدة أحمد فارس الشدياق(ت1304هـ/1887) "الجوائب" المؤسسة في اسطمبول س1277هـ/1861، فقد شدّدت النكير على الصادق باي(ت1299هـ/1882) لنزعته الاستبداديّة، وإجهاضه التجربة الدستوريّة، انقيادًا لشهواته السلطويّة، ورضوخًا للضغط الفرنسيّ المسلّح.

ولمْ تفتر "الجوائب" عن الدعوة إلى الحياة الدستوريّة، ومنح الحرّيّات، والفصل بين السلطات، واستقلالية القضاء، والاحتكام إلى المجالس، والتشهير بأعمال القمع والتنكيل بالثوريّين والمعارضين [2].

لقد اعتبر الجادوي أن مقابلة وفد الأمّة للأمير محمد الناصر باي (ت1340هـ/1922) لتبليغه عريضة طلب إعلان الدستور من قِبَله، "يومًا

---

1 -عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة م.س. صص305-321

2 - عمايرية : م.س. صص177-184

تاريخيًّا عظيمًا"، ومن "الأيام التي يرجى أن يحفظ لها التاريخ ذكرًا جميلاً في الأمّة التونسيّة" [1].

وهو يرى أنّ الأمّة لا يتسنّى لها التقدم المادّيّ والأدبيّ ما لمْ تُعْطَ حرّية القول، والفعل، والاستحقاق، والاجتماع، والمساواة في الحقوق، والمشاركة في التشريع، بأن يكون لها نُوّاب بالانتخاب العامّ، يراقبون الحكومة.

و"الدستور"، في نظره، حقّ شرعيّ، مقدّس، مطلوب، تتوقّف عليه سعادة الأمّة التونسيّة، وسرعةُ تقدّمِها، و"هوليس بالأمر الجديد، وإنما هومسترجَعٌ فاقد، كان لها من قبْل، ثمّ قضت عليه الظروف بهذه النومة الطويلة، والسبات العميق، فرأت من حاجتها إليه أنه جاء الإبّان بأن تقوم بطلب استرجاعه، وإسراج نوره، على أنه ليس من الأشياء الكبيرة والأمور الخطيرة ". وهي تطلب هذا الحقّ من الجمهورية التي التزمت ب"تخليص الأمم الضعيفة من ربقة الاستبداد وتحريرها وإعطائها حق الحياة الوجودية"[2].

ويصف الشيخ الأمّة التونسيّة بأنها "كمّيّة متصرَّف فيها" [3]، ولذلك لا يرى في غير "النظام الديمقراطيّ" و"الحُكْم الدستوريّ" حياة تستوجب الاطمئنان، يُعطَى بها الشعب حقّ المشاركة في شؤونه، تشريعًا وإجراءً، على قاعدة يُقرّرها العدل، ويرتضيها الإنصاف، وتزدان بها سياسة الأقوياء بين المستضعفين[4].

ويُنبّه إلى أن الحكومات ذوات السلطة المطلقة، والمصالح الشخصيّة الضيّقة، لا يستقرّ لها قرار، بل يكون هيكلها هدفًا للانقلاب والارتجاج، وبذلك يحلّ العناء بالأمم التي خُلِقت حرّة، وتريد أن تعيش حرّة، إذ الحرّيّة في نظرها جزء من روحها. والقوانين وسيلتها في تقييد السلطة المطلقة، وحماية حقوقها[5].

---

1 –م. صص352–353

2 –م. صص357–358

3 –م. ص398

4 –م. ص401

5 –م. ص356

ويُورد أنّ العقل، والشرع، والتاريخ، والعادة، والعيان، أجمعت على أنّ سعادة الأمم منوطة ب"الدستور"، إذ فيه تنعكس أشعة الرقيّ، ومنه تنبعث شُهب النظام، وبه تُدان المدنيّة، وله تنزوي ضياء التقدّم، وتحنّ رفاهية الحياة [1].

فـ"الدستور" حسب الجادوي، هو الحافظ للأمّة التونسيّة من غوائل "حزب الاستعمار" الذي ما فتئ يسيئ إليها بلا رادع، مسلحًا بسلطة قويّة، يشعر معها أنّ طلبَه لا يُرَدّ، وإذا اعتدى لا يُعاقب، بل يُلتمَس له العُذْر، "ويُسخّر العملة بأجور زهيدة، ويستخدم الأحرار المحتاجين، وإذا رغب في أرض يملكها بدعْوى الاستثمار والاستعمار، وقضية الأحباس العامّة والخاصّة، ووادي زرود شاهد على ما لهؤلاء من النفوذ المطلق والتصرّف المبيد. فالاستعمار ومطامعُ أهله الشاسعة، إذا لمْ يُقيَّد بقوانين دستوريّة يكون ضرره على الأمم المحميّة أوالمستعمرة أكثر بأضعاف من نفعه"[2]. ويؤكّد في إلحاح، على أنّ "الشعب لا يرى كفالة لكلّ المتساكنين غير الدستور"[3].

ومن المعلوم أن الثعالبي كان يرى أنّ "العلاج الوحيد للداء التونسيّ هومنح دستور للبلاد"[4]، وكانت خلاصة تقرير وفْد الأمّة الثاني إلى باريس، أن التونسيّين بلغوا طوْرًا من أطوار نهضتهم توجب عليهم تمتعهم بنظام دستوريّ، يضمن لهم الحرّية الشخصيّة، والحرّية الفكريّة، وحرّيّة الاجتماع والقوْل، ويضمن مراقبة الميزانيّة، ويسمح لهم بالمشاركة بصفة فعْليّة، في تقرير الأتاوات الجديدة، ووضْه الإصلاحات المزمع إجراؤها. وفوق هذه الإصلاحات، ولضمان تحقيقها، يطلب التونسيون تفريق السلط، وتقرير مبدإ مسؤولية الحكومة، والكلّ تحت مراقبة فرنسا.

وقد كانت فصول برنامج مطالب التونسيّين كما يلي :

---

1 –م. ص51

2 –م. صص358–359

3 –م. ص401

4 –القصاب : م.س. ص500

/مجلس تفاوضي متركب من تونسيّين وفرنسيّين، يقع انتخابهم بالاقتراع العامّ، ويكون متصرّفا في مواضيع مباحثاته، وذا نظر متسع في الميزانية العموميّة

/حكومة مسؤولة لدى المجلس المذكور

/التفريق بصورة مطلقة بين السلط التشريعية والتنفيذية والعدليّة

/تسنّم التونسيّين لذرى كلّ المناصب الإدارية، بشرط الإحراز على الكفالات الفكرية والأدبية التي تشترط على المترشحين الفرنسيّين

/المساواة في المرتبات بين المتوظفين الذين مع استوائهم في الكفاءة يشغلون مناصب واحدة بدون أن يقع ميْز لأوروبي على أهْلي

/تنظيم المجالس البلديّة بالانتخاب العامّ في كلّ أنحاء الإيالة التونسيّة

/التعليم الإجباري

/مشاركة التونسيّين في شراء أراضي إدارة الفلاحة وأملاك الدور

/حرية الصحافة والاجتماع [1].

وقد تصدّى الجادوي لكلّ من عارض مطالبة التونسيّين بدستور [2]، واحتفى بكلّ من ساند هذا المطلب المقدّس.

ومن ذلك الفتوى القانونيّة التي أصدرها الحقوقيّ والبرلمانيّ والسياسيّ الفرنسيّ برتيلميي، في 1921/07/11. وقد أحرزها الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ، كما يقول الجادوي، "إثر مجهودات هائلة بذلها في هذا الشأن"، واعتبرها "فصل الخطاب الحاسم لكلّ قيل وقال، في شأن مطالبة الشعب التونسيّ بالدستور، كما تُبْطل دعوى القائلين بمنافاته للحماية، ويرتفع بها الإشكال"[3].

---

1 –م. صص411–424 /الثعالبي : تونس الشهيدة صص291–298 /القصّاب : م.س. صص499–504

2 – م. صص425–430

3 –م. ص473

وقد أجابت هذه الفتوى عن أربعة أسئلة :

/هل يمكن للشعب التونسي أن يخاطب أميره بواسطة عرائض؟

/هل لدستور عام1861 الكتابي وجود قانونيّ الآن؟

/هل إرجاع هذا الدستور على القول بوجوده وتغييره مع الحماية مطابق لهذا النظام؟

/هل النظام الدستوري موافق للحماية؟

وينتهي مُصْدر الفتوى إلى أن لا مضادّة أصليّة بين بعض السياسة الداخليّة بالبلد المحتمي وبين نظام الحماية، ويجب أن تكون السياسة موافقة للحالة العامّة التي للشعْب المحميّ حسب درجة تهذيبه، وانتشار العلوم والمعارف بينه. كما أن ملاءمة بعض الحرّيّات السياسيّة والإداريّة لنظام الحماية لا شكّ فيها من جهة القانون، وأما درجة هذه الحرّيّة فهي مسألة سياسيّة يقع الوفاق فيها بين الدولة الحامية والدولة المحتمية[1].

كما نشر الجادِوي فتوى قانونيّة ثانية حررها المحامي بدائرة عدلية باريس أدوار.ك كلوتيت في1921/12/14، تؤيّد المسألة التونسيّة، وتقرّر أنّ القانون لا يعارض قبول فرنسا بالمطالب والتنقيحات التشريعيّة، ومباشرة العمل بها في المملكة التونسيّة [2].

وتحت عنوان "لنأتمر لتحقيق الآمال"، كتب الجادوي :

أوّلاً : نريد، ولا بُدّ من تنفيذ إرادتنا العادلة، أن يكون لبلادنا دستور شوريّ انتخابيّ نسبيّ، أكثر انطباقًا على العدالة والإنصاف مما نحن عليه الآن.

نريد الدستور العادل، ولا نريده إلا لردّ حقوق الإنسان الطبيعيّة المقدّسة التي لا حياة له بدونها.

---

1 –م. صص473–478

2 –م. صص562–565

نُريد الشورى ولا نريدها إلا لنسترجع حقوق الجمهور التي فتكت بها مخالب الجهالة والأغراض.

نريد الانتخاب، ولا نريده إلا لنرفع الإنسان إلى مؤاخاة أخيه الإنسان إيخاءً يتمحّض فيه شخص سياسة التشريك الحقيقيّة العادلة...

فلْيحْيَ الدستور الانتخابيّ النسبيّ لأنّه ينفخ في البلاد روح الحياة.

ثانيًا : الدستور حياتنا والعلم قوة تلك الحياة...

ثالثًا : السعْي للعلم أمر جميل، ولكن هذه الواسطة وحدها غير كافية ولا تضمن لنا النجاح. نحتاج مع إحياء العلم إلى إحياء الأمن...

فليعنّا العلم على الدستور الشرعيّ الفطريّ، ولتفض سوابغ الأمن الحقيقيّ النفسانيّ، والسلام الخالص على قبور الصدور ليطمئن روْع البلاد.

رابعًا : الدستور والعلم والأمن لا يفيان بالمرغوب إذا لمْ يكن للأمّة رقابة عليها. وإن وقاية الأمّة الساهرة على حفظ كيانها المجاهدة في إعلان شأنها هي الصحافة الحرّة المخلصة الرشيدة...

وفي الاجتماع الخاصّ والجمعيات الحرّة حياتنا وسلامتنا من الأخطار المحدقة بنا، فلْيحْيَ الاجتماع، ولتُؤسَّس الجمعيات...

فلتنسخ أحكام الإدارة، ولتفْصل كل سلطة على حدتها، ولتوجدنّ لنا طريقًا يحفظ به الدستور من تأثير الاستبداد بما يفتر له ثغره...

إن الاستبداد القانوني خطر على الدستور...

فلتصلحن المحاكم من خير طريق، ولتسعينّ لأن تكون بيد الصالح العامّ، ونجعله محورها، ونجعلها آلة في يد المستقلين أولي الضمائر الطاهرة، والسرائر الناصعة يحركها الحقّ...[1]

ولقد أكد الجادوي أن تكوين "الحكومة" في البشر "ضروريّ الوجود، وله سرٌّ جميل، وهوإيجاد العدل والقسطاس في الناس، من تأمين السبل، ورفع

---

1 –م. صص314–320

الاعتداء، وإنصاف الضعيف من القويّ، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة الموجبة للعمران، وسعادة بني الإنسان"[1].

أمّا "الشورى" فقد اعتبرها "آية العمران"، واستدلّ على ذلك بانتصارات اليابان "الديمقراطيّة" على روسيا "الاستبداديّة"، وتجارب أمريكا التي "كفرتْ بتسليم أزمّة الأمور لرجل واحد، حتى يقبض عليها بيد من حديد، على أنهم أرقى عباد الله آراء ودراية، بما يكفل راحة الحياة من طوارق النوائب وشدائد المصائب والرزايا ونكبات الكوارث المميتة "، وانقلترا التي "لا يستطيع حاكمها أن يدبّر مؤامرة نفع أوضرّ دون موافقة البرلمان(مجلس العموم)، وإيطاليا، والنمسا، وغيرها من الدوَل الأوروبية التي نسج حكّامها "على منوال من تقدمهم في الديمقراطية ضدّ الاستبداد والتقييد" [2].

يقول الجادوي:"سَل القرون المظلمة وقدماء المصريّين والاشوريّين والكلدانيّين والأكاسرة والأثينيّين واليونان والفينيقيّين، والرومان، وممالك القرون المتأخرة الإسلاميّة المتقهقرة، بل والممالك الأوروبية حتى الآن، سواء كانت ممالك مستبدّة، أولمْ يأخذ منها من الشورى والجمهورية إلا الاسم، يُنبئك جميع ما تقدّم أن الغالب الأغلب في تلك الدول أن تكون مستبدّة لفرْد منزَّل منها منزلة المالك المطلق من ملكه الخالص، وما بقي أغلبه قد نال من الشورى الاسم لا الرسم، إذ ماهوفي الحقيقة إلا استبداد تعاظم وتعدّى من فرد إلى أفراد وفوضى سائدة بقوّتها على الحقّ"[3]

و"الشورى"، عنده، من "الشرائط الأوّليّة والضروريات الأكيدة، بها يحفظ الكيان البشريّ، وعلى وجوبها أجمع علماء البسيطة"[4].

وإلى جانب استدلاله بنصوص من القرآن، والسنّة، والشعْر، في الحثّ على "الشورى" [5]، بيَّن الجادوي أنّ توْق التونسيّ إليها مردّه أنها من كليّات دينه

---

1 –م. ص402
2 –م. صص51–54
3 –م. ص294
4 –م. ص52
5 –م. ص292

الحكيم، إضافة إلى أنه في كنف "دولة لا ينبري لمصادرتها أحد فيما تفرّدت به من اختطاط سنن حدوث الديمقراطيّة...زدْ أن العنصر المزاحم لهم في معترك الاسترزاق، ومنازل المساعفات الدوليّة لَه نوّاب لا هَمَّ لهم إلا السعي وراء صالحهم..."[1].

وقد ضبط صاحب"مرشد الأمّة" عشرة شروط ، هي بمثابة أركان ل"الشورى"، لا ينخرم واحد منها إلا "وتُمسَخ إلى استبداد متعدّد الرؤوس كالتنين، أوفوْضى لا رائد لها غير السلب، ولا فائدة فيها غير النهب". وهي ضرورية لقوَام هيكل "الشورى" و"الهيأة الدستورية"، قوَامًا يكفل حصول الفائدة.

وهذه الأركان العشرة هي :

/الاستقلال في العمل عن الحكومة وغيرها والحرّيّة المضمونة فيه

/نسيان الذات أمام المصالح العامّة وعدم الخضوع للشخصيات

/التجرّد عن الأغراض والميول لطلب الحقيقة أين كانت ولأيّ كان

/الكفاءة العلميّة من غير نظر للتموّل والاحساب والإقامة ببلد دون بلد وحرّيّة الانتخاب

/الإقرار بمميزات الأغلبية التي يتكوّن منها هيكل جمهور مصالح الأمّة مطلقًا

/عدم التهاون بحقوق الأقلّيّة إرضاءً للأغلبيّة ما دام الإصلاح في جانبها

/أن لا يكون المنتخبون من جماعة، وإن كانوا يرون أنفسهم من الأمّة فإنهم منفصلون عنها باعتبار الحيْثيّات

/أن لا تكون القلة والكثرة النيابيّتيْن مخصصة من قِبَل الحكومة الإجرائيّة

/أن يكون عدد النائبين نسبيًّا في الأمّة وفي الفِرَق التي تتكوّن منها تحصيلاً الثقة العامّة

---

1 –م. ص52

/لتحقيق الأغلبية والأقلّيّة الانتخابيّتيْن ينبغي أن لا يلتفت لاختلاف الدين والجنس والسياسة والفتح والانتصار، وإنما ينظر لمصلحة البلاد والمتساكنين بها بحيث يكون فارق المصلحة العامة هوركن الأقلّيّة والأغلبية وركن أعمال الهيأة الدستورية. وهذا لا يتمّ إلا بتظليل سائر العناصر الخاضعة لأمر الحكومة بظل الأمن على الحرّيّة الشخصيّة والحرّيّة العامّة والعدالة والمساواة[1].

ولئن اكتفى الشيخ باستعمال مصطلح"الشورى" القرآنيّ، فإنّه لمْ يُعْرضْ تمامًا عن مصطلح"الديمقراطيّة"، وهوما يعني عدم انخراطه في جبهة المعارضين لهذا الاصطلاح، معتبرينَه مفهومًا "كُفْريًّا" و"شيطانيًّا" [2].

ومثلما انتقد الثعالبي تجربة "الشورى" في تونس إبان الاستعمار، على اعتبارها "وسيلة لإثبات الهيمنة الاستعماريّة وتدعيمها، ولمغالطة الرأي العام الأوروبي بأكثر تأكيد. وذلك بدفع الناس إلى الظن بأن ممثلين عن الشعب التونسي يشاركون في حكومة البلاد وبإقناعهم أن التونسيّين موافقون على كامل سياسات المتبعة ببلادهم "[3]، فإنّ الجادوي لمْ يدخر جُهْدًا في التشهير بخيْبات "الشوريّين" التونسيّين وعثراتهم، وانتهازيتهم، وسلبيّتهم، وتبعيّتهم.

---

1 –م. صص292–297

2 – "الديمقراطية" كما هومعلوم حكم الأمة نفسَها بنفسها، وهوما يقتضي أن يكون كلّ الشعب طرفًا في عمليّة الانتخاب. ولكنّ المَوْدودي(ت1399هـ/1979)، مثلا، يعتبرها لا شيء وسمّاها "ديمقراطية شيطانيّة"، في حين اعتبر "الشُّورى" هي "المنهج الإلاهيّ" وجوّز تسميتها ب"الديمقراطية الإسلامية". وهويرى أن "الديمقراطية" في مفهومها الغربي ليست من الإسلام في شيء، فلا يصح إطلاقها على نظام الدولة الإسلامية، بل أصدق منها تعبيرًا كلمة "الحكومة الإلاهية" أو"التيوقراطية" لكنها "التيوقراطية الإسلامية" لا الغربية.

المودودي: نظرية الإسلام السياسية صص28–32

وراجع : ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام صص213–215

موسوعة العقاد الإسلامية ضمن الأعمال الكاملة مج4 صص685–815

3 –الثعالبي : تونس الشهيدة صص26–30

ومن عناوين المقالات في هذا الموضوع :

/المجلس الشوريّ [1]

/المجلس الشوريّ وتعميم أداء المجبى [2]

/حول المجلس الشوريّ وخطاب السفير[3]

/فتح الجمعية الشوريّة وخطاب المقيم بالقسم التونسي[4]

/مقال مؤرخ في18رجب1329هـ(غير معنون)[5]

وقد أبْدى الجادوي سخطه على المجلس الشوريّ التونسيّ، مقارنًا إيّاه بنظيره المصريّ على علاّته، إذ بيّن أن مجلس شورى القوانين بمصر وطنيّ بحت، أعضاؤه نسبيّة منتخَبة من قِبَل الأمّة بقدْر الإمكان، وفي إمكان الأحرار الوطنيّين المخلصين لمصر أن يكونوا مستقلّين في آرائهم عن الحكومة إذا لمْ يطمعوا في فتات موائد الاحتلال، وأغلبهم محصّل على الكفاءة العلميّة أوما يقاربها، والأغلبية فيه ممثلة تمثيلاً وإن كان ناقصًا إلا أنه قريب من جادّة الاعتدال، والأقلية فيه محترمة من الأمّة والحكومة. وللمجلس النظر في ميزانية الدولة، والرقابة على أعمال الحكومة. وملاحظاته وإن كانت تعبث بها أهواء الاحتلال والخوَنة، فإنها قد تكون في كثير من المواطن أكبر شهادة للأجيال المصرية المقبلة على ما لنوابهم من الوطنيّين من الشهامة والبسالة والإخلاص في الحرص على حفظ شرف المصريّ التالد أمام مكائد وهجمات الاحتلال.

أما مجلس شورى التونسيّين، فما هو إلا سلسلة ذهبية مموّهة خرجت حلقاتها من بين مطارق السياسة، وصارت أو كادت تصير "القوى الشوريّة" التونسيّة سيْفًا باترًا لجزّ رقاب الشعب، وحجّةً عليه لا له. ولذلك كانت

---

1 –م. صص104–106

2 –م. صص166–173

3 –م. صص213–218

4 –م. صص218–222

5 –م. صص297–303

أعضاء هاته "الشورى" أقرب إلى الفوضى منها إلى النظام، وأبعد عن العدالة منها عن الغلو في الأنانية والمظاهر. وهي "شورى" لمْ تطمئنّ لها الأمّة قاطبة، ولن تطمئنّ، لأنّها لا تستطيع أن تنتخبها هي نفسها لتكون لها السلطة عليها عوض أن تكون لعبة أوبضاعة تباع وتشترى. وقد تغلبت فيها الأقليّة على الأكثريّة بسلطة السياسة العادلة حتى أُكِلت أكْلاً لمًّا وأبقتْها أشباحًا بلا أرواح. وأغلب أعضائها ممن لا يعرفون المدنيّة إلا بالجهل أوالتقليد الأعمى، ونسيان الذات والنسب والأمّة. كما انعدمت فيهم الكفاءة العلميّة، ولا همّ لهم إلا تحقيق رغائبهم الشخصيّة[1]

وقد اقتضى الأمر المؤرّخ في 13-07-1922 (1340هـ)إلغاء المجلس الشوري القديم، وتعويضه بمؤسسة جديدة سُمّيت "المجلس الكبير"، أُقيم باعتباره هيأة منبثقة عن المجالس المحلّيّة، وهي : مجالس المشيخات، ومجالس الأعمال ن ومجالس الجهات.

وقد كانت ردود الفعل تجاه إصلاحات1922 مختلفة، فأعرب قلاتي و"الحزب الإصلاحي" عن سرورهم بتلك الإصلاحات، باعتبارها مرحلة إيجابية، وتعبير عن حسن نية سلط الحماية.

أما الحزب الدستوري فقد عارضها وانتقدها، واعتبر هذا المجلس غيرَ ذي روح، ولا تُسند إليه السلطة أيّ جزء من الصلاحيات التشريعيّة .

ذلك أن انتداب أعضاء مجالس الأعمال لا يكتسي أية صبغة ديمقراطية، حيث أن سكان الدوائر البلدية لا يساهمون في الاقتراعات، ومن ناحية أخرى فإن الانتخابات تدور في نطاق الأعيان الضيّق، بالإضافة إلى أن السلطة التنفيذية المتمثلة في شيخ التراب هي التي تضبط قائمتهم. أما تشكيلة مجالس الجهات فانتخاباتها شكليّة، والإدارة هي التي تعيّن النوّاب[2].

---

1 -م. صص301-303

2 -القصاب : م.س. صص519-521

وقد سار الجادوي في هذا المسار نفسِه، فاعتبر "المجلس الكبير" ضخْمًا في لقبه، فارغًا في هيأته، عقيمًا في فائدته، ولمْ يستحسنْه إلا "المغفّلون " و"الطمّاعون" [1] .

وأوْلاه اهتمامًا لافتًا، من خلال عدد من المقالات، نذكر منها :

/افتتاح المجلس الكبير وخطاب العميد[2]

/حول المجلس الكبير وافتراقه وهل من نتيجة [3]

/حول إجتماع المجلس الكبير أيضًا [4]

/كيف يستهلكون الميزان[5]

/كيف يتصرفون في الميزان -إدارة الداخليّة-[6]

/كيف يبذّرون الميزان -الداخلية وإدارة الأشغال العامّة-[7]

/ماذا استفاد الشعب من المجلس الكبير؟[8]

/صدى المجلس الكبير بعد انتهاء جلساته [9]

/فكاهات فكريّة المحاكم الشرعيّة والمجلس الكبير [10]

/ميزان الأوقاف والمجلس الكبير[11]

---

1 -م. صص614-615

2 -م. صص606-612

3 -م. صص612-619

4 -م. صص620-625

5 -م. صص626-632

6 -م. صص633-639

7 -م. صص640-646

8 -م. صص692-698

9 -م. صص699-707

10 -م. صص708-709

11 -م. صص709-711

/جلسة المجلس الكبير فوق العادة[1]

/صدى فتح مجالس الجهات أيضا[2]

كما اعتنى الجادوي بالسلطة القضائيّة، فنادى "لنأتمر لإصلاح القضاء"[3]، منطلقًا بالآيات القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، للتأكيد على ضرورة استقلالية القضاء، ونزاهته، وأهمّية العدل في استتباب الأمان والاستقرار.

وقد عرَض أسس القضاء الرشيد، ونلخّصها في :

/التقوى والنزاهة

/العلم بشرف القضاء وناموس العدل ومركزهما، وتأثيرهما في الهيأة الاجتماعيّة

/العلم بأصول القانون ومبانيه، علمًا يجعل فهم القاضي ومراد القانون سواءً أومتقاربيْن

/العلم بالحقوق العامّة والخاصة التي لابد منها لقوام المجتمع الإنسانيّ

/العلم بميول الأمّة النفسية والدينية والأدبية والمدنية والعاديّة

/العلم بفلسفة الحوادث المدنية والجنح والجنايات

/العلم بالمسؤولية. القضائية العامّة

/العلم بالمسؤولية الشخصية

/العلم بمركز المسؤولية والشخص المسؤول عن القضاء المخالف للقانون

/علم الممنوعيات بأنواعها

/القدرة على تطبيق تلك العلوم تطبيقًا يوافق روح العدالة، ويقاربه بدون تأويل

---

1 –م. صص711–713

2 –م. صص713–714

3 –م. صص303–313

/الذكاء والفراسة

/الاجتهاد

/الاكتفاء الماديّ

/الاستقلال القضائيّ

/حمايته من كل ما يؤثر فيه

/تحديد وظيفة الوكلاء مطلقا وتقدير ما تفرضه لهم العدالة من الحقوق

/صيانة الترافع من استعمال الطرق الجدلية لتضليل القضاء

/توزيع العمل حسب الاستعداد وتطبيق القانون على الحاجيات

ويكشف الجادوي أن "القضاء الإسلاميّ" أصبح "آلة يتوصّل بها الجياع إلى ابتزاز أموال الخصماء حتى صارت المحاكم الإسلاميّة أشدّ إقلاقًا للأمن من عصابات اللصوص وقُطّاع الطريق، تلعب بها الأغراض، ويضحي فيها الحق قربانًا للهوى والأغراض والمؤثرات السياسيّة... والله يعلم أن الإسلام بريء من سياسة السلب والنهب والجدل والختل والمماطلة، فالتنفير فالتفسيق فالتكفير".

وقد طالب الجادوي بـ :

-تدوين القوانين من قِبَل الأمّة التونسيّة، عبر دستور تشريعيّ يلائم آداب البلاد وأخلاقها وعوائدها وديانتها

-إصلاح القضاء الشرعيّ

-وضع قانون أساسيّ له

- مقاومة التحجر والانغلاق

-اعتماد العربية لغةَ التقاضي الرسميّة

-حرّية القاضي واستقلاله

-الفصْل بين القضاء والإدارة. وقد ذكّر هاهنا أن تونس مُنّيَت دهرًا طويلا، باختلاط السلط، واستفراد الإدارة بها، ولا تزال تئن من وقرها، و"قد أفقد

الشعب كفالة الحقوق، وتحملت الأمّة أتعابًا جسيمة من استئثار الإدارة بكل النفوذ"[1].

د-التجنيس

لقد برزت حميّة الجادِوي في إيمانه بـ"مواطنيّة" اليهود التونسيّين، من خلال سخطه عليهم، بسبب مطلبهم التجنّسَ بالجنسيّة الفرنسيّة، والخروجَ عن سلطة الحكومة التونسيّة، والحماية الفرنسيّة، وتحريضهم على الإلحاق.

إنه لا يراهم غيرَ مواطنين تونسيّين محظوظين، وهُم ليسوا في نظره غير " يهود إسرائيليّين تونسيّين، ولئن تطوّروا مع الظروف، وتقلبوا مع الأزمان "، جرّهم الوهَم في الحرّيّة الشخصيّة، إلى "تفكير ساقط" و"رأي سافل"، ف "تجاهروا بالعدوان، قبل أن يعرفوا منزلتهم، وسياسة موطنهم، وتطاولوا حتى طلبوا المستحيل، وعلقوا آمالهم على ما لا طمع فيه ". فقد ادعوْا أنهم مضطهَدون، ونسوا أنهم قد "استحوذوا على كل وسائل التكسّب، والرفاهيّة، وأسباب السعادة الحيويّة، واستقلوا بالحركات التجارية، والأعمال الصناعيّة الإثرائيّة".

لكنّهم ما كفتهم هذه النعَم، " وما رضوا بها وما اقتنعوا بالسعة في الرزق، وطيب العيش، والرفاهية والإثراء العام، بل طلبوا قوة سياسية فوق القوة المالية يتملصون بها من حكومة سموالباي ورجاله العادلين، ليمتازوا بين مواطنيهم في كل الجزئيات والكليات "[2].

لقد أكّد الجادوي على أنّ طائفة من اليهود التونسيّين تجرّدت من الإحساس الوطنيّ، وفقدت كلّ عاطفة كريمة، فقامت تطلب الانسلاخ عن مواطنيهم المسلمين الذين طالبوا بحفظ جامعتهم، ورفضوا انفصال اليهود عنهم [3]

---

1 -م. صص450-453 / وراجع : الثعالبي : تونس الشهيدة صص85-112

2 -م. صص149-152

3 -م. صص162-164

ولئن مثلت مقاومة "التجنّس الإسرائيليّ" في تونس آليّة من آليات الكفاح الوطنيّ ضدّ الإدماج الاستعماريّ، وهي ذات أبعاد سياسيّة نضاليّة، وخطوة نحوتعطيل مساعي فرنسا في تعزيز وجودها وقوّتها، أكثر منها حُبًّا في اليهود، وإن كانوا تونسيّين،

فإنّ الجادوي يؤكّد على أنّ معارضة التونسيّين المسلمين للقانون، ليس بغرض إبقاء الإسرائيليّين تحت سيطرتهم، إذ الواقع خلاف ذلك، ولمْ يُجْعَل لهم قانون يبقيهم كذلك، بل المعارضة تهدف إلى إبقاء جميع التونسيّين، يهودًا ومسلمين، تحت قانون واحد، لأنهم جميعًا نشأوا في أرض واحدة، وتكلموا بلسان واحد، وخضعوا لأمير واحد ينظر إليهم نظرة واحدة.

ويضيف قائلاً :" أما من الوجهة السياسية فإن فرنسا وجدت يوم الاحتلال سموالباي ملكًا مستقلاً بالبلاد...تتكوّن رعيّته في شعب واحد، يدينون بدينيْن : الإسلام واليهوديّة، فبسطت حمايتها عليه وعلى البلاد بداعي تأييد سلطته وحفظ مملكته من يد عادية... فقيامها اليوم بطلب إخراج اليهود من سلطته هو حذف من سلطته التي تعهدت بتأييدها كما انه اعتراف بعجزها عن الإصلاح الذي وعدت به... إنا لا نرضى بالتمايز بين فريقيْن متساوييْن في الجنسيّة لاختلاف الأديان، ونسجّل على ذلك أشد تسجيل..."[1]

وقد رفع صوته في كلمة أعدها للمظاهرة الوطنية ضدّ تجنّس اليهود، قائلاً :"أهتف باسم هذا الجمع الموقّر، أن تبقى جنسيّة التونسيّين محفوظة إلى الأبد عن التنقيص والتغيير، وأن نكون محكومين، ولواختلفنا في الدين، لفرْد قانون، وأن تستمرّ فرنسا على حفظ العهود"[2].

كما لمْ يُفوّت فرصة تذكير اليهود التونسيّين، بأنهم كانوا إبّان الحرب العالميّة الأولى "يحمدون تبعيّتهم التونسيّة، ويصلّون شُكْرًا لله في كنائسهم...ويدْعون لمتبوعهم المعظّم بطول البقاء "، ويؤكّد على أن منْحهم

---

1 –م. صص155–160

2 –م. ص165

الجنسيّة الفرنسيّة، وقبولهم بها، وانسلاخهم عن تبعة كانوا بالأمس يقدسونها، "إنما هواعتداء على التاج وصاحبه المعظّم". كما ينبّه فرنسا إلى أنّ تجنيس اليهود "لا يزيد في عائلتها اعتبارًا ولا يفيدها، وإنما ستفتح به مشاكل قوْميّة، وتغتصب به حقوق متبوع مخلص لها، قد التزمت له بحماية بلاده وحقوق عرش أسلافه المتين "[1]

أمّا الضجّة الكبرى، فقد كانت مع صدور أمر1923/12/20 (1341ه)، الذي يسهّل للتونسيّين التجنّس بالجنسيّة الفرنسيّة، ويدخل ذلك في خطّة الاستعمار للقضاء نهائيًّا على مقوّمات الشخصيّة التونسيّة. فقاوم الزعماء الدستوريّون هذا القانون، ووظفوا صدوره لشنّ حملة صحفيّة ضد السلطات الاستعماريّة، وبذلك يدخلون حركية جديدة في صفوف حزبهم[2].

وكان منهم الطاهر الحدّاد الذي كتب في أحد مقالاته تحت عنوان : "التجنيس نكث للعهْد" بتاريخ1923/11/13: " فتْح باب التجنيس للتونسيّين أقلّ ما يُقال فيه أن فرنسا تتمنى أن يصير التونسيّون في يومٍ ما فرنسيّين. وهل هذا وحده لا يكفي لإثبات رغبة الحكومة الفرنسيّة في القضاء على الجنسيّة التونسيّة والدولة التي تمثلها، والتي اعترفت بها في المعاهدات وأعلنت احترامها فيها، بل والدفاع عنها...لمْ تكن مسألة التجنيس فجأة في سير السياسة الفرنسيّة، فهي تسير على مبدإ ثابت هوالإلحاق التامّ... إن الكلمة الجامعة التي نختم بها مقالنا هي أن سياسة الاحتلال الماديّة والمجرّدة من استعمال العقل، لئن كانت تسلب المادّة منّا، وتحاول فصلنا حتى عن خصائصنا الأدبيّة والتاريخيّة، فإنها أيقظت بقدْر ذلك عواطفَنا وشعورَنا القوميّ بقظة ستظهر الأيّام قيمتها ولوبعد حين"[3].

وقد وجّه الجادوي على صفحات "مرشد الأمّة" كلمة موجزة إلى الشعب التونسيّ :" أيها الشعب العزيز، حافظ على دينك، وقوميّتك، وجنسيّتك، وتبعتك. وإياك أن تتجنّس... ولووعدوك بإنزال مائدة من السماء. فإنك إن

---

1 –م. صص675–676

2 – الشايبي : م.س. ص92

3 –أحمد خالد : الطاهر الحداد فكر تنويري.. صص93–101

فعلتَ ذلك فستجْني على دينك ومجدك، وعلى الأجيال القابلة من نسْلك، وتتسبّب في قلة الترحّم عليك حيث أضعتَ لهم جنسيّتهم وتبعيّتهم، فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء "[1].

وهوما يحيلنا على إحدى قصائد الحدّاد ، والتي منها :

أَفِقْ أيّها الشعبُ المُهانُ فقدْ أتوْا إليْكَ بتجنيسٍ لعلّكَ تُخْـــــــدَعُ

وأَبْدِ لهُمْ بالحِسِّ أنّكَ ماجِـــــدٌ وإنْ كنتَ في بؤْسٍ فجنْسُكَ أَرْفَعُ[2]

ويَعتبر الجادوي التجنيس "آفة" و"مرضًا اجتماعيًّا" أشدّ خطرًا وإبادة، ولذلك، "كان وقْع إباحة التجنيس للأمّة التونسيّة شديدًا عليها هوْله ومصابه، حيث تراءى أمامها كفتح باب للانقراض. فالداخل فيه لا يرجع، وأنه سيتمّ إفناؤه، وسيبتلع عن قصر أمد أوعن طول فيه"[3].

ويُبادر بإصدار "فتْوى مرشد الأمّة في كفر المتجنّس" [4]، في ظلّ صمْت مَن وصفَهم ب"ذوي التيجان الحُمْر، والنعال الصفْر، وأرباب العمائم، والجبب، والأجواخ، وأصحاب الوجوه المملوءة علمًا وعقلاً، والمتشبّعة رفاهية وراحة "، والذين لا يحتاج الشعب إلى فتواهم، لأنّ "النصّ تحت كلّ ورقة، وفي كلّ كتاب "، وإن كان سكوتهم حجّة لمجلس الشيوخ الفرنسيّ على أن مسألة التجنيس لا تمسّ الدّين، وكان موضع استغراب صحيفة "الخلافة" الهنديّة، التي نشرت فتْوى لأحد علماء الهند يُكفّر فيها المتجنّس، وأخبرت عن احتجاج مسلمي الهند ضد هذه الخطوة الاستعماريّة، وتعجّبت من "إفراط شذوذ الحكومة الفرنسيّة بهذا القانون عن بقية الدول الاستعماريّة، كدولة

---

1 –م. ص717

2 –ديوان الحدّاد ص35

3 –م. ص672

4 –م. صص655–660 /صص674–675، وراجع الجدل حول الفتاوى في هذا الموضوع :
ابن الخوجة : شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمدالطاهر ابن عاشور ج1 صص454–458
محمود شمام : أعلام من الزيتونة ط تونس1417ه/1996 ص110 /صص261–283

بريطانيا التي لها في الهند ثلاثة قرون، ولمْ تلتفت إلى محاولة إجراء عمل كهذا "[1].

وقد استنجد الحزب الحرّ الدستوري س1343هـ/1925 بعلماء المسلمين لإصدار فتوى تحرّم على المسلمين التونسيين التجنّس بالجنسيّة الفرنسيّة، فاستجابت الصحف الهنديّة، كما قرأنا، وأفتى رشيد رضا(ت1354هـ/1935) في مجلة المنار أن التجنّس ردّة، ودعا جميع المسلمين إلى تلبية نداء إخوانهم التونسيّين[2].

ونشر الشيخ مختار بن محمود(ت1393هـ/1973) فتواه بعد اثنيْ عشر عامًا س1356هـ/1937 على صفحات المجلة الزيتونية، في أن التجنيس مصيبة وابتلاء، وأنّ المتجنّس بجنسيّة أجنبيّة لا يصحّ اعتباره مسلمًا، ولا معاملته معاملة المسلمين، إلا إذا ترك تلك الجنسيّة ورجع إلى الإسلام قوْلاً وفعْلاً[3].

وقد رجع الجادوي في خاتمة "الفوائد الجمّة" ليستفظع على التجنيس، قائلاً: "..قد فغَر فاه ليفرنس البلاد، وكشّر عن أنيابه ليبتلع الذاتية والمجد والسداد، حيث جعلوه مناط التساوي، وموجب إجراء العدالة والتخاوي، قياسًا على ما كان جاريًا في الأعصر الصليبية، مِن كوْن الدين فاصلاً في الحقوق بين الأقيال الآدميّة، وموذنًا بإلحاق المخالف في الرعاية والاعتبار بالأصناف الحيوانية، حتى وجب الجزم بأن العقل الإنسانيّ لا يرتق بالعلم، وإنما الهداية الإلاهية هي النور المنير لظلمة قساوة شره الغريزية"[4].

هذه، إذن، هي العقيدة التونسيّة في فكْر سليمان الجادوي، تسْري في مقالاته بالدم الذي تجري به وطنيّته في عروقه، وتتقد بالنّار التي تضطرم بها كراهيّته لأعداء الوطن والمتاجرين به، والمتخلين عنه.

---

1 –م. صص690–691

2 –يوسف مناصرية : الحزب الحرّ الدستوري ص238

3 –المجلة الزيتونيّة مج1صص488–490 /صص542–553

4 –م. ص775

لا يكفّ قلمُه إلا عند نفاذ الكلمات إلى صميم قضايا الوطن، وهواجس الوطنيّين، ولا ينتهي النصّ الذي يكتبه إلا مع استيفائه التشخيص والتفكيك والتحليل. ميزانُه الذي يزن به المواقف والآراء والأشخاص، هوالولاء لتونس فقط، وَليُّ مَن قدّسها وحماها، وعدومَن خادعها وتنازل عن قطعة منها. لا تجرفه أهواء التصنيفات الدينيّة والمذهبيّة إلى منحدر التشاتم أوالتفاخر، بقدْر ما يرفعه إخلاصه للوطن الذي سمّاه "تونس الجميلة"[1]، واشتهرتْ فيما بعد عبارةً شابّيّة.

وكمْ هي مواطن التلاقي بين الجادوي، والشابي، والحدّاد، والثعالبي، طبْعًا : الفكر، والنظر، والعمْق، والتعبير، والجرأة،... انصهرت كلها لتبرم عهدًا اشتهر بيْن السياسيّين هذه الأيّام ب: تونس فوق كلّ اعتبار.

أمّا روح المقاومة المتقدة بهذه الوطنيّة العالية، فقد انبعثت في الجربيّين، منذ أن رفضوا الغزوالإسبانيّ المتتالي الحملات.

فقد سجّل التاريخ استشهاد أبي زيد بن أبي نوح السمومني في الأسر س638هـ/1241م، ومحمد السمومني في معركة ضد المحتل الصقليّ بقيادة روجر دي لوريا س688هـ/1290، وسليمان بن صالح السمومني عند محاصرة الجربيين لحصن القشتيل س699هـ/1301م، وغيرهم من عامّة الناس الذين لمْ تُسجّل أسماؤهم .

وأذهل يخلف بن أمغار قادة الغزاة الصليبيين، حتى قال أحدهم:" لمْ أرَ قطّ رجالاً أشد بأسًا. لمْ يكن فيهم واحد لمْ يجرِ وراء الموت.إنهم كانوا يندفعون كالعميان بيننا اندفاعة الخنزير الوحشي بين الصيادين.

كما كانت للجربيين بطولات إبّان الاحتلال التركي. ثمّ قدّموا التضحيات الجسام في سبيل دحْر الاستعمار الفرنسي، في جربة وخارجهما في مختلف مناطق الجمهورية. وكانوا يدعمون الثورة الجزائرية من تونس، وكذلك بالجالية الجربية في عدد من مدن الجزائر[2].

---

1 –م. ص451

2 –قوجة: تقديم كتاب: أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية صص10–11

ويؤكّد حمّادي اللواتي أن أوّل من زرع بذور الحركة الوطنية بجربة هوالشيخ سليمان الجادوي، الذي كان على اتصل من تونس العاصمة بعدد من أبناء آجيم جربة.

وقد اقتصرت الحركة الوطنية في جربة في بداياتها على قراءة الصحف، ومنها "مرشد الأمّة"، وتوزيعها، ومناقشة مواضيعها من قبَل العناصر التي كانت تنتمي إلى الحزب الحر الدستوري، وبدأت اللقاءات السرّيّة في المساجد والزوايا، إلى أن تكوّنت بعض الخلايا التابعة للحزب، وتأسست أول شعبة دستورية بميدون س1340هـ/1922. وكان من أوائل الدستوريّين في جربة الشيخ سعيد ابن تعاريت الذي انخرط في الحزب كما ذكرنا سابقا س1339هـ/1921 [1].

1 –حمادي اللواتي : أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية 1881–1961 صص35–37

5-الإسلام والمسلمون[1] : هل فهمنا الإسلام ؟

يُحدّد الجادوي "الإسلام الخالص" بما كان عليه الرسول(ص) وأصحابه والتابعون إلى نحومائتيْ سنة بعْد الهجرة[2]، و"الحقّ الصراح" عنده، أنّ الأمّة الإسلاميّة مشرقًا ومغربًا، في عصره ليست على "الإسلام الخالص" الذي جاء به النبيّ(ص)، وإنما هي "على شكلٍ من الدّين ظاهره الإسلام وحقيقته تقليد الملل الأخرى "[3].

ويرى السكوتَ على هذا الانحراف، وكتمانه، "جبْنًا أدبيًّا"، لا فائدة منه إلا إقرار الداء على سريانه، ولا يجرّ إلا زيادة البلاء واستعصاء الداء.

ويُعْلِن أنه "قدْ آن الزمان الذي يجب على كلّ ذي غيرة إسلاميّة أن يعمل فيه جهده، لإرجاع الحياة إلى أمّته، التي تتنازعها الشبه والشكوك والبدع حتى أصبحت حيْرى بين يديْ الحوادث من جهة دينها ومعقولاتها وإحساساتها وعواطفها، وفي حاجة شديدة إلى عقول المتنوّرين من أبنائها "[4].

وهْي سعْيٌ منه، على طريقة صنف من شيوخ الدين المستنيرين، وأحيانًا يكونون متشدّدين، إلى ممارسة "تجْديد الدّين" الذي يُحدّده ابن عاشور – مثلا– بإصلاح الناس في الدنيا، إمّا من جهة التفكير الدينيّ الراجع إلى إدراك حقائق الدين كما هي، وإمّا من جهة العمل الدينيّ الراجع إلى إصلاح الأعمال، وإمّا من جهة تأييد سلطانه. فهوسعْي إلى تحقيق كمال الدّين كما كان في عصر الرسول(ص)، ب:

-العمل به وتحقيق مقاصده

-نصره وإقامته

-انتشاره وزيادته وتسهيل بثّه

---

1 – راجع، بعد أفكار هذا العنصر، للمقارنة والإثراء، كتاب دكمجيان : الأصولية في العالم العربي. تعريب وتعليق: عبدالوارث سعيد

2 –م. ص34

3 –م. ص35

4 –م. ص35

-حراسته وحفظه من تدخّل الضلالات

-دفع نائبة حلّت بالإسلام إذا استمرّت أفضت إلى طمس معالم الدين أوفساد الإيمان أوذهاب سلطانه[1].

وقد حدّد الجادوي بوضوح تامّ أنّ هدفه من الإصلاح، والذي ينبغي أن يكون هدف كلّ المصلحين، هوأن يكون المسلمون المعاصرون "مسلمين سلفيّين"[2]

أ-الحقيقة

لقد أكّد الجادوي أن الإسلام قد أتى لِـ"العقول" بِـ"شيء" من الدِّين، واضح المباني، جليّ المعاني، ظاهر المرامي والمقاصد، قويم المناهج والمراشد.

وتميّز ببساطته وسماحته، حيث جاء بِـ"البساطة الفطريّة" و"الطلاقة الإلاهيّة"، فأنست إليه الأرواح ، وهذا ما أعانه على سرعة الانتشار.

يقول الشيخ :" والإسلام قد كان في مبدإ أمره دينًا بسيطًا، لمْ تدخل عليه بدعة، ولمْ يَحُم حوْله باطل أوخرافة. فكانت العقول لا تفارقه بعد تنبيهها عليه. وقد كان هذا الأمْر لا غيره، سببًا لانتشار الإسلام في القارّات بسرعة غريبة كالبرق، تُشْبه خرْق العادة، كما صرّح به ووافقنا عليه المستشرق هنري في كتابه : الإسلام "[3].

---

1 -الطاهر ابن عاشور : تحقيقات وأنظار في القرآن والسنّة صص112-113
وراجع:
محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام
أبوالأعلى المودودي : موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم
2 -م. ص120
3 -م. ص36 / صص340-341

ولذلك يدعو الجادوي إلى الأخذ بأصول الشريعة وفروعها، حتى تعود للمسلمين "زهرة شبابهم، ويعودوا لما كان عليه سلف أمّتهم، ويرجع إليهم مجْدُهم الأوّل"[1].

ويُورد صاحب "مُرشد الأمّة" جواب أحد قُرّاء جريدة أوروبية، أطلقت استفتاءً في "أعظم رجل في العالم". وممّا كتب فيه، أنّ أعظم رجل على الإطلاق هوالرسول محمّد(ص) " وضع في عشر سنين دينًا، وفلسفة، وشريعة اجتماعيّة، وقوانين مدَنيّة، وغيّرَ شريعة الحرْب، وأنشأ أمّة، ودوْلة طاولت الدهر"[2] .

وفي سياق اعتماده على شهادات المستشرقين في تمجيد الإسلام وإنصافه، يُورد الجادوي محاضرة أحد فلاسفة كلية جينيف، رآها "تهمّ وتنفع كلّ باحث عن الأديان بالنظر الدقيق".

ونلخص أفكارها فيما يلي:

-انتشر الإسلام منذ بدايته انتشارًا لا مثيل له في ديانة أخرى، ولا يزال هذا الانتشار على ماهوعليه من القوّة والسرعة. وانتشاره الأوّل يرجع إلى تعاليم القرآن، والحديث، والفتح العسكريّ، والتوحيد السياسيّ للعالم العربيّ

-اجتهد النبي في إخراج الوثنية من عقول مواطنيه، وخلصهم من دين خشن لا يلائم زمنهم، وأدخلهم في حالة أدبية وتمدين أرقى من تمدينهم الماضي

-في المدينة المنوّرة، عاضدت، الإرادةَ الإصلاحيّة النبويّة،"عاطفةٌ وطنيّة عربيّة"، وذلك بضمّ شمل بعض القبائل العربية تحت سلطة دينية وسياسية متحدة

-للإسلام "تمدّن" عريق بلغ قديمًا ذروته في الشرق والغرب، ثمّ انحطّ وهبط، ولكنه لمْ يتلاشَ

---

1 -ص22

2 -م. صص256-257

-الإسلام غير جامد، بل في حركة مستمرة، وعدد أنصاره في ازدياد مطّرد

-انتشار الإسلام في القرن العشرين له أسباب دينية، وأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية

-الإسلام ينتشر من نفْسه أي بالمسلمين أنفسهم

-الإسلام لا يزال ينتشر ويمتدّ حتى بإزاء الديانات ذوات التبشير والبعثات الدينية، وهومتقدّم عنها

-الإسلام في إفريقيا يمثّل "حالة اجتماعيّة، اقتصاديّة، راقِية، حريّة بأن تكون آلة للتقدم من أرقى الآلات"..[1].

كلّ هذا تأكيد على أن "الإسلام مستعدّ بذاته للانتشار" لقوّة نوره، ووضوح حجّته، ومعقوليّة تكاليفه الإلاهيّة، ويزيد الجادوي على ذلك، مجهودَ الهنود في قيامهم بواجب دينيّ أهمله العالم الإسلاميّ من جملة ما أهمل من الواجبات، وهو"التبشير" بالدين الإسلاميّ، ونشره بين الأمم الأجنبيّة عنه، إلى جانب جمعيّتهم "جمعية الخلافة والجامعة الإسلامية" التي أسست نحوسبعين مدرسة كبرى لغرض إيواء أبناء الداخلين في الدين الإسلاميّ، وتربيتهم، وتعليمهم، وتحضين الأيتام والفقراء، وإيفاد الوفود التي تقوم ب"التبشير" بالدّين الحنيف وتلقين تعاليمه في سائر أرجاء الهند وحتى أواسط إفريقيا[2].

ونكاد نجزم أنّ عبارة "التبشير بالإسلام" جادويّة صرْفة، إذ لمْ نجد فيما اطلعنا عليه في هذا الموضوع غيرَ استعمال : "الدعوة الإسلاميّة".

ولايمكن لصحفيٍّ مناضل كالجادوي أن يتجاوز مسألتيْن ذاتيْ علاقة متينة بالحديث أوالجدل في حقيقة الإسلام، ألا وهُما : الفتوحات، والسياسة.

من أجل ذلك يختار في "الفوائد الجمّة" مقاليْن :

---

1 -م. صص341-345

2 -م. صص736-737

الأوّل : من تحريره ووسَمَه بـ : كيف تُستعمَر الممالك، وتُساس الشعوب؟[1]، وبيّن فيه أنّ الفاتحين المسلمين الملتزمين ب"الإسلام الصحيح"، علموا البشريّة كيف يكون "الاستعمار الرشيد "، وذلك من خلال :

/قمع النفس عن سلوك البغْي، والظلم، والعدوان

/تجنّب التقتيل والتنكيل

/حراسة السلطة بالعدل والإحسان

/إقرار المساواة بينهم وبين مستعمَريهم :"لكُم ما لنا وعليكم ما علينا"

/إعطاء المَثَل في حسن السيرة ورفعة الأخلاق.

ولئن كان هذا رسالة سياسيّة إلى الاستعمار الفرنسيّ، فإنّه لمْ يُعْدَم طرافة تجلّت في إطلاق "استعمار" على ما اشتهر عند المسلمين ب"الفتْح الإسلاميّ"، كما أشرنا سابقًا.

ولا نغفل هاهنا أنّ بعض الفرنسيّين، بعد استيلاء الأوروبيين على معظم البلدان العربية أخذوا يقارنون بين "الفتْح الإسلاميّ" و"الاستعمار"، وتوصّلوا إلى زرع بذور الحيرة والشكّ في نفوس التونسيّين، حينما اعتبروا أن الاستعمار الفرنسيّ ليس إلا طوْرًا من الأطوار التي مرّت بها تونس عبر التاريخ.

فإذا غزَا العرب المسلمون هذا القطْر بالسيْف، واقتطعوا أراضيَه الخصبة لقوّادهم وأجنادهم، فلِمَ لا ينسج الاستعماريّ الفرنسيّ على منوالهم؟[2].

وقد كان الجادوي من الشيوخ الذين انبرَوْا للردّ على هذه الدعْوى.

ولكن إذا جوّزَ هو تسمية "الفتح" بـ"الاستعمار"، مع وجود الفارق، هلْ يُوافق على تسمية "الاستعمار" بـ"الفتح"، مع وجود الفارق أيضًا؟

الثاني : بقلم محمد الخضر حسين تحت عنوان : الشعور السياسيّ في الإسلام [1].

---

1 –م. صص173–177

2 – العريبي : الفكر الإسلامي في نصف قرن م.س. صص153–161

وقد بيّن فيه كاتبه أنّ الشعور السياسيّ كان منبثًّا في نفوس الأمّة الإسلاميّة قاطبة في عصرها الأوّل، بعد أن بثّ فيهم الإسلام "دينًا قيّمًا، وأدبًا راقيًا، وسنّ لهم قواعد، ليقيموا عليها أحكامَ مدنيّتهم، ويهتدوا بها في تدبير سياستهم".

وقد أحيا ذلك الشعورَ تلقيهم للقرآن عن تدبّر وإنعام في مراميه الاجتماعيّة والسياسيّة، وكان العلماء بمنزلة "نوّاب الأمّة" يرقبون سيْر الأمّة الحاكمة.

كما أحْيا ذلك الشعورَ السياسيّ أنّ الله "قيّض لهُم رؤساء ما كانوا ليعدّوا أنفسهم سوى أنهم أفراد من الشعب، يقومون بتدبير جانب من مصالحه". وما كان سقوط أعتى الممالك تحت راية المسلمين إلا نتيجة الدهاء في السياسة إلى جانب البسالة والسيْف.

وينتهي الخضر حسين إلى أن المسلمين "ذاقوا طعم سياسة أعْدل من القسطاس المستقيم، وعرفوا أن الدولة التي لا تقوم على قواعد المساواة والشورى وحرّيّة التصريح بالرأي ليست هي الدولة التي أذنت لهم شريعتهم بأن يُلْقوا إليها أمرهم عن طاعة وإخلاص". ويؤكّد على أنّ "الإحساس الذي يربيه الإسلام في نفوس مَن يتقلّدونه إنما يرمي بأشعته إلى مبادئ مقدّسة، وغايات شريفة، فإذا ربطوا قلوبهم باحترام أمير أووزير أوزعيم، وبسطوا أيديهم إلى مؤازرته، فلأنّه يرعى مبادئهم ويوَلّي وجهه شطر غاياتهم".

ولا يخْفى بمثل هذه الأفكار التي يحتفي بها الجادوي ويبثّها، منهجُه في توثيق الصلة بين الصورة المُثلى للإسلام كما يراها لا تخالف حقيقة الأمْر والواقع، وبيْن الراهن المتدهْور الذي قضَت به فرنسا على التونسيّين.

ب-الواقع

من عناوين مقالات "الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة" : "الإسلام والزمان"[2]، وما أشبهه بما ورَد في كلمة الطاهر الحدّاد عند حفل تكريمه

---

1 -م. صص521-524

2 -م. صص54-56

بمناسبة صدور "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" حيث قال: " الإسلام معنا في تحرير المرأة، والزمانُ معنا أيضًا "[1].

فالرّجلان وسائر الأحياء من المفكرين والمثقفين، مؤمنون بحركة الحياة، التي لا تقف عند حدّ، بل لا تعود القهقرى.

فالجادوي لا يغفل عن الراهن مرتميًا في مثاليّات الماضي، ولا يُغمض عيْنيْه عن المآل السيّئ سُكْرًا بالتاريخ التليد.

إنه يؤكّد على أن مجتمع الإسلام الكبير تلاشى إلى شيَع ضالّة، وطوائف متمرّدة، وأمراء مستبدّين، وانقسم فرَقًا، واختلف أفراده، وتباعدوا بُعْدًا يناسب فخفختهم الفارغة، فكلٌّ يعمل على شاكلته، مقتديًا بأبيه وجدّه، ومعتنقًا لمذهبه ورهطه وحزبه، ولمْ يزالوا كذلك.

وحَلَّ في الأمّة التحاسد محلّ التعاضد، والانقسام محلّ الوئام، والفُرْقة محلّ الاجتماع، والتباغض والنفرة محلّ الإخاء والوحدة ، ونام أهلها نوْمًا ثقيلاً، ورقدوا طويلاً، جيلاً بعد جيل [2]. وتقاسمتها الأممُ الأوروبيّة، نظرًا لاختلاف مناحي التربية، وطرائق التعليم، ووسائل التهذيب[3].

وانحرف المسلمون عن صراطهم، فسرَى الجمود في كلّ طائفة من طوائف الأمّة [4]، وكان ذلك دافعًا وراء جعْل بعضهم الدينَ رمزَ الانحطاط والجمود، ونفوْا عن الشريعة الإسلاميّة "انطباق أصولها على قواعد العُمْران ودواعي الهيأة الاجتماعيّة"[5].

ويصف رجعيّتهم بالقول :"هُمُ اليوم يُمثلون الأمّة في ثالث قرونها بما أحدثوه من المنازعات، وما ظهر فيهم من النزغات، غير أنهم استبدلوا مسائل القدر وخلق القرآن وأشباهها، بتعليم المرأة والحجاب، والشركا ت الماليّة،

---

1 –محمد الميْ : حفلة تكريم.. ص63
2 –م. ص26 /صص54–56
3 –م. ص121
4 –م. ص36
5 –م. ص20

والمعاملات التجاريّة، ونظائرها مما جاء التمدّن العصريّ، واستبدلوا اسم : أهل الأهواء، ب:أبناء النشأة العصريّة. وكلٌّ يحصر الفرقة الناجية فيمن تأخذ برأيه، وتستهدي بهداه، واجتهدوا جميعًا في الاجتهاد، فمنهم فاتح، ومنهم مغلق، وكل ينعى على سواه هذا الجمود وذاك الإلحاد. وكأنهم راق لهم ذلك العصر، وشاقهم ما وصف التاريخ فيه، فعمدوا إلى أقبح فصل فيه، ومثلوه فمثلها بأنفسهم في ذلك التمثيل. ولقد عنت الفرق بتوسيع خرق هذا الاختلاف، حتى يصعب على ذي اللب الحكيم رتقه، فسفهت أحلام بعضها في كثير من المسائل التي لا دخل لها فيما هم عنه يبحثون، وأصبح البوْن بينهم شاسعًا. وقليل من هؤلاء تقاربوا وأدركوا أنهم في غنى عن كل ما يستوجب شقاقًا ونفورًا، وسعوْا في تأييد ما هُم عليه، وكان سعيهم مشكورًا "[1]

كما اشتغل التونسيّون، وهُم جزء من المسلمين، بالسفاسف، وثابروا على التقاول والتحاسد والتشاؤم، لا كفّون عن حبّ الفخفخة والرئاسة، ولا يرعوون عن الارتشاء والاستبداد، ولا مذهب لهم سوى تعظيم المُثرين وأرباب المناصب ولوكان من بسطاء المجوس..[2].

لقد حمّل الجادوي علماء الدّين كلّ المسؤوليّة فيما آلت إليه أمّتهم، فهُم قد انشغلوا بالأقاويل المعضلة، وفكّ رموز كلام بعضهم بعضًا، فكانوا أعجز الناس عن ردّ الشبهات، ودحْض الافتراءات، وإقامة الحجج، دفاعًا عن الإسلام، فأعرضت عنهم العامّة، وأضحت في "حالة فوْضى، لا ضابط لشهواتهم، ولا رادع لأهوائهم [3].

كما كان جمودُ "ذوي القرائح الجامدة والرؤوس المقرّطة العدوّة لكلّ جديد"[4] على ما لا يتفق مع عقل ولا طبع، سببًا في أن يتجه "متنوّرو الأمّة"

---

1 –م. صص234–235

2 –م. صص25–26

3 –م. ص34

4 –م. ص327

إلى "الإلحاد"، والتمادي فيه، وتراكمت على أذهانهم الشبهات "ففاضت أفئدتهم فلمْ يعرفوا لهُم مركزًا بين الشكوك والحيرة"[1].

وقد أطْنب في أنّ الإسلام محمول على عاتق العلماء، وهُم أيمّته، وهُداتُه، وورثةُ مَن جاء به لواستقاموا على الطريقة [2]، وفي أنّ تقاعد الإسلام وانحطاطه، محمولان على عاتق العلماء، أيضًا، لأنهم من الأمّة بمنزلة الروح من الجسد، واحتياج المسلمين إلى علمائهم أكثر من احتياجهم إلى أمرائهم، لأنهم عصمة الدين ومناره يلتجئ إليهم كل طالب نجاة من شرقيّ الأرض وغربيّها، ويخضع كل واحد لأقوالهم ويقتدي كل مسلم بأفعالهم لأنهم الوارثون لحكمة الرسل وعلمهم. وهُم العالمون بأحوال تربية الأمّة، وتهذيب أخلاقها، وإرشادها لما فيه سدادها، وتحويل النفوس من حالة النقص إلى حالة الكمال، وهُم منها بمنزلة "الأطبّاء"[3].

لقد اعتبرَهم الشيخ أعظمَ سبب في سير الإسلام إلى الوراء، وأضرَّ ضارّ على الدّين، بل لا تكاد توجد مضرّة في المسلمين، أوعادة قبيحة، أوعقيدة فاسدة، إلا وهُم الأصل فيها، وغارسوها بواسطة ما يلقونه إلى العوامّ من النصائح الكاذبة، والمواعظ المموّهة، والغشّ المُلْبَس بالحقّ، واللهث وراء الدرْهم والدينار، والأبّهة الزائفة [4].

إنهم، في نظره، بسطاء أغبياء، استحوذ عليهم الجهل، ووجدوا من يعظمهم ويُكرم نزلهم، ويهديهم النفس والنفيس، فعظمت عندهم نفوسهم، وأخذوا يتعاطوْن الطرُق..[5]. رزئت بهم الأمّة، ولُقّبوا بـ"الشيوخ"، زاعمين أنهم "أطبّاء"، وما هُم في الحقيقة إلا "مطببون"، خادعون، ملبسون.

وفقدت الأمّة المُرشدين، الذين هُم "الواسطة للخلْق بين الحقّ والباطل، لا تأخذهم في تقدّم سير بني جنسهم إلى الأمام لومة لائم. وهُمُ النصحاء،

---

1 –م. ص35
2 –م. ص22
3 –م. ص26 /ص28
4 –م. ص30
5 –م. ص30

المخلصون، ذووالاستقامة والفضيلة، بعيدوالهمّة، لا ينظرون إلى الدنايا والمقاصد السافلة، ولا يشترون بشرف همَمهم التزلّف والتحبّب والتقرّب إلى أصحاب المنصب والجاه [1].

وقد استشعر الجادوي مغبّة هذه الجرأة منه على شيوخ الدّين، فمازاد إلا إزراءً بهم، في شجاعة نادرة من أمثاله أصحاب العمائم، قائلاً :"...لستُ بمرتاب في أن تكلّمي على هؤلاء بما يُعَدّ شططًا وعقوقًا ومروقًا من الدين الإسلاميّ عند بعض الناس الذين ضرب الله على قلوبهم صفْحًا، فحال بينهم وبين نور الحقيقة ظلامُ الجهل، وأبعدهم عن اتباع منهجها القويم معوج تقليدهم، أقوام لا يريدون بهم إلا شرًّا ولا يقصدون بهم إلا ضرًّا، وهُم في غفلة عن هذا كأنهم لا يشعرون، ونُوَم دائمًا لا ينتبهون ولا يتعظون. إن ذكّرْتَهم فلا تنفع الذكرى ولا يتذكرون، لأجْل ما موّهت في عقولهم من أضاليل الملبسين، وخرافات المبطلين، ونزغات الشياطين، وامتزجت به دماؤهم من اتباع تلك الطريقة المعوجة، والمثابرة عليها، والجري على منهجها، والعكوف على مقصدها، فلا يبغون عنها حوَلاً، ولا يرتضون بغيرها بدلاً"[2].

أمّا الاضطهاد المسلّط على المسلمين في بعض أصقاع العالم، ومنها جاوة، وروسيا، والنمسا، وزنجبار ودار السلام وجنوب الشطوط الإفريقية رعايا انقلترا، فلمْ يرَ الجادوي له حلاً غيرَ نبْذ الكسل ظهْريًّا، واتخاذ الخمول سخريًّا، والعمل بما يرفع المسلمين من حضيض السقوط. ولا يتيسّر ذلك إلا بتعليم العلوم النافعة، والتعلق بعرش الحزم والارتباط. ولمْ يعُد ينفع البكاء، والعويل، والمحاججة والبرهان [3].

ج-الرمز

لقد صوّر الجادوي خروج السلطان العثماني "الخليفة الأعظم" عبدالمجيد خان(ت1363هـ/1944)[4] هووعائلته من القصر عند إلغاء الخلافة، تصويرًا

---

1 -م. ص29

2 -م. صص22-23

3 -م. صص55-56

4 - انظر : أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ج2صص201-269

دراميًّا، دلّ على حماسته في الولاء لـ"الدوْلة العليّة"، وتنديده بـ"مؤامرة أنقرة" التي خطط لها ورعاها وأيّدها "الملحدون"، ودُبّرتْ وسط المجلس الملّي، بمساعي كمال أتاتورك(ت1357هـ/1938)، وأعوانه، ومنهم لطيفة خانم التي وصفها بأنها "ملكة رفْع الحجاب، وسلطانة السفور، التي استمالت بسفورها القوّاد ورؤساء الجيوش، وامتلكت قلوب أرباب الصحف بخطابها الساحر". وقد هيأت هذه المكيدة حكومة "مرَقتْ من دينها، وأخذت في تبديد أمجاد أسلافها، ومحْوآثارها، والقضاء على أخلاقها وعوائدها "[1].

كيف لا وهو يرى أن "فخر الإسلام" سيُعاد شروقه من الهند "لاهتمامهم بأمر الخلافة العظمى، وشدة انعطافهم على الجامعة الإسلاميّة [2]، وتأييدهم لدوْلتها في كلّ موقف صعب إلى اليوم وإلى الأبد" [3]

ولقد وضّح أن الأسف على الخلافة، هو أسف على "أقوى دوْلة مؤمنة إسلاميّة " في الحاضر، وهي الجديرة بأن "تُؤمَّن على حفظ الخلافة المقدّسة، كما حفظتها منذ قرون، وحفظت آثار من استضاء بشمس شرعته الوجود واهتدى بنور هدايته الثقلان"، وحُكّامها لُقّبوا بـ"الغزاة، وسيوف الإسلام والفاتحين".

كما أنّه أسَفٌ على أنّ الأمّة "سيلتقمها التطوّر الإلحاديّ" بدءًا بإبطال التعليم الدينيّ، وهدْم الأوقاف الدينيّة وقلبها ملكًا للدولة، وإرغام العلماء على ترك شعارهم الدينيّ، ومحْوالتاريخ الإسلاميّ وفتوحاته، والتاريخ العثمانيّ من البرامج المدرسيّة، وإباحة الزيّ في اللباس مطلقًا ولوالقبعة والزنار، ورفع الحجاب، واختلاط النساء بالرجال، وحسْوالخمور بعد منعها، وجعل الطلاق بالمحكمة تملكه الزوجة والزوج معًا، والإعلان بأن الحكومة جمهورية

---

1 –م. صص728–729

2 –انظر، عن مشروع "الجامعة الإسلاميّة" :

شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي صص163–174

محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار صص163–227

3 –م. ص736

اللادينيّة، بعد أن كان دينها الإسلام، وإجراء الميراث على غير ما فرضه القرآن.

وفي الوقت نفسه يهدّئ من روْع العالم الإسلاميّ، بأن "لا خوْف على الأمّة التركيّة من الإلحاد والتطوّر واستبدال ذلك الشمم الشرقيّ والفضيلة الإسلاميّة بأدران التفرنج والمروق، وفيها مِن القوّاد العِظام مَن يستند عليه في إيقاف هذا التيّار الجارف مثل كاظم قاره بكير باشا، وفوزي، ورؤوف، وكثير من العلماء العاملين، ثمّ الأناضول أكثر بلاد الله إيمانًا "

ولكن، مع هذا الاطمئنان على مصير تركيا، يرى الجادوي أنّ السكوت على هذه الخطّة حرام، وأنّ "الغضب لله واجب، وأنه من مراتب الإيمان"، ويُعْلن باسم "مرشد الأمّة " ما يلي :

/دعوة المسلمين إلى ضرورة النظر في مثال الخليفة والخلافة والآثار النبويّة المقدّسة،والتفكير في حلّ عاجل إمّا بإرجاع السلطان إلى بلاده بطلب من أمّته أوبأسباب أخرى يظهرها المستقبل القريب. وذلك في مؤتمر عامّ يُعقَد بالقاهرة.

/ اعتبار الخليفة عبد المجيد خان باقيًا على خلافته، ويُدعى له فوق المنابر، بوصفه خليفة أُخِذ أسيرًا يُترقب إرجاعه لعرشه، إلى أن يتمّ جمع المؤتمر بالقاهرة، أوجعْل القاهرة مقرًّا للخلافة بآل محمد علي

/طرْد شريف الحجاز منه لأنه رجل صعلوك مرتزق، ولا يصلح أن يكون خليفة للإسلام والمسلمين، وإن بايعه الأردن وفلسطين، والعراق ، واستبعاده من المناقشات حول مسألة الخلافة، وذلك نزولاً عند رغبة المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر والهند [1].

---

1 –م. صص729–733 / وراجع مقال معروف الأرناؤوط : الإسلام جنديّ الله. يا أسفًا على آل عثمان

م. صص733–735

ويذكر المستشرق قرين أنه عندما ورَدت تقارير تفيد بأن البريطانيّين يفكرون في تنصيب شريف مكة خليفةً عربيًّا، اقترح بعض المسؤولين الفرنسيّين بكل جدّيّة تنصيب سلطان المغرب خليفة للمسلمين "الفرنسيّين". وسارع ليوتي لدعم هذا المقترح؛ فكتب من المغرب

وفعْلاً لقد التأم بالقاهرة مؤتمر الخلافة س1344هـ/1926، وقد بيّن فيه الثعالبي أن مسألة الخلافة مسألة معقّدة، وهي تحتاج إلى دراسة عميقة مِن قبَل المسلمين جميعًا، في إطار مشروع إصلاحيّ يقع ضبطه لمعالجة مستقبل الإسلام. ووضّح أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الدين، وإنما هي مسألة اجتهادية وليس في القرآن نصٌّ عليها، ونظرًا إلى أن اللجنة العلميّة قد اعتمدت في تعليلها للخلافة رؤية تقليدية، واستندت إلى آراء فقهية دون اعتبار لتاريخيّتها، فإنّ الثعالبي قد انسحب من اللجنة الاجتماعيّة للمؤتمر[1].

وشتّان بين هذا الموقف، وبين ما ينشره الجادوي على صفحات "مُرشد الأمّة" من أنّ "الخلافة الإسلاميّة، ميراث أبي بكر الصدّيق من رسول الله(ص)، وقد تعاقب عليها خلفاء كرام على نبيهم، وعلى قومهم، وعلى العصور التي أورقت بهم وأزهرت بعدْلهم، وأينعت بفضلهم. فلا خوْف عليها، ولا ضيْر بعد هذا اليوم، فإنّ لها ربًّا يحميها، ونبيًّا يسهر عليها، وكرامًا بررة يحرسون مشارفها، وأقيالاً يرعوْنها"[2]،

أليس هذا من "الجمود" الذي انتقده الجادوي نفسُه؟

ولمْ يكن الثعالبي من الآسفين على سقوط الخلافة العثمانيّة، فهو يعتبر الحضور العثمانيّ في البلاد العربية "نكبة" أودت بالسيادة العربية، وعزلت العرب بصورة قاطعة عن المسرح الدوليّ وعن الإسهام في أحداثه. ويرى أن تغلّب الأتراك باسم "الإسلام" كان السبب المباشر في استسلام العرب الذين اعتقدوا أن هذا الخضوع هوتجسيم منهم للوحدة الإسلاميّة. وقد برهنت الأحداث أن هذا وهْم لا غناء فيه، وحين استولى الغربيون على الأقطار

الأقصى في هذا الموضوع قائلاً : " إنّ مصلحتنا تقضي بأن ندَع الإسلام يتجزّأ؛ لذلك علينا أن نبدي ارتياحنا لشريف مكة بالمشرق. لكنه علينا كذلك أن لا نساعد على انتشار نفوذه إلى بلاد المغرب. وهذا يجرّنا إلى إعادة ترتيب الإسلام المغربيّ، بجعْله تحت السلطة الروحيّة لسلطان المغرب". العلماء التونسيون م.س. ص275

1 – راجع ، في المواقف من الخلافة وسقوطها؛ مثلا، كتابنا : ثورة النخبة الإصلاحية التونسيّة صص271–281

2 –م. ص735

"وجدوا النفوس ذليلة، والقلوب خاسئة، بما تسرّب فيها من خشوع وقابليّة للاستعمار، نتيجة للسيطرة العثمانيّة التي استمرت قرونًا "[1].

1 -ثورة النخبة م.س. ص271

6-الإصلاح والإصلاحيّون : ماذا خسر الجامدون ؟

لمْ يضْعُف الجادوي في التأكيد على أنّ ما عليه الإسلام والمسلمون صار "مُثلة في أعين الأمم"، لكنّه لمْ يكن ساخطًا السخطَ كلّه على الوضع، فهويتحدّث عن "تطوّر الأمّة التونسيّة" الذي لمْ تُمطره السماء ولا أنبتتْه الأرض، وإنما هوناشئ عن تقادح فكرة فرديّة، تمشّى تحت اشتعالها أفراد منها في طرق استوضحوها. ثمّ توسّع ذلك النور والشعور إلى أن "شمل هيأة اجتماعيّة عامّة تشعر بآلام غير فرديّة، وتحسّ بعاطفة عموميّة. عنذ ذلك صحّ الإخبار عن الشعب بأنّ الانتباه قد عمّه، وأنه توسّط مسالك التطوّر والنهوض"[1].

ولا يجحد الشيخ أن حلقات التطوّر السياسيّ والرقيّ الشعبيّ تواصلت حلقاته في تونس نحونصف قرن وسط محيط ناهض[2]، فكانت المشاريع العلميّة والأدبيّة، وكانت الروح السياسيّة القويمة، والتطوّر الجتماعيّ الذي وثبت إليه الأمّة [3] ولذلك يرى من الجبْن والتكاسل عدمَ تواصل المدّ الإصلاحيّ، خاصة وهويومئ إلى أنّ مؤشرات تنذر بالتراجع عن جملة من المكتسبات [4]. ولكن كيْف يكون الإصلاح في نظر الجادوي؟

أ-النوْع

ينطلق الجادوي من أنّ الإصلاح في الأمم هوكالبذْر لا ينبت في أرض إلا إذا كان مزاجه موافقًا لمزاجها، ويتغذى بعناصرها، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، وذهب كدّ الباذر هدرًا، وهوحال من يحاول إدخال إصلاح جديد في أمّته بدون أن ينظر في ذلك إلى قابليّتها واستعدادها وما يلائم فطرتها[5].

ولذلك يرى أنّ الإصلاح الذي يحاوَل أن يُجْعَل الحجَر الأساس في النهضة الإسلاميّة، هوالإصلاح المبنيّ على أصول الدين، وصرْف الأذهان عمّا وقَر

---

1 –م. الفاتحة
2 –م. ص8
3 –م. ص443
4 –م. ص776
5 –م. ص118

فيها، وتطهير النفوس مما علق بها، ووقاية الفكر من الحيرة، والأخلاق من التزلزل، والعقل من الجمود، كيْ يكون ارتقاء المسلمين مبنيًّا على الشعور بالوحْدة المِلّيّة، وتوجيه وجهة القلوب إلى غرض واحد مشترك في البحث والتدقيق عمّا يلزم لحياتهم الاجتماعيّة، دون التوقف على الاستعانة ب"تلك النظارات المصطنعة التي اخترعها متأخروالمتكلمين والفقهاء والمتصوّفة، أوالتي وضعها الملاحدة أخْذًا من القول بالجحود المطلق وإنكار النبوءات وتعاليم الخلاّق العليم، إذ كلامهم معطّل لناموس البقاء ومناقض للفطرة التي فطَر الله عليها الوجود"[1].

لقد فصّل الشيخ فيما سمّاه ب"التهذيب المِلّيّ"، وكانت بعض أفكاره في هذا الباب على غاية قصوى من الطرافة، والفرادة ، واعتبرها هي الضامنة ل"قيام الجامعة الإسلاميّة، وإنهاض سائر المسلمين"، وكلّ من خالفها فهو"إمّا أن يكون ضالاً عن سواء السبيل، وإمّا عدوًّا في ثياب صديق يريد أن يقضيَ على المسلمين بالضمور والانكماش، وهويعمل على انتكاث فتْلهم، وتفريق جمعهم"

فقد أراد أن يكون "التهذيب الملّيّ" مبنيًّا على ما يلي، والعبارات للجادِوي :

-الإقناع بأن الإسلام هوالحلّ، وأن أحكامه وتعاليمه شاملةٌ لأشتات المصالح بلا استثناء

-التغالي في الاحتفاظ بكلّ أمْر أوجبه الإسلام

-جعْل دستوره هوالمرجع الأعلى لتدبير شؤون مستقبل المسلمين

-أن يكون المسلمون "مسلمين سلفيّين"

-نبْذ ألتقليد جانبًا، والأخذُ من كلّ مذهب ما يلائم المصالح، بشرط أن يكون المأخذ مُخرَجًا من السنّة والكتاب

-إخلاص الولاء لكلّ من يشترك مع المسلمين في إعادة مجدهم القديم

---

1 -م. ص119

-جعْل حُداة يتغنّون بمجد الأسلاف

-نبْذ التنطّع في الدين

-التماس الأحكام الاجتهاديّة للضرورات

-حفظ الميزات الخاصة بالمسلمين

-هجْر كل ما خالف تقاليدهم وشعائرهم الكريمة

-تأسيس تقاليد خاصة بعيدة عن روح العداء والجفاء، مبرّأة من كلّ هوس، وجشع، وفحش،

-التوسّع في معنى الحياة توسعًا لا يجعل المسلمين راضين براهنهم

-تفضيل الاستقلال على الحياة

-التوسّع في الحرّيّة الذاتيّة في كل فرع من فروع الحياة

-السعي إلى ترقية شؤون المسلمين الماديّة والأدبيّة واللغوية والاجتماعيّة والصناعية والزراعية والتجاريّة والإداريّة والاقتصاديّة والسياسيّة

-الاشتغال بسائر المهن الحرّة

-عدم اتخاذ الوظائف في الحكومات وسائل للارتزاق، بل مساند للنابغين من ذوي الإثراء لخدمة الأمّة وتفريج كرباتها

-كراهية الحكم المطلق

-مجافاة الظلم

-احترام الشريعة والنظام

-تقديس الجمال والإتقان

-الرجاء في الذات

-التكافل

-الثقة المتبادلة

-إكمال النواقص بما وصل إليه علْم الغيْر

-الاهتمام بتحصيل العلوم العمليّة

-اعتماد الخطابة والأقلام والجمعيّات في الدفاع والهجوم

-اتحاد الرجال القادرين على استخدام الظروف، وتحويلها لنفع المسلمين[1].

إنّ الجادوي، السلفيّ المستنير، يؤكّد، كغيْره من أعلام الفكر السلفيّ الإصلاحيّ، على أنّ تدلي المسلمين إلى درك الانحطاط، لمْ يكُن إلا بعْد أن تسرّب إلى نفوسهم ذلك الأثر الفاسد من احتكاكهم بالآخر، وحينما لمْ يضعوا ما نقلوه من الأخلاق والعادات في بوْدقة الإسلام، وحسبوا أنّ الإصلاح والتقدّم لا يكونان إلا في احتضان "التربية الإفرنجيّة"، وفاتَهم أن الشواهد المحسوسة في أغلب الممالك الإسلاميّة هي قائمة على فساد هذا الرأي ودحْض أقوال مخترعيه.

ويضيف :"سبقَنا، إلى احتضان تلك التربية الغربيّة، المصريّون، والأتراك، والهنود، وأخذوا بأطراف المعارف. ولكن : هل انتفعوا منها قبل أن يتراجعوا في نصف الطريق، ويقفوا حيارى تائهين لا يهتدون إلى الرجوع سبيلاً بدون أن تُغنيَ عنهم معارفهم فتيلاً لولمْ يستأنفوا رجوعهم إلى الإسلام؟. فكيف بنا نحن لا نحتاط لأنفسنا ونقصر عنها هذا التعب ما دمنا في بداية الطريق. إن المعارف كالآلات لا يجوز لنا أن نغترّ بظواهرها، وهي لا تستطيع تكليف نفسها ما لمْ توازن التربية المليّة بسائر مميزاتها وخواصّها. ومَن يُحاول غير ذلك فهوإنما يحاول بأمّته إلى الخطر وبذاته إلى التلف"[2].

إنّه يؤمن عميقَ الإيمان أن المسلمين لا يمكن أن ينهضوا إلا إذا أتتهم الحرَكة من قِبَل دينهم [3].

---

1 -م. صص120-122

2 -م. ص119

3 -م. ص39

ب–الأعلام والمعالم

يُثبت سليمان الجادوي أنّ المصلحين في الأمم، هُم كأصحاب الشرائع السماويّة، في القيام بإصلاح العائلة البشريّة، ومقاومة الفساد الذي يتولّد من الإهمال، وتقادمِ عهد الإنسان بالتكاليف[1].

كما يرى أنّ الأمّة بين انبهارها بالآخر، وشعورها بضرورة التقدّم، والأخذ بالصالح من كل جديد، في حال مضطرب، تحتاج فيه إلى "الهداة المرشدين، والناصحين غير المفتونين الضالين الملحدين"، وإذا لمْ يتولّها، والحالة هذه، "أفئدة قويّة من خيرة أبنائها "، فقدت بواعثها للفلاح، واضطربت في سلوكها، وتاهت في متاهة الحيرة والذهول.

وإذا كان قد أثبت، في بعض المواضع، أنّ المفسدين كثيرٌ، وأنّ المصلحين ذوي الاقتدار قليل، إذ جلْبُ الداء في وسْع الجميع، ولكنّ الإنقاذ منه لا يعلمُه إلا القليل [2]، فإنه رأى، في مواضع أخرى، أنّ الأمّة "أمام شعورها بالتأخّر وتأثير مدنيّة أوروبا، قد رُزقت طائفة كبيرة من أبنائها توْرِها من هذه الوجهة، بالتذكير والموعظة الحسنة. فهُم دائبون على دفع اليأس عنها، ومكافحة نزولها إلى التقليد بكل سلاح"[3]. وقد وصف هؤلاء بأنهم "فارقوا الدهماء، فلمْ يخنعوا لتيّار اليأس، ولمْ ينقادوا تحت صغار الاستسلام، وأيقنوا أن القنوط للإنسان أردى قرين، وأنه للفكر الموت الزؤام، وأن الحركة دليل الحياة، والموت علامة السكون. استنترت بصائرهم بنور الأمل وإن كان ضئيلاً، ونبض فيهم عرق الحياة وإن كان ضعيفًا.."[4].

وبكثير من الألم، يذكر الجادوي أنّ السيف المسلط على رقاب المصلحين، كان دائمًا، من يزعمون أنهم "علماء" و"أولوالأمر"، بهِم ذهبت صيحات المرشدين ونصائح المصلحين دون صدى، وذهب جهدهم سدى ، وكان من

---

1 –م. ص2

2 –م. ص233

3 –م. ص38

4 –م. ص232

الأوْلى أن يكون "أهل الدين" هؤلاء أحقَّ من قام بدعوى الإصلاح لمكانهم من الدّين.

يقول، منافحًا عن المشروع الإصلاحيّ، وممثّلاً النزعة السلفيّة التنويريّة خير تمثيل، بما هي رؤية في جمع شتات التفكير الدينيّ، ومسؤولية في الاعتراف بقيمة جميع مكوّناته العقديّة والمذهبيّة :" ولئن سألتهم عما يقصدون من إشهار تلك الحرب العوان، ليقولنّ إنّا حُماة الدين[1]، وإنه ليوجب علينا تغيير منكر رأيناه. ما لهم لا يُغيّرون ما بين أيديهم من المنكرات؟، بل بالعكس تراهم قائمين عليها ويأمرون بها...ولكن هذه المنكرات الصريحة لا تسوؤهم مثلما يسوؤهم مَن ينادي بأن الخلاف بين فرَق المسلمين يمكن تسويته، وأنهم لوأحسنوا المناظرة لما اختلفوا، وأن تنديد بعض هذه المذاهب ببعض في غير محلّة ولا ينبغي الإقرار عليه، وأن من قام بهاته الدعوة وقرع بها أسماعهم، وهي كما رأيتَ أقصى ما يتمنى المسلمون، لا يكون جزءً من هؤلاء العلماء سوى رمْيه بالاعتزال بل المروق والزيغ والإلحاد. والاستدلال على ذلك لديهم هيّن، إذ لا يتجاوز حكاية منامة... كما بُلِي جمال الدين الأفغانيّ، محمّد عبده، وكما بلي من قبلهما الغزالي بمن لا يصلح أن يكون شراكا لنعله، فرموْه بالزندقة والإلحاد والكفر والاعتزال، لاعتقادهم وأن الاعتزال منقصة. ويطلقون كل هاته الألفاظ على شخص واحد مع علمهم باختلاف معانيها. ولكن حيث كان الباعث على قذفها الغيظ والعداء، لا يروْن حرجًا في جمعها في كنانة واحدة، إذ جعبة الغضب أوسع من جعبة الحق، ويجرّئهم على ذلك مركزهم الذي يجعل كلامهم مقبولا ويأمنون به مناقشة الحساب"[2].

وقد عَدَّ جمالَ الدين الأفغاني(ت1315هـ/1897) ومحمّد عبده(ت1323هـ/1905) من الرجال المصلحين الشجعان، الذين مسكوا،

---

1 – راجع قصيدة "حماة الدّين". ديوان أغاني الحياة ص165

2 –م. صص244–245 / وراجع فصل :السياسة الإسلامية الفرنسية في تونس1907–1915، ضمن :العلماء التونسيون م.س. صص270–276

حقيقةَ، بأزمّة الشريعة، وأخذوا بنواصيها، وسعوْا بساق الجدّ وراء ترقية أبنائها.

وقد كابد الأفغاني"الفيلسوف الحكيم وصاحب النهضة الشرقيّة" وتلميذُه عبده، ويلات التعصّب والجمود. وهُما الرجلان اللذان عرف التاريخ حسن نياتهما نحوالإسلام والمسلمين، وإخلاصَهما، وصدقَهما [1].

ومن المفيد هاهنا، الإشارة إلى الموقف الطريف لعبد الرحمان بدوي(ت1423هـ/2002) من الأفغاني، حيث يعتبره سياسيًّا في المقام الأوّل، ومفكرًا متحرّرًا من العقيدة الدينيّة، ولم يكن الإسلام عنده إلا وسيلة للنضال ضد المستعمَرين الانقليز والروس والفرنسيين، ولمْ يهدف أبدًا إلى الإصلاح الديني بالمعنى المفهوم الدقيق لهذا التعبير. والمسؤول عن تصويره الزائف بصورة "المصلح الديني" هوالشيخ محمد عبده وأصحاب مجلة المنار ومن شايعهم من "السطحيّين" في مصر والشام. ولا بدّ، في نظره، من تحطيم هذه الأسطورة الموغلة في الزيف، ألا وهي أسطورة : "جمال الدين الأفغاني المصلح الدينيّ الإسلاميّ"[2]

أمّا الوزير خير الدين التونسي، فصورته في "المُرشد"، أنه "رجل الأمّة التونسيّة" و"أبوالنهضة التونسيّة"، الذي دبّ به "ناموس الإصلاح"، ووُلِدت به "حركة التطوّر التمدينيّ" في تونس، وبذل قصارى وسْعه في إدخال النظام التمدينيّ على كيان الدولة المتزعزع بالإطلاق، والمخرَّب بسوء التصرّف الفرديّ، والمثقل بكوارث الإطلاق ومصايب الإرهاق، مُعلنًا قبول الإرشاد، وتبادل الآراء المعينة على النهوض، ومُفسحًا مجالاً لأخذها وإعطائها. ومعه أخذت فكرة الشعور بالواجب الاجتماعيّ الذي كان لا يعرف له معنى، ولا يُدرَك له مبنى، فازدهرت المملكة في أيامه، وأخذ التطوّر السياسيّ يظهر، والأمن ينتشر. ولكن خذلته الدسائس، والجيلُ "المرهب بالإرهاق الفردي

---

1 –م. ص23

وراجع، مثلا، محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي صص61–172

2 – بدوي: موسوعة المستشرقين ص320

والمثقل بآثام حواشي حكمه الحالكة"، والعلماءُ الذين كانوا يتسابقون على التقرّب والتزلّف، واستفرغوا "كنانة القواميس اللغوية من ألفاظ المديح" وقلدوها، نفاقًا، رجالَ ذلك الدوْر الذين ما كتب عليهم التاريخ إلا الآثام". فبارح "المصلح العظيم" خير الدين تونس، فهجعت فكرة التطوّر التمدينيّ، ولكن ترك خير الدين في الملكة "تطوّرًا سياسيًّا ونظامًا دوْليًّا"، سارت على بعضه السياسة التونسيّة رغم "التطوّر الاحتلالي الذي يزعم أنه أتى بكل شيء"، ومن ذلك :

/تفريق السلط

/إحياء الشورى بإجراء دستور عهد الأمان

/تأسيس المجالس المعبر عنها بالجنايات

/نظام الكلية الزيتونية والتعليم الديني

/تأسيس التعليم العصريّ بالمدرسة الصادقيّة، التي تميّزت بتفوّق تلاميذها، إلى ماقبل عصر الجادوي، كما يُثبت هو، وينبّه إلى أن حاضرها جديرٌ بالأسف، "حيث أنها مدرسة خاصة بأحباس عظيمة الدخل والمحصول، ولمْ تأتِ بالنتيجة المنتظرة التي تشاهَد على نظائرها من المدارس الثانويّة، لفساد برنامج التعليم بها، وسلطة المدير لها، وتنفيذه لتراتيب تخالف ما تطلبه الأمّة..."[1]

/قانون العدالة "المفقود النظير ضبطًا وإحكامًا

/ترتيب المحاكم الشرعيّة والأحباس والتراتيب البلدية والإداريّة

/النظام الفلاحيّ

/تأسيس صحيفة"الرائد التونسي"[2]، التي وإن اشمأزّ منها "النحارير"، وترفعوا عنها "لابتعادهم عن مواقف السياسة التي يرونها وعرة الولوج غير

---

1 –م.ص428

2 – راجع عن "الرائد" : المسعودي : فوائد الرائد، ذيل الخلاصة النقيّة / حمايرية : م.س. صص209–321

آمنة المروج"، ووصموها ب"البدعة"الداخلة تحت قوله تعالى"ومِنَ الناس مَن يشْتري لهوالحديثِ ليُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغيْر علْم.."(لقمان،6/31)، فإنّ الجنرال حسين(ت1304هـ/1887)[1] أحد أعضاد خيرالدين، قد كان سببًا قويًّا في ارتقائها، وخصوصًا في الصفحات الاقتصادية، بما كان يمْنحه من إكرامات ومكافآت من ماله الخاصّ، لمَن يُجيد في تحرير المقالات.[2]

وورث خيرَ الدين محمدُ بيرم الخامس(ت1307هـ/1889) صاحب "صفوة الاعتبار"، ومحمد السنوسي(ت1318هـ/1900)[3]، فكانوا من الوطنيّين "الذين أُشربوا حبّ الصالح العامّ، وتعلقت بهم رغم الإرهاق الإداريّ، وإفلاله لانتظامهم حينًا بعد حين"[4].

ولعلّ اللافت، هنا، أنّ الجادوي طوى ذكر الشيخيْن محمود قبادورمز انقداح الأفكار الإصلاحيّة، وسالم بوحاجب(ت1342هـ/1924)[5]، قرين خير الدين.

أمّا البشير صفر(ت1335هـ/1917) "أبوالنهضة التونسيّة الثاني"، فيصفه الجادوي ب"الشهم الفقيد" و"الوطنيّ الشديد"، الذي رسّخ "الفكرة العموميّة" في مدارك تلامذته الكثيرين، عند انهيالهم على دروسه المتدفقة غيرةً وطنيّة، وكان منهم صحافيّون بواسل. وكان يضيف إلى حياته التعليميّة بالمدرسة الخلدونيّة عملَه التحريريّ بجريدة "الحاضرة"، وخطبَه العموميّة التي يقيمها

---

1 –راجع :الطويلي :الجنرال حسين :حياته وآثاره / عمايرية: الصحافة وتجديد الثقافة صص53–99

2 –م. صص2–6 ،

وراجع : المنصف الشنوفي :تقديم أقوم المسالك صص10–64

قرين :العلماء التونسيون م.س. صص142–164

3 –راجع : ابن عاشور :أركان النهضة الأدبية بتونس صص11–33

4 –م. ص6

5 –راجع مثلا كتابيْ :

عمر بن سالم : قبادو، حياته وآثاره وتفكيره الإصلاحيّ

حسونة المصباحي : ثلاث منارات تونسيّة :خير الدين –بيرم الخامس –سالم بوحاجب

عمايرية :م.س. صص101–122

على أساس "مقارعة الاستئثار القاسية، حتى ارتسمت في الأفكار شهامة الإصداع بالطلب، والصراحة في النقد، وإنزال الوطنية مقامها من الاعتبار" [1].

ومن المعلوم أيضا أنّ البشير صفر كانت تنظر إليه الحماية على أنّه " وكيل حركة الجامعة الإسلامية بتونس" [2].

وبكثير من الارتياح والطمأنينة، يُثبت الجادوي أنّ الأمّة التونسيّة بُعثت في عهدها الحاضر بعْثًا ثانيًا عقب ذلك السبات الطويل الذي كاد أن يأتي على ما في مفاصلها من عروق الحياة، فهبَّ شبابها الناهض إلى مسابقة الأمة في مضمار الرقيّ بغيتُه الحياة، وما الحياة إلا مزاحمة وجهاد في معترك الحياة [3].

ويعتبر أنّ جامع الزيتونة، وبعض القديم من المدارس القرآنيّة، وبعض الزوايا، والخلدونيّة، والصادقيّة في عهدها الأوّل، كانت لها "فضْل"، و"وطنيّة"، و"بركات"، أسهمت في تقدّم الأمّة التونسيّة، و"حضارتها العلميّة"، وازدهار الصحافة والنشر [4].

فأمّا تأسيس الجمعيّة الخلدونيّة، فكان رمز النهضة، وثمرة السعي في حفظ الكيان الوطنيّ، حيث "بذلت من المساعي الباهرة بهمّة أعضائها الكرام، ما أيّد بقاء هاتيك المدرسة العظيمة كعبةً يحجّها المتعلمون من أهيْل هذا القطر، فيبوؤون وقد مُلِيَت أذهانهم علمًا دنيويًّا، وعرفانًا حيويًّا لا يُستغنى عن اقتنائه بحال"، وكان من مآثر أبنائها تلكم الجرائد الوطنيّة "التي أصبحت ولا هَمَّ لها إلا منابذة المحافظة على العتيق، ومتاركة الاقتناع بحجاب الجهل الصفيق، والاتكال على خوارق العادات"، و"مهما سمعتَ بفضيلة نُشِرت، أومأثرة ظهرت، أومشاريع كوِّنت، وفحصْتَ عن الموجِد لها

---

1 –م. صص6–7 / وراجع :
ابن عاشور : م.س. صص34–38
محفوظ :تراجم المؤلفين التونسيين ج3صص237–240
2 –قرين : م.س. ص273
3 –م. ص443
4 –م. ص428

والمتسبب فيها، فلا تلفي غير اليد الخلدونيّة البحتة أوهي ذات النصيب الأوْفر في ذلك ".

من أجْل ذلك ينادي الجادوي أنصار التمدّن المسلمين إلى إمداد الخلدونيّة، ودعمها، وإعانتها، وإيجاد فروع لها في سائر مناطق البلاد، ليحفظ كيانها، ويتسع نطاقها. يقول في ذلك :"بيننا من ذوي الثراء والميسرة مَن يسع رزقه التبرع بآلاف الفرنكات. فما أجْبنَهم رُزقوا الهدى أن لوتفضّلوا بجزء من ذلك المال العريض على تلك الكلّيّة الجليلة معهد العلم والتعليم، حتى يصح انتظامه في عقدها الجميل، ولا يُرْمى بجهْل...إن ذلك المنهل الصافي مثلُه فينا كعريف نزل حيّه خلاءً مخوفًا لا ماء به ولا مرْعى، فتقطعت به سبل المذاهب، وخفيَت عليه أدلة الوقاية من تهلكة الجوع والظمإ، فأخذ ذلك الرائد الماهر يدبّر في تكوين مسلك ممرٍ بالماء الغدِق والفدفد الخصيب محفوفًا بالعمران، ليقود له قومه المحتضرين، فيعتقون من أسر المهلكات. إذا كانت هذه مثابتها، فالتردد دون إنجادها عارٌ وشنار على أن المال ما خُلِق إلا لأنْ يُباد في الصالحات"[1].

وأمّا الجامع الأعظم، فلئن أنبت، قديمًا، كثيرًا من جلّة العلماء، وكان الروضَ الزاهر، ومفخرة القطر التونسيّ، وكلّيةَ تونس الإسلاميّة، ومحطّ رحال التونسيّين، وكعبة آمالهم، يأتون إليه من كلّ فجّ عميق لحطّ أثقال الجهل دونه، والاقتباس من نور الشريعة المحمّديّة والملّة البيضاء الحنيفيّة التي مدت رواقها على دعائم ذلك البيت المعمور [2]، فإنّه أضحى ب"سيئات التكاسل وقلّة العناية به، مُشرفةَ زهوره على الذبول"[3].

---

1 –م. صص18–20 / وراجع عن الخلدونية واتحاد الزيتونيّين والصادقيّين في مساندتها : قرين : م.س. صص222–246

2 –م. ص27 /ص185

3 –م. ص185

ولذلك واكبت "مرشد الأمّة" تحرّكات الزيتونيّين، وساندت مطالبهم [1]. وكان للشيخ الزيتونيّ سليمان الجادوي رؤية إصلاحيّة نوجزها في النقاط الآتية :

-الإصلاح يجب أن يشمل البرامج والمدرّسين والمتخرّجين

-ضرورة إيجاد هيأة تشرف على سيْر الدروس

-لجنة مراقبة البرامج المدرسيّة

-لجنة علميّة تشرف على اختيار الكتب المعتمَدة، وتحيينها، وملاءمتها للعصر والاحتياجات

-الاستفادة من التجربة المصريّة في إنتاج كتب بأساليب حديثة

-مراجعة تراتيب الامتحانات

-مراجعة وضعيّة الأساتذة، وربطها بمستويات التعليم

-انتخاب عضو عن الطلبة في لجنة النظارة العلميّة [2].

أ فليْست هذه الفقرة المنشورة على صفحات "المرشد" : "لمْ يبْقَ لنا من العلْم إلا القشور، والمناقشة اللفظيّة الخالية من الفوائد، وحام حوْلنا وحوْل عُلومنا الصحيحة جند السوس، ولمْ يبْق لنا من الدّين إلا اسمُه، إذ أننا نقول بما لا نفعل بمقتضى أوامره ونواهيه، فندعو الحياة ونحن أموات، ونطلب الفوْز بالسعادة ونحن معتكفون على ارتكاب الشهوات"[3]، تعبيرةً حدّاديّة (نسبة إلى الطاهر الحدّاد)؟!.

ونقرأ له كذلك، متبرّماً بتخلّف "شيوخ العلم" : "ما وجدتُ منهم إلا من يقول :لا ينبغي تعلّم العلوم العصريّة كالجغرافيا والهندسة والتاريخ والحكمة والحساب والطبيعة والطبّ وما شاكلها، بل ذلك يُعَدّ مُروقًا من الدين. أمّا تعلّم اللغات الأجنبيّة فالإلحاد بالدين...ولكن متى يستقيم حال أمّة وعلماؤها

---

1 -م. صص196-199

2 -م. صص186-189

3 -م. ص25

على هاته الشاكلة. وإذا كان العلماء بمثل هاته البساطة العمياء فعلى أي حالة تكون الجهلاء والأغبياء.."[1].

وليس هذا موقفه من كلّ شيوخ الزيتونة، طبْعًا . فهو إذْ يهاجم قلاتي وحزبَه، يؤكد على أن بعض أساتذة الجامع الأعظم يشرّفون هذا المعْلَم، ولهم رسوخ قدم في الفقه وأصوله، ومعرفة زائدة بفقه القضاء ومذاهب التشريع، وما بيدهِمْ من شهادة الأستاذيّة هي أكبر مما لدى أولئك المحامين الأعاجم عن لغة البلاد وأخلاقه وشرْعه وعوائده، وأن للأمة وثوقًا فيهم ولهُم عن الحكومة استقلال تام"[2]

إنّ الجادوي قرينُ الطاهر ابن عاشور [3]، والخضر حسين[4]، والحدّاد [5]، والشابي[6]، إن لمْ يكن أسْبقَهم، في المناداة بإنقاذ جامع الزيتونة، حتى يكون ابنَ عصره، وركنَ رقيّ، لا معْول هدْم وهاوية انحطاط.

وبعْد مُضيّ أربع سنوات على طلب تأسيس الجامعة الزيتونية، تذكّر "مُرشد الأمّة" في عددها71 س1339هـ/1921 بفكرة إنشاء هذ· الجامعة، التي يُؤَمَّل أن "تُعْلي شأن لغة الشريعة الغرّاء، والآداب العربيّة، وتصوغ للأمّة التونسيّة طائفة تمجّد ذكرها، كما كان ممجَّدًا في ماضي الأيّام والعصور الخالية".

ومن الغريب، حقًّا، أنّ بعض الزيتونيّين خاف منها أن تحبط عملَهم، وينالهُم بها نصيب غير منقوص من "العار" !!.

ومن المهامّ الموْكولة إلى هذه الجامعة :

---

1 –م. صص27–28

2 –م. ص454

3 – راجع : أليس الصبح بقريب

4 –راجع كتابه: تونس وجامع الزيتونة

5 –راجع كتابه : التعليم الإسلاميّ وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة.

6 –راجع : ثورة النخبة م.س. صص89–106

-تخريج فئة متمرّنة صالحة من الزيتونيّين لاعتلاء منابر الخطابة، والقيام بالإمامة في الجوامع، بعدما تأكدت الحاجة إلى ذلك، وتحتّمت ضرورة تثقيف الأذهان، وتنوير العقول، وإرشاد جمهور المصلّين. ولا يتيسّر ذلك إلا لخطيب ملَك ذلاقة اللسان وقوة الحجّة، وتدرَّب على الخطابة، كتابة وإلقاءً وتكوّنًا علميًّا

-إصدار مجلة تهتم بشؤون الدّين والعلم

-إنشاء مكتبة تواكب أحْدث المنشورات من الكتب والصحف والمجلات، محلّيًا وعربيًّا

-نشر مآثر التونسيّين "إحياءً لذكر فطاحل الخضراء، وتنشيطًا للمؤلفين والمعرّبين والناشرين"

-تمتيع الطالب الزيتوني بمنحة جامعيّة[1] .

ج-القيَم

لسنا في حاجة إلى التأكيد على أنّ مشروع الجادوي الإصلاحيّ قد بان على صفحات جريدتيْه "المرشد" و"مرشد الأمّة"، على الأقلّ، واضحَ المعالم، جليَّ الدوافع والمقاصد. وما اهتمامه بالكتابة في جملة من القيم والمبادئ الإصلاحيّة التهذيبيّة إلا دليل على ذلك، ناسجًا على منوال أعلام الإصلاح في الفكر والمنهج والأسلوب.

*الاتحاد

عبّر الشيخ عن هيامه بعبارة "القوة في الاتحاد"، فهي تمثيل للسعادة بجميع معانيها، ولأسنى منازل الفلاح، و"في ضدّ مغزاها الفقرُ، والمذلّةُ والقهر، والبلاءُ الأصفر، والموتُ الأحمر، بل عنوانُ الخيبة والشوم، والحيرةُ والهموم "[2].

---

1 -م. صص443-445

2 -م. ص17

ويذكّر أن الأمم التي أراد الله بها خيرًا طفقت تلتئم وتجتمع، وتغرس أشجار التحابب والوئام، فارتقت "على صهوات الفتح والاستواء على عرش الاستعمار".

أما الشعب التونسيّ فقد أوجس خيفة مما حاق به من شرّ الكسل، والرضا بالفشل، والاستكانة للتقاطع الناشئ عن تفرّق الكلمة، فجعل يبعد من هوّة التفرّد وبؤرة الخراب، ويدنومن ساحة ما يوليه الراحة والترف والنخوة والشرف، ويجلسه على أريكة الكمال عملا بمنطوق"القوة في الاتحاد"، وكانت أوّل خطوة خطاها في هذه السبيل المنجية هوتأسيس الجمعيّة الخلدونيّة[1].

*التمدّن

من أجْود "المقامات الجادِويّة"، نصّ: "التمدّن" عند المقلّدين أوحضرات المتفرنجين[2]، اجتمع فيه السجْع السلس، والتعبير المتين، والوصف الدقيق، والنقد العميق، والموقف الصريح. وانتهى كاتبه إلى أنّ تمدّن الأبهة الجوفاء، والفسق والفجور، والكفر واحتقار المؤمنين، هو"تمدّن" زائف فاسد.

أمّا التمدّن الذي يؤمن به الشيخ، فهوالخضوع لأوامر الشرع، والوقوف لدى نواهيه، وله أركان منها: العلم، أخرويًا كان كالتوحيد والفقه والتجويد..أودنيويًا كالمعارف الحربيّة، والفنون الطبيّة، والكيمياويّة، والهندسيّة، والحسابية، والتاريخيّة، والجغرافية، والفلكيّة، إلخ.. حتى لا يحتاج صاحبه لشيء من الأشياء ولا يبقى لسلطان الجهالة على العقول من سبيل[3].

ومن معاني "التمدّن" الحقّ في فكر الجادوي :

/الحرّيّة بأن يكون الفكر واللسان طليقيْن دون خوْف، فتخف وطأة الجوْر، وتسود الشورى، ويموت الاستبداد.

---

1 –م. صص17–18

2م. صص91–92

3 –م. ص92

/المساواة، وهي "الأساس المتين الذي أُقيم عليه هيكل العمران"

/الإخاء والألفة

/الحزْم والكدّ بتنشيط الفلاحة والصناعة والتجارة، وتنظيم الإدارة

/الاقتصاد في المعيشة وتجنّب التبذير[1]

وقد خصّ الجادوي قيمة "العلْم"، أساسَ التمدّن، بمقال منفرد[2]، وكذلك "الصناعة"[3]، فاعتبرها مادة العمران، وقوام الحياة، وروح الألفة والاتحاد، والحاجة القصوى التي ربطت بني الإنسان بعضِهم ببعض. وبناءً على هذا المعنى فهِم: "الإنسان مدنيٌّ بالطبع"، بمعنى : "الإنسان صانعٌ بالطبع".

فالصناعة عنده، من الضروريات التي لا يستغني عنها الإنسان بحال، ولا تتسنى له الحياة بدونها، وهذه الخاصيّة تختلف درجات لزومها باختلاف الأمم وتفاوتهم في "الهمجيّة" و"المدنيّة" وما بين ذلك. فكلما ارتقى الإنسان في شؤونه ازدادت حاجته إلى الصناعة، واستجدت له أنواع منها يخلقها العمران.

وحينئذ فـ"الصنعة بنت العُمران، كما أنها مادّته"، و"الصنائع المستجدّة من نتائج العمران، والعُمران ثمرة من ثمار المدنيّة".

ويربط الجادوي بين التصنيع والاستعمار، ويرى من أهمّ الأسباب التي حملت الأمم الغربيّة على استعمار الشرق واستعباد شعوبه، ترويج المصنوعات، ويضرب مثلاً على ذلك بألمانيا، حتى أعلن امبراطورها أن "ألمانيا لا تضمن حياتها راقية سعيدة إلا بالاستعمار وفتح أسواق البلدان لمتاجرها ".

---

1 –م. صص92–93

2 –م. صص77–80

3 –م. صص48–50

ويستخلص الشيخ من ذلك أنّ "قوة الممالك في هذا العصر، بتعزيز الأساطيل وإعداد الجيوش، قائمة على المصالح التجارية أكثر من قيامها على الرغبة في امتلاك البلاد لغرض الفتح البحْت والاستعباد الصرف".

ولكن بقدْر ما أكّد الجادِوي على أنّ أوروبا رمز "التمدّن" ومثاله، فإنّه لمْ ينزع عنها صفة "الهمجيّة" بجريرة الاستعمار الوحشيّ، وبالفظاعات العنصريّة التي اقترفها "غزاة القرن العشرين". وقد تجلّى ذلك في مقالات عديدة، منها "الهمجيّة والنظام"[1].

ويعيب على كثير ممن طالبوا بالإصلاح فتنتَهم بالمدنيّة الغربيّة، غافلين عن أن تلك المدنية الفاتنة "مقابحَ تضاهي ما هومخبوء في الإنسان تحت بشرة ناعمة وجسم لطيف"[2]

لقد عدَّ الجادوي مدنية أوروبا وعلومها وفلسفتها، من العوامل الأجنبيّة التي أحدثت في الأمّة الإسلامية نزوعًا إلى الأخذ بها. فيؤكّد على أن هذا النزوع كما يُنتج التقليد في النافع، يولّد التقليد في الضارّ أيضًا، لذلك يرى من الواجب التعامل مع هذا الجديد الفاتن بحكمة ورُشد ونور بصيرة، ويُحذّر من الشطط في استقبال هذا "العلم الأوروبيّ الفجئيّ" الذي قسّم متقبّليه في الأمّة ثلاثة فرَق :

-من اعتقد ما قرّره العلم الأوروبيّ من أن زمن الدين قد فات، وما الحياة إلا الحسّ

-مرجئة شاكّة حائرة

-من اهتدى لمعنى الدين والإسلام، فأصبح مسلمًا حقا على مذهب يباين ما عليه جمهور الناس، معتقدًا أنهم على شكل ظاهره إسلام، وحقيقته دين جامد مصطنع

---

1 -م. صص68-70

2 -م. ص233

وهذه هي العقيدة الجادويّة التي لا ترى للمسلمين طريقا للحياة بغير الدين[1]

٭الرقيّ

هلْ يحقّ لنا بعْد أن نقرأ في " الفوائد الجمّة " :

مَن يرقى بالبلاد وينهض بالأمّة؟ [2]

هل من سبيل إلى النهوض؟ [3]

هل إلى الرقيّ من سبيل؟ [4]

ألاّ نستنتج أنّ الجادِوي كان هاجسه رقيَّ تونس ونهضتها، ومن ورائها العالم العربيّ الإسلاميّ؟، كلاّ، فهو القائل :"يجب علينا أن نبحث في الوسائل التي يحصل بها ذلك الرقيّ وتأتي منه النهضة "[5]، وهوالذي يحمل همَّ أمّته قائلاً :" لقد أصبحت الأمم، سوانا، تمرح في مرج الرقيّ، وتسحب مطارف العزّ، تتفيّأ ظلال السعادة، وتتطلع إلى معارج الكمال، وأصبحنا وراء الجميع ليس لنا منهم إلا آثارهم ولا تصل إلينا إلا أخبارهم، والسواد الأعظم منا يسمع أقاصيصهم كما يسمع الأكمه عجائب ما يأتي البصير موقنًا أن قد حيل بينه وبين الإتيان بمثله بحائل طبيعيّ غير داخل دفعه في كسب الإنسان "[6].

لقد رأى أن أقوم المسالك إلى الرقيّ، هو: توحيد التعليم، لأنّ الأعمال العظيمة "لا تصدر إلا عن وجدان نفسيّ تابع للتربية العامّة والتلقين بالتعليم

---

1 –م. صص38–39

2 –م. صص117–119

3 –م. صص231–235

4 –م. صص242–246

5 –م. ص118

6 –م. صص231–232

"، والتعليم هوالكفيل بالجمع بين المختلفين في أساليب التربية، وهوالواسطة في سلوك المسلمين سبيلَ الارتقاء الحقّ متّحدين[1].

وبحَث في مدى توفّر العوامل المساعدة على ذلك، وهل هناك عوائق أمامه.

وانتهى إلى أن السبب الذي يقف في وجه رقيّ المسلمين هوقوة أعداء ذلك الرقيّ، وهُم "علماء الدين" المتحجّرون. إنه يراهم "أصحاب الفائدة من تقهقر الأمّة، وهم الذين أوقفوا لسعيهم حدودًا، ولأفكارهم جنودًا "[2]، ولا تلبث الحكومات أن تؤيدهم، وتُبرزهم للعامّة، حتى يكونوا مقام التقليد، لأنهم يؤدون لها أجل خدمة [3].

ومن المسالك المؤدية إلى الرقيّ : الاجتهاد والذكاء، إذ هُما من المعاني الشريفة السامية"، ولمْ يتسرّب الضعْف إلا بعد نبْذ الاجتهاد الذي "يعلمنا كيف نذود عن أوطاننا وندافع عن حقوقنا ونسترجع مجْدًا فات[4]

ولئن سجّل الجادوي أنّ في تونس قسمًا كبيرًا من المسلمين الموْسومين بالتفكّر فيما يمكن معه تخليص وطنهم من "ورْطة الجهل المبيد"، فإنه أقرّ بأنهم مع كثرتهم وتزايد عددهم، يومًا فيوْمًا، لمْ يُوجدوا في البلاد رُقيًّا يُذكَر.

ويُرجع سبب ذلك إلى تدجيل بعض أولئك، وغشّهم، وخداعهم، ومكْرهم، ونفاقهم، وغدْرهم، وانتهازيّتهم، وسيطرة أنانيتهم عليهم، ولهثهم وراء الظهور والمحْمدة، و"حبّ النفس شيء والعمل للصالح الأهليّ شيء آخر".

من أجل ذلك، أوْجب على "مَن يدعي الإصلاح وبثّ دعوة الرقيّ" أن يخاطر بمستقبله، وأن لا يُكْبر نزول العناء به، وأن لا يهشّ إلا لما فيه فائدة

---

1 –م. ص242

2 –م. ص245

3 –م. ص243

4 –م. صص257–259

الجميع اقتداءً بمن سلف من رجال الإصلاح، من أمثال الأفغاني. وبمثل هذا تسموالشعوب، ويكون لآراء قادتها الأثر الحسن في القلوب[1].

هكذا نتبيّن ما للجادوي من فكْر إصلاحيّ متماسك، يتأسّس على منابذة قصوى للرؤية الرجعيّة الجامدة ورموزها، ويناصر مشروع أعلام التنوير ذي المرجعيّة السلفيّة المتحرّكة، ويمحّض ذلك لخدمة القضايا الوطنيّة.

وبهذا، يكون من اليسير جدًّا، أن نعدّ الصحفيّ سليمان الجادوي، واحدًا من أبرز الزيتونيّين الذين جاهروا بعدائهم المقيت لسدَنة التفكير الدينيّ الأعرج، ولأعوانهم من الاستعماريّين والمتواطئين. وهو بحقّ أحد المصلحين التونسيّين الذين رفَدوا هويّة تونس العربيّة الإسلاميّة بروح الحياة والعصر، وأخلص بالفكر والقلم في تشكيل ثقافة وطنيّة ذات أضلاع ثلاثة: الحرّيّة والأصالة والتفتّح.

---

1 –م. صص115–117

خاتمة

لا جدال، بعد كلّ ما قدمناه، في أنّ الإباضيّين الثلاثة كان لهُم بالغ الأثر في الثقافة التونسيّة، وكُلّ بطريقته وبما انصرف إليه اهتمامه. وهو تنوّع يؤكّد ما في ثقافتنا من ثراء الفِكَر، وتعدّد المسالك، وتغاير الأساليب والمناهج.

أمّا سالم بن يعقوب، فكان من زمرة المؤرخين الذين أبْلى عُمُره في التنقيب والتجميع والتوثيق والنخْل والتصويب، بما أُتيح له من وسائل، وبما يراه وفاءً لعقيدته ومعتنقيها.

وهو، بلاريب، اسم بارز في قائمة المؤرخين الإباضيين الجربيّين،الذين يُعَدّون من أبرز مَن كتَب في التاريخ المحلّيّ، إن لمْ نقُل أبرزهم على الإطلاق في تونس، والذين عبّروا عن شدّة تعلقهم بموطنهم وتراثه، وأسْدوْا خدمة جليلة للثقافة الوطنيّة، حيث حفظوا ذاكرة الجزيرة، وصانوا ذكْرها، وحمَوْا ثروتها العلميّة، وحرسوا وثائقها التي تُثبت حركتها الدؤوب،، محلّيًا، ووطنيًّا، وعربيًّا.

وما يميّز بن يعقوب، أنّه من الإباضيّين المتأخرين المعاصرين، الذي نضجت لديهم الروايات والنقول، كما ينبغي، وتهذبت رؤيتهم العقَديّة إلى حدّ كبير. وكانت له مقاربة نقْديّة، هي البديل لما تواتر في عديد المصنفات غير الإباضيّة.

وكلّ هذا لا يعني أنه سلِم كلّيًّا مما علِق بمصنفات الآخر من التعصّب والميْز، فهو، كذلك، سكت عن أثر المالكيّة في تاريخ جربة، وقد لفّه لفًّا، وكان هذا الغائبَ الأبرز في كتابه.

وأمّا سعيد ابن تعاريت، فنراه صنو عمر المحجوب(ت1222هـ/1807) وإسماعيل التميمي(ت1248هـ/1832) وإبراهيم الرياحي(ت1266هـ/1850) من المالكيّة، الذين دافعوا عن سندهم العقديّ التونسيّ، حينما وجّهوا ردودًا على رسالة ابن عبدالوهاب(ت1206هـ/1792).

فبينما كان هؤلاء يذودون عن حياض الأشعريّة، وعقائد التبرّك، والتوسّل، والزيارة، تصدّى ابن تعاريت لمُبدّعي العقيدة الإباضيّة ومناوئيها .

وما يجمع هؤلاء جميعًا، أنهم ابتغوْا صيانة هويّة تفكيرهم الدينيّ، الذي يُعدّ لُبّ الثقافة الوطنيّة. وكما أنّ جربة جزء من البلاد، فإنّ تراثها الإباضيّ الممتدّ بعطاءاته وتنويعاته إلى حاضرنا المعيش، هو لبنة في صرحها المنغرس في عمق التاريخ والمتعالي عن الضمور والنسيان.

ولقد كان سعيد ابن تعاريت رمزَ المذهبيّة الممتلئة بالقيَم الفكريّة الجديدة، والمتجهة نحو سعة الأفق المعرفيّ، والمدافعة عن نسبيّة الاعتقاد، وحتميّة المعرفة والتعارف والاعتراف، كما نادى إليها الإباضيّ الليبي علي معمّر.

وإذا كان الثعالبي وأحمد بلخوجة(ت1313هـ/1896) قد برزَا في الدعوة إلى التسامح بين الديانتيْن الإسلامية والمسيحيّة، وبيَّنا أن الإسلام يوصي بحرّيّة الفكر، واحترام جميع الآراء والعقائد[1]، فإنّ ابن تعاريت صوتَ الأقلّيّة المستنيرة، قد أثرى المدوّنة التونسيّة، إلى جانب آخرين كثيرين، بفقه السماحة المذهبيّة داخل المجتمع الإسلاميّ نفسه، وهي ما لمْ يتحلّ به حتى بعض شيوخ الدّين إلى وقت قريب، بل إلى الآن.

وختمْنا بسليمان الجادوي، الذي كانت صحافته ذات أبعاد مركزية ثلاثة:

/التوْنسة، التي تتشرّب فيها الهويّةُ العربيّة الإسلاميّة خصوصيّات البيئة الثقافية المحلّيّة، وتكون فيها "القُطريّة" مقوّم قوّة، يضمن أصالة الذات وإبداع المغايرة.

/المقاومة، بما هي ثورة على حضور الأجنبيّ الغازي، وفي الوقت نفسه مشروعٌ في ترشيد التعامل مع ثقافته التي لابدّ منها ، وفي تحصينِ الذات من الاستلاب والذوَبان.

/الإصلاح، في معناه السلفيّ المستنير، وهو تجْديد الدّين، وملاءمته مع مقتضيات العصْر، وتحيين فهمه بما يستوعب منتجات الحداثة.

---

1 – روح التحرّر في القرآن صص98–99 / ورسالة أحمد بلخوجة في التسامح. عمران : مداخل إلى الثقافة ص83

ولا حاجة بنا إلى التأكيد ، بعد هذا وما أسلفنا التوسع فيه ، على أنّ سليمان الجادوي الإباضيّ، علَمٌ بارز في تاريخ الصحافة الوطنيّة، وقلم جريء في المدوّنة الإصلاحيّة التونسيّة، وهو حريّ بمزيد البحْث والنظر.

ولعلّ السكوت عن مثل هذه الإسهامات الإباضيّة، يرجع إلى عدة عوامل، نرى منها :

– عدم التفات التونسيّين إلى الفوارق العقَديّة، بقدْر اعتمادهم على عنصر المواطنة، وهذا إيجابيّ. فلمْ تلفت انتباهَهم عطاءاتُ الإباضيّة الجربيّين، لأنها تغلغلت في العمل الوطنيّ الذي تأسس على الكفاح وتحقيق الذات وتحصيل الاستقلال والسيادة، ثمّ انصرف إلى بناء الدولة الحديثة، وتركيز المؤسسات.

وقد كان الإباضيون ، في كل هذا ، المساندين المخلصين لأعلام النضال والإصلاح ، وإن لمْ يبرزوا بروزًا يجعل منهم منظرين لامعين، وزعماء، وقادة.

– ظهور التونسيّين غير الإباضيّين في الصورة، من الكُتّاب، والمؤرّخين، وشيوخ الدّين، والمجاهدين، والسياسيّين. فكانوا بمثابة الشجرة التي غطّت الغابة، والمعبّرين عن الأفكار الجامعة التي لا تحمل نزعة مذهبيّة، في الغالب الأعمّ. فكان الانصهار التامّ في هويّة وطنيّة إسلاميّة لا تقبل التجزي ء.

ولكن مع ذلك ترك بعض المؤرّخين ثغرة في توثيق تاريخ تونس، حينما استبعدوا الإباضيّة، وكانت بعض المقالات والعبارات الدينيّة غير سالمة من التعصّب وضيق الأفق.

– تواصل نزعة الانطواء والعزلة التي اختارها الإباضيّة من قرون، ووجدوا فيها الوضع المريح الذي يصونهم عن الجدال والصدام، ويضمن لوجودهم مزيد الاستقرار . فلمْ يقرّبوا تراثهم من الآخر المخالف، ولمْ يرفعوا أصواتهم بالتصويب والتصحيح، ولمْ يسعوْا إلى اندماج أوْسع في محيطهم، مع أنّ خصائصهم في التفكير والسلوك تؤهّلهم لأن يكونوا في صميم الحراك المجتمعيّ، والأقدر على الأثر الإيجابيّ.

وقد سعيْنا في هذا العمل إلى تجْلية جملة من مقوّمات هذا الدوْر الفاعل لإباضيّة تونس، بما يؤكّد أنّ المذهبيّة المقيتة في طريقها إلى الزوال، على قدْر أهل العزم من الوطنيّين المتحضّرين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1-الكتب

أ-بالعربية

ابن أبي بكر(أبوزكرياء يحيى) : كتاب السيَر وأخبار الأيمّة تحقيق : عبد الرحمان أيوب، ط.تونس1405هـ/1985

ابن أبي الضياف(أحمد) :إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ط.تونس1409هـ/1989

ابن بطوطة(أبوعبدالله محمد) : تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تقديم وتحقيق:محمد عبدالمنعم العريان /مراجعة وفهرسة :مصطفى القصاص ط1بيروت1407هـ/1987

ابن تعاريت (سعيد):المسلك المحمود في معرفة الردود، تحقيق : فرحات الجعبيري / علي بن سعيد ابن تعاريت ط. تونس د.ت.

ابن ثابت الأنصاري(حسّان) :الديوان تحقيق : عبد أ. مهنّا ط2 بيروت 1414هـ/1994

ابن الحاج يحيى (الجيلاني) : الصحفيّ المناضل سليمان الجادوي ط.تونس1427هـ/2006

ابن حبيب(الربيع) : الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب. مكتبة الاستقامة مسقط عُمان د.ت.

ابن خلدون (عبدالرحمان) : العبَر وديوان المبتدإ والخبر.. (ط.مصحّحة) بيت الأفكار الدولية د.ت.

ابن الخوجة(محمد الحبيب) :شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور . ط.قطر1425هـ/2004

ابن سلاّم الإباضيّ : بدْءُ الإسلام وشرائع الدين، تحقيق : فيرنر شقارتس / سالم بن يعقوب ط.بيروت1406هـ/1986

ابن عاشور (محمد الطاهر الجدّ) : شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح ط.تونس1429هـ/2008

ابن عاشور(محمد الطاهر) : التحرير والتنوير ط.تونس-ليبيا د.ت.، أصول النظام الاجتماعيّ في الإسلام ط.تونس د.ت.،

- أليس الصبح بقريب ط2تونس1408هـ/1988، تحقيقات وأنظار في القرآن والسنّة ط.تونس 1405هـ/1985

ابن عاشور(محمد الفاضل) :- الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس ط. تونس1392هـ/1972،

- أركان النهضة الأدبية في تونس ط.تونس 1380هـ/1960

- أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مطبعة النجاح تونس د.ت.

ابن العربي(أبوبكر) : أحكام القرآن ط1بيروت1408هـ/1988

ابن قيم الجوزية : الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية . مطبوعات المجمع الفقهي بجدّة(د.ت.)

ابن مصطفى(محمد كامل) : الفتاوى الكامليّة في الحوادث الطرابلسيّة . ط. قديمة

ابن محكّم الهوّاري(هود) :تفسير كتاب الله العزيز تحقيق وتعليق :بلحاج بن سعيد شريفي ط1الجزائر1426هـ/2005

ابن موسى(أحمد)(أبوبكر النزواني) : الجوهر المقتصر . تحقيق وشرح: سيدة إسماعيل كاشف، ط.القاهرة1403هـ/1983

أبوحبيب(سعدي) : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ط1دمشق1401هـ/1981

أبوراس(محمد) :مؤنس الأحبّة في أخبار جربة " ط.تونس1380هـ/1960

أبوزهرة(محمد) : نظرية الحرب في الإسلام ط2القاهرة1429هـ/2008

الإدريسي(الشريف) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ط.القاهرة 1422هـ/2002

الإسفراييني(أبوالمظفر) : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرَق الهالكين، ط.القاهرة1431هـ/2010

إسماعيل(محمود) : التراث وقضايا العصر ط1القاهرة1426هـ/2005

أطفَيّش (امحمد بن يوسف) : تيسير التفسير، ط. غرداية، الجزائر 1423هـ/2003، شرح عقيدة التوحيد. ط.عمان1403هـ/1983

– شرح كتاب النيل وشفاء العليل ط2جدّة–بيروت1392هـ/1972

– هيمان الزاد إلى دار المعاد ط.عمان1402هـ/1981

إقبال(محمد): تجديد التفكير الديني في الإسلام ط.تونس1427هـ/2006

أوزتونا (يلمان) : تاريخ الدولة العثمانية. تعريب:عدنان سليمان / مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري ط.تركيا1409–1410هـ/ 1988–1990

إيفالد : رحلة المبشّر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة1835، تعريب وتقديم وتعليق : منير الفندري ط.بيت الحكمة تونس1411هـ/1991

باجيّة (صالح): الإباضيّة بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ط.تونس 1396هـ/1976

الباروني(يوسف) : جربة في موكب التاريخ. (نسخة إلكترونية)

البرّادي(أبوالقاسم) :الجواهر المنتقاة . تصحيح وتقديم وتعليق:أحمد السيابي ط1 لندن1435هـ/2014

البغدادي(عبد القاهر): الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ط.بيروت 1407هـ/1987

البكري (أبوعبيد) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. جزء من كتاب : المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد د.ت.

بل (الفرد) (A.Bel) : الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، تعريب : عبد الرحمان بدوي ط2 بيروت 1402هـ/1981

بن سالم (عمر) : قبادو: حياته وآثاره وتفكيره الإصلاحي، ط.تونس 1395هـ/1975

بن مراد(محمد صالح) :الحِداد على امرأة الحدّاد ط.تونس1350هـ/1931

بن نبي(مالك) : شروط النهضة تعريب : عمر مسقاوي/عبدالصبور شاهين، ط4دمشق1407هـ/1987

بن يعقوب(سالم): تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية ط2 سراس للنشر تونس1427هـ/2006

البهي(محمد) : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ط4 القاهرة د.ت.

بوعجيلة (فتحي): - المذهبيّ والتاريخيّ والنقديّ في تيسير التفسير الإباضي، ط.تونس1435هـ/2013

- ثورة النخبة الإصلاحية التونسية ط.تونس1435هـ/2014

- قضايا الحديث النبويّ في فكر محمد الطاهر ابن عاشور، ط.تونس1436 هـ/2014

بولرواح(إبراهيم) : موسوعة آثار جابر بن زيد الفقهية ط1مسقط1427هـ/2006

تغلات(زهير) : الفكر السياسي الإباضي من خلال مؤلفات جابر ابن زيد، وسالم بن ذكوان الهلالي، والبرّادي، والشمّاخي، ط1تونس1435هـ/2014

التيجاني(أبومحمد عبدالله) : رحلة التيجاني تقديم: ح.ح. عبد الوهاب، ط.الدار العربية للكتاب 1426هـ/2005

الثعالبي(عبد العزيز) : - الكلمة الحاسمة، ط. سوسة تونس1409هـ/1989،

– تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق : أحمد بن ميلاد/محمد إدريس تقديم ومراجعة: حمادي الساحلي ط1 بيروت 1407هـ/1987

– تونس الشهيدة. تعريب:حمادي الساحلي /مراجعة : محمد العروسي المطوي، ط2بيروت 1408هـ/1988

– روح التحرّر في القرآن، تعريب:حمادي الساحلي، ط1بيروت 1405هـ/1985

الجابري(محمد صالح): القصة التونسيّة، نشأتها وروّادها. ط2 تونس 1402هـ/1982

الجادوي (سليمان) :الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة . ط.تونس 1323هـ/1925

الجعبيري(فرحات) : – البعد الحضاري للعقيدة الإباضية، ط2 عُمان 1425هـ/2004

– دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية، ط1تونس 1431هـ/2010

– شخصيات إباضية. ط1عُمان1431هـ/2010

– العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعُمان، ط.تونس 1426هـ/2005

– ملامح عن الحركة العلمية عند الإباضية بجربة (ط.غير مذكورة)

– نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة ط.تونس 1395هـ/1975

الجمني(الهادي) : مدرسة سيدي إبراهيم الجمني ط، تونس1429هـ/2008

جهْلان(عدّون) : الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيّش ط.القرارة الجزائر د.ت.

جوليان(شارل-أندري): تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي/البشير بن سلامة، ط.تونس1399هـ/1978

الجناوني (أبوزكرياء يحيى) : كتاب الوضع مختصر في الأصول والفقه، نشر وتعليق : إبراهيم أطفيّش ط1تونس1406هـ/1986

حجّي (لطفي) : بورقيبة والإسلام ط1تونس1425هـ/2004

الحدّاد (الطاهر)، - التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تحقيق وتقديم: محمد أنور بوسنينة ط.تونس1402هـ/1981

- الديوان، تحقيق وتقديم محمد أنور بوسنينة ط1تونس 1417هـ/1997

- العمّال التونسيون وظهور الحركة النقابية، ط1دار صامد 1417هـ/1997

- امرأتنا في الشريعة والمجتمع ط.تونس1401هـ/1980

حرب(محمد): السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ط1دمشق1410هـ/1990

حسين(أحمد إلياس) : الأباضية في المغرب العربي، ط1عمان1412هـ/1992

حسين(محمد الخضر) : - تونس وجامع الزيتونة، إعداد وضبط: علي الرضا الحسيني، ط.الدار الحسينية للكتاب1421هـ/2000

- نقض كتاب: الإسلام وأصول الحكم، ط. القاهرة1344هـ/1926

- نقض كتاب: في الشعر الجاهلي، ط.القاهرة د.ت.

حمدان (محمد) : أعلام الإعلام في تونس (1860-1956) ط.مركز التوثيق القومي تونس د.ت.

الحيلاتي(سليمان): رسائل الحيلاتي. تحقيق: محمد قوجة ط1 بيروت 1418هـ/1998

خالد (أحمد) : – الطاهر الحداد :فكر تنويري ونضال تحريري ومعالم على طريق الحداثة، (ط. غير مذكورة)

– أضواء من البيئة التونسيّة على الطاهر الحداد ونضال جيل، ط2تونس 1405هـ/1985

خليفات(عوض محمد) : التنظيمات السياسية والإدارية عند الإباضية في مرحلة الكتمان، ط.مسقط د.ت.

الخليلي (أحمد) : – الحق الدامغ، ط.عمان1412هـ/1992

– لقاءات في الفكر والدعوة. أعدّه ورتّبه : فهد السعدي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية عُمان د.ت.

خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط2الدار العربية للكتاب 1425هـ/2004

دبّوز(محمدعلي) : – نهضة الجزائر الحديثة ط1الجزائر1385هـ/1965

– تاريخ المغرب الكبير ط3بيروت1383هـ/1963

دكمجيان(ريتشارد هرير) :الأصولية في العالم العربي . تعريب وتعليق: عبدالوارث سعيد، ط1مصر1409هـ/1989

الراجحي(عبدالعزيز) : قدوم كتائب الجهاد لغزوأهل الزندقة والإلحاد القائلين بعدم الأخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد. (ط1الرياض1419هـ/1998)

الريس(رياض نجيب): صحافيّ ومدينتان، رحلة إلى سمرقند وزنجبار، ط1بيروت 1417هـ/1997

الزاوي(الطاهر أحمد) : أعلام ليبيا ط3ليبيا 1425هـ/2004

الزحيلي(وهبة): الفقه الإسلاميّ وأدلته ط4دمشق1417هـ/1997

الزمرلي(الصادق): أعلام تونسيون، تقديم وتعريب:حمادي الساحلي، ط1بيروت1406هـ/1986

الساحلي (حمادي) : الصحافة الهزلية في تونس ط1بيروت1416هـ/1996

لشابي(أبوالقاسم) : أغاني الحياة ط.تونس1390هـ/1970

شاتليه(أ.ل.)(A.Le.Chatelier): الغارة على العالم الإسلامي، تلخيص وتعريب: مساعد اليافي/محب الدين الخطيب، ط1القاهرة 1350هـ/1930

الشماخي(أبوالعباس أحمد) : كتاب السيَر، دراسة وتحقيق : محمد حسن ط1بيروت1430هـ/2009

شمام(محمود) : أعلام من الزيتونة، ط.تونس1417هـ/1996

الصلاّبي(محمد علي) :فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنّة والجماعة ط1القاهرة1429هـ/2008

طالبي (عمّار) : آراء الخوارج الكلامية الجزائر1398هـ/1978

الطالبي (محمد) : دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، ط.تونس1402هـ/1982

طعيمة(صابر) : الإباضية عقيدة ومذهبًا ط.دار الجيل بيروت د.ت.

الطويلي (أحمد) : الجنرال حسين، حياته وآثاره ط.تونس1414هـ/1994

العاني(فؤاد توفيق): الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة ط1 بيروت 1414هـ/1993

العبدري (محمد) : الرحلة المغربية، تقديم : سعيد بوفلاقة الجزائر 1428هـ/2007

عبد السلام : المؤرخون التونسيّون في القرون17و18و19م، تعريب :أحمد عبدالسلام /عبدالرزاق الحليوي ط.بيت الحكمة تونس1413هـ/1993

عبد الفتاح (نبيل) : المصحف والسيف. ط.القاهرة د.ت.

عبد الوهاب(حسن حسني) : – خلاصة تاريخ تونس . تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي، ط.تونس1422هـ/2001

- شهيرات التونسيّات ط3مكتبة المنار تونس د.ت.

- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيّين، مراجعة وإكمال :محمد العروسي المطوي / البشير البكوش، ط.بيت الحكمة تونس 1410هـ/1990

العرباوي (محمد المختار) :البربر عرب قدامى ط2 تونس1421هـ/2000

العريبي(علي) :الفكر الإسلامي في نصف قرن من خلال المجلات الدينية التونسية، (1904-1955) ط. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس1426 هـ/2005

العقاد(عباس) : الأعمال الكاملة ط1بيروت1390هـ/1970

عمايرية (حفناوي) : الصحافة وتجديد الثقافة ط.تونس1414هـ/1994

عمران(كمال) : مداخل إلى الثقافة . ط1تونس1429هـ/2008

غراب (سعد) : ابن عرفة والمنزع العقلي ط.تونس1413هـ/93و1

العامل الدينيّ والهويّة التونسيّة ط2تونس1410هـ/1990

الغزالي(محمد) : الاستعمار أحقاد وأطماع، ط4 1426هـ/2005

غمق(ضومفتاح) : نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية 1426هـ/2005

فرصوص (أحمد محمد): الشيخ أبواليقظان إبراهيم كما عرفته ط2 عمان 1413هـ/1992

الفقيهي(علي) : الردّ القويم البألغ على كتاب الخليلي المسمّى بالحق الدامغ ط2 المدينة المنورة 1422هـ/2001

قرين (أرنولد) :العلماء التونسيّون 1873 / 1915 تعريب:حفناوي عمايرية/أسماء معلى، ط1مصر1416هـ/1995

القصاب (أحمد) : تاريخ تونس المعاصر تعريب: حمادي الساحلي ط1 تونس 1406هـ/1986

القنوبي (سعيد) : السيف الحادّ في الردّ على من أخذ بحديث الآحاد ط.عمان1419هـ/1998

قوجة(المنصف) :تاريخ الأباضية الديني والسياسي(من القرن الأوّل إلى القرن السادس الهجري)، ط1تونس1435هـ/2014

كحالة (رضا) : معجم المؤلفين ط1 بيروت1413هـ/1993

كراتشكوفسكي(أ.ي.)(I.U.Krachkovski) : تاريخ الأدب الجغرافي العربي،
تعريب:صلاح الدين هاشم / مراجعة :إيغور بليايف، جامعة الدول العربية1377هـ/1957

كوبرلي (بيير) (P.Cuperly) : مدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها. بحث مقارن في العقيدة الإباضية في بلاد المغرب وعُمان . تعريب:عمّار الجلاصي / إعداد:موحمد ؤمادي، ط1عُمان1431هـ/2010

كوردي(محمود) : الحياة العلميّة في جبل نفوسة . تاوالت الثقافية 1429هـ/2008 (نسخة إلكترونية)

لبيض(سالم) : الأقلّيّة البربرية في تونس. المركز العربي للدراسات السياسية
والاجتماعية 1432هـ/2011

اللغماني (أحمد) : قلب على شفة ط.تونس1386هـ/1966

اللواتي(حمادي) : أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية 1881–1961، ط. الشركة التونسية لفنون الرسم د.ت.

ليفيتسكي(تاذيوس)(T.Lewicki) : المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، تعريب: ماهر جرار/ ريما جرار ط1بيروت1421هـ/2000

المجدوب(عبد العزيز) :الصراع المذهبيّ بإفريقيّة إلى قيام الدولة الزيريّة، ط2تونس1405هـ/1985

محفوظ (محمد) : تراجم المؤلفين التونسيّين ط2 بيروت 1414هـ/1994

مخلوف(محمد): شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، تحقيق: عبد المجيد خيالي ط1بيروت1424هـ/2003

المرابط (رياض): جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصريْن الحفصي والمرادي، تونس1416هـ/1996

المريمي(محمد)، إباضيّة جزيرة جربة خلال العصر الحديث ط.تونس 1426هـ/2005

المسعودي(الباجي): الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ومعه :عقد الفرائد في فوائد الرائد، ط. تونس1323هـ/1905

المصباحي(حسونة) : ثلاث منارات تونسيّة:خيرالدين باشا التونسي – محمدبيرم الخامس– سالم بوحاجب، ط1تونس1429هـ/2008

مصلح(أحمد) :الوقف الجربي في مصر ط1الكويت1433هـ/2012

المطوي (محمدالعروسي) : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2بيروت 1401هـ/1982

المعلول(فاطمة) : يفرن، دراسة في جغرافية المدن، ط.مؤسسة تاوالت الثقافية 1427هـ/2006 (نسخة إلكترونية)

معمّر(علي) : – الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة ط3غرداية1423هـ/2003

– الإباضية في موكب التاريخ. مراجعة : سليمان بابزبز. ط3عُمان1429هـ/2008

مقديش (محمود) : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق : علي الزواري / محمد محفوظ ط1بيروت1408هـ/1988

مناصريّة (يوسف) : – الحزب الدستوري التونسي 1919–1934 ط. بيروت1408هـ/1988

– الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934–1937، ط.سوسة تونس1423هـ/2002

المودودي(أبوالأعلى) : – موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ط2لبنان1386هـ/1967

– نظرية الإسلام السياسية، ط.دار الفكر1387هـ/1967

الميْ(محمد): حفلة تكريم "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" ط1تونس 1420هـ/1999

نصّار(نصيف) : مفهوم الأمّة بين الدين والتاريخ ط2بيروت1401هـ/1980

الوسياني(أبوالربيع سليمان) : سيَر الوسياني دراسة وتحقيق: عمر بوعصبانة، ط1مسقط1430هـ/2009

مجموعة مؤلفين : ابن أبي زيد القيرواني، ط. تونس1414هـ/1994

الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيَم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1بيروت1434هـ/2013

الجريدة أوالصحافة عند المسلمين. سلسلة كتب دائرة المعارف الإسلامية (بالعربية)، ط1بيروت1405هـ/1984

الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتجديد الفكر الديني، ط. تونس1413هـ/1993

– الشيخ محمد النخلي وإسهامه في حركة الإصلاح والتجديد ط.تونس 1417هـ/1997

– أعلام من جزيرة جربة، ط.تونس د.ت.

– تاريخ جربة، ط.تونس1406هـ/1986

– تونس عبر التاريخ، ط.تونس1428هـ/2007

– جربة من جزر البحر الأبيض المتوسط التاريخية ط.تونس 1402هـ/1981

– دراسات حول جزيرة جربة، ط. تونس1416هـ/1996

ب-بالفرنسية

Al-Alaoui Abdelaziz : Le Maghrib et le commerce transsaharien contribution à l'histoire économique,sociale et politique du maroc médiéval. Bordeaux1983

JERBA, une ile mediterraneene dans l'histoire

René Stablo : Les Djerbiens

Une communauté arabo-berbère dans une ile de l'afrique française

2-المعاجم والموسوعات

الأعلام (خيرالدين الزركلي)، ط15بيروت1423هـ/2002

لسان العرب، (محمد بن مكرم ابن منظور) ط4بيروت1426هـ/2005

معجم البلدان، (ياقوت الحموي) ط. بيروت 1397هـ/1977

المعجم الفلسفي. (مجمع اللغة العربية القاهرة)، ط1403د/1983

الموسوعة التاريخية والجغرافية، (مسعود الخوَند) ط. بيروت1414هـ/1994

موسوعة الحديث الشريف، ط4إيطاليا 1429هـ/2008

الموسوعة العربية الميسرة، ط1بيروت1431هـ/2010

موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت د.ت.

موسوعة المستشرقين، (عبد الرحمان بدوي)، ط3بيروت1413هـ/1993

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ط4 الرياض 1420هـ/1999

3- الصحف والمجلات

صحيفة العرب

مجلة الحياة غرداية الجزائر

مجلة الحياة الثقافية التونسية

مجلة تبيّن للدراسات الفكرية والثقافيّة، يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات.الدوحة

مجلة هرمس،وهي مجلة علمية محكمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية،تصدرها جامعة القاهرة للغات والترجمة

المجلة الزيتونيّة، وهي مجلة علمية أدبية أخلاقية أصدرتها هيأة مدرسي جامع الزيتونة بين س1355هـ/1936 وس1375هـ/1955، المطبعة التونسيّة سوق البلاط د.ت.

4-المواقع الإلكترونية

www.ahewar.org

www.aljazeera.net

manifest.univ-ouargla.dz

tunisiehistoire.blogspot.com

www.alrai.com

http://wwwarabphilosophers.com

http //tayyar3wordpress.com

www.tourath.org

www.thehistoryofarabia.blogspot.com

www.samberner.com

www.majma.org.jo

www.alarabiya.net

http://elbarounia.com

www.djerbamuseum.tn

www.tourisme.gov.tn

waqfeya.com

www.ghrib.net

www.muslm.org

www.tamatart.com

www.nizwa.com

مقدمة..... 1
الفصل الأوّل: تاريخ جربة : تاريخ التديّن...تاريخ الثروة..... 3
تمهيد : في وطنيّة التأريخ..... 5
1-مصادر تاريخ جربة..... 24
2-أطوار الجزيرة..... 32
3-تراث الإباضية ونصيب المالكية : هل الحلّ في تبادل الإقصاء؟ 45
4-الموقف من المؤرخين : ما وجاهة التأريخ والتأريخ المضادّ؟..... 79
بيبليوغرافيا(1)..... 119
بيبليوغرافيا(2)..... 136
الفصل الثاني : في الدفاع عن الهويّة..... 141
تمهيد : في أدب الردود..... 142
1-صورة الذات..... 155
2-رصد الاختلاف عند الآخر : هل من سبيل إلى نقد الذات؟..... 176
3-حتميّة السماحة المذهبيّة ومواكبة العصر..... 199
بيبليوغرافيا(3)..... 210
بيبليوغرافيا(4)..... 222
الفصل الثالث : الفكر التحرّريّ والمشروع الإصلاحيّ..... 226
تمهيد : قراءة في المعطى الترجذاتي..... 227
1-الصحافة في الصحافة..... 249
2-الصحافة الجادويّة..... 265

3-الاستعمار والمستعمرون.....306
4-الوطنيّة والوطنيّون : هل من الواجب وَحدة المعالجة؟.....328
5-الإسلام والمسلمون : هل فهمنا الإسلام؟.....383
6-الإصلاح والإصلاحيّون : ماذا خسر الجامدون؟ 397
خاتمة.....417
المصادر و المراجع 421
الفهرس 436

إصدارات مكتبة علاء الدّين

ع ر	الكتـاب	المؤلّف	السّنة	السّعر
1	في التّطبيق النّحوي والصّرفي	عبد الحميد عبد الواحد	1998	4.000
2	وصل التّراث بالمعاصرة: قراءة نقديّة في طرح الماركسيّين العرب	سهيل الحبيّب	1998	5.000
3	الفكر الأدبي عند العرب في العصر الحديث: 1950/1900 بحث في التجلّيات والأصول والقيمة	البشير بن عمر	2002	10.000
4	النّظام القضائي في البلاد التّونسيّة 1875-1921	الشّيباني بنبلغيث	2002	25.000
5	قراءات في القصص	محمّد الخبو	2003	6.500
6	حبّة الرمّان (قصص)	محمّد بن حمد	2003	4.500
7	الرّحلة في الشّعر الشّعبي	العيدي بلغيث	2003	4.500
8	مدائن الجنون (قصص)	محمّد دمّق	2003	4.000
9	وآخرون منّا ومنهم .. (كتابة قصصيّة)	سالم العيّادي	2003	3.000
10	المدرّج والكرسي: بحوث حول الطّلبة التونسيّين بين الخمسينات والسبعينات	محمّد ضيف الله	2003	6.500
11	أضواء على التّاريخ العسكري في تونس من 1837 إلى 1917	الشّيباني بنبلغيث	2003	10.000
12	الخرّوبة (قصص)	محمّد بن حمد	2004	4.700
13	نقد العقل: منزلة العقل النّظري والعقل العملي في فلسفة الغزالي	نور الدّين السّافي	2004	8.000
14	فصول في تاريخ الأوقاف في تونس من منتصف القرن 19 إلى 1914	الشّيباني بنبلغيث	2004	7.000
15	إيلات: حوليّات الموت والإغراب الموتور: الكتاب الأوّل (رواية)	فرج محمّد الغضّاب	2004	4.500
16	الوطن لا يطير (قصص)	فاطمة الزّيّاني	2004	4.500
17	الكلمة في التّراث اللّساني العربي	عبد الحميد عبد الواحد	2004	13.000
18	أسطورة الخلق في كتاب السدّ من التّرنيم الطّقسي إلى التّخييل الفنّي	جلال الرّبعي	2004	6.500
19	بحوث في السّرد العربي	محمّد نجيب العمامي	2005	8.500
20	جمعيّة الأوقاف والاستعمار الفرنسي في تونس 1914-1943	الشّيباني بنبلغيث	2005	10.000
21	مقدّمات في علم اجتماع الهويّة	منير السّعيداني	2005	8.000
22	فصول في تاريخ الحركة الوطنيّة في تونس المعاصرة	عروسيّة التّركي	2005	10.000
23	الهجرة الدّاخلية والتّنمية في المجتمع التّونسي: دراسة سوسيولوجيّة	البشير العربي	2005	15.000

24	النّقد الرّوائي العربي الحديث: واقعه وإشكاليّاته من خلال بعض المداخل	محمد الناصر العجيمي	2005	9.000
25	المتّهمون (رواية)	سالم دمدوم	2005	5.000
26	أوقاف عزيزة عثمانة: بين جمعيّة الأوقاف وعروش المثالث في عهد الاحتلال الفرنسي لتونس	الشّيباني بنبلغيث	2006	8.000
27	الوضعيّة الحدوديّة في القطاع السّياحي: دراسة سوسيولوجيّة لسيرة خيّال	عادل الوشّاني	2006	4.000
28	المثقّف العربي الإسلامي بين ثقافة السّلم وثقافة الحرب	البشير العربي	2006	8.000
29	أثر الأسطورة في لغة أدونيس الشعريّة: بحث في الدّلالة	محمّد الصّالح البوعمراني	2006	12.500
30	ابن خلدون في الكتابات المعاصرة: مدخل ببليوغرافي	محمّد العزيز نجاحي	2006	6.500
31	مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرّواية	محمّد الخبو	2006	6.500
32	الرّقيم: حوليّات الموت والإغراب الموتور: الكتاب الثّاني (رواية)	فرج محمّد الغضّاب	2006	4.500
33	الكرمة الغربيّة (قصص)	محمّد بن حمد	2006	4.500
34	علي النّوري الصفاقسي: عصره، حياته، آثاره	يونس يعيش	2007	15.000
35	الزّيتونيون: دورهم في الحركة الوطنيّة التّونسيّة من 1904 إلى 1945	علي الزّيدي	2007	23.000
36	إسميران (رواية)	فاطمة الزّياني	2007	4.500
37	رحلة الجنرال رشيد إلى الجزائر سنة 1847 (تحقيق)	الشّيباني بنبلغيث	2007	8.000
38	مقدّمات في نقد العقل مدخل إلى محاورات التّوحيدي في الإمتاع والمقابسات	جلال الرّبعي	2007	8.000
39	فلسفة الفعل	عبد العزيز العيّادي	2007	7.000
40	استحالات المثقّف والثّقافة والممارسة الثّقافيّة	منير السّعيداني	2007	12.500
41	فن الرّحلة في الرّواية العربيّة من خلال "الأشجار واغتيال مرزوق لعبد الرّحمان منيف"	بلقاسم مارس	2007	5.500
42	داود في الثّقافة العربيّة: الثّوابت والتّحوّلات	زهرة الثّابت	2008	7.000
43	الأوقاف في تونس من تأسيس الوزارة إلى الاستقلال	الشّيباني بنبلغيث	2008	8.000
44	خبر النّقيشة (رواية)	سالم دمدوم	2008	6.500
45	القصّة القصيرة عند زكريا تامر: الانتهاك المنظّم	الأمين بن مبروك	2008	9.000
46	الأجناس الأدبيّة من الضّبط إلى العبور: مقالات وفصول مترجمة	الأمين بن مبروك	2008	5.000

47	استجلاء البصائر واستصفاء السّرائر	عمر بن جمعة النّويلي	2008	21.000
48	أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر	الشّيباني بنبلغيث	2008	10.000
49	قراءات أنتروبولوجيّة: دراسة في كتابات الدّكتور محمّد الجويلي	جلال الرّبعي	2008	7.500
50	معنى الفاعليّة ودلالاته المرجعيّة من خلال شرح الكافية للاستر اباذيّ	فرج محمّد الغضّاب	2008	9.000
51	في تشكيل الخطاب الإصلاحي العربي: تطبيقات على الفكر الإصلاحي التونسي	سهيل الحبيّب	2009	6.500
52	الشمال الغربي "ذاكرة جهة": (جامعة جندوبة – المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة: ندوة قسم التّاريخ 15–16 أفريل 2005) (تنسيق وتقديم)	إبراهيم محمّد السّعداوي	2009	15.000
53	بنية الحضور والغياب في شعر أدونيس: دراسة تأخذ بأسباب التّحليل الفينومولوجي	محمّد النّاصر العجيمي	2009	7.500
54	الفضاء العموميّ ومطلب حقوق الإنسان: هابرماس نموذجا	عبد السّلام حيدوري	2009	10.000
55	أوراق الورد (قصص)	محمد بن حمد	2009	5.000
56	دراسات نظريّة وتطبيقيّة في علم الدّلالة العرفاني	محمّد الصّالح البوعمراني	2009	11.500
57	نبضات (شعر)	عمر بن جمعة النّويلي	2009	5.000
58	هداية الحيران في الجبر والاختيار	محمّد الحبيب السلاّمي، عبد الحميد النّوري، رشيد الحبيّب	2009	-
59	شعريّة الالتباس في "صخب البحيرة" لمحمّد البساطي	سهيرة شبشوب معلّى	2009	7.500
60	أسطورة الجسد في "حدّث أبو هريرة قال..." لمحمود المسعدي (طبعة ثانية)	جلال الرّبعي	2009	6.000
61	بورقيبة والأوقاف	الشّيباني بنبلغيث	2009	5.000
62	رسائل الجنرال رشيد إلى الدّولة التّونسيّة خلال مشاركتها في حرب القرم (1854– 1856) (تحقيق)	الشّيباني بنبلغيث	2009	12.500
63	المشهد الآخر في كتابة الذّات في "رامة والتّنّين"	محمّد النّاصر العجيمي	2009	16.000
64	اجتياز الحدود: في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي	محمّد النّاصر العجيمي	2010	12.000
65	بنية الصّورة في شعر المتنبّي: "دراسة إنشائيّة"	المنجي القلفاط	2010	22.000
66	قضايا التّفاضل اللّغوي: "العربيّة أنموذجا" (الجزء الأوّل)	محمّد عمر السّماري	2010	8.000
67	إنّيّة الإنسانيّ ومنزلة الآخر	زهير المدنيني	2010	7.500
68	الفكر الاستشراقي والإسلام	التّهامي الهاني	2010	11.000

69	تخريج الحديث: الضّوابط والمناهج	الهادي روشو	2010	5.500
70	الحركة اليوسفيّة في تونس (1955 – 1956)	عروسيّة التّركي	2011	17.000
71	توظيف الأسطورة ودوره في تنامي الفعل المسرحيّ في مسرحيّة "شهرزاد" لتوفيق الحكيم	خالد السّويّح، مصطفى بوقطف	2011	6.000
72	المدينة الكونيّة في فلسفة كانط (سياسة المعمورة)	زهير المدنيني	2011	9.000
73	الشّيخ محمّد بيرم الخامس: رسائل وتقارير في إصلاح الأوقاف (تحقيق)	الشّيباني بنبلغيث	2011	20.000
75	المطالعة: مقاربات ومحاولات	عزّ الدّين النّاجح	2011	6.500
76	العوامل الحجاجيّة في اللّغة العربيّة	عزّ الدّين النّاجح	2011	7.500
77	في الثّورة: 1- بيان فلسفي لأجل نخب بديلة 2 – الثّورة التّونسيّة بين الخصوصيّة والكونيّة	د. سالم العيّادي زهير المدنيني	2011	7.500
78	دراسات في المسرح	محمّد النّاصر العجيمي	2012	12.000
79	قراءات في التّراث: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي والمقابسات للتّوحيدي أنموذجاً	جلال الرّبعي	2012	7.500
80	نظر في نظر في القصص: مداخل إلى سرديّات استدلاليّة	محمّد الخبو	2012	7.500
81	أقاصيص تجري في غير مجراها	محمّد الخبو	2012	10.000
82	فكرة تاريخ كونيّ من وجهة نظر كوسموسياسيّة	ايمانويل كانط تعريب: زهير المدنيني	2012	5.000
83	حكايات وحكايات (قصص)	هيكل المنيف	2012	6.500
84	الثّورة التّونسيّة ثورة الهامش على المركز	رضا الزّواري	2012	12.500
85	ليفيناص "نصوص مختارة"	ترجمة: عمر بدري	2012	6.000
86	محمود خروف: من روّاد الصّحافة التّونسيّة	الشّيباني بنبلغيث ومحمّد الحبيب السّلاّمي	2013	7.500
87	القرآن ناسخ ومنسوخ: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي أنموذجا	جلال الرّبعي	2013	8.000
88	الآنسة فيفي (قصص)	قي دي موباسان، ترجمة يونس يعيش	2013	7.500
89	إيقاعات واستشكالات في فلسفة الإثبات	عبد العزيز العيّادي	2013	8.500
90	فتنة الأسطورة وسطوة السّياسة: قراءة في شعر عبد الوهاب البياتي	منجيّة التّومي	2013	12.500
91	الإسهامات التّربويّة في الفكر الخلدونيّ: المقدّمة نموذجا	خليل المنيف	2014	6.000

92	جمال الصّليعي: دراسات ومختارات	جمعيّة مركز البحوث والدّراسات بدوز	2014	5.500
93	أثر من ذاكرة الحكاية (حكايات)	صالح الصّويعي المرزوقي	2014	5.500
94	الخطاب القصصيّ في الرّواية العربيّة المعاصرة	محمّد الخبو	2014	40.000
95	ثـوْرة النّخبـة الإصـلاحيّة التّونسـيّة: واقعُهـا – أفكارُهـا – راهنيّتُها	فتحي بوعجيلة	2014	12.000
96	الثّـائر في حـرب التّحريـر الـوطنيّ في القصّـة العربيّـة الجزائريّة (1962 – 1976)	حرزلي عبد الحفيظ	2014	8.000
97	كان يا ما كان في صفاقس	محمّد الحبيب السّلاّمي	2014	10.000
98	الإسلام السّياسي والحداثة؟ (سيّد قطب وراشد الغنّـوشي / عبد المجيد الشّرفي)	جلال الرّبعي	2015	11.000
99	من قضايا تصنيف الأعمال اللّغويّة (مشروع قراءة)	محمّد الشّيباني	2015	25.000
100	أبو تمّام... بقايا صُوَر (بحث في تعامل بعض النّقّاد مع أبي تمّام)	محمّد الشّيباني	2015	15.000
101	اسـتعارة القـوّة في أدب جـبران خليـل جـبران (مقاربـة عرفانيّة)	محمّد الصّالح البوعمراني	2016	23.000
102	سِيَاسَةُ الحقِيقَةِ في فلسفةِ الفارابي: الميتافيزيقا والموسيقا	سالم العيّادي	2016	12.500
103	أساسات علميّة للظّاهرة السّياحيّة: التّاريخ والهويّة والمناويل	عادل الوشّاني	2016	5.000
104	محمّد الطّالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي	محمّد النوّي	2016	11.500
105	معارك أدبيّة	التّهامي الهاني	2016	8.500
106	مداخل إلى قصصيّة المعنى	محمّد الخبو	2016	15.000
107	حوادث أفريل 1938 (محاولة في تحليل نظرة المناضل الوطني الدّكتور محمود الماطري في أحداث أفريل 1938 حسب مذكّراته)	محمّد العفّاس	2016	10.000
108	من القُرآن إلى المُصحف	جلال الرّبعي	2016	12.000
109	ورقات من سيرة المناضل محمّد بن الحاج عامر الخبو	محمّد الخبو	2016	3.500
110	الإباضية التونسيون وإسهامهم في الثّقافة الوطنية	فتحي بو عجيلة	2016	

المكتبة كتب الأطفال

1	ياسمينة الشّجاعة	نصّ: نافلة ذهب	رسم رؤوف الكرّاي	2003	2.500
2	أمّي	نصّ: يوسف الشّريف	رسم رؤوف الكرّاي	2005	2.500
3	الشّمس تأتي بالصّباح	نصّ: يوسف الشّريف	رسم رؤوف الكرّاي	2005	2.500
4	السّماء بيت العصافير	نصّ: يوسف الشّريف	رسم رؤوف الكرّاي	2005	2.500